الكتاب : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية
المؤلف : علي بن الحسين الخزرجي
مصدر الكتاب : موقع الوراق
http://www.alwarraq.com
[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع]

الباب الأول

ذكر انتساب الملوك بني الرسول

وكيف كان السبب في دخولهم اليمن واستقلالهم بالملك فيها.

قال علي بن الحسن الخزرجي. أعرق ملوك اليمن في الملك في الجاهلية والإسلام ملوك حمير وملوك غسان: ولهذا يقال حمير أرباب العرب وغسان أرباب الملوك. وذلك أن سبأ الأكبر لما حضرته الوفاة طلب أبنيه حمير وكهلان وكان الأكبر وأقعده عن يمينه وأقعد كهلان عن شماله ثم طلب سائر بنيه وبني عمه وجوه قومه وقال لهم: اعلموا أن ولديّ هذين هذا عن يميني وأشار إلى حمير وهذا عن شمالي وأشار إلى كهلان فأعطوا حمير من ملكي ما يصلح لليمين وأعطوا كهلان من ملكي ما يصلح للشمال. فقالوا يصلح لليمين السيف والسوط والقلم ويصلح للشمال العنان والترس والقوس.وحكموا أن صاحب السيف والقلم والسوط لا يكون إلا أمراً ناهيا فاتقاً راتقاً وإن هذه صفات الملك الأعظم وإن صاحب العنان يكون مصرفا لهوادي الخيل في الذبّ عن المملكة وإن الترس يرد به الناس عند اللقاء وإن القوس ينال بها المناوي والمغازي وإن كانا على البعد. ولا يصلح ذلك إلا لحفاظ الدولة القائم بحروبها وسد ثغورها. فتقلد حمير الملك فلم يزل في ولده وولد ولده يلي ذلك منهم خالف عن سالف إلى أن قام الحارث الرائش. وتقلد كهلان وولده حفظ الممالك والذب عنها وسد ثغورها. يلي ذلك منهم كابر عن كابر إلى أيام عامر بن حارثة الأزدي المسمى ماء السماء وكان في عصر الحارث الرائش قائما بحفظ المملكة وسد ثغورها على سنن آبائه من كهلان. وكان الحارث الرائش محدثا. والمتحدث بفتح الدال المشددة هو الذي يتحدث على مستقبلات الزمان ويخبر بما سيكون من الحوادث قبل كونها فيأتي الأمر بتصديق ما يقوله. وكان الحارث الرائش كذلك وله في هذا الشأن عدّة قصائد. منها القصيدة التي أولها:

أنا الملك المتوج ذو العطايا ... جلبت الخيل من أوطان سام
لأغزو أعبدا جهلوا مكاني ... سلالة يافث وقبيل حام
بني قحطان فانتجعوا وسيروا ... وحجوا البيت في البلد الحرام
بإذن الله حجوا فهو بيت ... توارثه الهُمامُ عن الهمام

وكونوا مثل ملطاط بن عمرو ... وذي إنس الغطارفة الكرام

فنحن الأغلبون إذا بطشنا ... ونحن المتقون لكل ذام

وإنا يوم نغضبُ أو نسامي ... تكاد الأرض ترجف بالأنام

وإن نرضى تقر بمن عليها ... و يشرق وجهها بعد الظلام

وفينا الملك والأملاك حقاً ... و نحن الأكرمون بنو الكرام

أبونا يعرب وسبا أبونا ... ونفخر من يفاخر أو يسامي

فان أهلك فقد أثّلت ملكاً ... لكم يبقى إلى زمن التّهامي

ويملك بعدنا منّا ملوك ... بنو عزّ كعالية الغمام

ويخاف بعدهم منّا ملوك ... يدينون العباد بغير ذام

وتنتشر الأساود بعد هذا ... عقاب الله في الآثام

ويملك بعدهم رجل عظيم ... نبيّ لا يرخّص في الحرام

يفارق أهله وله كتاب ... يوافق خطه رجع الكلام

يسمى أحمدا يا ليت أني ... أُؤخّرُ بعد مخرجه بعام

ويملك بعده خلفاء برّ ... ويملك بعدهم أولاد عام

ويظهر راية المنصور فيهم ... على خاء إذا نطقوا

ويملك بعده رجل نجيل ... على آبائه أزكى السلام

وربما إنها أكثر من هذا. فإنه أخبر في هذه القصيدة بمن يملك اليمن من حمير وبنيهم بقوله

فإن أهلك فقد أثّلت ملكا ... لكم يبقى إلى زمن التهامي

فكان كما قال و لم تزل ملوك قحطان يتوارثون ملك اليمن إلى أن قامت دولة الإسلام. ويعني بالتّهامي النبي صلى الله عليه وسلم. وقوله:

ويملك بعدنا منا ملوك ... بنو عزّ كعالية الغمام

فكان كما قال يعني الملوك الذين ملكوا اليمن بعد الحارث الرائش وقبل ظهور الحبشة. وقوله:

وتنتشر الأساود بعد هذا ... عقاب الله في القوم الآثام

فكان كما قال من انتشار الحبشة في اليمن والملك هنالك وكان ملك الحبشة في اليمن على ما قيل إثنتين وسبعين سنة. تداولها منهم أربعة رجال وهم أرياط ثم أبرهة ثم يكسوم بن أبرهة ثم مسروقا بن أبرهة. وقوله:

ويملك بعدهم منا ملوك ... ضعيف أمرهم ثقل المرام

فكان كما قال. وذلك أن الملوك الذين ملكوا اليمن بعد دولة الحبشة ليسوا كمن تقدمهم من ملوك حمير في العصر الأول. وقوله:

ويملك بعدهم رجل عظيم ... نبيّ لا يرخّص في الحرام

يفارق أهله وله كتاب ... يوافق خطه رجع الكلام

يسمى أحمدا يا ليت أني ... أُعمر بعد مخرجه بعام

فكان كما قال من ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وخروجه من مكة إلى المدينة مفارقا لأهله وإقامته في المدينة بين الأنصار إلى أن توفيّ صلى الله عليه و سلم. وقوله: " وله كتاب يوافق خطّه رجع الكلام " أي ينزل عليه كتاب باللسان العربي ويكتب بالخط العربي يعني القرآن العزيز قال الله تعالى)إنا أنزلناه قرآناً عربياً(. قال الله تعالى)لسان عربيّ مبين(. وقوله. ويملك بعده خلفاءُ برّ.

فكان كما قال من قيام الخلفاء الراشدين بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم وقيام الخلفاء من بني أُميّة وبني العباس وبملكهم اليمن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أخير بظهور ملوك غسان في اليمن وتملكهم عليها. فقال: ويملك بعدهم أولاد عام. يريد أولاد عامر فرخّمهُ للضرورة يعني عامر بن حارثة بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن مأرب بن الأزد ابن الغوث. وإنما أشار إليه دون غيره ممن سلف أو خلف لأنه كان معاصراً له إذ هو قائم معه من ولد كهلان لحفظ الأطراف وسد الثغور وجباية الأموال. فخصه بالإشارة والبشارة. ثم حقق ذلك وأوضحه بقوله:

ويظهر راية المنصور فيهم ... على خاء إذا نطقوا ولام

فكان كما قال من ظهور الملك المنصور واستقلاله بالملك في اليمن وتواتر ذريته من بعده إلى يومنا هذا وهو عُمر بن علي ابن الرسول.

وكان استقلاله بالملك في اليمن في سنة ثلاثين وستمائة من تاريخ الهجرة. وهو معنى قوله على خاء إذا نطقوا ولام. فإن الخاء على حساب الجمّل ستمائة واللام ثلاثون. وكان ملك الحارث الرائش قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم نحو ستمائة سنة على ما قيل والله أعلم قال علي بن الحسن الخزرجي تجاوز الله عنه. وقد كنت شرحت هذه القصيدة التي قالها الحارث الرائش في جزءٍ لطيف وسميته المحصول في انتساب بني الرسول. وذلك لما شهدت به من صحة انتسابهم. وقل أن يوجد دليل على صحة نسب أحد من الناس كصحة هذا النسب.

فصل

فلما هلك عامر بن حارثة الأزدي وكان يسمى ماء السماء لجوده وكرمه وقام بالآمر بعده ولده عمرو بن عامر. و تقّل ما كان يتقلد آباؤه من القيام بحفظ المملكة وسد ثغورها واستخراج الإتاوات من أربابها وهو المُسمّى مُزيقياء وفيه وفي ابنه يقول بعض الأنصار

أنا ابن مُزيقيا عمرو وجدّي ... أبوه عامر ماء السماء

إنما سُمي عامر بن حارثة ماء السماء لأنه مان قومه سنة وقد أخلفت السماء فأجدبت الأرض جدبا شديدا فلم يزل يمون قومه حتى مطروا وأخصبوا فسموه ماء السماء لذلك لكونه خلف ماء السماء

ومانهم سنة كاملة. وإنما سُمي عمرو بن عامر مزيقياء لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ثم يمزقها آيومه يأنف أن يعود فيهما ويكره أن يلبسها غيره. وعُمّر عمرا طويلا يقال أنه بلغ من العمر ثمانمائة سنة. و الله أعلم. وفي أيامه كان خراب السُدّ. وكان أوّل من أسس السُّدّ سبأ الأكبر وأسمه عامر وقيل عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . ثم بناه حمير بن سبأ بعد موت أبيه ثم أتمه بعد ذلك الحميري وهو الصعب بن أبي مرائد. وكان

(٢/١)

السّد من جبل مأرب إلى الجبل الأبلق وهما جبلان منفيان على الجبال الشامخة الممتدة من يمين السّد وشماله . وكان ينصب إلى السدّ من أعلى اليمن سبعون وادياً سوى ما يأتيه من الأنهر الصغار وكان ما فوق السّد بستة أشهر يصل إلى ذلك السد. وكان ماء السد يسقي شهرين في شهرين. وكان ما يلي مأرب من شمال السد لبني كهلان وما يلي الأبلق من جنوبي السد لأولاد حمير . وكان ماؤه يقيم من الحول إلى الحول إلى سعة الأرض وعموم السقي. وكان للسد ثلاثة ثقوب وكان السد بركة عظيمة فإذا احتاجوا إلى السقي فتحوا الثقب الأعلى فينصبّ الماء في تلك البركة فيسقوا به. فإذا نزل الماء عن الثقب الأعلى فتحوا الثقب الأوسط فينصب الماء منه إلى تلك البركة ثم يسقون منها.فإذا نزل الماء عن الثقب الأوسط فتحوا الثقب الثلث فينصب الماء إلى البركة كما هو . وكانت بلقيس قد جعلت في البركة اثنتي عشرة عيناً. فكانوا يسقون جنانهم وزراعاتهم وما حاولوا من شيء على حسب ما يريدون وأفضل. وكان الخادم يمشي بين الشجر والمكتل على رأسه فيمتلأ من الفواكه من غير إن يتناول شيء بيده ولا يلقط شيئاً من الأرض. وكانت الشمس لا تصل إلى أحد يمشي في تلك الجنان من تراكب الشجر . وكانوا يتعاطوا يتعاطون النيران فيما بينهم مسيرة شهرين في شهرين وقيل مسيرة ستة أشهر في مثلها)آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور(. قالوا: وكان الرجل يسير من بلده الثانية فيقيل بها ويمسي في الثالثة من القرى التي بارك الله فيها وهي قرى بيت الله المقدس)فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا(. فلما كفروا نعمة الله أرسل إليهم رسله. فيقال الله أرسل إليهم اثنتي عشر نبيا. وقيل ثلاثة عشر نبيا. فكذّبوا رسل الله وأعرضوا عن طاعة الله. فأرسل الله عليهم سيل العرم والعرمُ المطر الشديد قاله صاحب التّيجان. ثم أخرب الله السُدّ.

فصل

ذكر خراب السد

قال صاحب التيجان: بينما طريفة بنت لجبر الحجورية زوجة عمرو بن عامر المزيقياء نائمة إلى جانب عمرو في ليلة من الليالي إذ رأت في منامها كأن سحابة سوداء غشيت أرض اليمن

(٣/١)

فبرقت وأردعت وأصعقت فلم تمر على شيء إلاّ أحرقته. ففزعت من منامها وقامت وهي مرعوبة وقد ذرعت ذعرا شديدا. فسكن عمرو روعتها و سأل عن قصتها. فقالت: والنور والظلماء ليهلكن الشجر ويتلف اليمن ويخرب البلاد ويتشتت العباد. قال: وكيف يكون ذلك. قالت سبع سنين شداد تأتي بالزلزال والأوابد يقطع فيها الولد الوالد. قال لها عمرو: قد نصحت وصدقت فما وجه الرأي قالت سرْ إلى السدّ فإذا رأيت البرق والرعد وطلع النحس وغاب السعد فعند ذلك الجرذ الجرذ إذا رأيته يكثر الحفر ويقلّب بيديه عظام الصخر فقد أزف الأمر فعليك بالصبر ولا تجزع للدهر. قال لها: فمتى ترين ذلك يكون. قالت له: لا أدري غير أنه أمر من الله نزل وحكم منه سبق في الأزل لا ينصرف عن سهل ولا جبل حيثما أراد وصل فليكن منك الحذر الوجل. فانطلق عمرو إلى السد فلم يزل يتعاهده حتى رأى يوما جرذا يحفر السد بيديه ورجليه فكان يقلب الصخرة التي لا يقلبها إلا أربعون رجلا: وكان الجرذ أعمى فلما رأى ذلك رجع إلى طريفة وقال لها رأيت تصديق مقالتك يا طريفة. فقالت له يا عمرو الأسفار دارا بدار وجارا من جار عند ما ينزل الأقدار ويستأثر الليل والنهار. قالت ومتى ذلك. قالت: لسبع سنين ينزل الأمر بيقين بتفريق اليدين ويكثر الرين. وقال قوم أنها السبع الشداد التي رآها عزيز مصر وفسر له روياه يوسف الصدّيق عليه السلام. ففعل عمرو ما أمرته طريفة وكتم الأمر وأجمع أن يرتحل في ولده وقومه وكتم ذلك لئلا ينكره الناس عليه. ثم أنه يوما أمر بعمل مائدة فنحر مائة من الإبل وذبح من الغنم شيئا كثيرا ونادى في العرب أن هلموا إلى مجد مزيقياء. فتأتي له الناس من كل جانب ولم يتخلف عنه شريف ولا وضيع. ثم أمر أكبر أولاده وهو ثعلبة العنقاء جدّ الأوس والخزرج أبو أبيهم حارثة بن ثعلبة العنقاء. وقال له: إذا أمرتك بأمر فلا تأتمر. فإني سأضربك بعنزتي هذه فإذا ضربتك فالطم وجهي. فقال له ثعلبة: والله يا أبت ما أستطيع دفع يدي إلى وجهك ولا تطاوعني نفسي على ذلك. قال: يا بني أن لي عليك حقا فلا تخالف أباك فإذا في ذلك مصلحة لي ولك. فقال له ثعلبة: سمعا وطاعة.فلما طعم الناس وفرغوا وقد اجتمعت أشراف العرب أمر الملك ابنه ثعلبة بأمر فعصاه فضربه بالعنزة فوثب ثعلبة عليه فلطمه. فقال الملك: وأذلاّه يُلطم وجهي يوم مجدي. فوثب سائر أولاده وبنو عمه على ثعلبة ليقتلوه. فقال: لا تفعلوا فإن الرحمة سبقت له في قلبي قبل السخط ومع العجلة الندم ولكني سأعاقبه بما يكون لي نصفة منه. أبيع مالي وعقاري ولا أدع له شيئا ينقلب إليه وأنتقل من مأرب إلى غيرها. فقال أهل البلاد: اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه جميع أموال. فلما أحرز أثمان أمواله أنتقل في ولده وولد ولده وسائر قومه وعشيرته. ثم أخرب الله السد بعد ذلك فأقلع الصخور والقصور الشجار والأنهار فرمى فيها الرمل. فلما رأى من كان تحت السد خرابه وإنهم لا يقدرون على شيء منه هربوا إلى قنن الجبال بالأهليين والأموال. وفاض الماء على السد لكثرة المطر. وخرج الماء من الخلل التي حفرها الفأر. وقد ذكر ذلك الأعشى حيث يقول:

وفي ذاك للمؤُتسي أسوة ... ومأرب عفّى عليها العرم

رجام بنته لهم حمير ... إذا جاء مؤازر لم يزم

فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤهم إذ قُسم
فصاروا أيادي ما يقدرو ... ن منه على شرب طفل فُطم

كانوا كما قال الله تعالى وتبارك)وبدّلْناهُم بجنّتيهم جنّتين ذواتيْ أُكل خمْط و أثل وشيء من سدر قليل جزيناهم بما كفروا وهل نُجازي إلاّ الكفور(ويروى أن سيل العرم كان قبل الإسلام بأربعمائة سنة. قاله حمزة بن الحسن الأصفهاني. وفي رواية غيره أ كثر من ذلك وهي الرواية الصحيحة. والله أعلم.

فصل

(٤/١)

ولما خرب السد وخرج عمرو بن عامر مزيقياء في ولده وولد ولد وعدة من قبائل قومه من مأرب متوجهين إلى البلاد يرتادون أرضا تحملهم أو بلدا يمنعهم فنزلوا بلاد عكّ مجتازين. وكان رئيس عكّ يومئذ شملقة بن الجباب. فسألوهم أن يأذنوا لهم في المقام عنده حتى يأمروا من يرتاد لهم منزلاً ينزلونه. ووجّه عمرو بن عامر ثلاثة من ولده وهم الحرث بن عمرو بن عامر ومالك بن عمرو وحارثة بن عمرو بأرض عكّ قبل أن يرجع إليه أحد روّاده فاستخلف ابنه ثعلبه العنقاء وهو جد الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر. فتقلد ما كان يتقلده آباؤه من حفظ المملكة وسد الثغور. ولما توفي عمرو بن عامر كما ذكرنا وقع الوباء في قومه بعده واشتد عليهم الأمر فأرسلوا إلى عكّ وقالوا لهم أن هذا الموضع الذي انتم فيه لمقامنا عندكم ونحن سائرون عنكم عن قريب. فكرهت عكّ ذلك فهاجت الحرب بينهم فاقتتلوا قتالا شديدا واستمرّ القتل في عكّ وقتل شملقة ابن الجُباب غيلة وكان الذي تولى حربهم وقتالهم جذع بن سنان وكان شجاعا مقداما فتّاكاً. وكان أعور أصم كثير الكيد عظيم المكر شيطانا من شياطين العرب. وكان ثعلبة العنقاء كارها لذلك من فعله فحلف أن لا يقيم هنالك. فلم يزالوا سائرين حتى صاروا قريبا من مكة. وكان سكان مكة يومئذ جُرهم. فأرسل ثعلبة العنقاء رسلا إلى جرهم فسألهم أن يأذنوا لهم في المقام عندهم فأبوا عليهم فاقتتلوا وظفرت بهم الأزد فأجلوهم عن مكة ووليت خزاعة البيت دهرا طويلا نحو من ثلاثمائة سنة.

(٥/١)

قال ابن قتيبة: ومات ثعلبة العنقاء بمكة فاستُخلف على قومه أخوه جفنة بن عمرو بن عامر. فتقلد جفنة ما كان يتقلد آباؤه من حفظ المملكة والذب عنها. ولم يزل في مكة مقيما هو وقومه من الأزد حتى ضاقت عليهم مكة وأرادوا الشخوص عنها. وكانت فيهم كاهنة وهي طريفة زوجة عمرو بن عامر مزيقياء. فلما عزموا على الخروج من مكة قالت لهم كاهنتهم من كان ذا هّم بعيد وحمل جليد وبأس شديد فليقصد عُمان المشيد. فنزلوا عُمان فسار أليه بنو نضر بن الأزد فهم أزد عُمان. فنزلوا

عُمان والبحرين ولوا على ما هنالك فهي مساكنهم. إلى اليوم. ثم قالت: ومن كان منكم ذا جرأة وعزيمة وفتك وشهامة وصبر على أزمات الدهر فليقصد الوادي من مرّ. فنزلت هنالك خزاعة فهي مساكنهم في الجاهلية والإسلام. ثم قالت: ومن كان يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليقصد يثرب ذات النخل. فسار إليها حارثة بن ثعلبة العنقاء في ولده من الأوس والخزرج فهي مساكنهم في الجاهلية والإسلام. فلما عزموا على الخروج إلى يثرب قالت لهم: يا أهل الوجوه المضيئة والأنفس الأبية والمناقب السنية انزلوا يثرب القصيّة قبل نزول المنية وطول القضية لتعلموا بعد الجهالة وتبصروا صاحب الرسالة. ثم قالت: ومن كان يريد الثياب الرقاق والخيول العتاق والكنوز والأرزاق فليقصد مناهج العراق.فسار إليها مالك بن فهم الأزدي في قبائل من قومه فغلبوا عليها وصاروا فيها ملوكا فيهم ملوك الحيرة قبل ملوك لخم. ثم قالت:ومن كان يريد الخمر والديباج والحرير والملك والمسامير فليلحق ببُصرى وحفير ولباب دمشق الشام ليملكها أعواما بعد أعوام و يريها فتوة الكرام. فسار إليها جفنة بن عمرو بن عامر في ولده وولد ولده و كان أكثرهم ولدا ويروى أنه كانت له مائة امرأة منكوحة ويار معه عدة من قبائل غسان قالوا: وإنما سمي جفنة لأنه ورث حفنة أبيه التي كان يطعم فيها الناس وكانت جفنة عظيمة يدور بها مائة فارس يأكل منها القاعد والقائم والراكب: وكانت مفصلة فإذا أتى العيد أُخرجت ورُكّبت وقيّر ظهرها كما يقير السفينة فإذا انقضى العيد فُصّلت وأعيدت إلى موضعها. قال ابن قتيبة: وسار جذع بن سنان قاتل شملقة بن الجباب فيمن سار إلى الشام وكان سيدا من سادات غسان. فلما اطمأنوا أتاهم عامل قيصر يطالبهم بجباية الملك. فقال له جذع بن سنان: نحن قوم غرقى وليس معنا ما نسوقه إلى الملك ولكن خذ هذا السيف وهنا عندك إلى أن يوجد عندنا ما نسوقه إلى الملك. فقال العامل: اجعله في كذا وكذا من أمك فضحك الحاضرون. وكان جذع بن سنان أصم فلما رأى الجماعة ضحكوا عرف ما قال العامل: فاستلّ السيف وضرب عنق العامل. فقال بعض الحاضرين خذ من جذع ما أعطاك. فذهب مثلا فمضى كاتب العامل إلى قيصر فأخبره بما كان من غسان وقتلهم العامل. فوجه قيصر إليهم جيشا كثيفا ليقاتلوهم ويطردوهم عن البلاد فهزمتهم غسان واخذوا سلاحهم. ثم بعث إليهم جيشا آخر فلم تقم لهم قائمة مع غسان فهزموهم وقتلوا منهم طائفة فلما رأى ذلك قيصر استنابهم على عرب الشام ورفع أيدي سليح عنها. وكانت سليح ملوكا على عرب الشام قبل غسان. ولم تزل غسان ملوكا هنالك إلى أن قامت دولة الإسلام. والله أعلم.

فصل

ذكر ملوك الشام الجاهلية من غسان

قال علي بن الحسن الخزرجي عامله الله بإحسانه: كان أول من ملك الشام من غسان بعد جفنة بن عمرو بن عامر الحارث بن عمرو بن جفنة وهم الحارث الأكبر وكنيته أبو شمر وكان يدعى مُحرّقا لأنه أول من عاقب بالنا وولده يعرفون بآل مُحرق. قال ابن خُمرْ طاش في مقصورته:

والشُّمُّ من شمّبني مُحرّق ... من طبق الأرض جنودا كالذبا

هذه رواية الاشعريّ: قال: ثم ملك بعده ابنه الحارث الأعرج بن الأكبر وأمه مارية ذات القرطين التي يقال فيها. ولو بقرطي مارية. وهي مارية بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة. وقيل مارية بنت ظالم بن وهب ابن الحارث بن معاوية بن ثور وهو كندة وإليها ينتسب ملوك غسان. قال حسان بن ثابت الأنصاري يمدح ملوك بني جفنة:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

يغشون حتى ما تهرّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابه ... شمّ الأنوف من الطراز الأول

(٦/١)

وكان خير ملوكهم وأيمنهم طيرا وأبعدهم مغارا. وشدهم مكيدة وهو الذي غزا خيبر وسبأ ثم اعتقهم بعد ما قدم الشام. وسار إليه المنذر ابن ماء السماء للخمي في مائة ألف من قومه وأهل بلاده ووجه إليهم الحارث الأعرج مائة رجل من غسان وأظهر أنه بعث بهم للمصالحة وكان فيهم لبيد ابن يزيد الغساني الشاعر. وكان يومئذ غلاما. فأحاطوا برواق المنذر بن ماء السماء وهجم عليه جماعة منهم فقتلوه وقتلوا جماعة من قومه وأهل بيته ممن كان عنده وطاروا إلى متون خيولهم فنجا بعضهم وقتل بعضهم. وعند ذلك حملت خيول الغسانيين على جموع المنذر فهزموهم وقتلوا منهم طائفة واسروا أخرى. وكان هذا اليوم يسمى يوم حليمة. وذلك أن حليمة بنت الحارث الأعرج طيبت أُولئك المائة بطيب من طيب الملوك ثم لبسوا أكفانهم ثم لبسوا الدروع.من فوقها ثم ساروا نحو المنذر فسمي ذلك اليوم يوم حليمة لذلك ثم ملك بعده ولده الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر. ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر وهو الذي قال فيه النابغة الذبياني:

هذا غلام حسن وجهه ... مستقبل الخير سريع التمام

للحارث الأصغر والحارث الأع ... رج والأكبر خير الأنام

ثم لهند ولهند وقد ... أسرع في الخيرات منه إمام

خمسة آبائهم ما هم ... أكرم من يشرب صوم الغمام

وفيه يقول النابغة أيضا

فإن يجزع النعمان نفرح ونبتهج ... وبات معدّا خيرها وربيعها

ويرجع إلى كهلان ملك وسؤدد ... وتلك المنى لو إننا نستطيعها

و قال ابن قتيبة: وكان للنعمان بن الحارثة ثلاثة بنين. حجر بن النعمان وبه كان يكنى أبوه وعمرو بن النعمان. والنعمان بن النعمان وكلهم كان ملكا. وفيهم يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

من يغر بالدهر أو يأمن ... من قبيل بعد عمرو وحجر

ملكا من جبل الثلج إلى ... جانبي أيلة من عبد وحر

ثم ملك بعده أخوه عمرو بن الحارث الأعرج وهو الذي أشار إليه النابغة الذبياني حين فارق النعمان بن المنذر. و فيه يقول:

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة ... ووالده ليست بذلت عقارب

قال ابن قتيبة: وكان يقال لعمرو بن الحارث أبو شمر الأصغر. وقال المسعودي: لما هلك الحارث الكبر كان أول ملك بعده الحارث ابن ثعلبة بن عمرو وقال. وأُمه ذات القرطين. قال: ثم ملك بعده النعمان ابن الحارث بن جبلة ابن الحارث بن ثعلبة بن جفنة: ثم ملك بعده عوف ابن أبي شمر. وكان ملكه حين بعث النبي صلى الله عليه و سلم.

وذكر بغض الأخبار يبين أن حسان بن ثابت وفد على الحارث بن أبي شمر بالشام. وكان النعمان بن المنذر ملك الحيرة يساميه. فقال الحارث بن أبي شمر لحسان بن ثابت. يا ابن الفُريعة بلغني أنك تفضل النعمان عليّ فقال له حسان: وكيف أُفضله عليك أو أساميك به. فوالله لقفاك احسن من وجهك ولأمك اشرف منابيه ولشمالك أجود من يمينه ولقليلك اكثر من كثيره ولثمادك أمرع من غديره ولكرسيك أوسع سريره ولجداولك اغرز من بحوره وليومك أطول من شهوره وإنك لمن غسان وإنه لمن لخم فكيف أُفضله عليك أو أُدله بك. فقال يا الفُريعة أن هذا لا يُسمّع إلا في شعر فقال:

نُبئت أنّ أبا منذر ... يساميك للحارث الأصغر

قذا لك أحسن من وجهه ... وأُمك خير من المنذر

ويسري يديك على عسرها ... كيميني يديه على الميسر

ومنهم الحارث بن أبي جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن ثعلبة ابن عمرو بن جفنة. ذكره ابن الجون. قال: وكان ملكه ثلاث سنين. قال: ومنهم الأيهم بن جبلة بن الحارث بن أبي جبلة بن الحارث بن ثعلبة ابن الحارث بن عمرو بن جفنة. ومنهم جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة. وهو آخر ملوكهم ة الله أعلم. وكان عدد ملوكهم ثلاثين ملكا. وقيل اثنين وثلاثين ملكا. وقيل ستة وثلاثين ملكا. ومدة ملكهم ستمائة سنة وست عشرة سنة. وفي بعض التواريخ أن مدة ملكهم ألف سنة و ستمائة سنة.

فصل

قال علي بن الحسن الخزرجي عامله الله بإحسانه: وأورد صاحب التيجان فصلا ذكر فيه أسماء ملوك غسان. وكان يسمى قاتل الجوع. ثم ولده ثعلبة بن مازن. وكان يسمى زاد السفر. ثم ولده امرؤ القيس بن ثعلبة. وكان يسمى بهلول.ثم ولده حارثة بن امرؤ القيس. وكان يسمى الغطريف. ثم ولده عامر بن حارثة. وهو الذي يُسمى ماء السماء ويقال ماء المزن: ثم ولده عمران بن عامر وكان كاهنا: ثم أخوه عمرو بن عامر وهو الذي يقال له مزيقياء: ثم ولده ثعلبه بن عمرو بن عامر واسمه

عُلبة ابن عمرو: ثم ابنه عمرو بن جفنة: ثم ابنه الحارث بن عمرو بن جفنة وهو الحارث الأكبر: ثم ابنه الحارث وهو الحارث الأعرج: ثم ابنه الحارث بن الحارث وهو الحارث الأصغر ثم أخوه النعمان ابن الحارث الأعرج: ثم أولاد النعمان وهم ثلاثة عمرو بن النعمان وحجر بن النعمان والنعمان بن النعمان بن الحارث: ومن ولد الحارث الأعرج أيضا المنذر بن الحارث الأعرج والأيهم ابن الحارث الأعرج وولده جبلة بن الأيهم وأبو جبلة بن عمرو وهو الذي قتل اليهودي بالمدينة: قال: ومنهم جبلة بن جفنة وثعلبة بن عمرو وعمرو ابن عمرو والمنذر بن الحارث بن جبلة: قال: والأياهم الأربعة هم: الأيهم بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن أبي جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة: والأيهم بن الحارث بن لبي جبلة والأيهم بن جبلة ابن الحارث بن أبي جبلة قال وذكر ذلك ابن الجون في شرح الخمر طاشية عن ابن الكلبي قال وللحارث بن جبلة أولاد النعمان بن الحارث وجبلة ابن الحارث والمنذر بن الحارث أيضا قال وكلهم كان هذه رواية صاحب التيجان والله أعلم. قال علي بن الحسن الخزرجي عامله الله بإحسانه. وقد أثبت الفقيه أبو الحسن حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه المعروف بكتاب تواريخ الأمم اثنين و ثلثين ملكا من ملوك غسان واحدا بعد واحد وعدد ما ملك كل واحد منهم من السنين على الانفراد. وذكر أن جملة تلك ستمائة سنة وسنة وقد حكيت ما حكاه في هذا الفصل الثاني الذي يأتي بعد هذا الفصل. وبالله التوفيق.

فصل

(١/٨)

وقال أبو الحسن حمزة بن الحسن الأصفهاني رحمه الله كان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان آل نصر عمال الأكاسرة على عرب العراق. قال وأصل بني جفنة من اليمن ثم من الأزد. وذلك أن الأزد لما أحست وهي بمأرب بانتقاض السد وخشيت سيل العرم في مأرب فتشاءم قوم فنزلوا ماء يقال له غسان بالماء الذي نزلوا عليه وهو ماء بسدّ مأرب. وقيل هو ماء بالمشلل قريب من الجحفة. وقيل هو ماء بين زبيد ودمع وهما واديان للأشعر بين اليمن. قال: ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو بن عامر وهو الذي يقال له العنقاء بادية الشام. وكان ملوكها يومئذ من قبل القياصرة سليح بن حلوان بن عمران بن الجان قضاعة. فلما نزلت غسان في جوالر سليح ضربوا عليهم الاتاوة. وكان الذي يتولى جبايتها سُبيط بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن ضجهم بن حماطة فقصد سبيط ثعلبة بن عمرو وطاب من الأتاوة فاستنظره ثعلبة فقال سبيط لتعجلن الأتاوة أو لآخذن أهلك. وكان ثعلبة حليما. فقال لسبيط هل لك في من يربح عليك بهذه الأتاوة. قال نعم: قال عليك بجذع بن سنان. وكان جذع بن سنان فاتكا كما ذكرنا فأتاه سبيط فخاطبه بما خاطب به ثعلبه بن عمرو. فخرج إليه جذع ومعه سيف مذهب. فقال له هل لك أن تأخذ هذا السيف عوضا عن حقك إلى أن أجمع لك الأتاوة. قال: نعم قال. خذه. فتناول سبيط جفن السيف وكان قائمه في جذع. فاستلّه جذع

وضرب به سبيطاً حتى برد. فقيل له: خذ من جذع ما أعطاك. فذهب مثلاً: ووقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان سليحاً من الشام وصاروا بها ملوكا فكان أول ملك من غسان في أرض الشام جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعابة البهلول بن مازن زاد السفر ويقال قاتل الجوع بن الأزد بن الغوث. قال ويزعم الأزد أن عمرو بن عامر إنما سمي مزيقياء لأنه كان يمزق في كل يوم من أيام مملكته حلتين يكره أن يعود فيهما ويأنف أن يلبسهما غيره فلذلك سمي مزيقياء وقيل لأن الأزد تمزقت في أيامه وافترقت عند هربهم من سيل العرم. فاتخذت العرب افتراق الأزد من مأرب بسيل العرم مثلا فقالوا ذهب بنو فلان أيدي سبأ. ويقال أيادي سبأ. والله أعلم. وكان الذي ملك جفنة على الشام ملك من ملوك الروم يقال له نسطورس فلما ملك جفنة بن عمرو الشام بعد الملوك السليحيين من قضاعة دانت له قضاعة وغيرها من أهل الشام وغيرهم. وبنى جلق والقرية وعدة مصانع. ثم هلك وكان ملكه خمساً وأربعين سنة وثلاثة اشهر. ثم ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة خمس سنين وبنى الأديار دير حالي ودير أيوب ودير هنادة. ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو بن جفنة وهو الذي بنى صرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء وكان عمرة ملكه سبع عشرة سنة ثم ملك بعده ابنه الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ولم يبن شيئا وكان ملكه عشرين سنة. ثم ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ثم ملك بعده ولده الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعابة بن عمرو بن جفنة وأمه مارية ذات القرطين بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعة بئر عجاف وقصر أبيرق وكان ملكه عشر سنين. ثم ملك بعده المنذر ولده الأكبر بن الحارث بن مارية وبنى جأثاء وزرقاء قريباً من القرنين وكان ملكه ثلاث سنين. ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث بن مارية وكان ملكه خمس عشرة سنة وستة اشهر ثم ملك بعده أخوه المنذر الأصغر وهو أبو شمر بن الحارث بن مارية وكان ملكه ثلاث عشرة سنة. ثم ملك بعده أخوه جبلة بن الحارث بن مارية وكان منزله بخارب فبنى قصر خارب ومخاربا وممنعة وكان ملكه أربعا وثلاثين سنة. ثم ملك بعده أخوه الأيهم بن الحارث بن مارية وبنى الأديار دير ضخم ودير النبوة وكان ملكه ثلاث سنين. ثم ملك بعده أخوه عمرو بن الحارث بن مارية ونزل السدير وبنى قصر العفار وقصر منار وكان ملكه ستا وعشرين سنة. ثم ملك بعده ابن أخيه جفنة الأكبر بن النعمان الأكبر بن الحارث بن مارية وهو المعروف بمحرّق وهو الذي احرق الحيرة وبه سموا آل محرّق وفيه يقول عدي بن زيد مخاطبا النعمان بن المنذر حيث يقول :

سما صقر فأشعل جانبيها ... وألهاك المروّح والغريب

فبتن لدى الثويةّ ملجمات ... فصبحن العباد وهنّ شيب

وكان سيّارة جوابه: ثم هلك وكان ملك ثلاث سنين: ثم ملك بعده النعمان بن المنذر الأصغر بن المنذر الأكبر بن الحارث بن مارية وكان ملكه سنة واحدة ولم يبن شيئا: ثم ملك بعده ابن أخيه النعمان بن عمرو ابن المنذر الأصغر بن المنذر الأكبر بن الحارث بن مارية فبنى قصر السويداء وقصر خارب. ولم يملك أبوه عمرو ولكنه كان يغزو بالجيوش وهو الذي امتدحه النابغة بقوله حيث يقول:

عليّ لعمر ونعمة بعد نعمة ... ووالده ليست بذات عقارب

قال عليّ بن الحسن الخزرجي عامله الله بإحسانه: والذي يظهر لي أن النابغة لم يدرك عصر هذا المذكور فإن المصنف رحمه الله ذكر النابغة في آخر الفصل. وذكر أنه مدح الأيهم بن جبلة. وبين الأيهم بن جبلة وعمرو ابن المنذر الأصغر على ما أثبته هو في التاريخ ما يزيد على ثلاثمائة سنة. ومعلوم أن النابغة كان قريبا من دولة الإسلام. لان حسان بن ثابت عاصره ووفدا معا على النعمان بن المنذر اللخميّ. قال حمزة بن الحسن الأصفهانيّ: وكان ملك النعمان بن عمرو سبعا وعشرين سنة: ثم ملك بعده ولده جبلة بن النعمان بن عمرو بن المنذر الأصغر وكان منزله بصفّين وهو عيْن أُباغ وقاتل النعمان بن ماء السماء وكان ملكه ست عشرة سنة: ثم ملك بعدهُ النعمان بن الأيهم بن الحارث بن مارية ولم يحدث شيئاً وكان ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ثم ملك بعدهُ النعمان بن الحارث بن الأيهم فأصلح صهاريج الرصافةٍ وكان بعض ملوك لخم آخر بها. وكان ملكهُ ثماني عشرة سنة: ثم ملك بعدهَ أخوه المنذر بن النعمان بن الحارث بن الأيهم فلم يحدث شيئاً وكان ملكهُ تسع عشرة سنة ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان فلم يحدث شيئاً وكان ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر: ثم ملك بعده أخوه حجرُ بن النعمان بن الحارث بن الأيهم بن الحارث بن مارية وكان ملكه ستاً وعشرين سنة: ثم ملك بعدهُ ابنهُ الحارث بن حجر بن النعمان بن الحارث وكان ملكهُ اثنتي عشرة سنة: ثم ملك بعدهُ ابنهُ جبلة بن الحارث بن حجر بن النعمان وكان ملكهُ تسع عشرة سنة وشهراً: ثم ملك بعدهُ ابنهُ الحارث بن جبلة ابن الحارث بن حجر قال: ويسمى الحارث بن أبي شمرٍ. وهو الذي أوقع ببني كنانة وكان يسكن الجابية وكان ملكهُ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهرٍ: ثم ملك بعدهُ ابنهُ النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن حجرٍ وكنيته أبو مرز فبنى ما اشرف على الغور الأيسر وبكاهُ النابغة بقوله:

بكى الحارث الجولان ... وحوران منهُ خاشعُ متضائلُ

وكان ملكهُ سبعاً وثلاثين سنة وثلاثة أشهر: ثم ملك بعدهُ الأيهم ابن جبلة بن الحارث بن أبي شمر وهو صاحب تدمر وقصر ترعة وهو الذي أوقع ببني العنبر بن حشر وعامله وفيه يقول النابغة:

شلت حلومهم عنهم وغرهم ... سن المعيدي في رعي وتعزيب

ثم ملك بعدهُ أخوه المنذر بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر وكان ملكهُ سنة: ثم ملك بعدهُ أخوه عمروُ بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر وكان ملكهُ عشر سنين وشهرين: ثم ملك بعدهُ ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن أبي شمر وكان ملكهُ أربع سنين: ثم ملك بعدهُ جبلة بن

الأيهم بن جبلة بن الأيهم بن الحارث بن مارية ذات القرطين وهو الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة: واسم جفنة ثعلبة بن عمرو مزيقياءَ بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازنٍ زادِ السفر ويقال قاتل الجوع ابن الأزد بن الغوث وكان ملك جبلة بن الأيهم ثلاث سنين وهو آخر ملوك غسان في أرض الشام: والله اعلم: هذا آخر ما حكاهُ حمزةُ بن الحسن الأصفهاني في كتابه المعروف بتواريخ الأمم والله اعلمُ.

(١٠/١)

واتفق المؤرخون جميعاً أن جبلة بن الأيهم كان آخر ملوك غسان في الجاهلية وكان طوله عشر شبراً وكان إذا ركب مسحت قدمه الأرض وأدرك الإسلام فأسلم في أيام عمر رضي الله عنه ثم انتصر ولحق بالروم. وكان سبب تنصره أن رجلاً وطئَ على طرف ردائه وهو يطوف البيت. فالتفت إلى ذلك الرجل فلطمه لطمة هشمت انفه وكسرت سنه وخضرت عينه فاستعدى ذلك الرجل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر أرضه أو أقيدهُ. فقال إني ملك وهو سوقة: فقال لهُ عمر أن الإسلام قد سوَّى بينكما. فقال: أمهلني إلى غدٍ. فأمهلهُ. فلما جنَّ الليل خرج في حشمه وعبيده ومن أطاعهُ من قومهٍ فلحق بالروم وتنصر. ثم ندم على ما كان منهُ. وهو الذي يقول:

تنصرت الأملاك من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبَرتُ لها ضررْ
تكنفني فيها لجاجُ ونخوةُ ... فكنت كمن باع الصحيحة بالعَوَرْ
فيا ليتَ أمي لم تَلْدني وليتني ... رجعتُ إلى القول الذي قاله عمرْ
ويا ليتني أرْعى المَخَاض بقفرهِ ... وكنت غريباً في ربيعةَ أو مُضَرْ
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشةٍ ... أجاورُ قومي ذاهبَ السمح والبصَرْ
أدينُ بما دانوا بهِ من شريعةٍ ... وقد يصبرُ العَودُ الضَّجُورُ على الديَرْ

قال عليُّ بن الحسن الخزرجي. ومن ولد جبلة بن الأيهم بنو رسول ملوك اليمن في الإسلام وسأذكرهم في الفصل الذي سأذكره بعد هذا أن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

فصلُ

ذكر بني رسول ملوك اليمن في الإسلام

قال عليُّ بن الحسن الخزرجي عاملهُ الله بإحسانهِ: كان اسمُ رسولٍ محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي بن رستم وهو من ذرية جبلة بن الأيهم بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياءَ بن عامرٍ ماءِ السماء بن حارثة الغطريفِ بن امرئ القيسِ البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازنٍ زاد السفر ويسمى قاتل الجوعِ أيضاً بن الأزدِ بن الغوث بن نبت بن مالكِ بن زيدِ بن كهلانَ بن سبأ بن يشجبَ بن يعربَ بن قحطانَ.

وكان من قضاء الله وقدرِهِ السابق في عملهِ أنه لما تنصر جبلة بن الأيهم كما ذكرنا أولاً ولحق

بالروم يومئذ أقام هنالك إلى أن هلك. قيل على شركه وقيل على الإسلام لان أبياته المذكورة التي يقول في أولها.

تنصرت الأشراف من أجل لطمةٍ. تشهد برغبته في الإسلام وندمه على مفارقته. والله اعلم بسريرته. فلما هلك هنالك أقام ولدهُ بعدهُ ما شاء الله في بلاد الروم. ثم انتقل ولدهُ ومن انضم إليهم من قومهم إلى بلاد التركمان فسكنوا هنالك مع قبيلة من قبائل التركمان يقال لها مجك هي اشرف قبائل التركمان. فأقاموا بينهم وتكلموا بلغتهم وبعدوا عن العرب فانقطعت أخبارهم عن كثير من الناس. فكان كثير من الناس يظن أنهم من التركمان وهم مقيمون على أنسابهم. فلما خرج أهل هذا البيت إلى العراق نسبهم من يعرفهم إلى غسانَ ونسبهم من لا يعرفهم إلى التركمان. وكانوا بيت شجاعة ورئاسة. وكان محمد بن هارون جليل القدر فيهم فأدناه الخليفة العباسي وأنس به واختصهُ برسالتهِ إلى الشام والى مصر ورفعَ الحجابَ فيما بينه وبينهُ فانطلق عليه اسم رسول وشهرَ بهِ وترك اسمهُ الحقيقي حتى جهلَ. فلا عرفهُ إلا القليلُ من الناس. ثم انتقل من العراق إلى الشام ومن الشام إلى مصرَ فيمن معهُ من أولادهِ.

(١/١١)

قال صاحبٌ السيرة المظفريةِ: فلما استوثق الملك لبني أيوب في مصر لم يزل معهم عصبة من بني رسول لعلمهم بتقدم منصبهم في الملك وعلق هممهم وشدة بسالتهم وثبوت آرائهم. فاجتمع رأي بني أيوب على أن يسلموا إليهمُ اليمن. فقال ذوو رأيهم إذا يستقون بها عليكم وينازعونكم في الشام.

فأجمع رأيهم على تسييرهم إلى اليمن صحبة الملك المعظم تورانشاه بن أيوب. فخرجوا صحبته بعد أن استحلفهم له أخوهُ الملك الناصرُ يوسف بن أيوب وأوصاهم بحسن صحبته والنصح في مسايرته وخدمته. وكان لهم في الديار المصرية جلالة ووجاهة وحظ ونباهة. وكانوا خمسة رجال يركبون من بيتٍ واحدٍ: ١ شمس الدين علي بن رسول: ٢ بدرُ الدين الحسن بن علي بن رسولٍ: ٣ نور الدين عمرُ بن علي بن رسول: ٤ فخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول: ٥ شرف الدين موسى بن علي بن رسول. وكانوا غاية في الشجاعة والأقدام وحسن التدبير في الحرب. لاسيما أبوهم شمس الدين. وكان ولده الأمير بدرُ الدين الحسن بن علي بن رسولٍ لا قوم لهُ في الحرب عدد وإن كثر. وكان نور الدين له عقل ثاقب ورأي صائب. وكان فخر الدين جواداً كريماً. وكان شرف الدين فارساً شاعراً فصيحاً وهو القائل في ذلك:

نكون حماتها ونذبُ عنها ... ويأكل فضلها القومُ اللئام

معاذ اللهِ حتى ننتضيها ... عقائق في العجاج لها ابتسامُ

فسمعه بعض المصريين فقال: خرجت اليمنُ من أيدي بني أيوب. وكان دخول الملك المعظمِ اليمن في سنة تسع وستين وخمسمائةٍ فأمام في اليمن السنة سبعين ثم رجع إلى مصرَ في سنةِ إحدى

وسبعين. وترك في اليمن نواباً له يحملون خراجها إليه في كل سنةٍ إلى أن توفي في سنة ستٍ وسبعين وخمسمائة. فلما علم نوابهُ بموته اختلفوا فيما بينهم وتغلب كل واحدٍ منهم على ما تحت يدهِ. فلما علم الملك الناصرُ باختلافهم وتغلبهم على البلاد أرسل أخاهُ الملك العزيز طغتكين بن أيوبَ في قطعة من العساكر وكان دخوله اليمن في يوم السبت الثالث عسر من شوال سنة تسع وسبعين وخمسمائةٍ: فأقام في اليمن إلى أن توفي في السادس والعشرين من شوال سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة. فتولى الملك بعده ولدهُ المعزُ إسماعيل بن طغتكين بن أيوب فلم يزلْ بها إلى أن توفي مقتولاً بيد الأكراد يوم الأحد الثامن عشر من شهر رجب سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة. فتولى الملكَ بعدهُ أخوهُ الناصر أيوب ابن طغتكين بن أيوب فلم يزل بها إلى أن توفي مسموماً ليلة الجمعة الثاني عشر من المحرم سنة عشر وستمائة. وقال الجندي: أول سنة إحدى عشرة وستمائة. وعندي أنه هو الصحيح.

(١٢/١)

وكان الملك الناصر صاحب مصر قد توفي وتولى الملك في الديار المصرية أخوهُ الملك العادل أبو بكر بن أيوب. فلما بلغه علم ما جرى في اليمن من قتل المعز وسم أخيه الناصر. وهما معاً ابنا أخيهِ العزيز. جهز ابن ابنهِ الملكَ المسعود صلاحَ الدين يوسف بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في جيش كثيف إلى اليمن ومِوال كثيرة وحالة كبيرة. وكان يومئذ في سن البلوغ. وكتب إلى الأمير شمس الدين علي بن رسول والى سائر الأمراء المصريين باليمن يأمرهم بحسن صحبته والقيام بما يجب من خدمته. وكان دخول الملك المسعود زبيداً يوم السبت الثاني من المحرم سنة اثنتي عشرةِ وستمائة. وكان قد قدم قبلهُ سليمان بن تقي الدين عمر بن شاهنشاهَ بن أيوب المعروف بالصوفي ومعهُ جماعة في زي الصوفية وكان قدومهُ بعد وفاة الناصر أيوب بن طغتكينَ. فاستدعته أم الناصر المذكور لما علمت به وكانت يومئذٍ في حصن تعز فقالت لهُ: إنا نخشى أن يطمع فينا العرب ونحن نساء لا حيلة لنا وقد ساقك الله إلينا فقم بملكِ ابن عملك. فأجاب إلى ذلك فأطلعوه الحصن وأجلسوهُ على سرير الملك وحلف الجندُ. وكان ضعيفاً لا دربة له بالملك. فاشتغل بالشراب واللعب حتى تصعصع الملك واستولى الإمام المنصور عبد الله بن حمزة على صنعاء وذمار وفسد الأطرافُ. فلما وصل الملكُ المسعود إلى زبيدٍ في التاريخ المذكور واستقر في الدار السلطانية بزبيد وقد ضعف عسكرهُ وكلتْ دوابه أرسل إلى سليمان بن تقي الدين وكان يومئذ في حصن تعز من يخاطبهُ بالصلح على أن يكون الجبالُ لسليمان والتهائم للمسعود. فلما سمع بذلك الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول نزل إلى الملك المسعود وحثه على الطلوع إلى تعز. فطلع وحطَّ على حصنِ تعز ولقيهُ عساكر اليمن بأسرها. فقال له الأمير بدر الدين. أرى أن تكتب إلى الجند الذين هم في حصن تعز كتاباً تقول فيه: أقسم باللهِ تعالى لئن لم تمسكوا سليمان بن تقي

الدين لا أصبتم مني عافية. ففعل. فلما وصل كتابهُ إلى الجند نهضوا بأجمعهم إلى سليمان بن تقي الدين فأغلقوا باب المجلس وأمروا إلى الملك المسعود رسولاً يعلمهُ بذلك. فلما علم بذلك أرسل نائبه فطلع فأمسك سليمان وقيدهُ. ثم طلع الملك المسعودُ حصن تعز وكان طلوعهُ يوم الأحد عاشر صفر من سنة اثنتي عشرة وستمائة. واستولى على اليمن بأسره من التاريخ المذكور. وأرسل سليمان بن تقي الدين إلى مصر مقيداً. ولم يزل الأمير شمس الدين عليُّ بن رسول وأولادهُ مقيمين في اليمن مع بني أيوب على أحسن سيرة. وكان الأمير شمسُ الدين عاقلاً كاملاً صالحاً تقياً لهُ رأي ورئاسة ونظرُ وسياسة. وكان له عند سيف الإسلام المحلُّ الأعلى والقدحُ المعلى حتى أن نساء سيف الإسلام لم يكن يحتجبن منهُ لصلاحهِ وحسن سيرتهِ والتماس بركتهِ.

ولما كتب الظاهر بيبرسُ صاحب الديار المصرية إلى الملك المظفرِ رحمهُ الله كتاباً يهددهُ فيه ويتوعدهُ أجابهُ الملك المظفرُ رحمة الله عليه بما معناهُ نحن محفوظون ببركة جدنا ولا نخافُ ضرا بحمد الله وبركةِ جدنا رحمه الله. وكان الأمير شمس الدين رحمه الله يسكن في ناحية جبلة ومن مآثره قصر عومان هنالك. وكثيرُ من ذريته يسكنون هنالك إلى يومنا هذا. وكان يحب العلماء والصالحين ويحبونه لحسن سيرته وصلاح سريرته وكان كثيراً ما يتولى في الجهات الخيسية وصحبَ الفقيه الصالح حسن بن أبي بكرٍ الشيبانيَّ. وكان الفقيهُ حسن الشيباني من الصالحين الكبار وكان يرشدهُ لأفعال الخير والرفق بالرعيةِ. فلا يخالفهُ. وكان الشيباني مدعواً له كثيراً. وربما بشره بمصير الملك إلى ذريتهِ: وكانت وفاته رحمه الله في شهر صفر سنة أربع عشرة وستمائة. وقد رأس أولادهُ وانتشر ذكرهم وبعد صيتهم وظهر من شجاعتهم وبراعتهم ما لم يكن في ظن أحد من الناس واشتهروا في البلاد وعرفهم الحاضر والبادي.

(١٣/١)

وكان أتابكُ الملك المسعود في أيام دخولهِ اليمن جمالَ الدين فليتاً. فجهزه إلى صنعاء لحربِ الإمامِ المنصور عبد الله بن حمزة في شهر جمادى الأولى من سنة اثنتي عشرة وستمائةٍ. فلم يزلِ الحرب بينهما إلى أن توفيَ الإمامُ عبد الله بن حمزة. وكانت وفائهُ يوم الخميس الثاني عشر من شهر المحرم سنة أربع عشرة وستمائة. ثم توفي الأتابكُ بعدهُ. وكانت وفاته يوم الخميس سلخ شهر ربيع الأول من السنة المذكورة عند بئر الخولانيّ وقبر في صنعاء يوم الجمعة عشرة شهر بيع الآخر. فلما علم الملك المسعود بوفاة الأتابك فليت خرج إلى صنعاء فدخلها يوم السبت الثامن من شهر جمادى الأولى: وتسلم حصن كوكبان يوم الخميس في الخامس من شهر جمادى الآخرة وفي هذا التاريخ اصطلح السلطانُ الملكُ المسعودُ والإشراف. وعاد الملك المسعود من صنعاء إلى اليمن في شهر رجب من السنة المذكورة وهو مقيم ببني رسول وقد وثق بهم وأنس إليهم وولاهم الولايات الجليلة وأعجبه من حسن طاعتهم وشدة بسالتهم. فولى الأمير بدر الدين صنعاء وجعلها إقطاعاً لهُ. وولى

الأمير نور الدين الحصون الوصابية. فأقام فيها مدة. ثم ولاه مكة المشرفة فأقام فيها مدة. وفي مدة ولايته فيها ظهر ابنه الملك المظفر يوسفُ بن عمر فيها وكان يسمى المكي. وكان ظهوره في سنة تسع عشرة وستمائة. ولما فصله من ولاية مكة جعله أتابكه ومتولي أمر عساكره وأموره كلها فلما تقررت الأحوال وهدأت الحروب والفتن تجهز الملك المسعود إلى مصر. وكان خروجه من زبيد يوم النصف من شهر رمضان من سنة عشرين وستمائة. وترك في اليمن نور الدين عمر بن علي بن رسول نائباً نيابة عامة. وترك أخاه بدر الدين في صنعاء خاصة. وحلف لهما الجند المقيمون. وتقدم في التاريخ المذكور. فقام يزعم الصوفي في الحقل وبلاد زبيد. وجبل بني مسلم المسمى سحَّمَر. بفتح السين وأحاء المهملتين وتشديد الميم المفتوحة وآخره راء. فدعا الناس إلى نفسه وأخبرهم أنه داع لإمام حق. فإنصاف إليه من غوغاء الناس وطغامهم جم غفير. فسار إليه نور الدين ومعه راشد بن مظفِّر بن الهرشِ. فقال يرعمُ الصوفي لمن معه. أن قانونا في غد هزمناهم وقتلنا راشد بن مظفر. فوقع القتال فكان كما قال اتفاقاً. فازداد الناس له محبة وصدقاً. وكانت وقعة يزعم الصوفي في سنة اثنتين وعشرين وستمائة. ثم تلاشت أموره وظهر الناس كثير من كذبه وفساد مذهبه. فخرج هارباً من بلد إلى بلد ثم كانت وقعة عُصْرٍ بين الأمير بدر الدين حسن بت علي بن رسول وبين الشريف عزّ الدين محمد الإمام المنصور عبد الله بن حمزة فجمع الشريف عزُّ الدين جموعه من الخيل والرجل. فكانت خيلة سبعمائة فارس وكان رجله ألفي راجل. فقصد بِهِمْ صنعاءَ بعد خروج الأمير بدر الدين منها إلى ذرْوان ممداً لأخيه نور الدين بعد الهزيمة. وكان خروج الأمير بدر الدين من صنعاء إلى ذروان يوم الأحد السادس عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة. فوصل ذروان يوم الاثنين أسابع عشر من الشهر المذكور. فلما بلغه العلم بخروج الشيف عز الدين إلى صنعاءَ ورجع معه أخوه نور الدين على الفور فوصلوا وقد وصل الأمير سالم بن عليّ بن حاتم والأمير عُلْوان بن بشْر بن حاتم إلى صنعاءَ في خيل ورجل من ذمرمر والعروس وحفظوا المدينة. وقد حط الأمير عزُّ الدين في عُصر وتجهز للقتال. ونزل قاصداً صنعاءَ فخرجت الرتبة ومن معها من همذان. ووقع بينهم الطراد بكرة يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب المذكور فاقتتلوا إلى وقت الغداة. وبيناهم في القتال إذ وصل الأمير بدر الدين وأخوه نور الدين ومن معهما. والناس متلازمون في القتال. وقد وقع القتل في الفريقين وكلُّ حافظ لأصحابه. فدخل الأميران القصر وتغذى الناس على السماط. ثم قال الأمير بدر الدين. نستريح أولاً ثم ندخل الحمام أن شاءَ الله ثم نخرج. فوقفوا في القصر قليلاً ثم دخلوا الحمام فلما خرجوا منه حرك الرياح واجتمع العسكر الذين وصلوا معهما وهم مائة فارس يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. فلما خرجوا من الباب وقف نور الدين في بعض الخيل ذكراً وفئة يرجع الناس إليه أن انهزموا. وتقدم الأمير بدر الدين في الباقين والناس متلازمون في القتال. فرتب أصحابه وحرضهم على صدق القتال والتفت فيهم يمنياً وشمالاً وقال: هَيّ هَيَ. فقالواك هيّ هيّ. وكان هذا شعاره في عسكره

وحمل في القوم وصمم فيهم. وحمل سائر أصحابه وصمموا معه. ومنحهم الله النصر والظفر فانهزم جيش الأشراف ولم يقم منهم أحد وولوا مدبرين. وقتل فيهم قتلاً ذريعاً حتى قيل أنه كسر ثلاثة أرماح وانقطع السيف الذي كان في يده وإطار خيارة الدبوس ولم يرجع من المعركة إلاَّ في يده عرقة الركاب بركابها. ويرى أنه قتل يومئذ فارساً بفارس صرع أحدهما بالآخر. ولم يزل القتل والأسر فيهم إلى أن دخل الليل وغشيهم الظلام. وقتل الشيخ مخلص الدين جابر بن مقبل بعد أن أبلى بلاءً حسناً. وقتل من وجوه العرب جماعة. ووقع في الشريف عزّ الدين نشاب في عينه بعد أن قاتل هو ومن حضر من اخوته وباتوا ليلتهم سائرين قاصدين ثُليَّ ولم ينزلوا عن ظهور خيلهم حتى وصلوا ثُلَّى وقد تفرَّق جمعهم ولم يبق معهم غير أربعين فارساً وهم الأشراف وعبيدهم. وفي هذه الواقعة يقول العمادي السيزري وكان شاعر الملك المسعود رحمه الله

ألا هكذا للُملك تعلو المراتب ... وتسمو على رغم العداة المناقبُ
فُتوح سرت في الأرض حتى تضوَّعت ... مشارقها من ظيبها والمغاربُ
بسيف الجواد ابن الرسول توطدت ... قواعد ملك ربُّه عنه غائبُ
فولَّوا ومن طعن القنا في ظهورهم ... عيون ومن ضرب السيوف حواجبُ

وكتب السلطان عُلوان بن بشر بن حاتم النامي إلى الشريف عزِ الدين محمد بن الأمام المنصور عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة

أسادات الورى من كل حيَ ... وأسمى في المعالي من يسامي
وأربطها لدى الهيجاء بأساً ... وأحمامها إذا عدم المُحامي
أُهنئكم قدوم العيد فرضاً ... عليَّ فعدتم في كل عام
وأهدي نحوكم أزكى سلامي ... إلى المأموم منكم والإمام
وأُسمعكم أحقاً ما سمعنا ... فما يشفي سوى صدق الكلام
بأن جموعكم طارت شعاعاً ... ولَّما تخش عاقبة الملام
وولت غير كاسبة ثناءً ... فراراً لم تكر ولم تحامي
سوى عشر فحياً الله عشراً ... تحامت من بني حام وسام
ولم يحضر من الأُمراء إلاَّ ... شهاب الدين محمود المقام
ونور الدين والبدر المرجى ... ليوث الحرب في يوم الصدام
وخيلهم إلى مائة وعشر ... وهم ما بين رُمَّاح ورامي
فماذا تصنعون إذا اَلَّمت ... جنود الملك في يمن وشام
ولاحت راية المسعود فيها ... كلائحة على أرحام طام
هنالك تندمون ولا محيص ... إذا حُمَّ القضاء لدى الحمام

فإن تقبل نصيحة ذي وداد ... فإن النصح من شيم الكرام
أتيتم طائعين إلى مليك ... شريف النفس ذي منن جسام
فتى هُزّت بنو أيوب منهُ ... حسامُ مَصىً يفُلُّ شبا الحسام
وقُلّدت الأمور إليه لما ... غدا لا بالدَّدان ولا الكهام
وقالت عند ذلك قول فذّ ... أديب شاعر حسن النظام
فأعظ القوس باريها ودعها ... فقد أَودعتها في كف رام
فذبَّ برأْيه والسيف عنهم ... وقام بملكهم أوفى قيام
فأجابه عز الدين محمد بن الإمام المنصور عبد الله بن حمزة بن سليمان أبن حمزة يقول
أمن برق تألَق بابتسام ... أرقت ولم تذق طعم المنام
لذكر الوصل أو لفراق غيد ... تضيءُ وجوهها جنح الظلام

(١٥/١)

رعى الله الديار وساكنيها ... وروّى ربعها صوب الغمام
فلا تعجب لتذكاري فإني ... ذكرت منازل الحي الكرام
واعجب من تذكر وصل هند ... كتاب جاءنا من ملك نام
سليلهم المتوّج أرضعوه ... لبان المجد من قبل الفطام
وأودعه السلام فلا عدمنا ... أنامل نممت أزكى سلامي
ويخبر عن طراد الخيل قولاً ... أحقاَ ما يقال من الكلام
بأن جموعنا طارت شعاعاً ... وولَّت لم تكرّ ولم تحامي
سوى عشر أغارت غير نُكرٍ ... فعادت جنَّحاً مثل السهام
ولو كان الأمير النَّدب فيها ... عماد الدين محمود المقام
لزارت بيننتا عُصَبُ عِصابُ ... بكل مهنَّد عَضب حسام
ولكن تعدُّ هذا القول عنا ... فلم يحضر ويوم الروع حام
وكيف تعدُّ هذا القول نصحاً ... وقد صدعت له صمُّ السِلاّم
فوا عجباً تدافع عن حمانا ... وتنُسبنا إلى فعل اللئام
وإن كانوا لعمر أبيك أسداً ... بني لدى الوقائع بالصُّرام
وقال السلطان مدرك بن حاتم بن بشر بن حاتم على لسان الأمير بدر الدين حسن بن عليّ بن رسول ونور الدين عمر بن عليّ بن رسول وأرسلا بها إلى الديار المصرية
سلا ذات سمط الدروالمارن الأقنى ... لدى عُصُر من أصدق الضرب والطعنا
ومن شهدت صنعاء لولا بلاؤه ... لما فارقت رعباً ولا وافقت أمنا

وقد كانت البيض الخارئد خيفة السبا من أعادنا أساءَ بنا الظنا

فلما تدانا الفيلقان عشيَّة ... عدى الهام فيها منهم والظبا منا

ورُحنا إلى قصر القُليس نصافح الكوؤس يُغنينا النديم الذي غَنَّا

وخيل غَشَنا بالأسنة بعد ما ... تكَدسَّ من هَنَّا علينا ومن هَنَّا

ضُرِبْنَ الينا بالسّياط جهالة ... فلما تعارفنا ضُرِبْنَ بها عنا

وشيمتنا وَصْلُ السيوف بخَطْونا ... إذا قصرت حتى تبيد العدى طحنا

ونحن متى شئنا دسرنا عدوَّنا ... ولا نحتقد حقداً دفيناً ولا ضغنا

فلا زالت الأخبار منكم تسرّنا ... كما سرَّكم في مصر مخبركم عنا

فلما اتصل علم هذه الواقعة بالملك المسعود وبني أيوب إلى الديار المصرية رجع الملك المسعود سريعاً إلى اليمن ولم يستقر له قرار هنالك فكان دخوله حصن تعزَّ يوم الاثنين السابع عشر من شهر صفر من سنة أربع وعشرين وستمائة. فأقام فيها بقيّة صفر وشهر ربيع الأول والثاني وجُمادى الأُولى والأخرى وأياماً من رجب. ثم تقدَّم إلى الجند. فلما كان اليوم الخامس عشر من شهر رجب وثب الملك المسعود على بني رسول فقبض بدر الدين حسن أبن علّيٍ وفخر الدين بن عليّ وشرف الدين موسى أبن عليّ فقيدهم وأودعهم السجن.

(١٦/١)

قال صاحب العقد: واشتد خوف بني أيوب على ملك اليمن من بني رسول ولم يخافوا أحداً من العرب ولا من الغُزّ كخوفهم منهم. وذلك لما شاهدوه فيهم من الشجاعة والإقدام وعلة الهمة وبُعد الصيت وحسن السياسة وتمام المكارم الأخلاق واجتياز السيادة وأبتناءِ المجد. واكتساب الحمد. ولأجل ذلك ثمَّ عليهم منهم ما كان الكسر فيه مجبوراً والخصم فيه مقهوراً. وكان أمراً مقدوراً. ويُقال أنه قبض نور الدين أيضاً. فلما صاروا جميعاً تحت الاعتقال أطلقه من يومه واستخلصه وكان تأنس به كثيراً ولذلك استنابه في سفرته الأولى وفي الثانية وجعله أتابك عسكره وبعث بإخوته مقيدين إلى عدن قم أرسب بهم في البحر إلى الديار المصرية تحت الحفظ والاعتقال. وكان نور الدين في غاية من العقل والدهاء والجود والكرم وشرف النفس وحسن السياسة وكمال الرياسة. فقلده المسعود أموره كلها. وطلع إلى حقل يحصبُ فأخذ بلد بني سيف وذلك في ذي الحجة من سنة أربع وعشرين فأقام في الحقل حواً من ثلاثة أشهر: ثم عاد إلى حصن تعزَّ فأقام فيه مدة. ثم عزم إلى العود إلى الديار المصرية. فتجهز لذلك ونزل إلى محوسة زبيد ثم خرج منها متوجهاً إلى الشام في شهر ربيع الأول من سنة ست وعشرين وستمائة قالع الحاتميُّ: وقال الجنديُّ في سنة خمس وعشرين وستمائة انتهى وكان سبب عودته إلى الديار المصرة أن عمَّه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب إلى رحمة الله تعالى وكان يومئذ صاحب دمشق. فكتب إليه ولده الملك الكامل السلطان

يستدعيه إليه ليعطيه دمشق. ففرح فرحاً شديداً حتى أنه سافر وقد أبتدأ به المرض. فطلب أتابكه نور الدين عمر بن عليّ بن رسول وقال له: قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبي في اليمن فإن مت فأَنت أولى بمُلك اليمن من اخوتي لأنك خدمتني وعرفت منك النصيحة والاجتهاد وإن عشت فأَنت على حالك وإياك تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي ولو جاءك الملك الكامل ولدي مطوياً في كتاب. فإذا ألح عليك أعلمتني حتى أجتمع أنا وعمي الأشرفُ عليه ونحاربه ونُشغله. فقال له نور الدين: أخشى أن اخوتي يعارضوني. فقال له الملك سعود: أنا أكفيك أمرهم. فقيدهم حينئذ. وقيل أنه لم يقيدهم حتى أمر العسكر بالركوب. وخشي حدوث شيءٍ منهم لميل أكثر العسكر إليهم.

وذكر أبو المظفر سبط بن الجوزيّ في كتابه مرآة الزمان أن الملك المسعود تجهز بجهاز عظيم لم يسبقه إليه ملك. من جملته ألف خصي وخمسمائة صندوق من فاخر الأقمشة والملبوس وثلاثمائة بهار من العود الرطب ومن العنبر الفاخر وأربعمائة سرِيّة. ومن الجواهر واللآلئ والأحجار النفيسة ما لا ينحصر وسبعون ألف ثوب صيني معلم بالذهب ومن الصنائع ما لا ينحصر عدده. حتى قيل أن المراكب التي أقلت هذا سبعون مركباً. وذلك أنه صاح في البنادر. من أراد السفر إلى الديار المصرية فليسافر مع الملك المسعود قبل سفره بمدَّة. فأقبلت التجار من كل ناحية بأنواع التجارات والبضائع فاجتمع بهم في ثغر عدن. وقال لهم بيعوني هذه البضائع التي عندكم لتسلموا من العشور. فباعوا عليه فأخذها منهم وكتب لهم بأثمانها إلى اليمن وأحال لهم بجوالات إلى كل ناحية. فصاحوا بالويل والثبور. فلم يلتفت إليهم ولم يحصل لأكثرهم شيء. وعدد الجوزيّ الأصناف التي سافر بها وعظمها حتى أن السامع لا يكاد يصدق بها ولهذا تركت ذكرها. قال: وكان ظالماً شديد الظلم سيئ السيرة في رعيته سفاكاً للدماء حتى قيل أنه قتل في اليمن ثمانمائة سيف من أولاد الحسنين: هكذا ذكر في مرآة الزمان والعهدة عليه.

(١٧/١)

قال عليُّ بن الحسن الخزرجي: هذا شيء لا يقبله العقل ولا يصدقه النقل: ولا يوجد في اليمن كله من أعيانِ الأشراف الحسنين مائة رجل ولا ذكر هذا ولا ما يشابهه أحد من علماء التاريخ باليمن: والله اعلم ولما سافر الملك المسعود من اليمن كما ذكرنا وصل إلى مكة المشرفة وقد اشتد به الألم: فأقام في مكة أياماً إلى أن توفي بها في يوم الاثنين الرابع عشر من شهر جمادى الأولى من سنة ست وعشرين " وستمائة " : وقال الجندي توفي في مكة مسموماً في رجب وقيل في شعبان سنة ٦٣٥: وقال ابن عبد المجيد: توفي الملك المسعود في شهر ربيع الأول من سنة ٦٢٦ وكذا قال الشريف إدريس. قال الحاتمي: وأوصي أن لا يهلب عليه الخيل ولا تقلب السروج وإن يقبر بين الغرباء بمكة قال: ويروى أنه استوهب ثوبين برسم الكفن من بعض الناس: وكان عمره يوم توفي سبعاً وعشرين سنة. والله أعلم.

وكان قد حمل معه جميع خراج ملك اليمن من البيضاء والصفراء والجواهر الغالية والطرف والغلمان والجواري فتقدم مملوكه الأمير حسام الدين لؤلؤ بأولاد سيده وحاشيته وأمواله وحشمهِ وآلتهِ كلها من مصر: وكان قد جعل في صنعاء الأمير نجم الدين أحمد بن أبي زَكرّيٍ واستناب الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسولٍ على اليمن كلهِ سهلهِ ووَعره برّه وبحرهِ وكان ذلك ما أراده الله تعالى وقدّرهُ من إظهار كلمة الملك الرسولي وتمكين بسطته ونشر جناح عدله على الخلق ونفاذ صولته وتقليص ظل الملك الأيوبي وزوال دولته.

وفي هذه السنة المذكورة سنة ست وعشرين وستمائة توفي القاضي سري الدين إبراهيم بن أبي بكر بن علي بن معاذ بن مبارك بن تبع بن يوسف فضل الفَرَساني يجتمع مع الحافظ في تبع بن يوسف وكان فقيهاً فاضلاً أُصولياً وله مصنفات في الأُصول على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري وكان قاضياً بصنعاءَ. وفي أيامه بن الأمير ورد سار المنارتين بجامع صنعاءَ وأصلحه وبنى الجبانة أيضاً. وهو الذي بنى المطاهير والبركة في جامع صنعاء ولم يكونا قبل ذلك. وكان أول عمارته لذلك في شعبان من سنة ست وستمائة. وكان أحد القضاة الأخيار. ذكر أُلو المعرفة بأيامه أن سيرته كانت محمودة.

ويروى أنه اشترى أرضاً فيها شجر كرم ثم حضر عنده خصمان في حكومة بينهما فاتجه الحكم على أحدهما فحكم عليه الحاكم ثم أن المحكوم عليه وصل إلى بيت القاضي ليلاً وناداه فأجابه. فقال يا سيدنا أنا فلان ومعي شريم من صفته كذا وكذا وهاأنا متقدم إلى حضرتك لأقطعها بهذا الشريم مكافأة لحكمك عليَّ فاستوقفه القاضي ثم خرج إليه ولاطفه وربما غرم له ما حكم به عليه. فلما أصبح سعى في ربيع الأرض التي له وقال لا يصلح لحاكم مزرعة. وكانت وفاته على القضاء في سنة ست وعشرين " وستمائة " المذكورة. رحمه الله تعالى.

الباب الثاني

ذكر قيام الدولة المنصورية

وأسبابها

قال علي بن الحسن الخزرجي وقد ذكرنا في السابق ما كان من قضاء الله وقدره في اختيار الملك سعود لمولانا الملك المنصور عمر بن علي بن رسولٍ نائباً على اليمن كلهِ سهلهِ ووعرهِ برهِ وبحره وانفراده بالأمر دون سائر الأمراء المصرية وخلو اليمن من بقية بنى أمية وما جبله اله عليه من حسن السيرة وصلاح السريرة ومحبة الناس له وانقيادهم لأمره طوعاً وكرهاً. وكان مع هذا حازماً عازماً سريع النهضة حسن السيرة ثاقب الرأي عاقلاً وديعاً. وكان من ولائه السلطنة في اليمن على بشارات وإشارات. فمن ذلك ما يروى عنه أنه قال: أمسيت ليلة من الليالي مهموماً لعارض لي. فلما مضجعي ومضى نحو من شطر الليل سمعت دويّاً في الهواء فرفعت رأسي وإذا عفريت يهرب من الشواظ حتى حط نفسه عندي وهو يلهث وكأنه معصرة من عظمهِ. فقمت من مضجعي فأخذت إداوة الماءِ فسكبتها في فيه. فلما اطمأن وزال عنه روعه قال أسفر وأبشر يا أبا الخطاب. بالملك من عدن

إلى عيذاب ثم ذهب عني.
ويروى أن ثلاثة أقوام من الصالحين وصلوا إليه. فقال الأوّل: السلام عليك يا أتابك. فقال له: هو أخي وعليكم السلام ورحمة الله. فقال الثاني: أنت الأتابك وغير ذلك فقال: وما غير ذلك. فقال الثالث: سلطان لليمن وملكها من ذريتك إلى آخر الزمان.

(١٨/١)

وقال صاحب السيرة المظفرية: أخبرني الشيخ الصالح سليمان بن ميصور بم جريبة قال: لما وصل الملك المسعود من الديار المصرية وعبر طريق خبت القحرية كان على قارعة الطريق شيخان من المشائخ الصالحين أحدهما المغيث والآخر الهدس فقال أحدهما: هل ترى ما أرى. فقال له صاحبه: وما ترى قال: أرى شخصاً أن سار العسكر جميعه وإن وقف المعسكر جميعه فقال له صاحبه: لعل ذلك المسعود فقال له: لا بل هو الملك المسعود عمر بن عيّ بن رسول والملك في عقبه إلى آخر الدهر قال صاحب السيرة: وسمعت الحكاية بعينها من جدّي رحمه الله.
ويروى أن رجلاً كان على جبل الموسم وهو جبل صغير منفرد في خبت العسلقية من نواحي سهام. وكان الرجل يحرش شجراً من العطب له هنالك بالليل. وقد أقبل الملك المسعود في عسكره وطبلخانته. فسمع الرجل نحب الطبلخانة والعسكر. فقعد متعجباً. فسمع قائلاً يقول وهو قريب من اجبل:
أقبَلَ مثل السهم يزجيه الوترْ ... ليس له من ملكه سوى السفرْ
هيهات في الأيام طيات أُخر قال: فقصدت موضع الصوت فلم أر شيئاً ولا وجدت أحداً فعلمت أنه من الجن وعلمت أن ملك الملك المسعود لسواه ويحكى أن الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجة رأى راية الملك المسعود يوم وصوله من مصر فقال: هذه آخر راية تصل من مصر إلى اليمن.

فصل

ولما توفي الملك المسعود في التاريخ المذكور ووصل علم موته إلى اليمن قام السلطان نور الدين قياماً كلياً واضمر الاستقلال بالملك وأظهر أنه نائب للمسعود: ولم يغير سكةً ولا خطبةً: وجعل يولي في الحصون والمدن من يرتضيه ووثق به ويعزلُ من يخشى منه خلافاً: ومن ظهر منه عصيان أو خلافُ عمل في قتلهِ وأسره.
وكان السلطان نور الدين من أهل العزم والحزم جواداً كريماً سريع النهضة وكان محراباً لا يسأم الحرب. وكان صاحب حلم ودهاءٍ وكان يومئذ مقيماً بزبيدٍ يتولى على البلاد التهامية. وقرر قواعدهُ وسار من محروسة زبيد قاصداً تعزَّ في شوال من سنة ست وعشرين وستمائة. فحطَّ على حصن تعزَّ وحصرهُ حصراً شديداً وضيق على أهله حتى أجهدهم حتى قيل أنهم ابتاعوا من الحنكة فقط

بثلاثين ألف دينار ملكية. وفي سنة ٦٢٧ تسلم حصن التعكر وحصن خدد وتسلم صنعاء وأعمالها. وأقطعها أبن أخيه أسد الدين محمد بن الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسولٍ. فطلع الأمير نجمُ الدين أحمد بن أبي زكريّ حصن براشٍ خائفاً من الملك المنصور.

وفي سنة ٦٢٨ تسلم حصن حبٍّ وبيت عزٍّ وحطَّ على حصن تعزَّ مرةً ثانية فأخذهُ صلحاً على يد القاضي المكين. وتزوّج بنت جودَةَ. وكان زمامها الطواشي نظامَ الدّين مختصُ وكان لبيباً عاقلاً كاملاً في خدمة الملك.

ثم طلع إلى صنعاء فحطاً على براشٍ وفيه الأمير نجم الدين أحمد بن أبي زكريٍ وذلك في شهر رمضان من السنة المذكورة. وفي خلال ذلك وصل إليه الأشرافُ على حصن ذمرمر وهم الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة وأولاده والأمير شمس الدين أحمد بن الإمام وجميع اخوته ووهاَّس بن أبي قاسم فتحالفوا وتعاضدوا وعقدوا بينهم صلحاً عاماً وقالوا له: يا مولانا نور الدين تسلطن في اليمن ونحن نخدمك ونبايعك على أن بني أيوب لا يدخلون اليمن فتبايعوا على ذلك وأشاروا على السلطان بعمارة البرك وأشار نور الدين على الأشراف بعمارة حصن مدّ ع وتم الصلح بينهم على أحسن الوجوه ولم يجرِ بينهم قتال إلى أيام الإمام أحمد بن الحسين في سنة ٦٤٦ إلاَّ مرة واحدة وسأذكر سبب ذلك في موضعه من الكتاب. فلما انتظم عقد الصلح وصلهم السلطان نور الدين بمال جزيل وخلع سنيه وأقرَّهم على بلادهم فلما افترقوا على الصلح والسداد اضطرب حال الأمير نجم الدين أحمد بن أبي زكريّ وعلم حينئذ أن أسبابه انقطعت فراسل السلطان نور الدين في معنى الصلح. ونزل الأمير نجم الدين من الحصن إلى لقاء السلطان فترجل بين يديه وحمل الغاشية. فخلع عليه السلطان خلعاً سنية وأنعم عليه أنعاماً تاماً وعقد له بكريمتهِ ونزل صحبتهُ إلى اليمن ونزل أيضاً الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن عليّ بن رسول في صحبته أيضاً فلما أستقر السلطان في دار ملكه رجع الأمير أسد الدين إلى صنعاءَ.

(١٩/١)

وفي هذه السنة توفي الأمام العلامة ابو العتيق ابو بكر بن الشيخ يحيى ابن اسحق بن علي بن اسحق العياني ثم السكسكي نسبة إلى عُيانة بضم العين المهملة وفتح المثناة من تحتها وبعد الألف نون مفتوحة وآخر الاسم هاءُ تأنيث وهي قرية معروفة. وكان والده الشيخ يحيى من أعيان أهل اليمن في الصلاح والجود والثروة وفعل الخير وكثرة الحج.

ولما علم به صاحب بغداد وتحقق حسن سيرته كتب له مسامحة في أرضه وإن تبقى على ذريته ما بقي منهم إنسان. قال الجندي وهي بأيدي ذريته إلى الآن يجزن عليها وذريته اكمل أهل وقتنا في فعل المعروف وإطعام الطعام. وكان كثير الزيارة لفقهاء ذي اشرف فلما سمعهم يثنون على الفقيه إبراهيم حديث بجودة الفقه والدين سأله أن ينتقل معه إلى جبا ليقرئ ابنه أبا بكر المذكور فأَجاب إلى

ذلك وسار معه فثقفه به أبو بكر المذكور. وأخذ عن الإمام سيف السنة عدة من كتب الحديث وكان ممن حضر السماع لصحيح مسلم عليه في مدينة الجند.

وحجم مكة سنة ثمانين وخمسمائة فلما رجع إلى مدينة زبيد أخذ بها عن الفقيه عباس بن محمد الآتي ذكره أن شاءَ لله تعالى. وكان فقيهاً محققاً مدققاً ذا صلاح مشهور وعلم مذكور فقصده الطلبة من أنحاء اليمن رغبة في علمه وإنسانيته. ومن أخذ عنه ولده يحيى وأخوهُ محمد ومن المشرق أحمد بن محمد ابن منصور الجنيد وعثمان بن اسعد الشعبي وطائفة من فقهاء الجبال ومن فقهاء تهامة إبراهيم بن علي بن عجيل وعلي بن قاسم الحكمي وعلي بن مسعود الكتبي من أهل المحالفة وغيرهم. وهم أكثر فقهاء الجبال أصحاباً. قال الجندي واخبرني الثقة أنه حج سنة ولم يستطع الزيارة إلى المدينة فقلق لذلك قلقاً شديداً فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يقول له يا أبا بكر لما لم تزرنا زرناك فقال بكرمك يا رسول الله فعلت ذلك لي فادع لي فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة تسع وعشرين " وستمائة " طلع السلطان نور الدين إلى صنعاءَ مرة ثانية وتسلم حصن بكر وكوكبان وحصن براش. وبعث إلى مكة المشرفة أميراً يقال له ابن عيدان مع الشريف راجح بن قتادة وبعث معهما خزانة كبيرة. وهو أوَّل جيش جهزه إلى الحجاز. فنزلوا الأبطح وحاصروا الأمير الذي فيها من قبل الملك الكامل وكان يسمى طغتكين وكان معه مائتا فارس. فأنفق الطغتكين في أهل مكة نفقة جيدة وحلفهم وتوثَّق منهم. فراسلهم الشريف راجح بن قتادة وذكرهم إحسان السلطان نور الدين أيام كان أميراً على مكة من قبل الملك سعود. وكانت ولاية السلطان نور الدين في مكة سنة ٦١٧ وفي السنة المذكورة كانت ولادة السلطان الملك المظفر في مكة المشرفة.

فلما راسلهم الشريف كما ذكرنا مال رؤَساؤُهم إلى جيش المنصور فأحس بذلك الطغتكين فخاف على نفسه فخرج هارباً في من معه إلى ينبع. وكان في ينبع رتبة الملك الكامل وزردخانة وغلة. فأقاموا هنالك وأرسلوا إلى الملك الكامل رسولاً إلى مصر وأخبروه بوصول عسكر صاحب اليمن وما كان من أهل مكة. فجهز الملك الكامل عسكراً كثيفاً وقدَّم عليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

فأرسل إلى الشريف سنجة أمير المدينة وإلى الشريف أبي سعد أن يكونا معه. وكانا في خدمة الملك الكامل فوصلوا إلى مكة وحاصروا أبن عيدان والشريف راجحاً وقاتلوهم فقتل ابن عيدان وانكسر اهل مكة وقتل منهم مقتلة عظيمة. وأظهر الطغتكين حقده عليهم ونهب مكة ثلاثة أيام وأخاف أهلها خوفاً شديداًز فلما علم الملك الكامل بما فعل غضب عليه وعزله واستدعاه إلى مصر وأرسل إلى مكة أميراً غيره يقال ابن محليٍّ. فوصل إلى مكة في سنة ثلاثين وستمائة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه يحيى بن الفقيه فضل ابن اسعد بن حمير ابن جني أبي سالم المليكي. وكان مولده سنة ستين وخمسمائة. وتفقه بعبد الله بن سالم الأصبحي وتزوج ابنته منيرة ولهُ منها أولاد معروفون تفقه منهم جماعة ومسكنهم قرية الملحمة ولهم فيها مسجد ينسب إليهم وهو شرقيها يعرف

بالمسجد الأعلى " وكانت " قراءته البيان على سليمان بن فتح. وكانت وفاته في القرية المذكورة ليلة الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة والله اعلم.

(٢٠/١)

وفي سنة ثلاثين وستمائة أمر السلطان نور الدين بصرب السكة على اسمه وأمر الخطباءَ أن يخطبوا له في سائر أقطار اليمن. وإلى هذا أشار الحارث الرائش بقوله الذي تقدم ذكره حيث يقول:
ويظهر راية المنصور فيهم ... على خاءٍ مخففة ولام
وقد ذكرنا ذلك في الباب الأول وبالله التوفيق.

(٢١/١)

وفي هذه السنة توفي الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن ابن علي بن أبي علي القَلعْي بفتح القاف وسكون اللام نسبة إلى قلعة حلب بالشام وقيل نسبة إلى قلعة بلدة بالمغرب هذا قول الجندي. وقال الأسنوي في طبقاته أنه منسوب إلى قلعة بينها وبين زبيد نحو يوم ولم يذكر الأسنوي اسم هذه القلعة التي نسبه اليها ولا في أي ناحية هي من زبيد وهذا غلط من الأسنوي والله اعلم. وكان القلعي المذكور فقهياً عالماً كبيراً عاملاً له مصنفات كثيرة مشهورة انتفع الناس بها. منها قواعد المهذب ومنها مستعذب ومنها إيضاح الغوامض في علم الفرائض مجلدان جيدان جمع فيه بين مذهب الشافعي وغيره وأورد فيه طرفاً من الجبر والمقابلة والوصايا. وله احتراز المهذب. وله لطائف الأنوار في فضل الصحابة الأبرار. وله كنز الحفاظ في غرائب الألفاظ يعني ألفاظ المهذب. وله تهذيب الرياسة في ترتيب السياسة. وله كتاب أحكام القضاة. وله غير ذلك. وأكثر ما توجد مصنفاته في ظفار وحضرموت ونواحيها وعنه انتشر الفقه في تلك الناحية ولم ينتشر العلم عن أحد في تلك الناحية كما انتشر عنه. وأعيان فقهائها أصحابه وأصحاب أصحابه. وحج من مرباط فاخذ عنه بمكة وزبيد وغيرهما من البلاد التي مر بها خلق كثير. وكانت وفاته بمرباط في السنة المذكورة وقبره هناك والله أعلم. وفيها توفي الفقيه سلم بن محمد بن سالم بن عبد اله بن خلف بن زيد أبن أحمد بن محمد العامري وكان فقيهاً محدثاً غلب عليه الحديث. وكان زاهداً روعاً تأتيه الناس من البعد للزيارة وقراءّة العلم وانتفع بصحبته خلق كثير منهم الشيخ أحمد بن الجعد وأبو شعبة وغيرهما. وكان من كرام الفقهاء شريف النفس عالي الهمة. ولم يزل على الطريق المرضية إلى أن توفي في السنة المذكورة. وكان مولده في سنة سبعين وخمسمائة والله اعلم. وفيها توفي الفقيه الصالح عبد الله بن علي بن أبي عبد الله بن أبي القسم بن أسلم المرادي وكان فقيهاً عارفاً ورعاً مشهوراً. وكان أخوه ناجي بن علي فقيهاً غلبت عليه العبادة. وشهر بالصلاح وله كرامات كثيرة وكان كبير القدر شهير الذكر وروي أنه خرج لزيارة الشيخ عمران المتسن صاحب ذُبْحَان فخرج بخروجه جماعة من أهل بلده على عزم

السفر لزيارة الشيخ المذكور. فقال الفقيه ناجي ينبغي أن تجعلوا لكم رأساً تمتثلون قوله وتقبلون أمره ولا تخالفونه فإنه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا له يا فقيه أنت أولى من يلي فقال قد رضيتم قالوا نعم فتوثق منهم. وساروا من قريتهم المعروفة بسند من نواحي دلال فوصلوا الجند وصلوا في الجامع بها ثم خرجوا يريدون زيارة مسجد صرب المشهور هنالك وهو خارج عن المدينة فلقيهم فقير فطلب منهم شيئاً فقال الفقيه للذي يحمل زادهم أعط هذا درهماً فأعطاه فرضي بذلك بعضهم ولم يرضَ آخرون ففهم الفقيه ذلك منهم فلما رجعوا إلى المسجد وصلوا فيه العصر جاءَهم فقير عليه مدرعة صوف وصافحهم ثم صافح الفقيه وقبل يده ونزل فيها عشرة دراهم فالتفت الفقيه إلى أصحابه وقال هذه حسنتكم قد عجت لكم لما تغيرت نياتكم. ثم سلم الفقيه الدراهم إلى صاحب الزاد فعلموا أن الفقيه قد اطلع على ضمائرهم فاستغفروا الله تعالى عن ذلك وسألوا الفقيه التجاوز عنهم. ومن غريب ما جرى له أنه قرب يوماً طعاماً لأصحاب له ليأكلوا فجاءَهم هر فجعل يتدعك بأرجل الجماعة فضربه بسواك كان عنده فوثب الهر عنهم وقال أنا أبو الربيع فتبسم الفقيه وقال ولا تنفذ علي فما عرفت أن اسمك سليمان. توفي بين المدينتين في قاع البزواءِ ليس له تاريخ محقق. وفيها توفي الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن الفقيه مقبل بن عثمان بن مقبل بن عثمان بن أسعد العلبي بضم العين وفتح اللام نسبة إلى جد له اسمه علبة. وكان ميلاده بذي اشرق سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم انتقل إلى موضع يسمى عَرَج بفتح العين والراء المهملتين وبعدهما جيم. وهو أول من سكن قريته وكان تفقه بالإمام سيف السنة وبالفقيه زيد بن عبد الله الزبراني وغيرهما. وكان حافظاً محققاً فقهياً مدققاً صنف كتاباً يسمى الجامع يدل على جودة علمه وكتاباً في أصول الفقه سماه الإيضاح وله شرح المشكل في غريب اللمع. وهو أحد الفقهاء الذين كثرت ذراريهم وانتفع الناس بهم وعنه أخذ عمر بن الحداد والسكيل وابناه محمد وأبو بكر وامتحن بقضاء عدن وعاد

(٢٢/١)

إلى بلده فتوفي بها في شعبان من السنة المذكورة والله اعلم.

وفي سنة ٦٣١ جهز السلطان نور الدين خزانة عظيمة إلى الشريف راجح بن قتادة وعسكراً جراراً. فنهض الشريف راجح في العسكر المنصوري واخرجوا العسكر المصريَّ من مكة. وفيها أَرسل السلطان نور الدين هدية عظيمة إلى الخليفة ببغداد. وكان الخليفة يومئذ المستنصر بن الظاهر العباسي وهو والد المستعصم بالله. وطلب تشريفة السلطنة. وكان التقليد بالنيابة كما جرت عوائد الملوك. فعاد الجواب بأن التشريفة تصلك إلى عرفة. فخرج من اليمن يريد الحج. فحج على النجب حجة هنيئة. وهرب منهُ الشريف راجح بن قتادة ولم يحج معهُ. فضاق صدره. فلما قضى نسكه ورجع إلى اليمن رجع الشريف إلى مكة.

وكان الخليفة قد أرسل بالتشريفة والتقليد إليه صحبة الحاج من العراق فبلغ حاجُّ العراق إلى نصف

الطريق فقطعت العرب عليهم الطريق ودفنوا المناهل: فإعتاق الحاجُّ في الطريق إلى أن فاتهم الحجُّ فرجعوا إلى بغداد: ولم يصل منهم في ذلك العام أحدُ.

وفي سنة ٦٣٢ وصلت كسوة الكعبة من بغداد: ومعها رسولُ من الخليفة المستنصر إلى السلطان نور الدين: فعلق الكسوة ودخل اليمن إلى السلطان نور الدين: واعلمه أن التشريفة والتقليد يصلانه في البحر على طريق البصرة: فوصلت التشريفة ووصل التقليد بالنيابة في السنة المذكورة: وكان رسول الخليفة إلى السلطان نور الدين بالتشريفة والتقليد رجل يسمى معالي وكان السلطان نور الدين يومئذ في الجند: فارتقى الرسول على المنبر وقال: يا نور الدين أن العزيز يقرئك السلام ويقول: قد تصدقت عليك باليمن ووليتك إياه. والبسهُ الخلعة الشريفة الخليفية على المنبر.

وفي هذه السنة " ٦٣٢ " أرسل السلطان نور الدين إلى مكة المشرَّفة بقناديل من ذهب وفضة للكعبة المعظمة. وأرسل بخزانة كبيرة على يد ابن البصري إلى الشريف راجح بن قتادة وأمر باستخدام الخيل والرجل واعلم أن عسكراً واصلاً من مصر إلى مكة. فلما وصل ابن البصري مكة وعلَّق القناديل وصلَ العسكر المصريُّ إلى مكة قبل أن يستخدم الشريف أحداً فخرج الشريف راجح وابن البصري إلى اليمن. وكان العسكر البصري خمسمائة فارس فيه إمارة. يقال لأحدهم وحد السبعُ. والثاني البندقي. والثالث ابن أبي زكريٍّ. والرَّابع ابن برطاس. والخامس المقدَّم الكبير وهو أمير يقال له جبرائيل. فدخلوا مكة وأقاموا بها. وفي سنة ٦٣٣ جهز السلطان نور الدين عسكراً من اليمن وقدم عليهم الأمير شهاب الدين بن عيدان. وبعث بخزانة إلى الشريف راجح بن قتادة وأمره أن يستخدم العسكر ففعل. فلما صاروا قريباً من مكة خرج إليهم العسكر المصري فالتقوا في موضع يقال له الخريفين بين مكة والسرين فانهزمت العرب واسر الأمير شهاب الدين بن عيدان فقيَّده الأمير جبرائيل وأرسل به إلى مصر.

وفي هذه السنة توفي الفقيه أحمد بن الفقيه إبراهيم بن أبي عمران وكان ميلاده يوم الخميس السابع عشر من شهر شعبان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة وكان ثقته بالإمام سيف السنة.

ويروى أنه لزم مجلسه إحدى عشرة سنة. وأنه أقام في جامع اب لم يخرج منهُ إلا في قُبران صاحبٍ يعز عليهِ. وبعد ذلك كان يختلف إلى بلدهِ في قليل من الأوقات. فاخذ عن سيف السنة الفقه. والنحو. واللغة. والحديث. والأصول. وحاكاه في أموره كلها حتى في الخط ومات وهو ابن تسع وعشرين سنة. فقال في ذلك شعراً.

ولما مضت تسع وعشرون حجةً ... من العمر غرتني وغرت إلى الصبا

وأنذرني شيبي بحتفي معجلاً ... فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحبا

وسمعاً لداعي الحق منك وطاعةً ... وإن كنت بطالاً وإن كنت مذنبا

وهي أطول مما ذكرت ونسخ بيده كتباً كثيرة. وكتب على كل منها أبياتاً من قوله يقول فيها

وقف خرام وحبس دائم الأبد ... بتأَرجاءَ ثواب الواحد الصمد

على الحنابلة المشهور مذهبهم ... من آل بيت أبي عمران ذي الرشد
لاحظ فيهِ لبدعي يخالفني ... أو كان معتقداً صدًّا لمعتقد

(٢٣/١)

وكان السلطان نور الدين يحبه ويعتقده. ولما بنا مدرسته التي بدرجة المعزية المعروفة بالوزيرية لم يزل يتلطف به ويرسل إليه حتى نزل من بلده وقعد في المدرسة ودرس بها. ثم قال له السلطان نور الدين رحمة الله عليه أني احب أن اقرأَ عليك وترد لي في كل يوم إلى المدرسة يشق علي وعليك وعلى الناس. فإن رأيت أن يأْتيك الركبدار في يوم ببغلة تركبها وتطلع إلينا الحصن فاقرأُ عليك في خلوة فافعل. فاستعفاه من ركوب البغلة. وقال أنا اطلع كل يوم بدرسيّ من أصحابي يؤنسني. فكان يطلع الحصن كل يوم ويطلع معه درسي من أصحابه. فإذا وصل إلى باب السادة وقف الدرسي ويدخل الفقيه من غير إذن. فيقرأُ عليه السلطان ما شاء الله. ثم يخرج الفقيه. فكان هذا دأْبه. وكان السلطان رحمه الله إذا أراد أن ينزل من الحصن يأمر من يسبقه إلى الفقيه يسأَل منه أن يقف له على باب المدرسة. فإذا قابل السلطان ذلك الموضع طرح السلام. ثم رفع يده يشير إلى الفقيه أن يدعو فيفهم الفقيه الإشارة فيدعو والسلطان واقف رافع يده. فإذا مسح الفقيه وجهه مسح السلطان وجهه. ثم يتقدم السلطان حيث يريد. ولما دنت وفاته انتقل إلى بلده فتوفي بها عند طلوع الفجر من يوم الجمعة لليلة أو ليلتين من المحرم أول السنة المذكورة. وكان آخر ما فهم من كلامه لا اله إلاَّ الله ولله الحمد وكان يقول من زمن متقدم. يوم الجمعة وليلتها عليَّ تعتليان. ولعل موتي فيهما. وممن أخذ عنه القاضي محمد بن علي وسيأتي ذكره أن شاء الله تعالى. قال الجندي ومن أحسن ما رأيته معلقاً بخطه ما كتبه عقيب سماع البخاري إذ كتبه لقوم أجازهم
فيا سامعاً ليس السماع بنافع ... إذا أنت لم تعمل بما أنت سامع
إذا كنت في الدنيا عن الخير زاهداً ... فما أنت في يوم القيمة صانع
وفيها توفي الفقيه الصالح عثمان بن محمد بن الفقيه فضل بن أَسعد بن حمير بن جعفر المليكي الحميري وكان فقيهاً فاضلاً صالحاً عالماً متأدباً له محفوظات جيدة. وبديهة حسنة وكان حاضر الجواب. يحسن الإيراد نظماً ونثراً. توفي يوم الأحد لثلاث بقين من رمضان من السنة المذكورة. وكان ميلاده آخر نهار الجمعة سلخ شهر المحرم من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة والله اعلم.
وفيها توفي القاضي أبو الحسن. علي بن عمر بن محمد بن علي بن أبي القسم الحميري. وكان ميلاده سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وأمتحن بقضاءِ إب فكان ذا سيرة مرضية. وكان زاهداً ورعاً ولو لم يكن من ورعه إلاَّ امتناعه من قبض الرزق على القضاء في مدينة إب لكفى. ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه الأكبر أن لا يتولى القضاء. وأوصى أهله ومن حضره بتقوى الله ولم يزل على القضاء المرضي إلى أن توفي ليلة السبت لست خلون من جمادى الأولى من السنة المذكورة والله

اعلم.

وفي سنة ٦٣٤ تسلم السلطان نور الدين حصون حجة والمخلافة ومخلافيهما وكان السبب أن الأمير تاج الدين محمد بن الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة نزل إلى السلطان نور الدين فأَكرمه وانصفه وأقطعه المحلاف فطلع إلى بلاده مسروراً فسوَّلت له نفسه أخذ حصن كوكبان فعامل فيه ودخله أصحابه ولم يبق من أخذه شيء وكان في الحصن رتبة جيدة من الخيل والرَّجل وكان من عادتهم في كوكبان أن تركوا عشراً من الخيل لابسة وخمسين راجلاً بسلاحهم استمراراً على الأبد. فلما طلع أصحاب الشريف خرجت عليهم الرتبة من الخيل ومن معها من الرجل فقتلوا منهم جماعة وطرح أكثرهم نفسه إلى الحيد تردياً.

وكان الأمير يحيى بن حمرة قد عمر حصن منابر. وهو في بلاد السلطان مما يلي تهامة يطل على المحالب والمهجم. فلما علم السلطان بما فعل الشريف وولده محمد بن يحيى غضب من ذلك غضباً شديداً. وكان مع السلطان يومئذ الأمير محمد بن حاتم العباسيُّ صاحب حصن عزان المصانع.

وكان عزيزاً كريماً عند السلطان. فلما رأى اهتمام السلطان بأخذ حصن منابر. قال للسلطان. أنا أعطيك حصن عزان وأنا أعلم أن الشريف يحيى بن حمزة يرغب إليه. وسلم حصن منابر. فقال السلطان وأنا أزيده عشرة آلاف دينار. فأرسل السلطان وزيره وهو الشيخ ناجي بن أسعد إلى الشريف يحيى بن حمزة وعرض عليه ذلك فلم يقبل وقال قد صرت شريكاً لكم في المهجم.

(٢٤/١)

فعاد الوزير بغير شيءٍ. فاشتد غضب السلطان لذلك وكتب إلى الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور عبد الله بن حمزة متمثلاً بقول الأول

إذا لم يكن إلاَّ الأسنَّةُ مركباً ... فلا رأيَ للمضْطرِ إلا ركوبها

وكان الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام مُتغيّر الخاطر من عمه الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة في نقضه الذمم والصلح الذي جرى في ذمرْمرَ ولم يمكنهُ التخلي من عمه. فخرج السلطان من محروسه زبيدٍ وقدمَّ تجاههُ الأمير نجم الدين أحمد بن أبي زكريّ ولقيه المشائخ بنو بطين وغيرُهم واستخدم السلطان العساكر وأنفق الخزائن وأَتلف الأموال. فكانت الأكياس تصبُّ بين يديه صبا كما يُصبُّ أعدالُ الطعام: وسار نحو حجَّة والمِخلاَفة في ستين ألف راجل فاستولى على حجة والمخلافة ومخلافيهما في يوم واحد اتفاقاً لم يتفق لأحد قبلهُ ولا بعدهُ. وأنتجت هذه الفعلات على يحيى بن حمزة أخذ السلطان نور الدين جميعَ ما قد كان صالحهم عليه من البلاد العليا. وهي البونُ والإسناد والحسبُ والحاردُ ومطرة. ولما رجع السلطان من سفره المذكور مؤَيداً منصوراً وصل إليه الأمير جعفر بن أبي هاشم والشيخ حسام الدين حاتم بن علي الجنديُّ من جهة الأشراف فأَصلحوهُ على البلاد التي قد استفتحها لا معارض له فيها. وعاد إلى تهامة. وكان السلطان نور الدين عند مسيرتهِ

إلى حجة ومخلافة قد أمر الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بالخروج لمنع الأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة أن أراد نُصرَة عمه. فخرج الأمير أسد الدين فحط بالجناب. وكان الأمير شمس الدين بالطرف وكان يومُ قارن وهو من مشاهير الأيام العظام.

ولما رجع السلطان نور الدين من غزوتهِ إلى المخلافة قال الأديبُ جمال الدين محمد بن حميرَ:

هنئت بالنصر لما جئت في لجبٍ ... مظللاً بالرُّدَينيات والقصبِ

ومرحباً يا رسوليَّ الملوكِ وإن ... غاب السّما كان والجوزاءُ لم تغبِ

غزَوت مُبينَ إذ هاجت شقاشقها ... وفي الرُّتَيْنيّ ألفافُ من العرب

فاليوم قَلْحَاحُ لا يَرْغُوا بها جملُ ... والذئبُ لو نَطَحتَهُ الشاة لم يثِبِ

وهي قصيدة طويلة ثم أن الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة وأولادهُ اعترفوا بالخطأ واعتذروا إلى مولانا السلطان نور الدين فأعادَ عليهم حجة والمخلافة وحصونهما. وهكذا شيم الملوك يأخذون قهراً ويعيدون عفواً: وفي سنة ٦٣٥ خرج السلطان نفسه قاصداً مكة المشرفة في ألف فارس وأَطلق لكل جندي يصل إليه من أهل مصر المقيمين في مكة ألف دينار وحصاناً وكسوة. ومال إليهِ كثير من الجند. ثم أَمر الشريف راجح بن قتادة فواجههُ في أثناءِ الطريق. فحمل إليهِ النقارات والكوسات. واستخدم من أصحابه ثلاثمائة فارس. وكان يسايرهُ على الساحل. ثم تقدم إلى مكة: لما تحقق الأمير جبرائيل وصول الملك المنصور بنفسه وأته عيونهً بصحة ذلك وقاربهُ الشريف راجحُ أحرق ما كان معهُ من الحوائج خانة والفرشخانة والأَثقال وتقدَّم نحو الديار المصرية. وكان السلطان يومئذ في السّرّين. فلم يشعر حتى جاءَهُ نجَّاب من الشريفق: فقال البشارة يا من لا يهزمهُ الأمير جبرائيل وأصحابهُ: فقال له السلطان: من أين جئت فقال: من مكة. قال: ومتى خرجت قال: أمس العصر. فاستبعد السلطان ذلك فقال: ما أَمارة ذلك. فقال هذا الكتاب من الشريف راجح. فعجب السلطان أشّد العجب من مسيرهِ وأمر المراءَ المماليك أن يرموا ما عليهم على البشير. فألقوا عليهِ من ذلك ما أَثقلهُ. وسار السلطان من فوره إلى مكة ودخلها معتمراً في سنة رجب ٦٣٥.

قال صاحب العقد. اخبرني من أثق به أن مولانا أسلطان نور الدين دخل مكة معتمراً ثمان سنين. وكل ذلك في غير أيام الحج.

(٢٥/١)

ولما صل الأمير جبرئي إلى المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لقيه الخبر بوفاة السلطان الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب صاحب الديار المصرية. فندم كل من مكان معه من العسكر لما لم يميلوا إلى الملك المنصور وكان الأمير جبرائيل أشجع أُمراءِ مصر. ولما دخل السلطان نور الدين مكة أَنفق على عساكرهِ وتصدق بأَموال جزيلة. وجعل رتبة في مكة مائة وخمسين فارساً. وجعل عليهم ابن الوليديّ وابن التعزّي. فأقاموا في مكة. وفي هذه الوقعةِ يقول

الأديب جملا الدين محمدُ بن عمير رحمة الله عليه:
ما ضرَّ جيران نجد حيثما بعدوا ... لو أنهم وجدوا لي مثل ما أجدُ
ومن أَباح لأَهل الدمنتين دمي ... ما فيه لا ديةُ منهم ولا قَودُ
وفيها يقول
قل للعصائد حثي واذملي وخذي ... مثل النجائب في القفر الذي أخذُ
قصي الحديث عن المنصور ما فعلت ... جنوده وعن القوم الذي حسدوا
لقيهم بجنود لا عديد لها ... وهم كذاك جنودُ مالها عددُ
فزلزل الرعب أيديهم وأرجاءَهم ... حتى السماء رأَوها غير ما عهدوا
ولَّوا وكان الذي يلقى بهم أَسداً ... فعاد ثعلب قفر ذلك الأَسدُ
ومن يلوم أميراً فرَّ من ملك ... لا ذا كذاك ولا كالخنصر العضدُ

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح محمد عمر بن موسى بن عبد الله الجبرتي بلداً القرشي نسباً. وكان فقيهاً كبير القدر شهير الذكر عالماً عاملاً. أخذ عن جماعة في مواضع شتى. وكان أخذه بعدن عن الفقيه إبراهيم العريطي ثم لما طلع الجبال أخذ عن جماعة. منهم عبد الله بن عبد الرحمن الرهي وغيره وكان صاحب كرامات ومكاشفات. درس في مسجد السنة مدة طويلة. فتفقه به جماعة من الأكابر ومن الأصاغر. ومن جملة من أخذ عنه من المشاهير عمر بن سعيد العقيبي وغيره. ولا يعرف له شيخ غيره في الفقه خاصة.

وحكى بعض تلامذته. قال كنت أتولى خدمة الفقيه محمد بن عمر فخرجنا معه يوماً إلى الغيل لا غسل له ثيابه بحضرة. فبينا أنا وهو كذلك إذ اقبل فقيه من أهل المشرق يقال له الخضر وهو يمشي حافياً ونعله في يده. فلما رآه الفقيه تبسم. وقال لي يا فقيه هذا فلان قد جاءَ يريد السلام عليَّ. قلت فما حمله على المشي حافياً. قال كراهة أن يطأَ على ما بناه فخر الدين بن رسول. وعن قريب يبني بنو رسول محلة ويقعد فيها مدرساً. ثم وصل الفقيه الخضر المذكور إلى عند الفقيه محمد بن عمر المذكور. وتسالما مسالمة مرضية. ثم تباحثا ساعة في بعض مسائل الفقه. ثم توادعا وعاد الخضر في طريقه التي جاء منها. ثم لم تظل المدة حتى بنا بنو رسول المدارس وطلبوا الفقيه الخضر ورتبوه مدرساً في المدرسة الرائية. ثم أن الفقيه محمد ابن عمر انتقل من جبلة إلى قرية من مسشار الجند. يقال لها الحمراء. فأقام فيها مدة ثم انتقل إلى وادي عميدة فسكن في قرية يقال لها الطفر. وكان كثير الاجتماع بابن ناصر والفقيه حسين العدبني. والإقامة معهما بقرية الذنبتين. فتوفي بها في السنة المذكورة. وحضر الفقيه عمر بن سعيد دفنه في جماعة من أصحابه رحمة الله تعالى.

وفي سنة ٦٣٦ رجع السلطان نور الدين من مكة إلى اليمن وأقام ابن الوليديّ وابن التعزيّ في مكة كما ذكرنا حتى انقضت السنة المذكورة والله اعلم: وفي سنة ٦٣٧ وصل الأمير سنجه صاحب المدينة إلى مكة المشرفة في ألف فارس. وخرج عسكر السلطان نور الدين من مكة وأَخلوها له. وفي هذه السنة تسلم السلطان نور الدين حصن الكميم وطلعٍ صنعاء مرةً ثانية. فأَتاه خبر قتل الأمير نجم

الدين أحمد بن أبي زكريٍ. وأَتاه الخبر بهزيمة العسكر من مكة.
قال صاحب العقد الثمين. حدثني من أثق به ممن شاهد الحال قال ما رأيت اربط جأشاً ولا أطلق وجهاً من السلطان نور الدين وقد اقبل إليه العسكران مغلوبين مهزومين فلم يتلعثم ولم يتوقف في خبر كسرهم وإصلاح أُمورهم بالخيل والعدد والملابس والنفقات حتى عادوا احسن حالاً واجمل قشرة مما كانوا عليه.

(٢٦/١)

ثم أن السلطان نور الدين رحمة الله عليه جهز ابن البصري والشريف راجح إلى مكة في عسكر جرَّارٍ. فلما سمع بهم الشريف سنجة وأصحابه خرجوا من مكة هاربين. فتقدم سنجة إلى مصر. وكان سلطانها يومئذ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل. فجهز مع عسكراً فيهم علم الدين الكبير وعلم الدين الصغير.
وفي سنة ٦٣٨ وصلت العساكر المصرية إلى مكة المشرفة فأَخذوها وحجوا بالناس.
وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو محمد بن راشد بن سالم ابن راشد بن حسن. وكان فقيهاً كبيراً وإماماً جليلاً. تفقه بمحمد بن أحمد بن حديل بسهفنة. ودرس بالمصنعة مدة. فتفقه به خلق كثير منهم القاضي بهاءُ الدين محمد بن سعيد واخوته وابن عمهم قاضي القضاة محمد بن أبي بكر. وعنه أخذ الخطيب علي بن عمر العبيدي وأبو بكر بن ناصر. وكان وفاته في سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة. وتوفي الفقيه الصالح الفاضل عبد الله بن أحمد بن أبي القسم بن أحمد بن اسعد الخطابي. وكان فقيهاً ماهراً معاصراً لعلي بن الحسن الأصابي. وتفقه بمحمد بن مضمون ومحمد ابن أحمد بن حديل. وامتحن بقضاء السَّحُول والمسترق ووحاضة. وكان يسكن قرية الجعامي التي كان يسكنها الإمام زيد الغايشي. لأنه تزوج في ذريته ثم صار إلى هدافة. وتزوج في ذرية الهيثم أهل الجحفة واصله من عرب يقال لهم بنو خطاب بحاءٍ معجمة يسكنون حارة القحمة. وكان وفاته بهدافة في القرية المذكورة. وتوفي الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل المازني. وكان رجلاً مباركاً فقهياً ذاكراً للفقه له مروءَة. وأصل بلده ذي أشرق. وتفقه بالقاضي مسعود. وتزوج بابنته في حياته فكان أولاده منها. وقيل للقاضي مسعود كيف تزوج المازني وهو رجل فقير. فقال أرجو ببركة العلم أن يكون كافياً لي ولأولادي فكان كما قال. وكان يصدع بالحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكان مدرساً بالمسجد الذي بناه الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول. على تربة والده الأمير شمس الدين بقرية عكار.
ويرى أنه صلى يوم الجمعة بذي جبلة. ثم خرج من الجامع يريد بيته. وكان يسكن بذي بجدان مواضع من موقف المسجد المذكور. فلما صار في الطريق لقيه رجل راكب على بغلة حسنة ومعه عدة غلمانٍ. فظنه وزيراً أو قاضياً أو بعض الكبراء من غلمان الدولة. وكان السلطان نور الدين

يومئذ في قصر عومان. فسأَل الفقيه عن صاحب البغلة حين قابله فقيل له هذا طبيبُ يهوديَُ يخدم السلطان في هذه الوظيفة. فانقضّ عليه الفقيه واجتذبه من البغلة التي هو عليها وألقاه على الأرض وخلع نعله وضربه به ضرباً موجعاً شديداً وجعل يقول. يا عدوَّ الله وعدو رسوله لقد تعديت طورك وخرجت عن واجب الشرع فينبغي إهانتك. ثم تركه وقد بلغ منه مبلغاً. فقام اليهوديُّ ورجع إلى باب السلطان وهو يستغيث وقد قلت عمامته. فقيل له من خصمك. فقال الفقيه محمد الماربي.
فأرسل مولانا السلطان نور الدين رحمة الله عليه رسولاً يسأله عن القصة. فلما جاء الرَّسولُ قال له الفقيه سلم على مولانا السلطان وعرفه أنه لا يحل له أن يترك اليهود يركبون البغال بالسروج ولا يحلُّ لهم أن يترأسوا على المسلمين ومتى فعلوا هذا فقد خرجوا عن ذمة الإسلام عليهم. فرجع الرسول بالجواب إلى السلطان عن الفقيه والسبب. فلما سمع السلطان ذلك قال لليهوديّ. تقدَّم مع الرسول إلى الفقيه ليعرفك ما يجب عليك من الشرع فتفعله. ثم قال للرسول. قل للفقيه يسلم عليك السلطان ويجب أن تعرف هذا اليهودي ما يجب عليه في الشرع ومتى جاوزه فقد برئ من الذمة. فقال له الفقيه يجب عليك كذا وكذا ولا تفعل إلا ما هو كذا وكذا ومتى تعديت وجب عليك النكال وحل دمك. فانصرف اليهوديُّ ورجع الرسول إلى السلطان فأَخبره بما كان من الأمر. فقال له: إياك أن تتعدى ما أمرك به الفقيه فتقتل ولا ينفعك أحد فإن هذا حكم الله وشرع رسوله صلى الله عليه وسلم. فانصرف اليهودي إلى منزله. ولم يزل الفقيه على التدريس في المسجد المذكور إلى أن توفي في سنة ٦٣٨.

(٢٧/١)

وفي سنة ٦٣٩ استولى السلطان نور الدين على حصنت يُمِيَن والشواهد وقتل عمار بن الشيبانيّ. وكان عمار مطيعاً ممتنعاً على حصونه. فوفد إليه الأديب محمد بن حمير الشاعر المشهور. فأَقام على باب داره ساعة من نهار فلم يأذن له فكتب إليه رقعة يقول فيها:

يا البابٍ أصلحك الله أمرْ ُ لسن ... أَمضه السير والإدلاج والسهر
وافى إلى أرض خولان فصادفها ... مثل القتادة لا ظل ولا ثمر

فلما وقف على رقعته وقع على ظهره كتاباً يقول:

بل كالغمامة فيها الظل والثمر

ثم أذن له فأكرمه وأنصفه وأقام عنده أياماً ثم انصرف عنه فلقيه جماعة من عبيد عمار فنبهوه وأخذوا ما معه. فاتهم عماراً ووقع في خاطره أنه الذي أمرهم بذلك. ثم قدم على السلطان نور الدين فانشده في مجلس الشراب.

ما شاق قلبي أَمراجُ وأَكواد ... ولا شجتني أَعلامُ وآثارُ
ولا أُسائلُ أَهل النجد أن نجدوا ... ولا أُسائلُ أهل الغوْر أن غادروا
قد يزأر الذئب إذ لا حولهُ أَسدُ ... ويصهل العيرُ أن لم يلق خطارُ

سررت باليمن الخضراء حين صفت ... لابن الرسول فما من تلك أَكدارُ
وكان فيها عطاريدُ زعانفة ... فما بقي من بني البظراء ديَّارُ
لكن بقي فردُ ثؤلولٍ تعاب بهِ ... والنار تسهل مركوباً ولا العارُ
أن قلتُ لم يبق سلطان سوى عَمر ... قالوا بلى وبقي السلطان عمارُ
أو قلت لا قصرَ إلا قصرُ دُملؤَه ... قالوا براشُ يُمين القصرُ والدارُ
أو قلت ما أحسنَ المعشارَ من جؤة ... قالوا وليس إلى ذبحان معشارُ
فخذ يمنياً ولا تقبل معاذره ... فالكلب حيث خلا بالعظم جبارُ
لم يتفق قط سلطانان في بلد ... هل يدخل الغمد بتَّارُ وبتارُ
ما غبت إلا رمي بالعين دملؤَة ... وظل ينشد والأقداحُ دوَّارُ
وابن المحليّ يميثهُ بملحمة ... كلاهما اتفقا طبل ومزمارُ
مولاي لا تحتقرهُ فابن ملجم قد ... عدى بحيدر والدَّار غدَّارُ
بئس الخبيئة تحت الفرش قمَّلةُ ... والسدُّ شرُّ كمين تحته الفارُ

وفي هذه السنة جهز السلطان نور الدين جيشاً كثيفاً إلى مكة المشرفة مع الشريف عليّ بن قتادة. فلما علم العسكر الذي في مكة من المصريين كتبوا إلى صاحب مصر طلبوا منه مادة. فأرسل إليهم بالأمير مبارز الدين عليّ بن الحسين بن برطاس وابن التركماني ومعهم مائة وخمسون فارساً. فلما علم الشريف عليُّ بن قتادة بوصولهم أَقام بالسرّين وأَرسل إلى السلطان نور الدين يعرفه صورة الحال فتجهز السلطان نور الدين بنفسه إلى مكة في عسكر جرار وخزانة جيدة وعزم شديد فلما علم أهل مصر بقدومه ولوا هاربين وأَخرجوا دار المملكة بمكة على ما فيها من عُدة وسلاح. فدخل السلطان نور الدين مكة وصام بها شهر رمضان من السنة ٦٣٩ المذكورة. ووصل الأمير مبارز الدين عليُّ بن الحسين في عدة من بني عمه وأصحابه راغبين في خدمة السلطان. فأَنعم السلطان نور الدين عليهم وكساهم جمعاً. وأرسل السلطان نور الدين إلى الشريف صاحب ينبع. فلما أَتاه أكرمه وأَنعم عليه واستخدمه واشترى قلعة ينبع وأَمر بخرابها حتى لا يبقى قرار للمصريين. وأَبطل السلطان نور الدين عن مكة سائر المكوسات والجبايات والمظالم وكتب بذلك مربعة وجعلت قبالة الحجر الأسود ورتب في مكة الأمير فخر الدين السلاَّخ وابن فيروز وجعل الشريف أبا سعد بالوادي.

وفي سنة ٦٤٠ توجه السلطان نور الدين من مكة إلى اليمن. وفيها مات الخليفة المستنصر وتولى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين أبو أحمد. وهو الذي يدعى له سائر المنابر إلى وقتنا هذا من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة. وفيها وصل حجاج العراق إلى مكة وكان قد انقطع حاج العراق عن مكة سبع سنين فلما يحجج فيها أحد من العراق من سنة اثنين وثلاثين إلى سنة أربعين. فلما وصل أمير الحاج العراقي إلى مكة كسى البيت وجعل الذهب والفضة على البيت وتصدق بصدقة كبيرة في مكة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه العلامة الإمام أبو الحسن علي بن قاسم بن العليف بن هيس بن سليمان بن عمرو بن نافع الحلمي الشراحيلي. وكان إماماً كبيراً عالماً محققاً مدققاً. وبه تفقه غالب فقهاء عصره من غالب نواحي اليمن. وله مصنفات مفيدة منها كتاب الدرر في الفرائض. وله مختصر سماه الدرر. بين فيه بعض مشكلات التنبيه سيرها إلى بغداد صحبة الإمام رضي الدين الصغاني. وأجاب عنها جماعة من علماء بغداد. وأجاب عنه أيضاً محمد بن يوسف الشويري. وأجاب عنها هو أيضاً. فكان جوابه أرضى الأجوبة كلها. واصله من حكماء حرض وقدم زبيد بعد أن تفقه على الفقيه إبراهيم بن زكريا. ثم لما قدم زبيد أخذ عن الفقيه عباس ابن محمد. ثم طلع الجبال فقصد ذي أشرق. فأدرك القاضي مسعوداً وأخذ عنه. ومن أعيان أصحابه بزبيد محمد بن الخطاب وعمر بن عاصم وإبراهيم ابن القلقل وعبد الرحمن بن المبارك السجيلي وعمر بن مسعود الابنان وحسن الشرعبي وعبد بن أحمد من السهولة. قال الجندي: ولقد أخبرني الثقة أنه خرج في درسه ستون مدرساً. وكان يحفظ التنبيه ولا يزال حاملاً له. ومقبلاً عليه. فقيل له أنت تحفظه فلم تحمله. فقال احتج به على أهل المراء. وكان راتبه في كل يوم سبعاً من القرآن أخذ ذلك عن شيخه إبراهيم بن زكريا. وكان ذا ورع شديد. لوزم على قضاء زبيد. ولزوم على التدريس فامتنع. ورسم عليه أياماً فلم يجب إلى ذلك. وكان فقيراً يعدم ما يقتاته وفضله أكثر من أن يحصى. وكانت وفاته يوم الخامس من شهر رمضان من السنة المذكورة بزبيد. وفيره في الناحية الشرقية من مقبرة باب سهام. معروف مشهور ويتبرك عنده. ولما توفي في التاريخ المذكور خلفه ابنه أحمد. وكان فقيهاً مبرزا فرأس ودرس إلى أن توفي يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر من سنة أربع وستين وستمائة. ومن تلامذته إبراهيم بن علي القلقل بقافين مكسورتين بينهما لام ساكنة. وكان فقيهاً محققاً جليل القدر وله فتاوى تدل على فقهه وسعة عمله. لوزم على تدريس المنصورية بزبيد. فامتنع فرسم عليه. فأقام في ارسم أياماً. وكان من اجل الفقهاء قدراً. واليه تنسب القرية المعروفة بجمل القلقل غربي مدينة زبيد قاله الجندي والله أعلم. وتوفي الفقيه العالم أبو محمد عبد الله بن زيد مهدي العريقي من العروق أيامه وهي قرية قريبة من حصن السدف؟ وهي بضم الهمزة وفتح الياء المثناة من تحت ثم ألف ثم ميم مفتوحة وآخره هاء كان فقيهاً دقيق النظر ثاقب الفطنة اتضح له في بعض المسائل ما لم يتضح لغيره. فلم يقلد فيها أمامه. فأنكر عليه علماء وقته إذ لم يطيقوا الإنكار على غيره ممن يقول بقوله كأحمد وداود وكانوا يعظمونه ويثنون عليه. وكان مشهوراً بالعلم والصلاح والأصول وكان جيد الفقه. توفي في السنة المذكورة في جامع الصردف متعكفاً. وكان كثير الاعكتاف به بعد خلو الصردف من الساكن. وفيها توفي الفقيه أبو سعيد محمد ابن أحمد بن مقيل الذي كان فقيهاً فاضلاً تفقه بابيه وهو أحد مدرسي المدرسة المنصورية بالجند. وتفقه به جماعة من أهلها وأعاد إلى بلده فتوفي بها في السنة المذكورة وقبر إلى جنب فبر أبيه والله أعلم. وفي سنة إحدى وأربعين تسلمك السلطان نور الدين جبل خفاش وهو من

معاقل اليمن المشهورة في الجهلية والإسلام. وفيها توفي الفقيه الفاضل عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن زكريا في بداية الأمر ثم تلميذه وابن عمه محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن زكريا. فلما توفي محمد بن يوسف خلفه في التدريس هو وأخوه عبد الله بن محمد بن إبراهيم. وكانت وفاة الفقيه عبد الرحمن في السنة المذكورة. وتوفي ابن عمه محمد بن يوسف سنة خمس وعشرين وستمائة والله أعلم. وأما جده إبراهيم بن عبد الله بن محمد ابن زكريا. فكان فقيهاً عالماً محققاً مدققاً ورعاً زاهداً. تفقه بابيه عبد الله ابن محمد ثم بالظوري. وتفقه به جمع كثير من التهائم والجبال وهو أكثر الفقهاء المتأخرين أصحاباً حتى نقل الثقة عن الفقه إسماعيل بن محمد الحضرمي أنه قال لبني زكريا على غالب فقهاء اليمن منة او كما قال فإن غالب طرقهم في الكتب المسموعة عليهم. وانتشر عنه الفقه في اليمن انتشاراً متسعاً فمن أعيان تلامذة الفقه إبراهيم بن عبد الله المذكور موسى بن علي بن عجيل وعبد الله بن عجمان وعلي ابن قاسم الحلمي وعلي بن أبي قاسم

ومحمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن زكريا وغيرهم. وكان ورده في كل يوم سبعاً من القرآن واقتدى به في ذلك جمع كثير من أصحابه وكانت وفاته في سنة سبع وستمائة والله أعلم.

وفي سنة ٦٤٢ تسلم السلطان نور الدين حصن سمُاة في بلاد خولان. وفي ذلك يقول التاج بن العطار المصري وكان شاعر الملك المنصور رحمة الله عليه

ما سماءُ الدنيا على ابن علي ... ببعيد فكيف أرض سماؤه

ملكُ يومه لفتح مبين ... في الأعادي وليله للتلاوه

واستولى على بلاد علوان الجخدريّ وطرده إلى بلاد الخولان الشامية. واستولى على جميع اليمن الأعلى والأسفل ما خلا ذمرمر وبيت ردم وثلا وتلمص وظفار وكهلان بن تاج الدين والطويلة.

وفي هذه السنة توفي الفقه الصالح عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن زكريا وكان فقيهاً ماهراً في التدريس وهو المشار إليه في العلم والفضل والزهد ولما توفي في التاريخ المذكور خلفه ابن عمه محمد بن عمر بن يحيى بن زكريا. وكان فقيهاً فاضلاً وخطيباً كاملاً ولي خطابة زبيد سنتين وتوفي فيها السنة المذكورة والله أعلم. وفي سنة ثلاث وربعين توفي الفقيه المقرئ أبو بكر بن اسعد بن حسين. وكان فقيهاً صالحاً مقرباً حسن الصوت بقراءة القرآن فبلغ السلطان نور الدين خبره فاستدعاه في شهر رمضان ليشفع به فشفع به لیلتین أو ثلاث ليال. ثم مرض فلما اشتد به المرض عاد إلى بلده فتوفي بها في السنة المذكورة والله أعلم. ثم مرض أربع وأربعين توفي الفقيه العالم الإمام الفاضل القاضي أبو الخطاب عمر بن أبي بكر بن عبد الله ابن قيس بن أبي القاسم بن أبي الأعز النحوي اليافعي المعروف بالهزاز. وكان فقيهاً صالحاً وهو أحد القضاة المتورعين تفقه باه له اسمه عبد الله

غاب عني تاريخه. ولما امتحن القاضي المذكور بقضاء تعز سار فيه السيرة المرضية. فكان إذا مات أحد وله أولاد صغار أمر من يجهزه ويقضي دينه فإذا فضل شيء من تركته أمر المؤذن أن يصيح على سطح جامع المعزية المشرف على السوق إلا أن فلان بن فلان توفي إلى رحمة الله تعالى. وخلف من المال كذا وكذا ومن العيال كذا وكذا ومن الدين كذا وكذا فقضي الدين وبقي العيال كذا وكذا فقدر لهم الحاكم في كل شهر كذا وكذا. ثم إذا انفق عليهم في كل شهر أمر المنادي ينادي إلا أن اليتيم فلان بن فلان قد صرف من ماله كذا وكذا. وكان الناس يعرفون أموال الأيتام ومع من هي وما تصرف منها في كل شهر وما بقي لكل يتيم. وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد من القضاة ولا لحقه فيه أحد وأصابه في آخر عمره الفالج. فلذلك قيل له الهزاز ولم يزل على القضاء المرضي إلى أن توفي في تعز ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. وكان ميلاده لبضع وستين وخمسمائة. واصل بلده العقيرة. ولما توفي في التاريخ المذكور قبر عند حول مجير الدين عند مرتاع البقر في سوق مدينة تعز. وكان له أخ يسمى يوسف كان فقيهاً أيضاً توفي قبله بثمانية أيام. وأما مجير الدين فكان اسمه كافور التقي. وهو أحد خدام سيف الإسلام الملك العزيز طغتكين بن أيوب وكان يتعانى القراءة ومحبة أهلها وكان يحب العلماء ويحسن الظن بهم. وله اشتغال بطلب العلم الشريف وكان شيخاً في الحديث. وقد روي عنه جماعة من الفقهاء. وهو الذي ابتنى المدرسة المعروفة بالمجيرية في مدينة تعز هنالك تزار ويتبرك بالدعاء عنده. ولم اقف على تاريخ وفاته رحمه الله تعالى.

(٣٠/١)

وفي سنة ٦٤٥ استولى السلطان نور الدين على بلد العوادر وحصونهم. وبلغه عن الأمير أسد الدين بن أخيه أمور مستحسنة. فاستدعاه إلى جوَّة فاتاه. فلما صار أسد الدين في الجوَّة تخوف من عمه خوفاً شديداً فرجع هارباً. فلما بلغ السحول وجد الأمر قد شيع إلى الأمير ناجي صاحب السحول أن يمنع أسد الدين من طلوع النقيل فاشرف عليه ناجي من طاقة بيته وقال له: ارجع إلى عمك فلا سبيل لك إلى النقيل. وكان ناجي المذكور من نصحاء الدولة المنصورية فتحير الأمير أسد الدين وضاق ذرعاً وخشي من غائلة عمه. وكان الأمير أسد الدين يصحب الورد بن ناجي فطلبه وأعمله بما هو فيه من الأمر وأنه خائف من عمه فسلك به الورد بن ناجي طريق القفر ووصل به إلى ذمار من طريق وصاب. وكان دخوله ذمار في أول سنة ست وأربعين وستمائة.

وفي هذه السنة أعني سنة خمس وأربعين. توفي الفقيه الصالح يحيى بن فضل بن سعيد بن حمير بن جعفر بن أبي سالم المليكي. وكان مولده ليلة الاثنين لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وخمسمائة. وكان يتفقه بابيه وغيره وفتح له في العلم فارتقى فيه إلى درجة عالية وحاز منه نصيباً وافراً حتى قال الفقيه عمر بن سعيد العقيبي من العلماء المبرزين توفي ليلة الاثنين التاسع من

شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وتوفي الفقيه الإمام العالم أبو محمد علي بن عبد الله بن الفقيه بأخيه أحمد وبالفقيه إسماعيل الحضرمي. وأخذ عن ابن عمه يحيى بن عمر بن عثمان بن الفقيه محمد ابن حميد. وعن علي بن أبي بكر بن الفقيه محمد بن حميد وتفقه بن جماعة من أهل تعز وولي قضاء تعز. فكان ذا سيرة مرضية إلى أن توفي يوم الجمعة عيد الفطر من السنة المذكورة والله أعلم.

وفي سنة ٦٤٦ قام الإمام أحمد بن الحسين القاسمي فأقامه الزيدية. وكان قيامه في ثُلا في نصف شهر صفر من السنة المذكورة. وبث الدعوة في جميع الأقطار. فأجابه خلق كثير من ناحية اليمن. وأمر بالمحطة على حصون المخلافة. وكان واليها يومئذ القاضي شهاب الدين عمارة بن علي الأصبهاني من قبل السلطان نور الدين. وكانت حصون المخلافة يومئذ بأيدي الشرفاء أولاد يحيى بن حمزة فلما قام الإمام أحمد بن الحسين راسله الأمير أسد الدين على نصرته والقيام معه. فأجابه إلى ذلك وأقام الفتنة على عمه. فاقتضى الحال طلوع السلطان نور الدين لحربهما وقتالهما. وكان لا يملُّ الحرب فتجهز وطلع إلى صنعاء. فلقيه ابن أخيه الأمير أسد الدين إلى ذمار. فاستعطمه واعتذر إليه فرضى عنه وسار بين يديه إلى صنعاء فدخلها يوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. فأقام بها إلى يوم الأحد من شهر جمادى الأولى وخرج من صنعاء وحط تحت حصن كوكبان في موضع يقال له الهدادى. ثم طلع الضلع وحط في الرُّحام إلى خوشان. ويقسم المادة والتنفيس على حصون الخلافة. فحال دون ذلك السواد الأعظم من أهل المعازب. فعاد من الرحام إلى خوشان. وكان الإمام في ثلاَّ فكان القتال في العقاب تحت حصن ثلاَّ. وفي بعض الأيام يكون القتال تحت حصن من حصون المصانع. فوقعت بينهم حروب عظيمة. منها اليوم المعروف بيوم العقاب. قتل فيه من عسكر الإمام تسعون رجلاً بالنشاب. وكان أمير القتال يومئذ مبارز الدين علي بن الحسين بن برطاس. تولى القتال بعد ذلك الأمير أسد الدين. والسلطان في محطته بخوشان. ثم جهز عسكر إلى بلد بني شهاب. وكان مقدم العسكر الأمير عبد الله بن الحسن بن حمزة. فحط في حدَة وسباع وخالف معه بنو شهاب وبنو الراعي وأهل حضور فنهض السلطان نور الدين إلى بلد بني الراعي. وكانوا قد عَّمروا موضعاً يقال له حجر الجواد في جبل حضور فأخبره ورتب في جبل حضور عسكراً من الرجل. ومال إليه جماعة من بني الراعي. وذلك في شعبان من السنة ٦٤٦ المذكورة. ثم سار إلى جهة بني شهاب فأتلف زروعهم. ووقع هنالك حروب كثيرة ورجع السلطان إلى صنعاء فدخلها يوم الجمعة الثاني من شهر رمضان من السنة ٦٤٦ المذكورة.

(٣١/١)

ثم جهز السلطان ابن أخيه أسد الدين إلى بلاد هذاذ في السابع والعشرين من شهر رمضان.

فاستولى علي مصنعة بني خوَّال فقتلهم في شوال وقتل أهل علاَّنة في ذي القعدة واخرب ستارة في

آخر ذي القعدة. وخرج العسكر المصوريُّ من صنعاء إلى عَتمان فقتلوا جماعة من أهل عتمان في ذي القعدة أيضاً. ورجع الأمير أسد الدين إلى صنعاءَ فأقام بها أياماً. وخرج السلطان نور الدين من صنعاءَ إلى بلد بني شهاب في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة. فحط في الحقل غربي صنعاءَ وأمر العسكر فأخربوا زروع حدة وسباع ووقع هنالك.

وفي هذه السنة ٦٤٦ المذكورة عزل السلطان نور الدين الأمير فخر الدين السلاخ عن مكة وأعمالها وأمّر المسبب عوضه بعد أن أَلزم نفسه مالاً يؤديه من الحجاز بعد كفاية الجند وقود مائة فرس في كل سنة. فتقدم إلى مكة بمرسوم السلطان فدخلها وخرج عنها الأمير فخر الدين السلاخ فأقام ابن المسبب أميراً بمكة ست وأربعين والتي بعدها فغير في هذه المدة جميع الخير الذي وضعه السلطان نور الدين وأَعاد الجبايات والمكوس بمكة وقلع المربعة التي كانت للسلطان كتبها وجعلها على زمزم واستولى على الصدقة التي كانت تصل من اليمن وأخذ من المجد بن أبي القاسم المال الذي كان تحت يده لمولانا السلطان الملك المظفر وبني حصناً بنخلة يُسمى العطشان واستحلف هذيلاً لنفسه ومنع الجند النفقة فتفرقوا عنه ومكر مكراً فمكر الله به.

ولما تحقق الشريف أبو سعد منه الخلاف على السلطان وثب عليه وأخذ ما كان معه من خيل ومماليك وقيده وأحضر أعيان أهل الحرم وقال: ما لزمته إلا لتحققي خلافه على مولانا السلطان فعلمت أنه أراد أن يهرب بالمال الذي معه إلى العراق وأنا غلام مولانا السلطان والمال عندي محفوظ والخيل والعدد إلى أن يصل إليّ مرسوم السلطان فيه. فوردت الأخبار بعد أيام يسيرة بوفاة السلطان.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاصل أبو العقيق أبو بكر بن محمد بن ناصر بن الحسين الحميري نسباً وكان فقيهاً زاهداً ورعاً متقللاً عن الدنيا لا يلبس إلا ما يغزله حريمه من العطب الذي يجلب من تهامة ويكره عطب اليمن. ويقول بلغني أنه قد اغتصبها الملوك. ثم متى كل أعطاه نساجا تحقق دينه وأمانته لئلا يخلطه بغيره. وكان له حول لا يأكل إلا منه لأنه ورثه من أهله. وكان لا يقصر ثيابه بل ما تقدم منها جعله عمامة. وما كان جديداً جعله رداءاً. وكان إذا اقبل المسجد بالذنبتين أنار المسجد. حتى أن الذي يطالع في الكتاب يجد النور على كتابه فيرفع رأسه ليرى سبب ذلك فما يرى إلا الفقيه قد دخل المسجد ومناقبه كثيرة. وكان تفقه بالحسن بن راشد المقدم ذكره. وأخذ عن أبي الحديد وابن خديل ومحمد ابن اسعد بن ظاهر بن يحيى وغيرهم. وتفقه به جماعة منهم منصور بن محمد الأصبحي عم الفقيه محمد الأصبحي وعبيد بن أحمد الهشامي. وعنه أخذ محمد ابن أحمد بن خديل ولد شيخه. وكان فقيهاً محققاً. وله شعر مستحسن ومن شعره قوله

الوطءُ في دبر الحلال محرم ... ومخالف في خمسة أحكام

إذن وتعبين وحلّ مطلق ... والفيء والإحصان في الإسلام

وكان في عصره رجل من الصوفية متعاني الرقص اسمه عطية يسكن قرية الباقر يقول أن النبي صلى الله عيه وسلم كان يرقص سمع الفقيه ذلك عنه شق علي فقال قصيدة في ذلك المعني منها قوله

نبئت أن بهاقراً ظهرت به ... لعب الولايد معلما بزفير
حاشى لأحمدان يرى متلاعباً ... وعطية في ذاك غير خبير

ويروى أنه أصبح يوماً في حلقة تدريسه فجاءه بعض أصحابه فقال له رأيت في المنام كان فوق رأسك حمامات كثيرة متجمعات. وبينهن طائر له عليهن تمييز بالخلقة والصورة. فبينا أن أتعجب منه ومنهن إذ به قد غاب عنهن وظني أنه نزل في الأرض فحين فقدته الحمام أخذت في التفرق. فقال الفقيه أنا الطائر والحمام أصحابي.؟ ثم قال استعدوا للموت وأوصى ولم تطل مدته بعد لك فتوفي بعد أيام قلائل. وكانت وفاته يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(٣٢/١)

وفي سنة ٦٤٧ نهض السلطان نور الدين من محطته بالحقل إلى مخلاف صداء. فأخرب زرعه وتقدم إلى بيت نعامة وفيه الشرفاءِ وعسكرهم وبنو شهاب وبنو الراعي وأهل حضور إلى قرية داعر. فحاربهم السلطان هنالك وقتل جماعة منهم وأخرب القرية. وذلك في المحرم من السنة المذكورة. ولما كان يوم السابع عشر من المحرم المذكور طلع عسكر الإمام أحمد بن الحسين حصن كوكبان على حين غفلة من أهله. فلما استقلوا في رأسه خرج عليهم المرتبون فقتلوهم أبرح القتل. وكان الإمام قد أغار بكرة ذلك اليوم إلى كوكبان ووقف تحت الحصن فلما قتل عسكره عاد إلى حصن ثلاًّ من فوره وعاد مولانا السلطان نور الدين إلى صنعاء فأقام بها إلى يوم الثاني عشر من شهر صفر. ووصل إليه الأمير أحمد بن يحيى بن حمزة فخرج إلى لقائه فأكرمه ودخل به صنعاء وأنعم عليه بحصن تكريم.

تم تقدم السلطان إلى جهة اليمن فحط في قرة العين يوم الثلاثاء الثالث من شهر ربيع الأول وجعل طريقة على ينعم لقتال من فيها. وكان فيها الأمير عز الدين محمد بن الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبد الله بن حمزة والأمير أبو هاشم بن صفي الدين. فحاربهم العسكر المنصور وقتل من عسكرهم جماعة. ثم تقدم السلطان إلى جهران ومعه الأمير أسد الدين محمد ابن الحسن بن علي بن رسول مشيعاً لهُ. فاجتمع أهل بكيل وأهل غابين وأهل الصبح وأهل تلك النواحي وعسكر الإمام. ومقدمهم الشريف الضياء وكانوا نحو عشرة آلاف راجل ومائة وخمسين فارساً وأرادوا أن يمنعوا السلطان من التوجه إلى ناحية بكيل وركزوا في نجد النونة. فهزمهم العسكر المنصوري وقتل منهم كثيراً وأخرب غابين والصبح وكان ذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٧.

وفي سنة ٦٤٧ وصل الأميران موسى وداود ابنا عبد الله بن حمزة إلى ظهر في خيل ورجل. وكان في صنعاء أستاذ دار الأمير أسد الدين وهو عز الدين المهندس رتبة. فحارب الشريفين وطردهما من ظهر. وعاد الأمير أسد الدين إلى صنعاء من زمار بعد نزول السلطان نور الدين إلى اليمن فلزم

أهل البلاد وعسكر الإمام نقيل الغائرة ومنعوه من الطلوع إلى الكميم في لقاء الخزائن فاجتمعت شخيان البلاد كافة وعسكر الإمام وهموا بأخذ الخزائن وكانوا نحواً من أربعة آلاف راجل ومائة وخمسين فارساً فقاتلهم وهزمهم جميعاً. ثم خالفت عليه البلاد وأترق عسكره من غزو العرب وهربوا إلى الإمام ولم يبق إلا مماليكه. فما اكترث بشيء من ذلك ولا خطر له على بال. وكانت الحرب بينه وين الشرفاء سجالاً على قلة عسكره وإقبال الناس على الإمام. ثم كانت وقعة قارن بين الإمام أحمد بن الحسين وبين بني حمزة. فقتل من بني حمزة طائفة واسر طائفة وكان يوماً مشهوراً. وهو يوم الأربعاء ١٤ من شهر شوال من السنة المذكورة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصلح عبد الله المازني وكان فقيهاً مشهوراً صالحاً ورعاً نفقه بعمر بن سعيد العقبي وكان صالحاً تقياً ولما توفي في التاريخ المذكور ودفن وقف شيخه على قبره ساعة وهو مصغ إلى القبر ثم قال بشرني والله يا تاج بشرني يا تاج فسأله بعض أصحابه عن موجب ذلك فقال لم أر من سبق الملكين قبل أن سألاه غير هذا. وكان الفقيه يلقبه بالتاج وكانت وفاته في رجب من السنة المذكورة. وفيها توفي الشيخ أبو موسى عمران الصوفي وكان من أعيان مشايخ الصوفية صحب الشيخ عليا الحداد بحق صحبته للشيخ عبد القادر الجيلاني. كان لزوماً للسنة نفوراً عن البدعة متعلقاً بأذيال العلم وله كرامات كثيرة. ويروي أنه اشتغل يوم جمعة بصلاة فلم يزل في قيام حتى فاتته الجمعة وانقضت فلزم الخلوة واعتكف فلم يزل في قيام وصيام حتى وافقته الجمعة الأخرى. وكانت وفاته في السنة المذكورة.

(٣٣/١)

وفي هذه السنة استشهد السلطان نور الدين رحمة الله عليه في قصر الجند ليلة السبت التاسع من ذي القعدة. وثب عليه جماعة من مماليكه فقتلوه. وكان استكثر من المماليك حتى بلغت مماليكه البحرية ألف فارس. وقيل ثمانمائة. وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم في العدد خارجاً عن حلقته وعساكر أمرائه. ويقال أن الذي شجعهم على ذلك وآنسهم ووعدهم بما اطمأنت إليه نفوسهم ابن أخيه أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول. وذلك أنه كان مقطعاً صنعاء من قبل عمه المنصور ثم أراد أن ينزعه منها ويجعلها لولد شمس الدين يوسف المظفر. فعزَّ ذلك كثيراً على أسد الدين فعامل المماليك على قتل عمه فقتلوه في التاريخ المذكور فلم ير أسد الدين بعد قتل عمه يوم سعد أبداً. تجري التقادير على خلاف التقادير.

ويروى أنه لما رجع السلطان نور الدين رحمة الله عليه من حرب الإمام ودخل مدينة الجند وصل إليه رسول من ملك الهند قبل وفائه بيومين أو ثلاثة أيام. فحضر في مجلس السلطان وأدى رسالة مرسله. فأكرمه السلطان وأنعم عليه. فلما خرج قال لترجمانه. قد قرب أمده إلا أنه أبو ملك وجد ملك

ومن ذريته ملوك. ثم قال قولاً بالعجمي فوجده. يأخذها ذو شامة من بعده ويلتقيها مسعد من بعده لا تنقضي من نسله وولده.

وكان السلطان نور الدين ملكاً كريماً حاذقاً حليماً حسن السياسة سريع النهضة عند الحادثة وكان شريف النفس عالي الهمة فارساً شجاعاً مقاماً محراباً لا يمل الحرب. ومن الدلائل على ذلك طرده العساكر المصرية عن مكة المشرفة مرة بعد أخرى. ولم يقنعه استقلاله باليمن بعد أن كان نائباً لهم فيها بل قاتلهم عن مكة وطردهم عنها وعن الحجاز. واستمال عدة من عساكرهم. وممن استماله من الأمراء الأمير مبارز الدين علي بن الحسين ابن برطاس والأمير فيروز الذي ذريته الأمراء بنو فيروز أصحاب أب قال الجندي: ويقال أن الأمراء بنو فروز تديروا أباً من زمن قديم يعني من قبل أيام الملك المنصور. والله أعلم.

ولما قتل السلطان نور الدين في مدينة الجند ولم يكن يومئذ أحد من أولاده حاضراً بل كان الملك المظفر في المهجم واخوته ووالدتهم في حصن تعز بسبب جهاز الست عازبة ابنة السلطان الملك المنصور عروساً على شريف من أهل مكة فانتقلت بهم إلى الدملؤة فاجتمع بنو فيروز وحملوا السلطان في محل وقصدوا به تعز فدفنوه في المدرسة الأتابكية بذي هزيم لكونه كان مزوجاً على بنت الأتابك سفر المعروفة ببنت حوزة. وكان مولانا السلطان الملك المظفر رحمة الله عليه يعرف ذلك لهم ويشكرهم على ما فعلوا ولذلك اقطعهم لإقطاعات الجليلة وحمل لشمس الدين طبل خانة ولأخيه فخر الدين أخرى وكانت له عندهم حظوة عظيمة.

(٣٤/١)

وكان السلطان نور الدين رحمه الله قد أثر آثاراً حسنة فما أثره المدرسة التي بمكة المشرفة بحيث يغبطه عليها سائر الملوك. وابنتي في مدينة تعز مدرستين تعرف إحداهما بالوزيرية نسبة إلى مدرسها الوزيري والثانية الغرابية نسبة إلى مؤذنها وكان رجلاً صالحاً اسمه غراب كان مؤذناً فيها. وابتني مدرسة في عدن. وابتني في زبيد ثلاث مدارس يعرفن بالمنصوريات مدرسة الشافعية ومدرسة الحنفية ومدرسة الحديث النبوي. وابتني مدرسة في حد المنسكية من وادي سهام. ورتب في كل مدرسة مدرساً ومعيداً ودرسه إماماً ومؤذناً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن. ووقف على الجميع أوقافاً بعيدة تحملهم وتقوم بكفايتهم جميعاً. قال الجندي: وابتني في كل قرية من التهائم مسجداً ووقف عليها أوقافاً جيدة. وكان النوري مفازة عظيمة فيما بين حس وزبيد هلك الهارون فيها فأبتني فيها مسجداً وجعل فيه إمامين واشترط لمن يسكن معهما مسامحة فيها يزرعه فسكن الناس معهما حتى صارت هنالك قرية جيدة وانتفع الناس بها نفعاً عظيماً. قال علي ابن الحسن الخزرجي. وأظنها إنما سميت النوري نسبة إليه لكونه الذي أحيي ذلك الموضع وكان يلقب نور الدين كما ذكرنا. والله أعلم. وابتني بين المدينتين حصوناً كثيرة ومصانع ورتب فيها الرجال. وآثارها هنالك إلى عصرنا هذا وأمر

بعمارة البرك وهو جبل متصل بالبحر فيما بين مكة واليمن ورتب فيه العساكر الجيدة لمحاربة بني أيوب. وأرسل الشيخ معيبد بن عبد الله الأشعري صاحب رفح إلى الشيخ موسى بن علي الكتاني صاحب حَلْي ابن يعقوب بأن يتصدى لمحاربة بني أيوب. وكان موسى بن علي الكتابي ممن يضرب به المثل في الجود والكرم. فلما وصل إليه الشيخ معيبد برسالة السلطان نور الدين سمع وأطاع. وقال: أي شيءٍ تحملني من ضيافة هذا الرجل يعني معيبداً. فقاد إليه خمسين فارساً فقادها معيبد بأسرها إلى السلطان نور الدين. فأثنى عليه عنده وقال صاحب هذه النفس يصلح لمن يجري عليه اسم الأمير فأَجرى عليه اسم الإمارة من ذلك الوقت.

وكان للسلطان نور الدين من الولد ثلاثة رجال وهم المظفر والمفضل والفائز. وكان المظفر أكبرهم. وظهر في أيام أميرية أبيه في مكة المشرفة سنة تسعة عشر وستمائة وقيل سنة عشرين وستمائة وهو الذي تولى الملك بعد أبيه وكان أبوه قد أقصاه وقدم أخويه عليه موافقة لأُمهما بنت حوزة وكانت قد غلبت عليه حتى أنه استحلف العسكر لابنه المفضل وهو أصغر من المظفر.

وكان شاعره التاج بن العطار. وهو أحد فضلاء أهل مصر والأديب محمد بن حمير أحد فضلاء أهل اليمن فاجتمعا يوماً في مجلس الشراب. فقال له أبن العطار يا مولاي إني شاعرك من الديار المصرية وأراك تفضل أبن حمير عليَّ وتنعم عليه أكثر مني. فقال له السلطان أنه حاضر القريحة سريع البديهة وأنتم يا أهل مصر وإن كنتم أهل فضل وأدب فإنكم تبطئون. ثم التفت إلى أبن حمير وقال له. ما تقول: فالتفت ابن حمير إلى أبن العطار وقال ارتجالاً:

متشعر بعمامة معقودة ... لو بعثرت ملت الفضاء خميرا

وأبوك عطار فما بال ابنه ... يهدي الصنان إلى الرجال بخورا

قال وكان به شيء من ذلك. فضحك السلطان نور الدين وقال: أجبه فأفحم. وحضر في مجلس الشراب يوماً عند السلطان نور الدن وكان عنده يومئذ ابن أخيه الأمير أسد الدين. وكان للأمير أسد الدين شاعر من أهل المشرق يقال له علي بن أحمد فجعل أسد الدين يثني على شاعره المذكور. فقال السلطان نور الدين لابن حمير ما تقول. فقال ارتجالاً.

أنا البحر فياضاً بكل غريبة ... أحلى بها المنصور درّاً وجوهرا

وما أن أبالي عن عليّ بن أحمد ... وعن شعره ذقن ابن أحمد في المسك

فقال له السلطان نور الدين: وما منعك من قافية الراءِ. قال خوف ابن أخيك هذا: وكان ابن حمير شاعراً فصيحاً جيد القريحة حسن البديهة وهو القائل في مدح مولانا السلطان نور الدين حيث يقول:

قد قيل جاورْ لتغني البحر أو ملكاً ... أنت المليك وأنت البحر يا عمرُ

ما حاز ما حزت لا عربُ ولا عجم ... ما شاد ما شدت لا جن ولا بشرُ

إذا الجدود بهم أبناؤهم شرفوا ... أو فاخروا فبك الأجداد تفتخرُ

والكل أنت وفيك السر أجمعهُ ... فلا يغرَّنك أن غابوا وإن حضروا

عزُّوا بعزّك أولاهم وآخرهم ... كما بأحمد عزت كلها مضرُ

وقال أيضاً يمدحه من قصيدة أخرى

قل للقوافي قفي على عمر ... إياك أن تخدعي فتنخدعي

حولي المكان الرفيع توفعي ... ولا تحولي الوضيع تتضعي

من خمدت ناره أن أبا ... أحمد نيرانه على السفعِ

وكان السلطان نور الدين حنفي المذهب ثم انتقل منه إلى مذهب الشافعي. قال الجندي في تاريخه: أخبرني شيخي أحمد بن علي الحرازي بإسناده عن الإمام أبي عبد الله محمد بن إبراهيم العسلي المحدث بزبيد وكان أحد شيوخ المنصور. أخبرني السلطان نور الدين المنصور من لفظه أنه كان حنفي المذهب فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول له يا عمر صرت إلى مذهب الشافعي. أو كما قال: فأصبح ينظر في كتب الشافعي ويعتمد مذهبه. وكان يصحب الشيخ والفقيه صاحبي عواجة وهما ممن يشده بالملك. وصحب الفقيه محمد بن إبراهيم العسلي. وقرأ عليه وكان يحب العلماءَ والصالحين. وآثاره وأفعاله حميدة رحمه الله تعالى.

الباب الثالث

أخبار الدولة المظفرية وفتوحها

قال علي ابن الحسن الخزرجي: لما توفي مولانا السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول في التاريخ المذكور سار المماليك بأجمعهم إلى محروسة زبيد ثم ساروا منها إلى فشال: وكان فيها الأمير فخر الدين أبو بكر بن علي بن رسول مقطعاً بها من عمه السلطان الشهير نور الدين عمر بن علي بن رسول فلقبوه الملك المعظم وحلفوا له وقصدوا مدينة زبيد. وكان فيها يومئذ ذات الستر الرفيع الدار الشمسي كريمة مولانا السلطان الملك المظفر ووالدته والطواشي تاج الدين بدر الملقب بالصغير. وكان مسجوناً في سجن زبيد حبسته بنت حوزة لكونه كان محب الملك المظفر فأَخرجته الدار الشمسي من السجن وأعطته مالاً جزيلاً. فاستخدم الرجال وأمرته بإغلاق أبواب المدينة وحفظها وحراسة أَسوارها. فرتب المقاتلين على الدَّرب وحارب المماليك والأمير فخر الدين على كره من أمير المدينة وناظرها. وكان الأمير يومئذ مملوكُ اسمه قانمان والناظر غريب يعرف بالشرف. وكان السلطان الملك المظفر يومئذ غائباً في إقطاعه بالمهجم وكان غير طيب النفس من والده لما قدَّم عليه أخوته المفضل والفائز. وكانت أمهما بنت حوزة قد استمالته وغصبت عليه وأقصت ولده السلطان الملك المظفر وكريمته الدار الشمسي عن أبيهما حتى أنه حلَّف العسكر لولده المفضل. فهم السلطان الملك المظفر تلك السنة بالخروج عن اليمن والمسير إلى الخليفة المستعصم بالعراق. فلما بلغه الخبر بوفاة والده شق عليه وانثنى عزمه عن الخروج من اليمن وتحير في أنه ضاق ذرعاً لما عرض له من الحوادث العظيمة والخطوب الجسيمة من فقد والده وانحياز

المماليك بأَسرهم إلى ابن عمه فخر الدين وحصارهم لزبيد وأسد الدين على صنعاءَ وأعمالها وقيام الإمام أحمد بن الحسين في البلاد العليا وانتشار صيته واستيلائه على معظم البلاد العليا وحصونها واستيلاء أخويه المفضل والفائز على الحصون والمدائن والخزائن ولم يكن في يده إلا قائم سيفه إلا أن القلوب مملوءَة بمحبته.

قام مشمراً وجمع من معه من العسكر واستخدم من العرب خيلاً ورجلاً. وخرج من المهجم بإشارة الشيخ أبي الغيث بن جميل وسار إلى وبيد بجد وجد وتوفيق وسعد. وكان من دلائل سعادته أنه لما عزم على المسير أمر بتحميل آلته وخزانته فلما شرعوا في التحميل أخرجوا صندوقاً مملوءاً ذهباً ووضعوه ورجعوا للآخر. فمر رجلان من العرب فاحتملا الصندوق الأوَّل. فلما خرج الخزانون بالصندوق الآخر فقدوا الأول فلم يجدوه فوقفوا متحيرين فانتهى العلم بذلك إلى السلطان فطلب مشائخ العرب وأمَّرهم باقتفاء الأثر: فخرجوا من فورهم يطلبون الأثر فما برحوا يقصون الأثر حتى وقفوا على اثر مبرك الجمل الذي حمل عليه الصندوق فوقفوا ينظرون يميناً وشمالاً فرأوا موضعاً هنالك على غير هيئة غيره: فنبشوه فوجدوا الصندوق ما فضَّ له خاتم فحملوه ورحبوا به فكان هذا من أعظم دلائل الفتح والسعادة.

(٣٦/١)

وكان خروج السلطان من المهجم في عساكره المنصورة في ٢٨ من ذي القعدة سنة ٦٤٧ ولم يزل المحطة والحصار على زبيد إلى أن علموا أن السلطان قد صار في الطريق قاصداً زبيداً فارتفعوا حينئذ ولما خرج السلطان الملك المظفر من المهجم إلى زبيد كان كلما مرَّ بقبيلة من العرب استخدم خيلها ورجلها وسار في خدمته من رؤساء العرب علي بن عمران القرابلي والشيخ محمد بن ذكري الحدقي والشيخ أحمد بن أبي القاسم وكان شيخ مشائخ سرود وحضر الفقيه يحيى بن العمك وكان مقدم الرماة: وخرج الشيخ ذكري بن القرابلي على هجين راكباً: فقال له الشيخ علي بن أبي بكر السودي وكان يلقب مخلص الدين وهو وزير مولانا السلطان. يا شيخ ذكري تكون من اكبر الجند وتركب على هجين وحق رأس مولانا السلطان لأركبن بغلة فخر الدين أن انعم الله بها على مولانا السلطان. قال له: قد انعم الله بها عليه. قال: فسوف نرى وكان جملة عسكر مولانا السلطان مائة وخمسين فارساً وألفي راجل وكان فخر الدين في ستمائة من المماليك وألف راجل ولما صار السلطان في أثناءِ الطريق لقيه بزوال من قال له هذا فخر الدين في الجم الغفير على عدوة الوادي قال فنهنه العسكر فركب السلطان حصاناً شديداً أشقر وأخذ قناة في يده. وكان فارساً حسناً فعطف رأْس حصانه وقال يا عرب أين تفرون عنا. أما ترضون أنفسنا بأنفسكم ثم جعل يقول أنا يوسف. قال: فوا الله لقد رأَيتكم في عسكر يتزايد إلى الإقدام كما يتزايد البحر.

ولما علم الأمير فخر الدين ومن معه من المماليك بمسير السلطان الملك المظفر نحوهم اضطربوا

اضطراباً شديداً وعزم فخر الدين على طلوع الجبل واللحاق بأخيه إلى صنعاءَ فاجتمع رؤساء المماليك وأعيانهم الذين لا ذنب لهم وهم الأكثر وكتبوا إلى مولانا السلطان كتاباً يطلبون فيه الذمة فأذمَّ لهم السلطان على أن يلزموا الأمير فخر الدين والجماعة الذين قتلوا فأجابوا على ذلك ولزموا الأمير فخر الدين وهو في خيمته وقطعوا طنباً من إطنابه وكتفوه به وساروا بأجمعهم إلى السلطان بعد أن لزموا الجماعة الذين قتلوا السلطان هذه رواية الجندي وقال صاحب العقد الثمين كان السبب في لزمه أن فخر الدين لما علم بمسير مولانا السلطان نحوه كاتبه وراسله وبذل له الطاعة وتسليم المماليك وهو يقول: لا تجمعوا علينا بين قتل أبينا وإخراج الملك من أيدينا فامتثلوا أمره واستمعوا قوله وقيدوا فخر الدين وساروا به إليه.

وحكى صاحب العقد الثمين أيضاً قال. وسمعت من مولانا السلطان يقول: كان السبب في لزم المماليك للأمير فخر الدين انهم خرجوا من المحطة يتطلعون الأخبار فوافاهم بريد الأمير فخر الدين ومعه كتب منه إلينا بما يسؤهم. فعادوا إلى المحطة ولزموه ووصلوا به تحت الحفظ.

وكان الأمير شمس الدين علي بن يحيى العنسي ظاهره مع السلطان وباطنه مع الأمير أسد الدين وأخيه. وكان شاعراً فصيحاً كريماً واصله من عنس قبيلة من مذحج فكتب إليه الأمير أسد الدين يحثه فيه على القيام ويحرضه على فكاك أخيه فخر الدين وفيه يقول:

لو كنت تعلم يا محمد ما جرى ... لشتتنها شعث النواصي ضمرا

ترمي بها دربي تَعِزَّ على الوحي ... لتنال مجداً أو تشيد مفخرا

لابد أن تنجي أخاك حقيقة ... منها وأما أن تموت فتعذرا

أن ابن برطاس تمكن فرصة ... آهٍ على موت يباع ويشترى

صح يال حمزة تأْت واخصص احمدا ... لتخص من بين النجوم الأزهرا

يعني الإمام أحمد بن الحسين والغالب عندي أنه غنما يعني الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور عبد الله بن حمزة فإنه كان يومئذ رئيس بني حمزة. والله أعلم.

لما وصل المماليك بالأمير فخر الدين إلى السلطان الملك المظفر أذم عليهم وآنسهم من نفسه كثيراً. وسار يريد محروسة زبيد فكان دخوله زبيدا في ١٠ ذي الحجة سنة ٦٤٧ في موكب عظيم وعليه جلالة الملك وأبهة السلطنة فلما قعد على السماط واستقر في دار الملك قامت الشعراءُ بالمدائح يهنئونه بالملك فانشد الشعراءُ شيئاً كثيراً وقام الفقيه سراج أبو بكر بن وعاس من جملة الحاضرين يهنئ السلطان بما فتح الله عليه فقال:

أن غاب أفق الملك عن أفق العلا ... فانظر ضياءَ الشمس قد ملأ الملأ

أو كان جفن الملك أمسى ارمدا ... فاليوم أصبح بالمظفر اكحلا

لا تجزع الدنيا لفقد مليكها ... رزئت برضوي واستعاضت يذبلا
ما كان رزءُ الملك إلا غيهبا ... غم الورى واتاه صبح فأنجلا
بالملك عاد الكسر جبراً وانثني ... جيد العلا حالٍ وكان معطلا
هي دولة غرا وهذا مالك ... أضحى الزمان به أغر محجلا
لم يرض غيرك يا أبا عمر لها ... فاستجلها أن العرائس تجتلى
مازلت معترفاً بنعمة ربها ... متضرعاً لقدومها متبتلا
أو ما تراها في زبيد تزدهي ... وتميس في حلل المفاخر والحلا
أمهرتها وافي الصداق فما لها ... كفوءُ سواك ولا تريد تبدلا
جاءتك طائعة ولم تهزز لها ... رمحاً ولم تشهر عليها منصلا
فل للذي رام التملك جاهلا ... وسعى فضلَّ عن الطريق وضللا
ما أنت والملك الذي لا سرُّه ... باد عليك ولست فيه مؤَهلا
ارجع إلى كاس الطلا ودع الغلا ... للمغمد الأسياف في هام الطلا
ولصاحب الجيش الذي سد الفضا ... وفلا بحد السيف ناصية الفلا
وأعاد ريحك حين هبت أزيبا ... نكبا بريح منه هبت شمالا
أولى الورى بالملك والده الذي ... ما انفك في نسب المفاخر أولا
هي دولتي وأنا الذي أَملتها ... والله يعطي عبده ما أملا

ولما قبض السلطان الملك المظفر على الأمير فخر الدين ودخل المدينة زبد كما ذكرنا واستقر ملكه فاجتمع له عسكر أبيه واحتملت حواصل التهائم وانشرح صدره وطابت نفسه استأْذنه مشايخ العرب في الرجوع إلى بلادهم فقعد لوداعهم في قاعة سيف الإسلام ودخلوا عليه للوداع فوهب للشيخ ذكرى بن القرابلي بغلا من دواب الأمير فخر الدين يسمى الدراج ووهب للشيخ علي بن عمران القرابلي بالمقصرية وكتب للشيخ محمد بن أبي ذكرى بلعسان وكساهم وانعم عليهم واحسن جوائزهم فعادوا إلى أوطانهم فرحين مسرورين.

وفي سنة ٦٤٨ استولى السلطان الملك المظفر على تهامة بأسرها وأطاعه أهلها وحملت إليه حواصلها وخرج من مدينة زبيد إلى عدن فسار طريق الساحل فاستولى عليها وعلى الحج وأبين في صفر من السنة ٦٤٨ وتسلم حصن يمين ومنيف وحصون بلاد المعافر جميعها في صفر من السنة وكان أول بلد دخله من البلاد جباء فلقيه القاضي محمد بن أسعد الملقب بالبهاء واختطب له بها فهي أول بلد اختطب له فيها من الجبال.

ثم حط على حصن تعز في شهر ربيع الأول من السنة ٦٤٨ وكانت محطته في الموضع بدار السعيدة وهو بالجبل فيما بين الجاهدية وعسق وكتب إلى الشيخ علوان بن سعيد الجحدري يطلب منه رجالاً من مذحج فوصله بجيش جرار فأقام محاصراً للحصن إلى أن تسلمه في شهر جمادى الأولى من السنة ٦٤٨ بخديعة منه وذلك أنه قبض في يوم من الأيام بريداً جاءَ من المفضل ووالدته من

الدملؤة إلى أمير الحصن وزمانه وكان أمير الحصن يومئذ علم الدين الشعبي والزمام أستاذ يقال له عنبر فلما قبض البريد أخذ ما معه من الكتب وفضها وأمر من زوَّر على الخط حتى القنه ثم كتب إلى الأمير علم الدين الشعبي على لسان المفضل ووالدته أن يقبض الزمام ويسجنه وكتب إلى الزمام بمثل ذلك وجعلت أوراقه بين أوراق البريد ووهب للبريد ما أرضاه ووعده بالخير وتقدم البريد بالكتب إلى الحصن فلما قبض الأمير والزمام على ما كتب به إليه همَّ كل واحد منهما بصاحبه وكانا متصافيين ثم انهما اجتمعا واطلع كل واحد مهما على ما عنده فاتفقا على أن يكتبا معاً إلى المظفر ويتوثقا لأنفسهما منه ففعلا وسلما إليه الحصن في جمادى الأولى من السنة ٦٤٨ فجعل الخادم زماماً لبنت أسد الدين وكان خادماً فيه خير ونال الشعبي عنده حظوة عظيمة ثم أنه أَقطعه صنعاءَ فلم يزل بها إلى أن توفي وقيل أقام السلطان محاصراً للحصن نحو ستة اشهر فلما طال مقامه كتب إلى خالته بنت حوزة يسألها أن تسلم إليه حصن تعز ويكون ولده الأشرف معها وأخوه وأمهما رهائن عندها وأرسل بهم إليها فكتبت إلى الأمير بتسليم الحصن إليه فتسلمه منه ثم تسلم حصن حب في رجب من السنة ٦٤٨ وفي ذلك يقول الأديب جمال الدين محمد بن حمير حيث يقول

وان ملك ولي فذي دولة ابنه ... وفي يوسف نعم الخليفة عن عمر
أغاربها من بكن ملحاءَ غافق ... محجلة الأرساغ واضحة الغرر
ونادت زبيد يا مظفر مرحباً ... أَضاءَ بك النادي وقربك المقر

(٣٨/١)

وسار إلى حب وحبُّ يحبه ... وما حب يعصيه ولو شاءَ ما قدر
حصون أَتته وهي بالشرع إرثه ... وبالسيف ليس السيف إلا لمن قهر

وفي أثناءِ هذه المدة المذكورة اتفق الإمام أحمد بن الحسين والأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبد الله بن حمزة وقصدا الأمير أسد الدين محمد ابن الحسن إلى صنعاءَ فخرج منها وطلع حصن براش وكان خروجه من صنعاء يوم الثاني من جمادى الأولى من السنة ٦٤٨ ودخل الإمام صنعاء يوم السابع من الشهر المذكور ودخل معه كافة الإشراف وأجابته القبائل واستولى على صنعاء وأعمالها ثم على ذمار وجهاتها وكان الأمراء الحميريون وهو غير واثق بهم وهم كذلك.

قال صاحب العقد الثمين وأقام الأمام في صنعاء نحواً من سنة والأمير أسد الدين في براشٍ يغاديهم بالقتال ويراوحهم وقد اجتمعت عليه العرب مع الإمام فلما طال عليه الأمد واشتد عله الأمر راسل الأمير شمس الدين أحمد ابن الإمام على أن يصلح بينه وبين الإمام فأشار عليه الأمير شمس الدين بالرجوع إلى مولانا السلطان وملازمته والارتسام تحت أمره ثم التقى الأمير أسد الدين والأمير شمس الدين إلى الجبوب واتفقوا على أن الأمير شمس الدين يسعى في الصلح بين الأمير أسد الدين وبين الإمام وإن الإمام يجهز الأمير أسد الدين إلى اليمن لحرب ابن عمه السلطان الملك المظفر فإذا

صار قريباً من السلطان سعى من سعى في الصلح بينه وبين السلطان فاتفق الأمر على ذلك وسعى من سعى في الصلح بينه وبين الإمام فاصطلحوا على ذلك واتفقوا وانتزم الأمر وتجهز الأمير أسد الدين وسار في صحبة الأمير أحمد بن علوان وغيره من بني حاتم وجهز الإمام معه أيضاً الأمير عبد الله بن سليمان بن موسى في مائة فارس وخرج الأمير أسد الدين في عسكر عظيم ولم يزل سائراً حتى حط في الشوافي فلما علم به السلطان الملك المظفر خرج في عسكره حتى حط مقابلاً له فسعي بينهم في الصلح بنو حاتم وغيرهم حتى انتظم وغيرهم حتى انتظم أمر الصلح وكان اللقاء في الموسعة وركب السلطان فرسه المشمر واقبل في جلال ملكه واحتفال جنده وكثرة عسكره واقبل الأمير أسد الدين يمشي راجلاً فلما قرب ترجل له السلطان وتسالما وهما راجلان ثم ركب السلطان وسار الأمير أسد الدين قدامه راجلاً وحمل الغاشية بين يديه حتى دخل على السماط فلما بلغوا المرتبة الشريفة قال السلطان للأمير أسد الدين بسم الله يا أمير فقال: حاشاك يا مولانا هذا موضعك وموضع أبيك وهذا موضعي وموضع أبي. ثم انتزم الأمر على ما شرعوه من الصلح وخرج له من الأنعام العميم ما هالهُ حتى قال ليت شعري هل أبقى مولانا السلطان في خزائنه شيئاً.

ثم أن السلطان رحمه الله عليه جهز مادة مائة فارس إلى صنعاء وجعل مقدمهم الناسف اليحييّ ثم ورد أمره على الأمير أسد الدين بالعود إلى صنعاءَ فسار مبادراً في عسكره وأصحابه ولما بلغ الإمام العلم بذلك جهز عسكره إلى نقيل الغائرة وظن أنهم يمنعون عسكر السلطان من طلوع النقيل فلم يقم عسكره في وجه العسكر المظفري ساعة واحدة فلما علم الإمام بوصول أسد الدين في العساكر المظفرية خرج من صنعاء إلى سباع بعد أن أخرب قصر الأمير أسد الدين وقصر أخيه الأمير فخر الدين وترك السيد الحسن بن الوهاس الحمزي وأخاه وغيرهما من الأشراف والعرب رتبة في صفوة فقصدهم الأمير أسد الدين في العساكر السلطانية فأخذهم برقابهم وأطلعهم حصن براشٍ ثم طلع السلطان صنعاء في ذي الحجة من سنة ٦٤٨ وفي سنة ٦٤٩ رجع السلطان من صنعاء إلى اليمن وفيها تسلم حصن التعكر في أول المحرم سنة ٦٤٩.

وفي آخر الشهر المذكور وصل العلم بقدوم الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول من مصر وقدوم أخيه فخر الدين أبي بكر بن علي بن رسول فأوجب ذلك الصلح بين السلطان وبين الإمام فاصطلحا.

(٣٩/١)

ثم أن مولانا السلطان كتب إلى كافة النواب بالتهائم بإكرام عميه وألقيتم بحالهما وكتب إلى عمته المعروفة بالنجمية وهي يومئذ بالتعكر يقول لها أن رأيت أن تلقى اخوتك فافعلي ففرحت بوصولهما فرحاً شديداً لأنها كانت تبرُّ أهلها خاصة والناس عامة وكان محمد بن خضر قد صار من خلف السلطان وأمه زهراءَ بنت الأمير بدر الدين وكانت من أعيان النساء حازمة لبيبة وهي التي ابتنت

المدرسة المنسوبة إلى بني خضر بقرية الحبال وفيها قبرها وقبورهم وكان محمد بن خضر قد أساءَ إلى السلطان وخالف عليه خلافاً ظاهراً ثم عاد عن ذلك فقال له السلطان يا محمد انزل مع جدتك والق جديك فنزل مع الدار النجمي وجهزها السلطان أتم جهاز ولما نزلوا نزل السلطان بعهم فلقي عميه في حيس فخرجا في لقائه قلما توجهوا ترجل بعضهم لبعض وتسالموا ثم ركبوا خيولهم ودخلوا إلى مدينة حيس فلما استقرَّ بهم القرار أمر السلطان بالقبض على عميه المذكورين بدر الدين وفخر الدين وعلي محمد خضر وقيدهم وطلع بهم مقيدين ثم تمثل بقول الأول

أقول كما يقول حمار سوءٍ ... وقد ساموه حملاً لا يطيق

سأصبر والأمور لها اتساع ... كما أن الأمور لها مضيق

فأما أن أموت أو المكاوي ... وأما ينقضي عني الطريق

فلما دخلوا دار الأدب المذكور وجدوا فيه الأمير فخر الدين الصغير أبا بكر بن الحسن بن علي بن رسول وكان أول من سجن منهم فكتب الأمير شمس الدين علي بن يحيى إلى الأمير شمس الدين يحقق له ما كان من الأمر وفي أثناء ذلك يقول:

ودادي ذلك الود القديم ... وعهدي ذلك العهد القديم

وبين جوانحي مما أراه ... جحيم منه تحترق الجحيم

وقلت قدوم بدر الدين فيه ... لنا فرح فما نفع القدوم

فبلغ خبره إلى مولانا السلطان فأغضى عنه وكان يكرمه ويقطعه الإقطاعات النفيسة ولا يظهر له شيئاً مما يبلغه. وفي هذه السنة ٦٤٩ تقدم المجد بن أبي القاسم برسالة الشريفة المظفرية إلى المواقف المطهرة العباسية ببغداد وقيل كان الرسول إلى بغداد الأمير عز الدين جعفر بن أبي القاسم فسار على طريق براقش إلى العراق واتخذ الأدلة من البادية وسلك طريق الرمل على الرواحل البحرية فحكى ابن أخيه ساروا من براقش إلى العراق أربعة عشر يوماً فلما حضر مقام الخليفة ببغداد عرض الكتاب وقرأه الخليفة المستعصم ودعا لمولانا السلطان الملك المظفر فأمر الخليفة أن يكتب له منشور وولاهُ العهد.

ثم قال الخليفة انظروا كم جائزة صاحب اليمن فقالوا عشرة آلاف دينار فقال عز الدين بن أبي القاسم وكم جائزة صاحب مصر فقالوا أربعين ألفاً فقال لا أقبل لمخدومي دونها فقال له الوزير أن إقليم مصر أكبر من إقليم اليمن فقال عز الدين ما كان في اليمن من نقص فإن أوصاف مخدومي يجبره فقال الخليفة لقد سررنا بمقالتك ثم التفت إلى الوزير وقال اخبروه بجائزة صاحب مصر.

ثم كتب الخليفة إلى السلطان كتاباً يأمره فيه باستئصال الإمام أحمد ابن الحسين وأكد الوصية على الأمير عز الدين في ذلك ثم سار ابن أبي القاسم وسار معه رسول الخليفة فلما وصل إلى السلطان البسه الخلعة وقرأ له المنشور وولاهُ العهد بوكالة المستعصم له في ذلك وسلم له الإجازة وأقام في دار الضيافة فحمل له السلطان ما يستغرق الجائزة وغيرها.

ولما قتل الإمام أحمد بن الحسين كما سيأتي ذكره أن شاءَ الله تعالى كتب مولانا السلطان إلى الخليفة

يعلمه بذلك فلما بلغ الرسول براقش لقيه الخبر بقتل الخليفة ودخول التتر ببغداد.
وفي هذه السنة اصطلح السلطان الملك المظفر وأخواه المفضل والفائز وأقطعهما لحجاً وأبين.
وفي آخر السنة كان وصول رسول الخليفة إلى مكة المشرفة بكسوة الكعبة وتشريفه المظفر الذي تقدم ذكرها وبالنيابة المذكورة فكسى البيت وتقدم إلى اليمن فوصل إلى السلطان بالتشريفة والنيابة.

(٤٠/١)

وفي سنة ٦٥٠ اصطلح الإمام والأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول. ودخل الأمير أسد الدين في طاعة الإمام وباع عليه حصن براش بمائتي ألف درهم وانتفض ما بين الإمام والسلطان من الصلح وذلك في رجب من سنة ٦٥٠. وسيره في عسكر جرار إلى ذمار وجهز معه عسكراً من قبله وجعل عليهم الشريف عز الدين هبة بن الفضل العلوي. فلما اتصل العلم بمولانا السلطان جرد لهم الطواشي تاج الدين بدراً والأمير شمس الدين علي بن يحيى. فوقع بين الأمير شمس الدين علي بن يحيى وبين الطواشي تاج الدين مشاجرة فرجع الأمير شمس الدين علي بن يحيى إلى الأبواب الكريمة الشريفة وسار الطواشي تاج الدين وحده في العساكر المظفرية. فلما رأى الأمير أسد الدين والشريف عز الدين هبة بن الفضل ما هالهم من العساكر المظفرية هربوا إلى السواد ولزموا الجبل وأرسلوا إلى الإمام يطلبون منه المدد فأمدهم الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام وجميع العرب من بني شهاب وسنحان وأهل حضور وغيرهم فحصل بينهم العساكر المظفرية. فلما رأى الأمير أسد الدين والشريف عز الدين هبة بن الفضل ما هالهم من العساكر المظفرية هربوا إلى السواد ولزموا الجبل وأرسلوا إلى الإمام يطلبون منه المدد فأمدهم الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام وجميع العرب من بني شهاب وسنحان وأَهل حضور وغيرهم فحصل بينهم وبين العساكر المظفرية عدة وقائع ظهرت فيها بسالة المماليك. ثم أن الإمام تابع الإمداد إليهم ولم يترك أَحداً من القبائل الأَجهزة إليهم. فلما رأَى الأمير أسد الدين تكاثف عسكر الإمام وتواتر الإمداد إليه أدركته الحمية العربية وعطفته الأواصر اليعربية فانذره الطواشي تاج الدين وصوب له العودة وقال له: انك إذا رجعت بهذا المعسكر سالماً وافراً طلع به مولانا السلطان فلا يقوم في وجهه واحد. فعاد الطواشي إلى ذمار ثم سار إلى اليمن.
وفي هذه السنة استولى السلطان على حصن الدُملؤة. وكان سبب ذلك أنه أرسل بولده الأشرف وأخيه وأمهما وبالطواشي ياقوت إلى خالته بنت حوزة وجعلهم عندها رهائن. فسلموا الأمر وعاملوا الرتبة وقيل: بل طلعت الدار الشمسي كريمة مولانا السلطان مغاضبة لأبيها وشاكية منه إلى أخويها وخالتها بنت حوزة وأظهرت الشكوى من أبيه ا المظفر. وكان معها الطواشي ياقوت وأَقامت عندهم أياماً وهي تستميل الخدام وتصلح أَحوالهم وتستخدم الرتبة إلى أن أحكمت الأمر. ثم قيل لبنت حوزة أن البقرة الفلانية في الجوة ولدت عجلاً برأْسين. فأرادت النزول إلى الجوة لتنظر البقرة وعزمت على

الدار الشمسي أن تنزل معهم. فاشتكت مرضاً فلم تنزل فنزلت بنت حوزة وأولادها. فلما نزلوا أوقد الطواشي ياقوت النار في رأْس الحصن. وكانت الإمارة بينه وبين السلطان الملك المظفر أن يوقد ناراً في أعلى الحصن. فلما رآها السلطان نزل من فورة وكان السلطان يومئذ في حصن حبَ. وقيل في تعكر. فركب في مائة نفر وسار فقطع أكثرهم في الطريق. وثبت معه جماعة منهم النقيب منصور. فلما صار السلطان قريباً من باب الحصن نزل والنقيب منصور قائم بين يديه. فقال من هذا: فقال عبدك منصور. فتفاءَل به حينئذ وانعم عليه وكساه ورفع مرتبته وولاَّه بعد ذلك بعض الجهات.

قال المصنف رحمه الله. وكان النقيب منصور رئيساً كاملاً هماماً عاقلاً ولم تزل الرياسة في ولده وولد ولده إلى يومنا هذا. وكان منهم الأمير شجاع الدين عمر بن يوسف بن منصور. انتهت به الرياسة إلى أن صار نائب السلطان الملك المجاهد في المملكة اليمنية بأسرها. ومنهم الأمير عز الدين هبة بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن منصور. وكان أميراً بزبيد وكذلك ابن عمه الأمير نجم الدين محمد بن إبراهيم أيضاً تولى مدينة زبيد مدة طويلة. وسنذكر من لابد من ذكره. ولما وصل السلطان إلى باب الحصن بالدملؤة وجد أخاه الفائز قائماً على باب الحصن ولم يفتح له. فقال له: هذا وسبعون الحصون لا معنا ولا معكم. وساق عنه ففتحوا له الباب فدخل ودخل معه من وصل حينئذ من غلمانه وخدمه. وكان ذلك يوم التاسع عشر من القعدة. وقيل يوم الخامس والعشرين منه في السنة المذكورة.

(٤١/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه الإمام العالم العامل أبو الحسن علي بن مسعود ابن علي بن عبد الله بن المحرم بن أحمد الساعي ثم الكتبي. وكان إماماً كبيراً ذا فنون كثيرة. واشتغل في أول عمره بالقراءات السبع حتى أتقنها. ةتفقه في قراءَته بحراز ثم عاد إلى بلده وقصد الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن يربل إلى جبل تيس فقرأ عليه المهذب ثم ارتحل إلى جبا فاخذ البيان عن الفقيه أبي بكر بن يحيى وأخذ عن أبي بكر الحجوزي. ثم عاد إلى المخلافة فرأَس بها ودرَّس فلما ظهر الإمام عبد الله بن حمزة وغلب أمره في تلك الناحية خرج الفقيه المذكور في جمع من الطلبة نحو من ستين طالباً وقصد تهامة فأقام بها مدة. فلما توفي الإمام عبد الله بن حمزة وهدأَت الفتن عاد الفقيهُ إلى بلده المخلافة أيضاً فلبث بها مدة. وقدم الشيخ الصالح أبو الغيث بن جميل إلى بلد الفقيه وابتني هنالك رباطاً وأقاما متعاضدين فلما ظهر الإمام أحمد بن الحسين واشتدت شوكة الزيدية انتقلا عن المخلافة وعاد إلى تهامة. فنزل الشيخ أبو الغيث مع الفقيه عطاءٍ وهو الذي تنسب إليه القرية الفقيه عمرو ولم يزل هنالك إلى أن توفي في السنة المذكورة. وكان إماماً جليل القدر تفقه به خلق كثير. وانتشر عنه الفقه في جهة حجة وغيرها انتشاراً عظيماً. ولما تولي كما ذكرنا وصل الشيخ أبو الغيث معرباً

به إلى تلميذه الفقيه عمرو ومن حضر من أهله وكان زاهداً ورعاً يرى أنه ما قبض ديناراً ولا درهماً أو كمال قال. ويرى أن حلقته كانت تجمع ثمانين متفقهاً أكثرهم ذو فقر وحاجة وإيثار. ويحكى أنه حصلت عليهم أزمة فتضرروا بها ضرراً عظيماً. فعلم بذلك بعض أهل القرية ولم يكن في قدرته ما يقع موقعاً من كفايتهم فبعث بقُرص من الطعام لشخص منهم فاثر ذلك الشخص به صاحباً له ثم اثر ذلك الشخص به آخر ثم اثر الآخر آخر حتى عتاد القُرص إلى الذي حصل له ابتداءً فأخذه ووصل به إلى الفقيه واخبره بالأمير فأعجبه ذلك وقال الحمد لله الذي جعل في أصحابي صفة من صفات أصحاب الصفة وأنصار نبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصائصة ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون. ثم جمع الدرسة وقسم القُرص على عدد رؤُوسهم لقمةً لقمة.

وفي سنة إحدى وخمسين رجع الأمير أسد الدين بمن معه من لعسكر إلى البلاد العليا وفسد ما بينه وبين الإمام. وذلك أنه لم يحصل له من قيمة براش إلا الشيءُ اليسير ولم يف له الإمام بما عاهدوه عليه من أمر البلاد. فسار نحو البهيمة في طريق المشرق. وكان في صحبته الأمير عليب بن وهاس في جماعة من خيله حتى بلغ عمقين وجرذان وهي أودية بالمشرق. فضاقت عليهم المسالك هو والأمير علي بن وهاس واشتدت بهم الحال وقصدتهم العساكر المظفرية ولم يروا بدّاً من قصد الشيخ علوان بن عبد الله الجخدري على ما بين الأمير أسد الدين والشيخ علوان بن عبد الله الجخدري من العداوة والبغضاء في أيام الدولة المنصورية. فلما نزلوا عليه لقيهم بالرحب والسعة وأنزلهم في العروسين وحمل إليهم الضيافات وأَجارهم. فقصدهم السلطان وحط في بلاد الشيخ علوان واخرب منها مواضع كثيرة واحرق مواضع أخرى. ولم يزل الشيخ علوان يلاطف السلطان ويراجعه ويسأله الذّمة للأمير أسد الدين حتى أذمَّ له على يده. فقال الشيخ علوان في ذلك وكان من فصحاء العرب:

سلام على الدار التي في عراصها ... معاهد قوم لا يذم لهم عهد
أناخوا علينا نازلين وفيهم ... طوال القنا والمشرفية والجردُ
ليوث شرى خاضوا الرمال فذل ... لوا مقاولها فارتا ع من خوفهم نجد
رموا موضع الشمس احتساباً بالأن ... فس أمانتها موت، على العزأ وحمد
إلى أن سرى البرق اليماني لامعاً ... بدملؤَه العز التي ما لها ندُّ
فراموا له بزل الركاب على الوجى ... وقادوا إليه الخيل من فوقها الأسد
يقودهم الملك الذي في يمينه ... عوارف منهن المنية والرفد
تحف به القوم الذين سيوفهم ... عقائق حمر لا يلائمها غمد
رأَوا مورداً عذباً فلما دنوا له ... وقد اشرعوا قلن المقادير لا ورد
قضى أسد الدين القضاءَ برمحه ... إلى علم زهر المجوم له عقد
فجاش عليهم للمظفر عارض ... له البيض برق والطبول به رعد

همام أبي أن يسلم الملك فانبرى ... وحوليه أرباب الزعامة والجند
يسوقهم سوق السحاب يحثها ... نسيم الصبا حتى أَلم بنا الوفد
أكارم كانوا لي عدواً فاصبحوا ... ينادون يا علوان هل ذهب الحقد
فقلت لهم في فرع تيماءَ فانزلوا ... أَلا مرحباً هذا السموَل والفرد
مددت لهم ظل العروسين دائماً ... بسطت لهم أيدي الرخاء الذي مدوا
فشكراً لمن أدنى ركاب محمد ... إِليَّ وأهداه لي الفلك والسعد
فاصبح أرباب الزعامة حولنا ... وما رابني منها الوعيد ولا الوعد
ملوك دنا بعض لبعض فأصبحت ... كتائب عزمي وهي بينهم سد
وأسد إلى أسد تدانت فصدها ... على حنق ما بينها الأسد الورد
فمن الفخار العرب مثلي ومن لها ... كمثل مقامي في المكاره أن عدُّوا
فحسبي إني الحرُّ من آل يعرب ... وإني لمن آوى إلى كينفي عبد

ولما أذم السلطان الملك المظفر للأمير أسد الدين كما ذكرنا نزل الأمير أسد الدين فيمن معه من أصحابه إلى السلطان فلقيه بالموسعة فأكرمه وأنصفه وسار الأمير أسد الدين ماشياً بين يدي السلطان بسيفه على عاتقه. فلما دخلوا على السماط وقف وخدم. ثم أن السلطان حمل إليه أموالاً جليلة وأمده بعسكر كثيف. وأمره بالمسير إلى صنعاء. فسار أسد الدين في العسكر إلى صنعاء فعلم به الإمام فخرج من صنعاء ودخلها أسد الدين. ثم طلع السلطان إلى صنعاءَ في رجب من السنة المذكورة وطلع صحبته الأمير علم الدين علي بن وهاس فحط في درب عبد الله.

وكان الإمام يومئذ في تسارع فخرج من تسارع فاخرب السلطان تسارع وبساتينها وعاد إلى اليمن فتسلم حصن دروان من الشيخ الورد بن محمد ابن ناجي. وفي هذه السنة قتل الشريف أبو سعد بمكة وكان مدة ولايته عليها أربع سنين إلا شهراً. فدخل بنو عمه إلى داره فقتلوه في وسط الدار وكان الذي قتله حماد بن حسن وحج بالناس في ذلك العام وأقام بمكة. وفي هذه السنة اختلف الإمام والأمير شمس الدين أحمد ابن الإمام عبد اله بن حمزة وبنو عمه من بني حمزة واستنصروا بالسلطان فأمد السلطان على الأمير أسد الدين يوم الخامس من ذي الحجة وقد وصلت الخزائن السعيدة إليه فالتقى الأمير شمس الدين في براقش بعد أن رجع الأمير شمس الدين من مأرب ثم ساروا جميعاً فحطوا على الزهراء فأخذوه. وأخرجوه.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الصالح المشهور أبو الغيث بن جميل الملقب بشمس الشموس. قال بعض العلماء وهذا لقب على ملقب باستحقاق وكان في بدايته قاطع الطريق وكان سبب توبته أنه صعد شجرة يريد أن ينظر السفر إذا أقبلوا فبينما هو على الشجرة يتأمل الطرق إذ سمع قائلاً يقول يا صاحب العين عليك العين فوقر ذلك في قلبه فنزل عن الشجرة مستكن القلب ونفسه تنازعه في

الإنابة. فلم يجد لذلك غير الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الملك بن أفلح بزبيد فوصل إليه وعرض عليه أمرهُ وسأَله أن يأخذ عليه اليد فاخذ عليه اليد وألّزمه الخدمة للزاوية فأقام يخدمها بالحطب والماءِ وفي بيت الخلاءِ دهراً ثم تقدم المراوعة بعد ذلك إلى الشيخ علي الأهذل فأقام عنده أياماً هذبه فيها تهذيباً مرضيّاً فكان يقول خرجت من أبن أفلح لؤلؤةً عجماء فثقبني الأّهذل. ثم طلع الجبال الشامية بعد ذلك فظهر له فيها أحوال خارقة فمال إليه عالم عظيم من العامة والروَساءِ وصحبه جماعة من الفقهاء. فلما ظهر الإمام عبد الله بن حمزة وقوي أمر الزيدية بالجبال الشامية نزل الشيخ إلى تهامة ونزل بنزوله الإمام العلامة الفقيه علي بن مسعود المذكور أولا فسكن الشيخ أبو الغيث رحمه الله مع الفيه عطا على كره من أهله. ثم قام الأمام أحمد بن الحسين وبلغهُ أن الشيخ مقبول الإشارة مسموع القول كتب إليه طمعاً في ميله وميل أهل تهامة كتاباً صدره)قل يا أهل الكتاب تعالوْ إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم إلا نعبدَ إلا الله ولا نشرك بهِ شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللهِ فإن توَلواْ فقُولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون(. ثم قال القصد يا شيخ الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسلام.

(٤٣/١)

فلما وصل الكتاب مع بعض الشيعة قال الشيخ لرجل من أصحابه اقرأْ كتاب الشريف. فلما قرأَه وفرغ من قراءَته قال لهُ الشيخ اكتب)أن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون(. الحمد لله فالق الإصباح. ومرسل نسيم الرياح. إلى فسحة مبدأ عالم الأشباح والصلاة والسلام على سيد الأنام ومصباح الظلام وعلى آله وصحبه السادة الكرام.)أما بعد(فقد وصلنا كتاب السيد الشريف يدعونا لإجابته ولعمري إنها طريق سلكها الأولون واقبل عليها الأكثرون. غير أنا نقر منذ سمعنا قوله تعالى)له دعوة الحق(لم يبقِ فيها متسع لإجابة الخلق. فليس لأحد منا أن يشهر سيفه على غير نفسه ولا أن يفرط في يومه بعد أمسه. فليعلم السيد قلة فراغنا لما رتم وليبسط العذر والسلام " فذكروا أن رسول الشريف وقف مع الشيخ وبعث بالكتاب رسولاً. ويروى أنه كتب إليه الشيخ أحمد بن علوان الذي يأْتي ذكره فيما بعد أن شاءَ الله تعالى كتاباً يقول فيه. أَما بعد فإني أخبرك:

جزت الصفوف إلى الحروف إلى الهجا ... حتى عرفت مراتب الإبداع

لا باسم ليلى استعين على السرى ... كلا ولا ليلى تقل شراعي

فأجابه الشيخ أبو الغيث بن جميل: من الفقير إلى الله تعالى أبي الغيث أبن جمي أغذي نعمة الله في محل الحضرة إما بعد فإني أخبرك

حلَّى في الاسم القديم باسمه ... واشتقت الأسماء من أسمائي

وحباني الملك المهيمن وارتضى ... فالأرض ارضي والسماءُ سمائي

يا ابن علوان أبت المراهم الشافية أن تقع على جرحك الخبيث حتى تعدم بمرر العقاقير. وكان الشيخ رحمه الله كبير القدر شهير الذكر صاحب ترقية ومجاهدة قلَّ أن يوجد لهُ نظير. وفضائله أكثر من أن تحصى واشهر من أن تذكر. ومن كلامهِ قوله شكوتك إلى ما في يديك دليل على قلة ثقتك بالله ورجوعك في حال الشدة إلى المخلوقين دليل على انك لا تعرف الله وفرحك بشيءٍ تناله من الجنيا دليل على بعدك من الله. وقد قيل أن هذا من كلام أبي يزيد البسطامي أو أحد نظرائه والله أعلم.

وسئل الشيخ رحمه الله عن المستحق لاسم الصوفي فقال هو من صفا سرُّهُ من الكدر وامتلأَ قلبهُ من العبر وانقطع إلى الله عن البشر واستوى عنده الذهب والمدر.

وسئل مرة أخرى عن ذلك فقال الصوفي من كان بعهد الله موف. ومن دعائه اللهم إني أَسأَلك يا روح روح الروح ويا لب لب اللب ويا قلب قلب القلب هب لي قلباً أعيش به معك فد خلقت كلما هو دونك لأجلك فاجعلني ممن شئت من هذه الجملة.

وروي عن الفقيه الإمام الصالح إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الحضرمي أنه قال جري بيني وبين بعض أصحاب الشيخ أبي الغيث بن جميل كلام من اجله فقلت له قد كان الشيخ يخطئ في بعض كلامهِ في المجالس فقال لا وأنكر عليَّ إنكاراً شديداً فلما كان الليل رأيت الشيخ بعد العشاءِ تمثلت لي صورته فقال لي أخطأْنا كثيراً ووقعنا كثيراً ولكن قلت منا العزائم وصفحت عنا الجرائم وسامبني البدع الموصوفون بضرهم إلا من كان فيه أربع خصال أن يكون لله لا له للناس لا لنفسه سالكاً طريقةً وهي طريقة واحدةُ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام. ثم قال لي أحذر بنات الطريق فإنهن يلتمسن اللمحة والنظرة. فسئل الفقيه عن بنات الطريق فقال هي الكرامات التي تعرض للسالك في طريقه الذي لاحظها حجب عن مقصوده. وكانت وفاة الشيخ على الحال المرضي عازفاً عن السماع منذ مدة نهار الأربعاءِ لخمس بقين من جمادى الأولى من السنة المذكورة. وتربته مشهورة في بيت عطا وهي قرية من أعمال سردد وجعل عليه التاجر بن الخطبا قبة عظيمة والله أعلم.

وخلف الشيخ فيروز وكان فيروز كبير القدر وهو من أصحاب الشيخ محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجه. وكانت وفاته في سنة اثنتين وتسعين وستمائة. وفي هذه السنة المذكورة أيضاً توفي الأديب جمال الدين محمد بن حمير الشاعر المشهور. وكان أوحد شعراء عصره وهو من شعراءِ الدولة المنصورية وكان يصحب الشيخ والفقيه صاحبي عواجه وله فيهما عدة قصائد وشعره فيهما وفي غيرهما كثير مشهور متداول وله ديوان شعر جيد وهو عزيز الوجود. ورأيت بخط الفقيه الإمام العلامة أبي العباس أحمد بن عثمان بن بصيص النحوي بيتين من الشعر وهما

أَما قصائد قاسم بن هتيملٍ ... فمذاقها أحلى من الصهباءِ

هو شاعر في عصره فطن ول ... كن ابن حمير اشعر الشعراء

ويقال أن هذين البيتين لابن سحبان قالهما وقد سئل أي الشاعرين المذكورين اَفصح. وكانت وفاة ابن حمير في مدينة زبيد ودفن في مقبرة باب سهام شرقي قبر الشيخ الصالح مرزوق ابن حسن الصوفي بينهما الطريق هنالك إلى قريةِ المخريف وغيرها من وادي رمِع والله أعلم.

وفي سنة اثنتين وخمسين سار الأمير أسد الدين محمد بن الحسن ابن علي بن رسول. والأمير شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور عبد الله ابن حمزةِ والعساكر المظفرية إلى مدينة صعده. وكان الإمام أحمد بن الحسين يومئذٍ في صعدة فلم يكن بأسرع من دخول الأميرين المذكورين في العساكر المظفرية إلى مخلاف صعده فهرب الإمام إلى غلاف. وجعل السيد الشريف الحسن بن وهاس ذمةً في صعدة في نصف العسكر وسار في النصف الثاني إلى علاف فأقامت المحطة على صعدة نحواً من شهرٍ. والشريف شمس الدين والأمير أسد الدين يغاديانهم ويراوحانهم القتال حتى انقطعت عنهم المادة. وفي أثناءِ هذه المدة فقئت عين الشريف جمال الدين علي بن عبد الله بن الحسن بن حمزة. ثم فتحت صعدة وأسر الشريف السيد الحسن بن وهاس. وكانت المدينة محشوَّة بأهلها فنهبت منها أموال جمة وأخذت منها غنائم عظيمة وأَخذوا سبعين رأساً من الخيل واجار الأمير أسد الدين أجزل الناس وستر النساءَ. وشحن براش صعدة شحنة عظيمة. ورتبا في صعدة الأمير عز الدين محمد بن الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام وهبة ابن الفضل ورجع الأميران إلى صنعاءَ. وفي ذلك يقول الأمير عز الدين عزان بن سعيد بن نسر بن حاتم على لسان الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام ممتدحاً السلطان الملك المظفر بقصيدة من القصائد الطنانة وهي

سلام مشوق وده ما تصرما ... يزورك من نجد وإن كنت متهما

سلام كنشر الروض باكرهُ الحيا ... فأضحى أنيقاً مشرقاً متبسما

يخصط من قربٍ وإن كنت نائياً ... ويهدي تحياتي فرادى وتوأما

فيا أيها الملك المظفر والذي ... حمى قصاب الملك أن تتهدَّما

ويا دافعَ الجلَّي إذا الخطب مبهمُ ... وقد جنَّ ليل الحادثات واظلما

ويا مخجل الأنواءِ والبرق خلَّبُ ... إذا جاد برقُ من نوالٍ واسحما

ملكت فلم تفخر ونلت فلم تظل ... وجدت فلم تترك على الأرض معدماً

وصلُت فلم تترك عليها معانداً ... ولو أنه يرقى إلى الجو سُلَّما

إليك أبا المنصور أهديت أحرفاً ... أبثك أخباراً وإن كنت أعلما

وإني لما أوليتني من صنائع ... لاستنجد الأخبار كي اشفي الظما

واستنهض العزم السعيد وطالما ... حللت بهِ عقداً من الهمّ مبرما

لأنعم ناراً أو لا كبت حاسداً ... وأفضي لبانات النفوس وانعما

فشمر لشيد المجد إذ أنت أهلهُ ... وتمم على اسم الله تُدْعَ متمما

فلم يبق في الأقوام إلا حُثالة ... تهبُّ بها ريح الصبا أن تبسما

نهضنا بجيش منك يطموا عبابه ... يضيق به رحب الفضا حيث يمما
يجول بقاع الأرض شرقاً ومغرباً ... ويطوي رباها محرماً ثم محرما
ويغشى لظى الحرب العوان كانهُ ... طنين ذبابٍ عندهُ أن ترنما
نزلنا بوادي الحوف نرعى جميلهُ ... ونذكر عهداً كان فيه تقدما
فلما قضينا نحوهُ كل حاجةٍ ... وجئنا المراسي وهو كان محرما
صعدت بنا أعمال صعدة شبحاً ... تبارى كأمثال الشموس تهتما
ولاحت على الأقطار أعلام يوسف ... كان شعاع الشمس منها تسنما
وصاحت طيور السعد في كل وجهة ... تبادر بالترحاب إذ كنَّ وُجَّما
فلا ملكُ إلا وأرخى قيادهُ ... ولا قائمُ إلا تولى وأَحجما
ولا حيَّ إلا استيقظوا بعد هجعة ... وكانوا سكارى قبل وذاك ونُوَّما
ولله دَرّ الأريحي محمد ... شقيقك محمود الثنا مانع الحما
فوا الله ما جشمتهُ لملمةٍ ... على مثل حد الشيف إلا تجشما
ولا قلت مهلاً يا خليلي وقد بدا ... به الشرّ؟ إلا كفَّ ثم تبسما
فيا ابن الملوك الغر من آل جفنه ... غدا مجدهم فوق السماك مُخيما
لأَنت صفي الود إذ أنت أهلهُ ... ولا ارتضي الأَّك ركباً ومغنما

(٤٥/١)

ولا يقطعن بيني وبينك قاطعُ ... إلى أن نزور جنة الخاد فأعلما
خلفت برب الناس حلفة صادق ... مؤكدة لم أخشَ في ذاك مأثماً
وبالمصطفى جدي وبالمرتضى أبي ... ومن طاف بالبيت العتيق واحرما
لوَ أنّي رأَيت الدين لله خالصاً ... وأعطيت ملكاً يملأُ الأرض والسما
لما سمحت نفسي بدين محمد ... ولو لم أدق من بارد الماء مطعما
فلما رأيت الحق ملقى زمامه ... وليس سوى الدنيا مراداً ومشتما
تنكست عن تلك السبيل ولم أعج ... عليها ولا في رفضها متندما
وعدت أرعى سوامه ... ولم أذَّكر نجداً ولا أَبرق الحما
ويممت محمود الطرائق يوسفا ... فلله ملكاً ما أعزَّ واكرما
لقد فخرت غسان منهُ بماجدٍ ... حماها وأعلاها سماكاً ومرزما
مجيباً إلى داعي التكرم والندى ... وان هو لم يدع ابتدا وتكرما
فصام قرير العين في خفض عيشه ... ولا زال مأْوى للوفود ومنتما
ولما عاد الأميران شمس الدين وأسد الدين إلى صنعاء بمن معهما من الإسراء كان دخولهم صنعاء

يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. ولما دخل شهر شعبان من السنة المذكورة وصلت الخزائن السعيدة والأوامر الشريفة المظفرية بخروج الأمير أسد الدين صحبة الأمير شمس الدين إلى الطاهر فتجهز الأميران وخرجا بالعساكر المصورة المظفرية وقصدوا بلاد حاشد وهو مخلاف ابن وهاس فخرجوا فيها مواضع ثم نهضوا إلى مصنعة بني القديم فأخذوها ونهضوا إلى النواب ثم إلى الطاهر فأخذوا موضعاً يسمى الأبرق. ثم قصدوا الإمام أحمد بن الحسين إلى موضع من بلاد حمير يسمى الهجر وكان قد جمع جموعاً كثيرة إلى نقيل الخضاب وأمرهم بحفظ ذلك الموضع. ففرق الأميران عساكرهما في جوانب النقيل فقطعوا الطريق على عساكر وهزموهم هزمة شنيعة وقتلوا منه مقتلة عظيمة.

وكان في جملة من قتل الفقيه حميد بن أحمد المحلي الزيدية وفضلائها ولهُ من التصانيف الجامعة والرسائل المفردة إلى الملوك والعلماء ما ليس لأحد وقتل معهُ من الفقهاءِ والشيعة كثير واسر شمس الدين أحمد بن يحيى بن حمزة وكان خلفاء الإمام علي بن حمزة وهرب الإمام بعد أن اشرف على الهلاك ثم تحصن في حصن طلب المصانع. ثم رجع الأميران إلى الطاهر وأرادا التقدم إلى حوب فاختلف عليهما العسكر فقفلوا إلى صنعاء في شهر رمضان من السنة المذكورة.

وفي هذه السنة أخرج الشريف حماد بن حسن من مكة أخرجه الشريف راجح وأبو نمي وإدريس فأقام بها راجح ثلاثة أشهر ثم أخرجه ولده غانم وأقام بها إلى شوال فأخرجه منها أبو نمى إدريس فأقاما بها شهر شوال.

وفي شوال جهز السلطان الأمير مبارز الدين الحسين بن علي بن رطاش إلى مكة المشرفة في مائة فارس فلقيه الأشراف على باب مكة فكسرهم وقاتل منهم جماعة ودخل مكة وحج بالناس. وفي شوال أيضاً تجهز الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبد الله بن حمزة إلى الأبواب الشريفة السلطانية هو وأخوه داود بن الإمام وجماعة من بني حمزة وكان السلطان يومئذ في محروسة زبيد. فلما وصلوا خرج السلطان في لقائهم وأكرمهم وانصفهم وكان له من المقابلة والإتحاف ما لم يسمع بمثله وضربت لهم الخيام والمطامح على باب الشبارق من زبيد مدة أفادتهم فاجتمعوا بالسلطان ثلاثة أيام وكانت أقامتهم شهرا وأظل عيد الأضحى وهم بالباب الشريف وقال الأمير شمس الدين يمدح السلطان الملك المظفر رحمهما الله

لعلّ الليالي الماضيات تعودُ ... وتبدو نجوم الدهر وهي سعود
على منزل ما بين نعمان واللوى ... وجرَّت عليه الرامسات برود
وكانت به العين الغواني أوانساً ... فأضحت به العين الوحوش ترود
تجرُّ أنابيب الرماح ومبتنى ... قباب طباءٍ ريقهن برود
فيا دارنا بين العنينة والحمى ... هل الروض روض والزرود زرود
فكيف بمن أضحى ظفار محله ... ومن بات قد حالت عليه زبيد
هوايَ بنجدٍ والمنى بتهامةٍ ... متى نلتقي بالمتهمين نجود

وان فتى دامت مواثيق عهده ... على مثل ما لاقيتهُ لجليد
ولما سرى البرق الشآمي هاج لي ... جوى واشتياقاً ليس فيه مزيد
فهل لجنوب الريح أن تلثم الثرى ... بنشر تحيات لهنَّ صعود

(٤٦/١)

على أربع بين الصعيد وصعدة ... وبين براشٍ لي بهنَّ عهود
مشاعر حج الطالبين فلا الأّذى ... قريب ولا نجح الرجاء بعيد
كرمن فلا يخشى النوائب عندها ... منيب ولا يخشى الهوان طريد
ملاعب أمهار الجياد وملتقى ... مجامع لا يشقى بهنّ وفود
وأبراج أشباه المها في كِناسها ... عليهنّ من نسج العفاف برود
نعمنا أيام لا البغيُ نافث ... بنارٍ ولا بين الرجال حقود
ظلالي فيها للورى غير قالص ... وبري حوض لست عنها أذود
وقومي قوم الروع جن وفي الندى ... بحور وحلماً كالجبال ركود
فنحن نطول الناس عزّاً وتنتهي ... إلى الأفق أيدينا ونحن قعود
إلى أن دعى داعٍ إلى البغي للورى ... وأعلن منهم كاشحُ وحسود
ودلّ علي الحلم قومي وأُسست ... ممالك لم تنظم لهنَّ عقود
وأنكر إحساني الذين خلودهم ... عليهم إذا استشهدتن شهود
فكم مات من قوم فحيوا بحلمنا ... وكم أخلفت سحبُ ونحن نجود
بسطنا على العرب المكارم بسطة ... لنا أبطوتهم والطلول جحود
ولما صبرنا ظنت الناس أننا ... ذللنا وإنا سادرون سمود
فما سنَّ فينا الناس إلا ظلامةً ... كما سنَّ في قتل الحسين يزيد
لقد أنكرتنا الناس كل فضيلةٍ ... كأنَّا نصارى ملةً ويهود
لما قصدت الملك ذا التاج يوسفاً ... علمت بان الهم ليس يعود
دعوتُ فلباني فتىً لا مزبد ... ملولُ ولا واهي اليدين بليد
ومالي لا أُرخي الركاب إلى ذرى ... به الشهب شهب والصعيد صعيد
وألقيتُ كفي في أنامل لم تخن ... عهوداً ولم تخلف لهنَّ وعود
وما ابن أبي عفص بجون الذي له ... الحميري الملك وهو فريد
مكارم سنتها الملوك ويوسفُ ... لآثار ما سنَّ الملوك يشيد
فسوحك مقصود وكفك قاهر ... وجدّك منصورُ وأنتَ حميد
صبرت على حمل العظائم فانتهت ... إليك العلي أن الصبور سعيد

وفي كل يوم أنت تبدو على العدى ... بخطب وتبدي في الندى وتعيد
سبيل فتى لا الموت يطرق همهُ ... ولا الموت فيما يتقي فيحيد
ويعلم أن الدهر ليس بدائم ... وإن خلود المكرمات مفيد
أنخنا بك الآمال وهي ركائب ... لإرسائها لطف الإله يعود
وقد كنت عرَّبت الرواحل برهة ... وأطرقت حتى لا يقالُ مريد
وداويت لابن العم داءً وجدتهُ ... على الصبر ينمو خطبه ويزيد
فأدنيت من أمواج بحرك غمرة ... أصول بها فيمن بغى فيبيد
وخف بسرجي الترك والعرب فاغتدى ... بعونك ركني اليوم وهو شديد
كذا يستعيد الحرُّ بالحرِّ واثقاً ... بربٍ لهُ كل الملوكِ عبيد
بمن نصر المظلوم في كلماته ... بنصرٍ لهُ أهل السماءِ جنود
فدم في ظلال الملك ما هبت الصبا ... وما جنَّ في جنح الظلام وعود

(١/٤٧)

ولما عزم الأمير شمس الدين على الرجوع إلى بلاده حمل إليه السلطان من الأموال والخيول والكساوي والطرف مالا يعلمه إلا الله. واقطعه مدينة القحمة وجهز معهُ مائة فرس من المماليك والحلقة فتقدم الأمير شمس الدين إلى الجوف واستباحه. وكانت له وقعات عظيمة وفي هذه السنة توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى بن إسحاق بن علي إسحاق العياني ثم السكسكي. وكان فقيهاً فاضلاً تفقه بأخيه أبي بكر بن يحيى بن اسحق المقدم ذكره وأخذ عن الإمام سيف السنة. وكان جداً صالحاً يغلب عليه الاشتغال بكتب الحديث. وكان بوفاته لثلاث بقين من شعبان من السنة المذكورة. وفيها توفي الفقيه أبو السعود بن الحسن بن مسلم بن علي بن عمر المفضلي الهمداني. وكان فقيهاً ماهراً تفقه بابن مضمون وأبي عبد الله العمرانيين وأخذ عن علي بن أبي بكر التباعي. وارتحل إلى عدن وأخذها عن القاضي إبراهيم بن أحمد القرنطي. وكان زميله في القراءة حسين العديني وسفين الأبيني وولده أبو بكر والسبتي الشحري وغيرهم. وهو والد الفقيه حسين صاحب الفراوي واحد شيوخ القاضي عبد الله العرشاني. ودرس بعكار بعض المبادئ إلى أن توفي في ذي القعدة من السنة المذكورة وفيها توفي الشيخ الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى بن سليمان بن علي بن الجون الأشعري الفقيه الحنفي. وكان فقيهاً فاضلاً عارفاً بالفقه والنحو واللغة وعلم الأدب. وله صفات حسان منها شرح الخمر طاشية وهو شرح جيد سماه الرياض الأدبية يروى أنه صنفهُ وهو ابن ثماني عشرة سنة. وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. ولما ظهرت السبوت في زبيد وعمل فيها المنكر هاجر إلى الحبشة فأقام بها إلى أن توفي في السنة المذكورة في قرية يقال لها رون بضم الراء الأولى. ولما توفي في التاريخ المذكور كتب الفقيه أبو بكر بن دعاس إلى الفقيه أبي بكر بن

حنكاش يعزيه عنه بأبيات يقول فيها

غير أنا نقولُ ما دامَ فينا ... نجل عيسى لم نُرْزفي في نجل موسى

ولعمري يوسى عليه ولكن ... ببقاءِ الإمام ذا الجرح يوسى

وفي سنة ثلاث وخمسين جمع إشراف مكة جمعاً عظيماً وقصدوا الأمير مبارز الدين الحسين بن علي بن رطاس وحاصروه في مكة حصاراً شديداً ودخلوا عليه مكة من رؤوس الجبال وقاتلهم في وسط مكة فكسره وقتلوا جماعة من أصحابه ولزموه فاشترى نفسه منهم وعاد إلى اليمن هو والجد الذين كانوا معهُ.

وفي سنة أربع وخمسين توفي الطواشي تاج الدين بدر بن عبد الله المظفري. وكان ذا همة عالية ونفس أبية وكان خادماً للحرة بنت حوزة إلا أنه كان متظاهراً في أيام السلطان نور الدين بحب الظفر فأمرت به سيدته فحبس في جبس زبيد فلم يزل إلى أن وصل العلم بقتل السلطان نور الدين فلما علم بذلك خرج من السجن قهراً على السجان وصار إلى والدة السلطان الملك المظفر وكريمته. وكانوا عليهم يومئذٍ في زبيد فحرض والدة السلطان وأخته على القيام بحفظ زبيد. واستخدم الرجال وحفظ الأبواب وقبض مفاتيح أبواب المدينة وشاجر الوالي يومئذٍ. وكان الوالي الذي في زبيد اسمه قائماز وشمر تشميراً تاماً. وقاتل المماليك عن منها فلما دخلها الملك المظفر احسن إليه وحمل له طيلخاته واقطعهُ إقطاعات جيدة. وكان شجاعاً فارساً عاملاً رئيساً حسن السيرة له آثار محمودة. ومن مآثره الحسنة المدرسة التي بزبيد المعروفة بالتاجية وهي التي تسمى في وقتنا هذا بمدرسة المبردعين وإنما سميت بذلك لان المبردعين كانوا يعملون البرادع عندها وهي مختصة بالفقه. وله أيضاً المدرسة المعروفة بمدرسة القرّاء بزبيد وقفها على قرأء القرآن السبعة. وفيها مدرسة للحديث النبوي. وفي كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث مدرس وطلبة وأمام ومؤَذن في أوقات الصلاة الخمسة وأوقف عليهن وقفاً جيداً يقوم بكفاية الجميع منهم. وله أيضاً دار مضيف لإطعام الطعام فيه شيخ ونقيب وقيم لإطعام الواردين وأمام ومؤَذن للقيام بالصلوات الخمس في أوقاتها. وله وقف أيضاً يقوم بكفاية الجميع وجميع ذلك بزبيد. وله في الجبل مدرسة في قرية الوجيز.

وكانت وفاته في مدينة تعز في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة تحقيقاً وقيل تقريباً. ويقال أنه مات مسموماً والله أعلم.

(١/٤٨)

وفيها توفي الفقيه الصالح عبد الرحمن بن علي بن إسماعيل بن إبراهيم بن حديث وكانت ولادته سنة تسعين وخمسمائة. وكان فقيهاً نبيهاً عارفاً محققاً قائلاً بالحق عاملاً به.

ويروى أن السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول وجبت عليه كفارة جماع في شهر رمضان بالنهار. وكان يومئذٍ في الجند فأمر الوالي أن يجمع له الفقهاء من الجند وأعمالها فاستدعاهم الوالي

فحضروا وحضر هذا الفقيه من جملتهم فقعد لهم السلطان قعوداً خاصاً وادخلوا عليه جميعاً فلما اطمأن بهم المجلس سئلوا عن المسأَلة فأجابوا بما يجاب عليه سائر الناس. ولم يتكلم الفقيه عبد الرحمن معهم بشيء في ذلك فقيل لهُ لم لا تتحدث كما تتحدث الجماعة فقال اشتهي اعرف صاحب المسأَلة فقيل له هو مولانا السلطان فقال لا يجزيه إلا صوم شهرين وإما الإطعام والإعتاق فلا يجزيه. فنازعه الفقهاءُ الحاضرون في ذلك فقال الغرض بالكفارة حسم مادة معاودة الذنب ولا تنحسم مادة معاودة الذنب في هذا الفعل من مولانا السلطان إلا بذلك فاعجب به السلطان. والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الصالح أحمد بن محمد الشكيل بن سليمان بن أبي السعود الطوسي. وكان مولده سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وفي سنة ولادته توفي صاحب البيان. وكان المذكور فقيهاً عارفاً صالحاً ذا دعوة مستجابة تفقه بأحمد بن مقيل. ثم بالحسن بن راشد من العماقي. ثم بأحمد الصواري ونسخ بيده عدة كتب واشترى كذلك ووقفها على طلبة العلم ببلده من ذريته وغيرهم. وتزوج امرأة من بني ايمن من أهل العماقي وهي أم ولديه مسعود وعبد الله. وكانت وفاته في صفر من السنة المذكورة. وقبره مشهور مقصود للزيارة وطلب الحوائج يسمع ليلة الجمعة فيه من يقرأُ القرآن في كثير من الأوقات. وكان ولده مسعود بن أحمد من عباد الله الصالحين عارفاً بالفقه ورعاً زاهداً عابداً لم يعرف له صبوة.

ويروى أن جماعة من أترابه تذاكروا النساءَ وهو حاضر معهم فقال أما تستحون من الله عن نظرهن فوا الله ما أكاد أحقق لون أمي. ولم يزل على أحسن حال. واكمل سيرة إلى أن توفي قبل أبيه يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة من سنة اثنين وأربعين وستمائة والله أعلم.

وفي سنة خمس وخمسين وقع قحط عظيم فارتفع سعر الطعام ارتفاعاً كليّاً في صنعاء وصعدة والطاهر ومات كثير من الناس جوعاً. وأقام ستة اشهر فأكل كل الناس الكلاب والسباع.

وفي هذه السنة اجتمع علماء الزيدية وفيهم الشيخ محمد بن أحمد بن الرصاص فعابوا على الإمام أحمد بن الحسين أشياء من سيرته وطعنوا عليه وأنكروا أفعاله إنكاراً عظيماً فأمر بإخافتهم فلحقوا بالمعازب. وقيل خرجوا من جوب على وجه الغضب إلى بلاد صفي الدين فأرسل الإمام إليهم الحسن بن وهاس ليسمع ما عابوا عليه فقال له خواصه لا ترسله إليهم فانهم يستميلونه فخالفهم وإرساله. فلما وصل إليهم ناظروه فاستمالوه وصار واحداً منهم فاجتمعت كلمتهم وصار رأسهم فكاتبهم الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام يطلب منهم الاتفاق على حرب الإمام فأجابوه إلى ذلك فسرَّ سروراً عظيماً وخرج من صنعاء وطلعوا إليه من المعازب فاجتمعوا بالبون وصارت كلمتهم واحدة واجمعوا على قتاله بعد أن سألوه المناظرة فيما عابوه من سيرته. فكتب الأمير شمس الدين إلى مولانا السلطان يعلمه بميل الشيعة عن الإمام واستمده بمال فأَرسل إليه بمائة ألف درهم مع الشريف علم الدين حمزة بن الحسن فوافاهم بالمال قبل الوقعة بساعة فكانت الكاشات مطروحة بين الخيام حتى كان ما كان.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الإمام البارع عبد الله بن محمد بن قاسم ابن محمد بن أحمد بن حسان

الخزرجي الأنصاري وكان فقيهاً صالحاً تفقه بمحمد بن حسين الأصابي وأخذ عنه شرح اللمع لموسى بن أحمد بن يوسف الأصابي كما أخذه عن مصنفه. وأخذ عن الشيخ نطال بن أحمد بن علي السرددي ودرس بذي هريم في المدرسة التي أحدثها الطواشي نظام الدين مختص. وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن عشر رمضان من السنة المذكورة.

(٤٩/١)

وفيها توفي الصالح أبو عبد الله محمد بن علي بن منصور المعروف بحزب بكسر الحاءِ المهملة وسكون الزاي وآخره باءُ موحدة. وكان فقيهاً صوفيّاً ناسكاً سعيداً صلى الصبح بوضوءِ العشاءِ ثلاثين سنة وتوفي على الطريق المرضي صبح يوم الجمعة الخامس عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة والله أعلم.

وفي سنة ست وخمسين اجتمع الأشراف والشيعة على قتال الإمام أحمد ابن الحسين وكان اجتماعهم لسواد فخرج الإمام في عسكره ومضى من حصن مدع نحوهم. وكان ظاهر الأمر من الفريقين اللقاء للمناظرة لا للحرب. فحط الإمام في موضع قريب منهم يقال له المنظر فوق سوان فاعترضه طلائع الأشراف دونها ووقع الطراد وتذامرت عليه الأشراف من كل جانب وفشل عسكره ولم يثبتوا وكانوا ثلاثمائة فارس ونحواً من ألفي راجل وكان بنو حمزة يومئذٍ ثمانين فارساً وأربعمائة راجل. فلما رأى الإمام انهزام عسكره عدل إلى موضع قريب منهُ فاستقام فيه وظن الناس يقاتلون عنهُ فهربوا عنه وأسلموه فريداً فعقرب فرسهُ حينئذٍ وتولى قتاله رجالة رأسهُ وجاءوا به إلى الأمير شمس الدين والى ابن الرصاص وسائر فقهاء الشيعة. ثم حمل بعد ذلك إلى ظفار وطيف به الحصون والأسواق ثم إلى أن الأمير علي بن موسى بن عبد الله أمر بتكفينه ودفنه في المشهد فصده عن ذلك أهل المشهد فقبر تحت حصن القاهرة في موضع الكنف والأزبال حتى أمر الأمير شمس الدين بإنزاله إلى سواية وقبره مع جبلة فقبر في موضع يسمى المشرعة من غيل سوايه فأقام في ذلك الموضع ثلاث سنين. ثن نقل إلى دسين فهو هنالك إلى يومنا هذا وقبره معروف يزار ويتبرك به.

قال الجندي واخبر الثقة أن موضع قبره الأول بسواية يوجد عنده رائحة المسك. وكان قتلهُ يوم الأربعاء سلخ شهر صفر من السنة المذكورة ويقال أنه قتل في اليوم الذي قتل فيه الخليفة المستعصم في بغداد. قالهُ الجندي. وكان الخليفة المستعصم قد كتب إلى السلطان الملك المظفر يأمره بأحمد بن الحسين حين بلغه ظهوره وإقبال الناس عليه ووعده على ذلك إقطاع مصر. وكان الإمام أحمد بن الحسين رحمهُ الله امثل أئمة الزيدية المتأخرين علماً وجوداً وكرماً. وللعشم بن هتميل فيه غرر المدائح الحسان موجودة في ديوانه.

ولما قتل الإمام أحمد بن الحسين كما ذكرنا في تاريخه المذكور كتب الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبد الله بن حمزة إلى السلطان الملك المظفر كتاباً يخبره فيه بذلك وأرسل بالكتاب رسولاً على

الفور معجلاً وكانت نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم يحدد الخدمة ويشكر النعمة لله تعالى ثم للمقام السلطاني خلد الله ملكه. وينهى صدورها من المصف بسواية ورأس أحمد بن الحسين بين يديه

" شعر "

وأبيض ذي تاج أشاطت رماحنا ... بمعترك بين الفوارس أقتما

هوى بين أيدي الخيل إذ فتكت به ... صدور العاولي تنضح المسك والدما

ولما كان يوم الجمعة ثالث قتل الإمام دعا الشريف أبو محمد الحسن وهاس إلى نفسه الإمامة فبايعه الشيعة والأشراف وبعض عامة الزيدية. وتأخر الباقون. فلما بايعهُ ممن ذكرنا سار إلى صعدة وسار أيضاً الأمير شمس الدين على اثر الوقعة إلى الجوف ثم إلى جهة صعدة في كافة أصحابه واقتسم هو والشريف حسن بن وهاس الحصون والبلاد نصفين.

ولما علم السلطان ببيعة الحسن بن وهاس خرج في عساكره المنصورة إلى الموسعة. ثم أسل الأمير أحمد بن علوان إلى الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام إلى صعدة وقد ظن به الظنون فرجع الأمير أحمد بن علوان بما أرضاه من العلم فرجع إلى تعز المحروس.

وفي هذه السنة جهزَّ السلطان عساكره المنصورة صحبة الأمير مبارز الدين الحسن بن علي بن رطاس إلى مخالف حجة. فاستولى على بعض حصونها.

وفي هذه السنة اشتد القحط والغلاء بعد قتل الإمام أحمد بن الحسين ومات كثير من الناس ولا سيما فقهاء الزيدية والحمزيين. وكان أول من مات منهم الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام عبد الله بن حمزة. وكان سيد الجمزيين في زمانه لا يساميه أحد منهم في رئاسته ولا سيادته.

(٥٠/١)

توفي في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. وقيل في الثالث عشر من جمادى الأولى. وكانت وفاته بصعدة فتولى رئاسة الحمزيين بعده أخوه الأمير نجم الدين موسى بن الإمام عبد الله بن حمزة فلم يلبث أن هلك بعد أخيه شمس الدين. ثم مات أخوهما الحسن بن الإمام عبد الله بن حمزة ومات طائفة من أولاد وهاس سليمان وعبد الله والمؤيد إبراهيم. فقام برئاسة الحمزيين الأمير صارم الدين داود بن الإمام واتفق هو والإمام الحسن بن وهاس مدة وحالف عليهما محمد سليمان بن موسى بن داود بن علي بن حمزة وسليمان ابن حمزة. فمال إلى خدمة مولانا السلطان. ولما رجع الأمير مبارز الدين ابن رطاس من مخرج حجة إلى أبواب السلطانية جهز السلطان إلى حجة أيضاً الأمير شمس الدين بن علي بن يحيى في جيش كثيف. وكان فيها الأمير أبو الحسن أحمد بن قاسم بن عم الإمام أحمد بن الحسين. فلما وصل الأمير شمس الدين علي بن يحيى إلى مفرق وهو واد بين المحلافة وحجة كتب الأمير شمس الدين علي بن يحيى إلى الأمير أبي الحسن أحمد بن قاسم بيتاً واحداً وهو:

أبا حسن ما جئت مفرق طالباً ... لمفرق لكن غير مفرق اطلب

فأجابه الفقيه نظام الدين قاسم بن أحمد الشاكري على لسان الأمير أبي الحسن أحمد بن قاسم ببيت واحد وهو:

أبا حسن قد يجلب اليوم ما ترى ... وقد ربما احتكتِ بالأَفْعَاءِ عقرب

ولم يلبث الأمير شمس الدين علي بن يحيى أن يرجع إلى الأبواب الشريفة السلطانية وتسلم السلطان حصن اسبح في ذي الحجة من السنة المذكورة ثم أمر السلطان بالمحطة على حصن الكميم. فحط عليه الأمير أسد الدين محمد بن سليمان بن موسى والأمير شمس الدين علي بن يحيى في العساكر السلطانية.

وفي سنة تسع وخمسين تسلم السلطان حجة وحصونها وحسن الريعة وتسلم هَدَاد وفيها تسلم حصن الكميم. وكان الأمير أسد الدين محمد بن سليمان بن موسى قد مال إلى خدمة السلطان كما ذكرنا. وبنى في وضع يسمى الروق في بلاد بني ضرار فضاق الأمير محمد بن الحسن بن علي بن رسول منهُ. فأخذه مملوكه الأمير جمال الدين أقوس الألفي فحط على الورق حتى كاد يأخذه ثم طلع مولانا السلطان إلى مخلاف ذمار فأخذ باش قهراً بالسبق فأخربهُ واستأسر ولد الأمير أسد الدين في جماعة كثيرة. ثم أخذ أروق وأخربهُ أيضاً. ولما خالف الأمير أسد الدين محمد بن سليمان بن موسى على الإمام الحسن بن وهاس استولى على الحوف. فسار إليه الأمير صارم الدين داود بن الإمام في عسكره والأمير علم الديم علي بن وهاس في عسكر أخيه. وكان محمد بن سليمان في سوق دعام. فلما وصله العسكر قاتلهم فكسروه ودخلوا عليه الدرب قهراً فالتجأ إلى دار فيه فدخلها فدخل عليه السحن بن محمد الحجافي فقتلهُ وثؤر بأبيه محمد بن حجاف. وكان سليمان ابن موسى قد اسر محمد بن حجاف في جماعة من أصحابه ثم ضرب أعناقهم صبراً. فظفر ابنه في هذا اليوم بمحمد بن سليمان فقتله بأبيه. وكانت جملة القتلى في هذه الوقعة نحواً من مائة رجل. ولم يبث الأمير صارم الدين داود بن الأمام. والإمام الحسن بن وهاس أن اقترفا وصار بينهما تباعد اشد التباعد. وفي هذه السنة وقعت الزلزلة في صنعاء يوم الرابع من ذي الحجة ولم تخرب شيئاً. ثم وقعت زلزلة أخرى بالمغرب أخرجت جبالاً وهدمت مواضع كثيرة. وكانت في الثاني والعشرين من ذي الحجة أيضاً.

وفي هذه السنة تولى السلطان أمر الحرم الشريف وعمارته. وأقام منارة وخدمة وجوامك خدامة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن الحسين الأصابي وكان فقيهاً أصوليّاً نحويّاً لغويّاً كامل الفضل عارفاً بالحديث والتفسير. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة. وتفقه بمحمد بن جديل من أهل سهعنة ويحيى بن فضل وغيرهما. ولما ابتنى السلطان الملك مدرسته التي في معزية تعز رتب فيها مدرساً فهو أول مدرس ترتب فيها. ثم لم يقف بها غير اشهرٍ قلائل وتوجع فرجع إلى السحول. وكان يسكن قرية يقال لها المعيرير بعين مهملة ورائين مهملتين بينهما ياءُ ساكنة على وزن مفيعيل وهو ناحية من نواحي المخادر. وتوفي بها في السنة المذكورة وحمل على أعناق الرجال إلى

المحفد ودفن قبلي المدرسة. وقبره اشهر من أن يزار. ويجد الزائر عند قبره رائحة المسك خصوصاً ليلة الجمعة.

(٥١/١)

قال الجندي وهو أول من سن الأذان لمن يسد اللحد على الميت وقد اعتمد ذلك كثير من الناس. قال وسألت شيخنا أبا الحسن الصبحي عن معناهُ فقال هو معناهُ عن الفقيه أبي الحسن علي بن الحسن الأصابي وكان فقيهاً عالماً ولعله أخذ من الأذان في إذن المولود ويقول أول خروجه من الدنيا وهذا أول خروجه إلى الآخرة. وتفقه به خلق كثير منهم عمر السهوي وأبو بكر بن عبادي وغيرهما وله مصنفات في الأصول منها كتاب ضمنه الرد على الزيدية وكتاب ضمنه الرد على من يكفر بأول الصلاة.

قال الجندي رحمه الله قرأته على محمد بن أبي الرجا بروايته عن مصنفه المذكور. ويروى عنه أنه قال حججت سنة فبلغني أن الشيخ أبا الغيث قد تكلم بتفسير القرآن على المشكل منه فانتخبت من وسيط الواحدي عشرة مسائل واستثبت حقائقها. فلما رجعت من الحج مررت ببيت عطا فدخلت على الشيخ فوجدت الناس يتغدون والشيخ قاعد على سرير في طرف الرباط فامرني النقيب بالقعود والغداء ففعلت. ثم لما فرغ الناس وتفرقوا قلت أريد أن اسأَل الشيخ ففتشت أول مسأَلة فلم أجد ثم الثانية ثم الثالثة حتى أتيت على العشرة فكأَني لم أُحط بشيءٍ منها علماً والشيخ مطرق فحين لم أجد شيئاً رفع الشيخ رأْسه إليَّ ثم قال ليتأَدب بعض الناس. فغلب على ظني أنه عناني فقمت إليه فقبلت كفه واستأْذنته في السفر فأذن لي فسافرت.

وفي سنة ثمان وخمسين طلع السلطان بن علي بن رسول في ذمرمر المذكورة. وكان الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول في ذمرمر فطلب من مولانا السلطان أن يجهزه إلى حضرموت فساعده إلى ذلك وزوَّده فخرج إلى الخوف فلقيه حصن بن محمد بن حجاف وعبد الله بن منصور بم ضيغم فطلبوا منه النصرة على آل راشد بن منيف فأجابهم فكانوا خلف مولانا السلطان فوقعت الحرب بينهم فقتل طوق بن حمدان في جماعة من آل راشد. فلما اتصل العلم بمولانا السلطان ضاق صدره على الأمير أسد الدين وتعذر على الأمير أسد الدين المسير إلى حضرموت فتوجه نحو ظفار الأَشراف فأقام فيه أياماً ثم خرج الأمير صارم الدين داود بن الإمام في عساكره والأمير أسد الدين محمد لن الحسن فيمن بقي من مماليكه وقد كان لحق أكبرهم بالسلطان وتأَهبوا لحرب الإمام الحسن بن وهاس فالتقوا بعصافر فانهزم أصحاب الإمام وثبت هو ثباتاً حسناً وقاتل قتالاً شديداً. وكان فارساً شجاعاً من الشجعان المشهورين فانهزم عنهُ أصحابه ولم ينهزم. وكان لا ينهزم أبداً وكذلك أسر ثلاث مرات هذه المرة الثالثة وفي كلها يأسره الأمير أسد الدين محمد بن الحسن وهذا من عجائب الاتفاق.

فلما أُسر الإمام كما ذكرنا سجنه الأمير صارم الدين داود بن الإمام فأقام عنده في الأسر عشر سنين. ثم أخرجه بعد عشر على ما سنذكره أن شاء الله وأقام السلطان في صنعاء ونواحيها إلى شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. ثم بعده إلى اليمن وترك الأمير شمس الدين علي بن يحيى في صنعاء مقطعاً بها وبأعمالها فلم يقم إلا قليلاً حتى وصل الأمير أسد الدين محمد بن الحسن فحط في المدورة فوق الحمراء وكان يغير إلى صنعاءَ فأغِارت خية عشية إلى صنعاءَ فخرج العسكر لقتالهم فقتل مملوكه الأمير جمال الدين أفوس الألفي أُصيب بسهم. وكان الذي رماه الأشقر أحد مماليك أسد الدين أيضاً ولكنه قد صار من جملة العسكر السلطاني. وكان الألفي أحد الشجعان المشهورين بالشجاعة والكرم.

ولما علم السلطان بما كان من أسد الدين جهز الأمير علم الدين سنجر الشعبي معبراً إلى صنعاءَ فارتحل أسد الدين من محطته ولحق ببلاد الأشراف ولم تقم له راية بعد لذلك. وأعاد الأمير علم الدين المحاط على براش ولقي الأمير أسد الدين يتردد من ظفار إلى طفر ثم لحقته مضرة شديدة حتى أنه با ع ثيابه ثم كتب إلى السلطان كتاباً يقوله فيه:

فان كنت مأْكولاً فكن أنت آكلي ... وإلاَّ فأدركني ولما أمزّق

(٥٢/١)

فأمر السلطان علي بن يحيى والأمير عبد الله بن العباس إلى الأمير أسد الدين فما زالا بهِ حتى نزل معهما إلى السلطان وإنما أرسل إليه السلطان الأمير شمس الدين علي بن يحيى لما يعلم بينهما من المحبة والصداقة فلما وصل الأمير شمس الدين إلى الأمير أسد الدين بكى عنده وتألّم من القبض على أبيه وأخيه فقال له لعلك في القرب انفع لهم من البعد. ولعلنا ننتظر فرصة من الدهر فنكون كذا وكذا فنقل ذلك إلى السلطان. وكان السلطان يومئذ في محروسة زبيد. فلما وصلوا زبيد أمر السلطان بالقبض عليه وعلى علي بن يحيى فقيدهما وأرسلهما إلى حصن تعز فقال في ذلك القاضي سراج الدين أبو بكر بن دعاس.

ما دان في فلك الأيام ذا أبداً ... كلاّ ولا دار للأقوام في خلد

أن الكسوف جميعاً والخسوف معاً ... في ساعة في نزول الشمس في الأسد

فلما دخل الأمير أسد الدين على أبيه وعمه وأخيه وابن عمه وابن أخته محمد بن حصر جعلوا يعاتبونه ويخاصمونه فقال لهم يا قوم لا نكون مثل أهل جهنم كلما دخلت أمي لعنت أختها. فلم يزالوا في اسجن حتى توفوا إلى رحمة الله تعالى. ولما قبض الأمير شمس الدين علي بن يحيى كما ذكرنا. وكان مقطعاً في صنعاء طلع الطواشي نظام الدين مختص عقيب ذلك فأقام في صنعاءَ ورجعت المحاط على مدة وتراش وطفر.

ثم طلع بعد ذلك فيروز فأقام أياماً قلائل. ثم طلع الأمير هبة بن الفضل مستخلصاً للأموال

فاستخلصها على أثم ما يكون. ثم تسلم الحصن حصن حيرة في شهر رجب. وكان بناه بنو وهاس فاخرب بعد التسليم ثن تسلم حصن مدة في ذي الحجة من السنة المذكورة.
وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو الخطاب عمر بن مسعود ابن محمد بن سالم الحميري نسباً إلا يبني بلداً. وكان فقيهاً صالحاً متورعاً متعففاً ملازماً للسنة تفقه بمحمد بن إسماعيل الحضرمي وعلي بن قاسم الحكمي وبطال بن أحمد الركبي وعلي بن عمر الحضرمي وإبراهيم بن علي بن عجيل وغيرهم. وعرف بصحبته الحضر كثيراً. وكان مدرساً بذي هريم بالمدرسة النظامية وتفقه به جمع كثير. ويقال أنه خرج من أصحابه أربعون مدرساً منهم محمد بن سالم اليابه وإبراهيم بن عيسى الجندي ومحمد بن محمود السفالي وسعد بن انعم بن مصنعة وغيرهم. ولم يزل على الطريق المرضي إلى أن توفي رحمة الله عليه في الثامن من شوال من السنة المذكورة وقبر في مقبرة صينية في ناحية من نواحي مدينة تعز ولما توفي في التاريخ المذكور خلفه تلميذه سعيد بن منصور بن محمد بن أحمد الجيشي بجيم وياء مثناة من تحتها ساكنة ثم شين معجمة. وكان واده يلقب بأنعم واصل بلده مصنعة سير. وكان فقيهاً محققاً درس بعد شيخه في المدرسة المذكورة إلى أن توفي سنة أربع وسبعين وستمائة وقبر إلى جنب قبر شيخه ثم خلفه ابن شيخه عبد الله بن الفقيه عمر بن مسعود فلم تطل مدته فتوفي في سنة خمس وسبعين والله أعلم.

(٥٣/١)

وفي سنة تسع وخمسين تسلم السلطان رحمه الله حصن عصدان في المحرم من السنة المذكورة. ثم تسلم حصن براش في رجب من الشريف أحمد بن محمد العلوي وعوضه عنه المصنعة وعزان من بلاد حمير ومالا أعطاه إياه. وفي شهر رمضان من السنة المذكورة طلع الأمير علم الدين سنجر الشعبي إلى صنعاء مقطعاً لها ولأَعمالها وقد تأَهب الركاب العالي إلى مكة المشرفة لأداءِ فريضة الحج فخرج في حصن تعز في شوال من أسنة المذكورة. وكان له من الصدقات أتى مكة في البحر والبر ما لا يعمله إلا الله وكان رحمه الله يسير في البر والمراكب تسايره في أبحر بالعلوفات والأطعمة فلما قارب مكة حرسها اله تعالى خرج الشريفان عنها إدريس ابن قتادة وأبو نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة خوفاً منهُ ثم دخل مكة في عساكره وجنوده داعياً ملبياً خاشعاً متضرعاً عاري الرأس والجسد حتى قضى حق الطواف. ثم تقدمت العساكر والجنود فحطت في الحجون ولم تزل إلى أن قضى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة فوقف في ناحية الصخرات وطلعت أعلامه الشريفة وأعلام صاحب مصر فقال له الأمير عز الدين محمد بن أحمد بن الإمام هلا اطلعت أعلامك يا مولانا السلطان قبل إعلام المصريين فقال له أترانِي أؤَخر أعلام ملك كسر التتر بالأَمس أقدم أعلامي لأَجل حضوري ثم مضى في حجه حتى أتمهُ ثم قصد البيت الشريف وحلَّ لهُ ما حرّم عليه. ولم يزل مدة إقامته بمكة يصلي المغرب على قبة زمزم ثم يطوف وارداً وصادراً وخدم البيت الشريف

وأخذ المكسحة وتأبط القربة وغسلهُ ثم ضخمهُ بالغوالي الفاخرة

مقام يحق لذي الكبريا ... ءِ أن يبدلهُ بالخضوع

رأينا به الملك رب الفخار ... أبا عمر ذا النوال الهموع

خشوعاً مروعاً لتقوى الإله ... وما كان من قبله بالمروع

ثم أقام في مكة عشرة أيام بعد الحج يفرّق الصدقات المبرورة حتى وصلت صدقاته إلى كل منزل بمكة وعمت جميع الحجاج على اختلاف أنواعهم وجهز حاج مصر بالأنعام العام والأزواد والمراكب وكسى البيت المعظم وأنعم على رؤَساءِ الحرم بالتشريفات ونثر على البيت الذهب والفضة.

ولما أزمع الرحيل تقدمت الاستاق المباركة إلى البير المعروفة بالبيضاء ثم ودع البيت باكياً مستعبراً وعاد سعيداً مقبولاً ولم يزل يوالي البر وينشر العرف في كل محطة حتى وصل بلاده.

وفي هذه السنة توفي الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مصباح بن عبد الرحيم الأحولي العنسي. وكان مولده سنة سبع وخمسمائة أخذ عن إسماعيل بن سيف السنة وعن محمد بن مضمون وأبي حديد وغيرهم. ثم لما سمع بمعمر ارتحل إليه فوجده قد توفي قبل قدومه بقليل. فدخل بلد يزد فاخذ عن الفقيه محمد بن إبراهيم اليزدي ثم عاد إلى جبلة فأقام بها ببيع العطر وهو يشتغل بقراءَة الكتب. فلما ابتنى الدار النجمي المسجد الذي تنسب إليهم في جبلة جعلوه مدروساً فيه حتى توفي. وعند أخذ جمع كبير وقُصد من الأماكن البعيدة لعلو سنده وغرر روايته. وكان رجلاً صالحاً لما أهل له من التدريس. وممن أخذ عنهُ الفقه عمر بن سعد العقيني. ولم تزل ذريته يتوارثون تدريس المسجد بعده لا يعسر ذلك عليهم وكانت وفاته لأربع بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة.

وأما معمر المذكور الذي كان في الهند وقصد الفقيه زيارته كما ذكرنا فكان أسمه براءٍ مفتوحة وتاءٍ مثناة من فوقها وآخره نون على وزن وثن مفتوح أوله وثانيه. قيل أنه توفي سنة إحدى عشرة وستمائة في جزيرة بالهند تسمى فروزاً اخبرني من أثق به أنه وجد هكذا مكتوباً بخط الفقيه الإمام القطب أحمد بن موسى بن عجيل. قال حكى لي من حضر موته في التاريخ المذكور قلت وأما الحفاظ فلا يثبتونه

(٥٤/١)

وقال الحافظ الذهبي لا حقيقة لهُ في الوجود. وإن صح وجوده فإنه شيطان يبدو للناس ليفتنهم. لان مثل هذا لتواتر الدواعي إلى نقلهِ ولتواتر الأخبار عنهُ. هذا لفظه بعينه ذكره في كتابه المغني والله أعلم وفي هذه السنة توفي الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن الحواري. وكان مولاده في مدينة زبيد وبها تفقه ثم صار إلى عدن وصحب الفقيه إبراهيم السرددي وآخاه ثم لما توفي أنزله قبره بعد أن اضطجع فيه قبله وكأنه فعل ذلك تأسيساً بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بام علي بن أبي طالب حين أراد دفنها. وهو ممن أخذ عن الصنعاني وكانت وفاته في السنة المذكورة. وقيل في

سنة ثمان وخمسين والله أعلم.

وفي سنة ستين وستمائة رجع السلطان من حجته المبرورة فدخل مدينة زبيد في أحسن زي واكمل آلة ذلك في شهر صفر من السنة المذكورة. وكان الشريف يحيى بن محمد السراجي قد دعا إلى نفسه في ناحية حصور وما والاها في آخر سنة تسع وخمسين وستمائة فأجابه اجزل أهل تلك الناحية. فخرج إليه الأمير علم الدين سنجر الشعبي مواثباً له فانهزم العسكر إلى المغرب وعاد الأمير إلى صنعاءَ فسار الشريف يحيى إلى بلد بني فاهم فامسكوه وسلموه إلى الأمير علم الدين فكحله في ذي الحجة من السنة المذكورة سنة ستين وستمائة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه علي بن عمر بن مسعود وكان فقيهاً جيداً صالحاً ولي قضاء صنعاءَ برهة من الزمن وكان الفقيه عمر بن سعيد أخاه لأمه فاستعفى السلطان نور الدين فأّعفاه وحج في آخر عمره. فلما رجع من الحج إلى مدينة زبيد. توفي بها في صفر من السنة المذكورة. وفيها توفي الفقيه الصالح سعيد بن الفقيه منصور بن علي بن عبد الله بن إسماعيل ابن أبي الخير بن مسكين. وكان في نهاية من الزهد والورع والعبادة مع الاشتغال بالقراءَة.

قال الجندي أخبرني الفقيه الخبير بأحوال الناس من أهل جيله خاصة قال كان هذا سعيد بن منصور مصاحباً لابن مصباح واتفقا على أن من كان لهُ في شيءٍ من الكتب سماع أسمهُ صاحبه وانتزم ذلك بينهما. وكان بين ألفيه سعيد وبين الفقيه عمر بن سعيد صحبة ومؤَاخاة ومعاقدة أن من مات منهما قبل صاحبه حضرهُ الآخر وتولى غسلهُ والصلاة عليه. فلما مات الفقيه سعيد في بلده دلال. وكان قد أوصى أن يرسل إلى الفقيه رسولاً يعلمهُ بموته عند أن يموت. فلما توفي بادر الوصي أرسل رسولاً إلى الفقيه عمر بن سعيد يعلمهُ بموته. فلما بلغ الرسول الطريق لقي الفقيه عمر بن سعيد مقبلاً. فلما واجه الرسول قال له مات الفقيه قال نعم.

ومن كراماته ما يروى أن زريعاً الحداد. وكان زريع من الصالحين المتورعين دخل على الفقيه سعيد بن منصور يوماً عقيب عي عرفه فقال يا سيدي رأّيت ما أَحلى الحج هذه السنة فنظره القيه نظرة بزورار ففهم زريع كراهة الفقيه لذلك فسكت مستحيياً ثم جعل الفقيه يغالط الحاضرين بكلام آخر ففهم الحاضرون المعنى فوقف حتى انصرف الحاضرون جميعاً عن مجل الفقيه. ثم قال يا سيدي سبحان الله نحن نحبكم وصحبنا كم ويحصل لكم هذا النصيب الوافر ولا تشركوننا فيه ولا في بعضه. فأراد الفقيه مدافعته بالكلام وإنكار ما أراد فلم يقبل من الفقيه ذلك الكلام وكان يأْنس بالفقيه كثيراً ثم قال لهُ سأَلتك بالله يا سيدي إلا ما أخبرتني كيف تفعلون هل هو طيران أم خطو أم ما ذلك. فقال الفقيه هو شيءُ لا يستطيع تكييفه وإنما هو قدرة من قدرة الله تعالى يختص برحمته من يشاءُ من عباده وبالله التوفيق.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الرئيس الماجد علوان بن عبد الله بن سعيد الجحدري ثم المذحجي المعروف بالكردي لقباً وكان قيلاً من أقيال اليمن وأوحد أعيان مشايخ الزمن. وكان كريماً شجاعاً مقداماً مطعاماً مطعاناً عفيف الأزرار مجتهداً فيطلب الأجر والثناء وملك ناحية عظيمة من شرق

اليمن وهي حجر ونواحيها وتغلب على حصون كثيرة منها العروسين ووعل والبورة ونعمان شرقي الجند وحارب ملوك الغز ولم يظفروا منه بطائل. وكان السلطان نور الدين في مدته قد حط عليه عدة محاط بالمقطعين من أُمرائه وطلخاناتهم إذا جاءَ وقت ما يضربون النوبة ترتج الأرض وترتعب النفوس فيقول علوان لقومه يا مدجح لا تفزعوا فإنما هي جلود بقز وله قصيدة في التأليب على حرب السلطان نور الدين يقول فيها:

(١/٥٥)

من تاب عن حرب نور الدين من جزع ... فإنني عنهُ ما عمرتُ لم أَتبِ
وكاتب السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية وسأَل منه الإعانة في حرب نور الدين فأعانه بأموال جمة. ولم يزل السلطان نور الدين يتطلف به ويبذل فيه الرغائب حتى أُتي به إليه أسيراً فحسبه في حصن جب فلما صار في السجن أكثر التضرع إلى الله تعالى والدعاء بالخلاص فيقال أنه رأَى في النوم قائلاً يقول لهُ ادع الله بهذه الكلمات: اللهم إني أسأَلك بما ألهمت به عيسى من معرفتك وما علمته من أسمائك التي صعد بها إلى سماواتك وبما علمتهُ من ربوبيتك ووحدانيتك إلا فككت أسري برحمتك وكرَّر ذلك حتى حفظه فلم يزل يدعو بهذا الدعاء أياماً حتى أطلقهُ الله وأعاد إليه حصونه.

ومن محاسن أفعاله أنه كان متى بلغه أن يتميمه قد بلغت الزواج ولم تتزوج ولم يُرغب خطبها هو واحضر لها مالاً له قدر فإذا خلا بها طلقها وربما يطلقها قبل أن يخلو بها فتُرغب من بعده إما للمال أو شحاً على زوجاته لها بعده وكان هذا دأْبه. ولما توفي السلطان نور الدين في تاريخه المذكور وطلع ولده السلطان الملك المظفر من تهامة استعان به على أحد تعز فأَقبل إليه بنحو من عشرين ألف رجل من مذحج. وكان شاعراً فصيحاً حسن الشعر ومن شعره قوله:

والله لا استوطنت أرضاً تربها ... مسك إذا حظي بها مقسومُ
وعلام أُوطنها وعرضي وافرُ ... والرزق من أُفق السما مقسومُ
لا آمن الأيام وهي معارةُ ... فوق التراب فحسبيَ القيومُ

ومن شعره قوله أيضاً

إذا كان قول الحق والحق قولهُ ... بمحكمة والملك في آية الملكِ
معزٌّ لمن شا والمذلٌّ لمن يشا ... فكيف اعتراضي قوله الصدق بالشك
ونفسك فاتركها عن الهم والأذى ... فراحتك العظمى لك الله في الترك
فما الأمر إلا للذي صيَّرَ الورى ... وتسييرهم في لجنة البحر بالفلك
وموجدهمُ من غير وجدان سابقٍ ... ومفنيهمُ بعد التكاثرِ بالهلكِ
ولا تشك ما لاقيت من غير منصف ... إلى مثلهِ لكن إلى منصفٍ تشكي

ولما تاب وحسنت توبته قال يعاقب نفسهُ:

وقد كان ظني الغي واللهو إنما ... يكونان في عصر الشباب العرانق
فلما أتاني الشيب وانقرض الصبي ... نظرت وذاك الغي غير مفارق
فقال بلى لكن رأَيتك ربما ... تكون بإحدى الحالتين موافقي
فقلت له لا مرحباً بك بعدها ... وانك مني طالق وابن طالق
فقال سمعنا ما حلفت بهِ لنا ... وكم مثله قد قلتهُ غير صادق
فقلت أَمن بعد الطلاق فقال لي ... وأَي طلاق للنساءِ الطوالق
فقلت له لي منك جار يجيرني ... فقال ومن هو قلت ذو الطول خالقي
فوَلى لهُ مني ضجيجُ فقلتُ لا ... تضجُّ وبادر نحو كل منافق

وشعرهُ كثير وديوانه مجلد ضخم والغالب عليه الجزالة وهو عزيز الوجود وكانت وفاته في السنة المذكورة على اصح ما قيل وقبر في موضع من بلده يعرف بالمرجانة والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو العتيق أبو بكر عبد الله بن محمد بن عمر بن محمد بن أبي عمران الملقب بالصوفي. وكان فقيهاً زاهداً صالحاً ورعاً متفنناً متقناً درس ببلده ثم درس ببلد صهبان ولم يزل بها حتى دنت وفاته فعاد إلى بلده فتوفي بها في السنة المذكورة والله أعلم.

وفي سنة إحدى وستين تسلم السلطان حصن الجاهلي اشتراه من الشريف أحمد بن قاسم القاسمي في شهر بيع الأول. ثم تسلم حصن السوا في شهر رجب من السنة المذكورة. ثم تبارت العساكر المنصورة في شوال إلى حصن دمرمر فكانت محطة في الحصن الأبيض ومحطة في الحصن الأحمر ومحطة في أكمة ابن سنية ومحطة في الهامة. ووصل الأمير عز الدين محمد ابن أحمد بن الإمام والأمير عز الدين هبة بن الفضل وبذلوا لأهل دمرمر مائة ألف دينار وحصن بريس وحصن فده ووادي طهر وغير ذلك من الكسى والأنعامات فلم يقبلوا فأصابهم مرض لم يسمعوا بمثله كان إذا أصاب أَحداً سقطت أضراسه كلها فيقيم بعد ذلك نحواً من خمسة عشر يوماً ثم يموت. فهلك منهم طائفة في مدة يسيرة.

(٥٦/١)

وفي هذه السنة أرسل السلطان بكسوة البيت وكسوة الحجرة الشريفة على صاحبها افضل الصلاة والسلام. وفيها توفي الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفَشلَي. وكان فقيهاً كبيراً محدثا مولده في الرابع عشر من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وأخذ عن جماعة الأكابر كالشريف أبي حديد وابن حروبه الموصلي وغيرهما وارتحل إلى مكة والمدينة وأخذ عن أعيان المشايخ هنالك كابن أبي الضيف وعمر بن عبد المجيد القرشي وغيرهما. وأخذ عنه كثير من أهل اليمن وغلب عليه علم الحديث فكان إماماً فيه وهو أحد مشايخ

أبي الخير بن منصور وممن أخذ عنه أحمد بن علي السرددي وغيرهُ. وكانت له مكانة عند الملك المنصور نور الدين ثم عند ولده السلطان الملك المظفر. وسمع عليه عدة من كتب الحديث. وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان من السنة المذكورة. ركب دابتهُ يوماً في مدينة زبيد يريد بعض حوائجه فمرَّت الدابة عند كلب فنبحها فجفلت منهُ فوقع الفقيهُ من ظهرها على الأرض ميتاً في التاريخ المذكور.

أَما والده إبراهيم القشلي فكان رجلاً صالحاً ذا عادات وكرامات وهو شيخ الشيخ أحمد الصياد والذي كان يدله على الطريق إلى الله تعالى بحيث حكى صاحب سيرته عنهُ أنه قال لما فتح الله عليَّ بما فتح لم يسلم لي الفقهاء والمشايخ غير هذا الشيخ إبراهيم القشلي فإنه أخي وقسيمي في الدنيا والآخرة وكان يثني عليه ثناءً حسناً هكذا ذكر مؤَلف سيرة الشيخ أحمد أبي الخير الصياد نفع الله بهم أجمعين.

وفيها توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن الفقيه إبراهيم بن أحمد الوزيري. وكانت وفاتهُ سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ونشأَ نشوءَ البدو ولم يشتغل بشيءٍ من العلم حتى بلغ عمرهُ أربعين سنة. وكان إذا بلغ إلى ابن عمه أحمد بن عبد الله بن أَسعد بن إبراهيم لم يكد يصافحهُ ولا يتركهُ يدنو منهُ ويطوي عنهُ حصر الطهارة حتى جاءَهُ يوماً فبالغ ابن عمه في التحرز منهُ واظهر لهُ ذلك فقال لهُ لِمَ تفعل هذا معي فقال لهُ يغلب على ظني إنك لا تتحرى من نجاسة وإنك جاهل لا تعرف ما ينبغي لك اجتنابهُ. فلما سمع مقالة ابن عمه هذه دخله غيظ عظيم وخرج فلحق بعبد الله بن محمد الحساني الخزرجي المقدم ذكره أَولا فتفقه به ثم عاد إلى ابن عمه فأكمل عليه قراءَة كتب الفقه. فلما عزم ابن عمه على الحج إلى بيت الله الحرام استنابه على التدريس فدرس بالوزيرية وعنهُ أخذ جماعة كثيرون منهم ابن النحوي وابن التائه من أهل تعز وحسن بن علي من أهل أب وغيرهم وكانت وفاتهُ في سلخ ذي القعدة من السنة المذكورة. حكى تاريخ وفاته صاحب العطايا السنية. ولم يذكر الجندي لهُ تأريخاً والله أعلم.

وفيها توفي الأديب سعيد وكان رجلاً صالحاً عابداً لهُ بعض اشتغال بالكتب والقراءة ولم يزل على احسن سيرة إلى أن توفي في سلخ شهر ربيع الأول من السنة المذكورة فحضر دفنه خلق كثير لا يكادون يحصرون منهم الفقيه عمر بن سعيد العقيبي والشيخ علي صاحب المقداحة. وكان دفن الأديب سعيد في آخر النهار في قرية يقال لها الفراوي بفتح الفاء فبات أكثر الناس في القرية. وكان أهل بيته فقراء لا يملكون شيئاً فاتاهم من الجيران توزة فيها لوح وقدرة فيها زوم. وكان الفقيه عمر بن سعيد والشيخ علي صاحب المقداحة ممن أمسى هنالك تلك الليلة فتقلد أحدهما بكفاية الناس من ذلك اللحوح وتكفل الآخر بكفايتهم من ذلك الزوم. فقام أحدهما على إناءِ اللحوح والآخر على إناءِ الزوم ولم يزالا يطعمان الناس حتى صدروا كلهم عن كفايتهم والله أعلم.

وفي هذه السنة توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن اسعد بن عبد الله ابن سعيد المقري المذحجي العسني بنون بعد العين والسين. وكان فقيهاً عارفاً بالفروع والأصول ولهُ في كل منهما تصنيف

مفيد. وولي قضاء عدن برهة من الدهر. وكان موصوفاً بالورع وجودة الفقه غواصاً على دقائقه عاملاً به.

(٥٧/١)

قال الجندي سمعت شيخي أبا العباس أحمد بن علي الحرازي يذكر هذا الرجل ويثني عليه ثناءً بليغاً. وكان ممن أدركه وقرأ عليه وأخبرني أنه كان يعجبه الاختلاط بالفقهاءِ والمواصلة لهم. وكان مدرس عدن والمعيد بها والطلبة يصلون بكرة كل يوم إلى بابه ويحضرون مجلسه فيلقاهم بالبشر والإكرام. فإذا اطمأَن بهم المجلس جعل يلقي عليهم المسائل من الكتب التي يتعاونون قراءَتها فمن وجده ذاكراً شكره ووعده بالخير وحثه على الاجتهاد. وكان ذا مكارم أخلاق وكرم طباع قل ما قصده أحد إلا أنحفهُ بما يليق بحاله. وكان كثير الصدقة متنزهاً عما يتهم به كثير من الحكام وكان كثير الصدقة على الفقراءِ والمساكين في كل يوم بدينار خبز. وكانت وفاته في عدن يوم الثلاثاء لاثني عشرة ليلة بقيت من صفر من السنة المذكورة وقبره في القطيع رحمه الله.

وفي سنة اثنين وستين تسلم السلطان الحصون الحميرية. وتسلم مدع من بني وهيب وعوضهم حصن بنت أنعم ومالاً اشترطوه. فطلع الأمير علم الدين إلى مدع بعد أن دخلته العساكر المظفرية. وفيها من المقدمين الحسن بن بهرام ومحمد بن ربيع وغيرهما. وقد كان الأمير صارم الدين داود بن الإمام أقام الشريف الحسين بن محمد العطاري واستمد به رجاء منه أن يتنفس على أهل ذمرمر وعلى أهل مدع فلم يتفق له ذلك ولم يكن للإمام عوده الله من النصر والظفر فلما قبض الأمير علم الدين حصن مدع وقبض الوهبيون حصنهم والمال الذي اشترطوه. وهو ستون ألفاً سقط في أيدي الأشراف ورأوا انهم قد ضلوا. ثم وردت الأوامر الشريفة على الأمير علم الدين الشعبي بالتقدم إلى ابن أقس والزاهر وأخذهما وكان تسليمهما في ذي القعدة من السنة المذكورة. ووصل العسكر المنصور صعدة في ذي الحجة منها.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح القاضي أحمد بن ثمامة. وكان من أهل العبادة والصلاح وامتحن بقضاء الضحى ومرض مرضاً شديداً وكان يخرج أوقات الصلاة بين اثنين يستعين بهما في الخروج ليصلي مع الجماعة فصلى يوماً الظهر واضطجع بعد الصلاة فغلبتهُ عينهُ فنام حتى دخل وقت العصر فأيقظوه للصلاة فوجدوه قد مات. وكان يوم وفاته في السنة المذكورة.

وفيها أيضاً توفي الإمام العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الله بن اسعد بن إبراهيم الوزيري بلداً الأنصاري نسباً وكان فقيهاً ماهراً تفقه بابيه عبد الله ابن اسعد ودرَّس بالوزيرية بعد أبن مضمون وبه سميت الوزيرية لطول إقامته في تدريسها وإقامة ابن عمه أيضاً. ثم أراد الحج فسافر إلى مكة المشرفة في أيام السلطان نور الدين بعد أن استخلف ابن عمه أحمد ابن محمد ابن إبراهيم الوزيري المذكور أولاً. فلما قضى الحج وعاد احبَّ سكنى زبيد فسأَل من السلطان نور الدين أن يأْذن له في

سكناها فأذن له في ذلك فاستوطنها وجعله مدرساً في المنصورية العليا بزبيد فاخذ عنهُ عدة من أهل زبيد منهم عمر بن عاصم وغيره. وممن أخذ عنهُ يحيى بن زكريا ولم يزل مقيماً في مدينة زبيد إلى أن توفي في السنة المذكورة ودفن في مقبرة باب القريب فكان له أربعة أولاد أَفقههم سليمان سكن مخلاف شرعب. وكان فقيهاً صالحاً زاهداً ورعاً تفقه في بدايته بابيه ثم بالفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وأخذ عن أبي الخير بن منصور وعن السلطان علا السمكري وكان يقول شعراً حسناً ومن شعره ما قاله في الزهد وهو قوله:

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر ... ولابدَّ من زاد لكل مسافر

ولابد في الأسفار من حمل عدة ... ولاسيما أن خفت سطوة قاهر

وفي هذه السنة توفي الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول في السجن ودفن عند أبيه بعكار بوصية منه وكان فارساً شجاعاً مقداماً لا يوجد لهُ نظير في عصره وشهرته تغني عن وصفه وهو الذي بنى المسجد بعكار عند تربة أبيه شمس الدين علي بن رسول ووقف عليه وقفاً جيداً ورتب فيه إماماً ومؤّذناً ودرسةً وقيماً. وكان وقفه يقوم بكفاية الجميع منهم وإطعام من وفد إلى المسجد وهو باق إلى الآن والله أعلم.

(٥٨/١)

وفي سنة ثلاث وستين قبض محمد بن الوشاح الشهابي. وفي شهر شعبان منها تسلم السلطان حصن ذمرمر سلمه أهله لما أصابهم من الجهد والمشقة فطلبوا الرفاقة والذمة ونزلوا إلى الأبواب السلطانية فأعطاهم السلطان ستة وعشرين ألفاً وتصدق عليهم بحصن قدة. وفي شهر رمضان تسلم السلطان الفص الكبير ثم تسلم براش الباقر بن محمد بن مفضل الوهبي في شهر ذي الحجة وفي هذه السنة توفي الفقيه العالم أبو يحيى عثمان بن الفقيه يحيى بن الفقيه فضل وكان فقيهاً متأَدباً بارعاً له محفوظات كثيرة وبديهة حسنة وكان حاضر الجواب نظماً ونثراً وكان شاعراً فصيحاً محسناً ومن شعره قولهُ

طوبى لمن عاش بعض يوم ... ونفسهُ فيهِ مطمئنة

ولا لهُ في الملا عدوٌ ... ولا لخلق عليه منة

وحضر يوماً جماعة من الفقهاء على طعام صنعه لهم الأمير شمس الدين علي بن يحيى العسني وكان بين ذلك الطعام صفحة مملوءَة لحوحاً وزوماً فتاقت نفس الفقيه إليه أكثر من غيره فكان يمد يده إلى الصفحة وكانت الصفحة على بعد منه فقال الأمير:

بَعُدَ اللحوح عن الفقيه الأوحد ... عثمان بل خير البرية عن يد

فأجابه الفقيه مرتجلاً:

ترد المراسم أن أردت بنقله ... ويطول منك الباع أن قصرت بدي

فقام الأمير مسرعاً من مكانه واحتمل الصحفة بما فيها ووضعها بين يدي الفقيه ثم لما انقضى الطعام قال الأمير شمس الدين للفقيه يا سيدي إني رأيتك تحب اللحوح وقد وهبت لك الحربة الفلانية تكون باسم اللحوح فاقبلها مني فقبلها وكانت تسوى ألف دينار. فرحم الله علي بن يحيى ما كان الطف شمائله واجزل نائله وأكثر فضله وفضائله. وكانت وفاة الفقيه عثمان المذكور يوم الأحد لثلاث بقين من رمضان من السنة المذكورة. ولما توفي الفقيه عثمان في التاريخ المذكور خلفه ابنه يحيى بن عثمان بن يحيى بن فضل وكان مولده يوم الجمعة لخمس خلون من صفر سنة سبع عشرة وستمائة. وكان فقيها ورعا دئبا نقالاً للفروع عارفاً بها نزل إلى ذي جبلة فدرس في المدرسة الشرفية. وكان يطلع بلده في كل سنة يقف فيها شهرين أيام انتقال الغلة ثم يرجع إلى جبلة وقد اجتمعت عليه وقف المدرسة المذكورة فيصرف له الناظر نفقته في السنة فيرد منها نفقة شهرين لأجل غيبته عن المدرسة فقيل له يوماً أن المدرسين قبلك كانوا يغيبون أكثر مما تغيب أنت ويأخذون نفقة السنة كلها فقال لا تسأَلون عما أجرمنا ولا نسأَل عما تعملون. وكان يصرف ما يقتضيه من النفقة على المحتجين من الطلبة وفيما يطلبه منهُ أهل الديوان في خراج أرضه وتوفي رحمه الله في النصف من صفر سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الصالح علي بن أحمد الرميمة وكان شيخاً مباركاً يصحب الشيخ مدافع ولزم طريقة العزلة في جبل صبر. قال القاضي محمد ابن علي اخبرني الشيخ علي بن الرميمة أن أكله في السنة اثنا عشر زبدياً يكلفه أهله على ذلك. وكان الزبدي التعزي يومئذٍ ثمانية أرطال قال وهذا القدر يأكله الواحد المنفرد في شهر واحد. وكان صاحب مكاشفات وكرامات ظاهرة.

حكى القاضي محمد بن علي رحمهُ الله قال كان الشيخ عبد الله بن عباس قد بعثه الملك المظفر رسولاً وبعث معه الأمير المعروف بابن الداية فلما صار وصل العلم أن عبد الله بن عباس توفي إلى رحمة الله تعالى وكان يصحبني فمررت ببابه فسمعت في بيته البكاء فطلعت إلى الشيخ علي بن أحمد الرميمة وأخبرته بوفاة ابن عباس ففي علق ساعة ثم رفع رأُسه إليَّ وقال لم يمت إلا ابن الداية وأما الشيخ ابن عباس ففي عافية فانزل واخبر بذلك أهله فنزلت مسرعاً وأخبرتهم ثم بعد أيام وصل الخبر بموت ابن الداية ولم يزل هذا الشيخ على الطريق المرضي إلى أن يوم الجمعة بعد صلاة الضحى وهو الخامس والعشرون من رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(٥٩/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح المشهور أبو الخطاب عمر بن سعيد ابن أبي السعود بن أحمد الهمذاني العقيبي. وكان مولدة سنة عشر وستمائة. وكان عالماً عاملاً ورعاً فاضلاً عابداً زاهداً جامعاً لطريقي العلم والعمل وفقاً في كبره وصغره. روي عنهُ أنه قال خرجت يوماً أريد المعلاية وأنا صغير يتيم ومعي كسرة خبز فلما صرت في الطريق من ذي عقيب وجبلة أكلت شيئاً من الكسرة

التي معي فلقيني شخص حسن الهيئة فقال لي أنت فقيه وتأكل بالنهار فاستحييت من كلامه فكان غالب أيامه صائماً وكان غالب أصحابه يرون سبب مواظبته على الصيام من أجل ذلك وتفقه بمحمد بن عمر الخبيري المذكور أولاً وأخذ عن غيره كمحمد بن مصباح وارتحل إلى وصاب فاخذ بها شرح اللمع لموسى الأصابي عن الفقيه أبي بكر الحناجي أخذه له عن المصنف وأخذ عنه شيئاً من كتب الحديث وكان يحفظ جامع البخاري من الصحيح عن ظهر غيب وقرأ البيان على الفقيه عبد الله بدار يزيد في أيام القاضي أسعد وحج سنة فمرَّ في طريقه بالشيخ أبي الغيث ابن جميل فسلم عليه وسألَه أن يسمح له على صدره ولما ودعه سأله أن يبصق في فيه فبصق له ثم سافر فقيل للشيخ كيف أنت والجبلى فقال رجلاً كاملاً.

قال الجندي ولقد سمعت جماعة من العلماء وغيرهم مجمعين على زهده وورعه وكمال عبادته وحسن فقهه وصيانة عرضه وكان كثير الصيام لا يفطر غير الأيام المكروهة ثم لا يأكل من الأطعمة إلا ما يعرف حله. وكان شديداً في الطهارة مبالغاً فيها وكان إذا أراد الاغتسال نزل في قميصه في جارة عظيمة فينغمس فيها مرتين أو ثلاثاً ثم يخرج إلى صفا هنالك فلا يبرح يصلي عليه حتى تجف ثيابه وأمره في الطهارة شديد. قال ولقد رأيت الصفا الذي كان يصلي عليه فرأيت في موضع سجوده أثراً ظاهراً قال وأخبرني أبو بكر بن أحمد المازني عن الفقيه عبيد بن صالح عن الفقيه عمر بن محمد بن مصباح أنه رأى والدهُ محمداً وقد توفي في طريق الحج بمدينة حلي بن يعقوب فقال له ما فعل الله بك فقال غفر لي وأدخلني الجنة ويل للمتقشفين فقلت له كيف هو قال بخير ويل للمتقشفين ويل للمتقشفين فسألته عن الفقيه عمر بن سعيد المذكور وكان قد توفي فجعل يعظم ويصف ما أعطاه الله ويقول فقال نعم لكنه قشف ظاهره وباطنه لكنه قشف ظاهره وباطنه وجعل يكرر ذلك مراراً. ويروى أن رجلاً وصل إلى الفقيه أحمد بن جديل وقال له يا سيدي الفقيه رأيت قبلي التعكر نوراً من الأرض صاعداً حتى خرق السماء فما ذلك يا سيدي فقال له ذلك القطب ويوم يموت ترتج الأرض لموته.

قال الجندي وأخبرني جماعة من أصحابه أنهم كانوا يتذاكرون ذلك ويقول بعضهم بحضرة الفقيه ربما أنه أتى فيتبسم الفقيه ويقول وربما فاخبرني جماعة لا أتهم منهم أحداً في ذلك أن الرجفة كانت وقت الظهر من يوم الجمعة والناس يتأهبون للصلاة. وكانت وفاة الفقيه ليلة السبت بين المغرب والعشاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة آخر شهور السنة المذكورة. وقبره على مرمى بيته ومسجده وتربته أكثر الترب قصداً في الزيارة قلَّ أن ينقطع الزائرون عنها ليلاً ونهاراً.

ومما يحكى أن بعض الظلمة من المتصرفين كان كثير التردد إلى الفقيه والصحبة له وربما كان سبب موته شرق بشيء من الشراب فوصل من نعاه إلى الفقيه فأخبره بحاله الذي مات عليه فقال لأصحابه بسم الله سيروا بنا إلى هذا الصاحب فوافقوه بظواهرهم دون بواطنهم فلما صاروا في أثناء الطريق التفت الفقيه إليهم وقال للذي يتحقق أنه أكثرهم كراهة لذلك يا فلان يا فلان إنما يُقام على الساقط وأما غيره فينجو برجلية. وكراماته كثيرة مشهورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الكبير زريع بن محمد بن عبد الواحد بن مسعود بن عبد الله الباجي الهمداني.

وكان فقيهاً كبيراً فاضلاً وأهله من أبين وكان أبوه محدثاً تفقه زريع بمحمد بن إسماعيل الحضرمي وبعلي بن قاسم الحكمي. وكان صاحب روايات وأخبار مستحسنات. وكانت له كرامات ظاهرة وأسانيد عالية وعنه أخذ ابن الرسول في بدايته. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(٦٠/١)

وفيها توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن علي وكان فقيهاً بارعاً تفقه بتهامة على الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وبه سمى ولده وذكران ببركة دعائه حصل لابنه إسماعيل ما حصل وذلك أنه لما اخبره بولادته وأنه سماه إسماعيل لذكائه فقال له الفقيه إسماعيل بارك الله فيه. وكانت وفاة الفقيه المذكور في مصنعة بني قيس في السنة المذكورة.

وفي سنة أربع وستين تقدم الأمير فخر الدين بكتمر القلاب في العساكر المنصورة فحط على المصنعة وعزان فاستنجد الأمير فخر الدين بن عبد الله بن يحيى بن حمزة. والأمير شجاع الدين أحمد بن محمد بن حاتم بالشريف مطهر واستنجد به أيضاً أهل بيت أردم لما لزم محمد بن الوشاح فطلع الشريف مطهر إلى حصن الطويلة. وخرج الأمير علم الدين الشعبي فحط في الرجام وجهز العساكر إلى المغرب وجبل نيس فاستفتحها وعمر موضعاً فوق الطويلة يسمى غراب وأكن وأقامت على الطويلة نحواً من سبعة أشهر. وفي شهر جمادى الأولى تسلم السلطان حصن المصنعة وحصن عزان. وأنعم على الأمير فخر الدين عبد الله بن يحيى بن حمزة، وشجاع الدين أحمد بن محمد بن حاتم ثلاثين ألفاً فسلما الحصنين وأي حصنين هما منكبي الشوامخ اليمنية. وروقى المصانع الحميرية لم يقمع أحدهما قامع ولا طمع فيهما من الملوك طامع. وقد كان الأمير جمال الدين فليت حط عليهما في عساكر مصر واليمن ثم لم يكد ينجو بنفسه إلا بعد أن نهبت المحطة وما فيها من النجنيقات والزردخانة والخروج والحوايج خانة بعد أن انفق عليهما مائتي ألف مثقال ذهباً. وكان تسليمها وتسليم دمان أيضاً في جمادى الأولى من السنة المذكورة ثم تسلم السلطان بعدهما الفص الصغير في شهر رمضان. ثم تسلم حصن بيت أردم أيضاً في ذي القعدة. ثم تسلم القفل وشمسان من بني شهاب. ثم اللحام في القعدة اشتراه من أولاده الشريف سليمان بن موسى.

وفي هذه السنة توفي الأمير الكبير شجاع الدين عباس بن عبد الجليل ابن عبد الرحمن التغلبي. وكان أميراً كبيراً واصل بلده جبل ذخر بفتح الذال المعجمة أيضاً وآخره راء. وكان ذا مال جزيل وجاه عريض وكان أكثر ماله من التجارة وكان أميراً في مدينة زبيد وتأمر في عدن وله آثار حسنة. وكان أكثر الناس صدقة ومعروفاً وكان إذا اقبل الحجاج من الحج وهو في بلدٍ ومرُّوا عليه كساهم ويعطيهم ما وصلهم إلى بلدهم وإن كانوا من البلد التي هو فيها أعطاهم ما يزيلون به وعناء السفر. وقد يتشبه ناس بالحجاج في زيهم ويأتون إليه فيعطيهم ما يليق بحالهم. وله من الآثار الدينية مدرسة زبيد عمرها ابنه محمد بعد موت أبيه وهي الدار التي كانوا أبوه يسكنها. وله أيضاً في قرية السلامة

مسجد يعرف بمسجد عباس وهو غربي تربة الشيخ الصالح علي بن الغريب وله مسجد في قرية أبيات حسين ومدرسة في بلدة ذخر في موضع يعرف بالحبيل بضم الحاء المهملة وفتح الباء الموحدة. وله في كل موضع من هذه المواضع وقف جيد يقوم بكفاية المرتبين فيه وكانت وفاته بزبيد في السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الربيع سليمان الملقب بالجنيد بن محمد بن أسعد بن همدان بن يغفر بن أبي النهى. وكانت ولادته سنة اثنتين وستمائة وكان والده فقيهاً فاضلاً تفقه بمحمد بن الحافظ علي بن أبي بكر العرشاني واصل بلدهم ريمة المناحي. وعنه أخذ ابنه سليمان وكانت وفاة الوالد بقرية العدن من بلد صهبان في سنة خمس وعشرين وستمائة. وأما ابنه سليمان فكان فقيهاً جليلاً سيداً نبيلاً امتحن بقضاءِ مدينتي اليمن زبيد وعدن ثم غوفي من الجميع وعاد إلى بلده ثم انتقل إلى ذي اشرف وكان عابداً زاهداً مقصوداً مشهوراً باستجابة الدعاءِ وكان الفقيه عمر بن سعيد العقبي كثيرا ما يزوره ويأْمر أصحابه بزيارته وكانت له كرامات يحل قدرها عن الحصر وببركته وإشارته عمل الطواشي نظام الدين مختص المظفري من مظاهر الجامع بذي اشرف. وكانت وفاته رحمة الله عليه على الحال المرضي ظهر يوم الأربعاء النصف من شهر صفر من السنة المذكورة رحمهُ الله وقبر بالعدينة حيث قبر بنو الإمام وهي بفتح العين وكسر الدال المهملتين وسكون الياءِ المثناة من تحت وفتح النون وآخرها تاءٍ تأْنيث وهي مقبرة كبيرة قديمة شرقي القرية ذي اشرف قبر فيها جمع كثير من الأفاضل الأخيار رحمه الله تعالى.

(٦١/١)

وفيها مات الفقيه الصالح المشهور أبو بكر بن محمد بن رشد بضم الراء وفتح الشين وكان هو وأخوه فقيهين صالحين وغلب عليهما الزهد والعبادة ويقال أن قدومهما إلى زبيد كان قبل قدوم الحضارم ورغبا في صحبة الشيخ الصالح علي بن مرتضى خليفة الشيخ الصالح محمد بن أبي الباطل الصوفي نفع الله الجميع. وتوفي أخوه عمر بن محمد بن رُشَد بعده بسنة وذلك في سنة خمس وستين وستمائة وهو جد الفقيه المشهور محمد عبد الله الحضرمي أبو أمه.

وفيها توفي الفقيه الإمام البارع أبو العتيق أبو بكر بن عيسى بن عثمان الأشعري المعروف بابن حنكاش العلامة الحنفي المشهور وكان فقيهاً عاملاً عالماً إماماً في المذهبين وكان من صدور الفقهاء تفقه بالشريف عثمان بن عتيق الحسيني وغيره وكان لوحد أهل عصره اجتهاداً في طلب العلم ونشر المذهب حتى قيل لو لم يوجد لمات مذهب أبي حنيفة في اليمن. ويروى أنه أتى على كتاب الخلاصة ثلاثمائة شرف وانتهت إليه رئاسة أصحابه مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله. وكان يقرئ أهل المذهبين واجتمع على صلاحه المؤَالف والمخالف. فمن احسن ما ذكر من سيرته أنه منذ درَّس ما رؤي نائماً قط في رمضان ليلاً ولا نهاراً واصل بلده العنبرة قرية من قرى الوادي زبيد قريبة من

البحر وهي التي تخرج مها علي بن مهدي ولما ابتنى السلطان نور الدين المدرسة التي في زبيد التي خص بها أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه وقف له هذا الفقيه في بعض الطرق وقال لهُ يا عمر ما فعل بك أبو حنيفة إذ لم تبن لأصحابه مدرسة كما بنيت لغيرهم فأمر ببناء المدرسة الثانية وجعل فيها موضعاً لأصحاب الإمام أبي حنيفة وموضعاً لأصحاب الحديث النبوي وكان خطيباً مصقعاً وشاعراً مفلقاً. ومن شعره في سن الحداثة ما أنشدهُ سبطه عمر بن علي العلوي حيث يقول:

زبيد ودع شرق البلاد وغربها ... ولا تتحدث عن عراق ولا مصر

أَجل نظراً فيها تعاين خريدة ... مليحة ما بين التراب والنحر

بلاد بها فاح النسيم معنبراً ... وأعقب مسك الليل كافورة الفجر

وتفقه به جماعة كمحمد بن علي الصديقي وابن أبي سوادة وعلي ابن عمر وعمر بن علي العلوي وهو ابن بنته ومحمد بن عمر الأبح. ولما كان يوم الاثنين السابع عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة احتضر بعد أن مرض أياماً فحضره من أصحابه جمع كثير وذلك بعد طلوع الشمس فسأَلهم عن اليوم ما هو فدعى بطعام فأكله ثم قال لصهره علي بن عمر العلوي ارفع صوتك أنت والجماعة بلا اله إلا الله فقالوا يا فقيه إذا لم نذكرك ذكرتنا قال نعم فهللوا وجعل خواتيم سورة يس من قوله)أَوَليس الذي خلقَ السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم الآية(وجعل يكرر ذلك ثلاث مرات رافعاً بها صوته ثم تشهد عقيب ذلك وفاضت نفسه وصلي عليه ظهر ذلك اليوم وحضر دفنه جمع عظيم حتى قيل لم يكد يتأَخر عن حضور دفنه أحد من أهل زبيد.

ويروى أن بعض أهل زبيد رأى شخصاً من أهله كان قد توفي قبل ذلك بسنين. فلما توفي الفقيه أبو بكر بن حنكاش ودفن كما ذكرنا رأَى الرجل الذي من أهل زبيد قريبهُ في النوم فقال له ما فعل الله بك فقال حبست منذ مت مع جماعة فلما توفي الفقيه أبو بكر بن حنكاش شفع فينا فأطلقنا وغفر لجميع من في المقابر ببركة قدومه رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن عمر العلوي وكان مولده سنة ثمان عشرة وتفقه بابن حنكاش المذكور كما ذكرنا وكان فقيهاً فاضلاً له تفضل ومكارم أخلاق. توفي بعد شيخه بأربعة أشهر. في تاسع شهر شعبان من السنة المذكورة. وهو جد ابن الأبح وعقبهُ كثير في زبيد والله أعلم.

(٦٢/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن سير بن إسماعيل بن الحسن الواسطي. وكان فقيهاً فاضلاً قدم نعم أولاً وأخذ عنهُ جماعة شتى من كتب الحديث منها قريب العهد المروي عم أمعمر بالهند ثم سافر إلى الجند لغرض الرجية بها فأخذته بطنهُ وتوجع فلما أحس بثقل المرض طلب جملاً وحمل عليه فلما وصل الجمل على باب الجند برك فضربوهُ فلم يقم فقال بخ بخ لكم يا أهل الجند هذا علامة. موتي وقد وعدني ربي أن يغفر لي ولمن قبر حولي. ثم أُعيد إلى الموضع الذي نزل فيه أولا

وهو المدرسة الشعيرية فتوفي مبطوناً غريباً لبضع وعشرين ليلة مضت من رجب من السنة المذكورة وقبره تحت جبل صرب مشهور مزار رحمهُ الله.

وفي سنة خمس وستمائة قتل الأمير فخر الدين بكتمر الغلاب وكان السلطان الملك المظفر قد أمرهُ بعمارة الزاهر وجرَّد معه مائة فارس وخمسمائة راجل فقصده الأشراف بنو حمزة فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه الذين كانوا معهُ وكان ذلك في شعبان. ولما قتل في التاريخ المذكور انحاز أصحابهُ الباقون إلى براقش فبرز أمر مولانا السلطان على الأمير علم الدين الشعبي بالتقدم إلى جهة الظاهر في عساكره وطلعت عساكره المنصورة إلى جهة حَجَّة ووقعت هنالك حروب عظيمة وتفاقم الأمر فاقتضى الأمر الرشيد والرأْي السديد طلوع الملك الأشرف عمر بن يوسف إلى جهة حجة لإطفاء نار هذه الفتنة فخرج في عساكره المنصورة حتى حط في الدبايب في محطة جده الملك المنصور ثم وجه المقدمين من العساكر إلى حجَّة فحصروا حصن مبين وكان فيه الشريف مُطهَّر. فلما اشتد عليه الحصار خرج مرفقاً واستولى العسكر المنصور على الحصن فأمر الملك الأشرف حينئذٍ بخرابه فخرب خراباً كلياً ثم صرف همته بعد فتح مبين إلى حصن الخلافة في ذي الحجة منها وهي الموقر وقراضة والعكاد وكحلان والعرانيق الثلاثة وكان فتحاً عظيماً له في حجة والمخلافة لم يكن لأحد قبلهُ من الملوك إلا الجده المنصور رحمة الله عليهما. وكان فتح حجَّة في شهر رمضان من السنة المذكورة وفتح المخلافة في ذي الحجة منها.

وفي هذه السنة المذكورة تقدم السلطان إلى بلد الجحافل دنينه وما والاها وكانوا قد أفسدوا فقتل منهم جماعة وأذعن الباقون ونزلوا عن الخيل ورهبوا وظهر حسن طاعتهم ورجع السلطان من بلادهم مظفراً منصوراً.

فقال القاسم هتيمل يمدح السلطان الملك المظفر يوسف بن عمرو يهنئهُ بالظفر:

قل يا نسيم لأهل الضال والسمر ... ما صدَّ سامركم عن ذلك السمرِ
واشرح حديث الغضا والنازلين به ... وان تجلت بشرح الكل فاختصر
وهات من عطرات الحي ما حملت ... من مسكهن حواشي ذلك العطر
نشدتك اله لا وريت عن خبر ... مما علمت ولا موَّهت في خبر
فتحت رمزك سرُّ ما نممت به ... إلا وأنت من الواشي على حذر
ما كان من شرحة الوادي أهل عصرت ... أعطانها لتعاطي ذلك الثمر
وهل نشجن قلوب إليهم غلتها ... من ظلها الطلق أو من مائها الخصر
يا صفقة الغبن غرَّتني جويريةُ ... فبعت قلبيَ منها بيعة الغرر
باتت ترَوّعني بالبين طالبةً ... فتلي فلم تبق في قلبي ولم تذر
خوطيَّة القد لا طول ولا قصر ... في قدها فهي بين الطول والقصر
جنيَّةُ في مغيب الشمس يحجبها ... عن أمها وأبيها قوة الخفر
حوريةُ شهدت آيات بهجتها ... ونورها أنها ليست من البشر

كأنما هي في تركيبها خرطت ... من صورة الشمس أو من صورة القمر
جسم ارق من الخمر الشمول على ... قلبٍ قساوته أقسى من الحجر
إذا رمى طرفها عن قوس حاجبها ... أصمتك بالرمي عن قوس بلا وتر
ما أطيب العيش لولا علة حكمت ... فيها بموت الضنى من ميتة السعر
فجانب الناس وانظر في تفاضلهم ... إلى الطباع ولا تنظر إلى الصور
فان طعمت برزق من يدي ملك ... فاطلب من الله واطلب من يدي عمر
مولى الملوك الذي لو انهم وزنوا ... بظفره نقصوا وزناً عن الظفر
أغرُّ بالشرف العلوي زينتهُ ... كزينة الخيل بالأوضاح والغرر
مظفرُ ما أتت من وقعةٍ يدهُ ... إلاَّ مسوَّمة الأظفار بالظفر
ترى المصانع والغيطان منهُ بشمسي ... العدواة ليلى السرى نهر

(٦٣/١)

لا يستريح ولا يفضي بهِ سفرُ ... ما سار آل رسول الله في اليسير
وعزمةٍ كل حدٍّ من صرامتها ... أمضى من الموت أو أمضى من القدر
لو أن هيبتهُ أو بعض هيبته ... تلقى على الفلك الدوار لم يدر
أحيي التتابع والأّدواء فاشتملت ... بالعدل دولة قحطان على مضر
وجال في الأرض حتى قال ساكنها ... هذا خليفة ذي القرنين والخضر
إن الخلافة قد آمت وقد فنيت ... عنها ملوك بني العباس والتتر
وان طلبت مطاراً للتي عضلت ... فقد وجدت جناحاً طائراً فطر
هذا قميصك إما قُدَّ من قُبُلٍ ... كابن النبي وأما قدَّ من دبر
فانهض لعذرتها وأعلم بأنك أن ... أهملتها كانت الاحدى من الكبر
وما أظن قناة الدهر أن عجمت ... بطاعن لي بها تخلو عن الخور
يهني دقينة أن الله عوَّضها ... من الدآدي ببيض البيض والغرر
غر الجحافل حصناها وما علموا ... أن الزجاجة لا تقوى على الحجر
أَرسلت صاعقة في غيم بارقةٍ ... تردي وتبرق في رعدٍ بلا مطر
فسلموا الخيل واعتاضوا بها حمراً ... فاعجب على حمر منهم على حمر
أعميتهم فتمنوا انهم خلصُوا ... عور العين ومن للعمي بالعور
جاءوُك يا شمس إرسالاً وقد بذلوا ... لك الحكومة في الأنثى وفي الذكر
اسمع بقيت مصاناً عن منافسة ... الأَغيار في الملك محروساً من الغير
أني امرؤُ في فمي ماءُ وفي كبدي ... جراحه من أمير غير مؤْتمر

قد ذُقت من غصص الدنيا وفجعهتا ... ما كان منهُ جميل الصبر كالصبر
أن جرجر العود فانظر ما بغاربه ... فانه أن رغا يرغوا من الدبر
وانظر إليَّ بعينٍ منك راحمةٍ ... لا تقصدن غير وجه الله في النظر
والبس من الحبر الموشى مذهبةً ... ينسيك مذهبها موشيةً الحبر

وفي هذه السنة المذكورة توفي الشيخ الصالح العارف بالله أبو الحسن أحمد ابن علوان الصوفي صاحب يفرس قرية من نواحي جبا. وكان مولده في قرية عقاقه بضم العين المهملة وألف بين قافين وآخر الاسم هاءُ وهي قرية من قرى جبل صبر معروفة ونشأ في قرية تعرف بذي الجنان من جبل ذخر ولم يزل على ترفة ورعونة على ما جرت عليه عادة أولاد الكتاب لان والده كان كاتباً للملك المسعود بن الملك الكامل. ثم شب شباباً حسناً فكان قارئاً كاتباً عارفاً بالنحو فاضلاً في اللغة والكتابة وشعره وكلامه في التصوف دليل على ذلك. وذكر بعض نقلة أحباره أنه دعتهُ نفسه وهو شاب إلى قصد باب السلطان والتعرض للخدمة وخرج من قرية ذي الجنان وسار نحو باب السلطان فبينما هو سائر في أثناء الطريق إذ بطائر اخضر قد وقع على كتفه ومد منقاره إلى فيه ففتح فصبَّ فيه الطائر شيئاً فابتلعه الشيخ ثم عاد من قوره إلى بلده فلزم الخلوة أربعين يوماً فلما كان يوم الحادي والأربعين خرج من المعبد وقعد على صخرة يتعبد فانقلبت الصخرة عن كف فقيل له صافح الكف فقال ومن أنت فقال أبو بكر فصافحه فقال له قد نصبتك شيخاً والى ذلك أشار في شيء من كلامه الذي يخاطب به أصحابه حيث يقول وسيحكم أبو بكر الصديق ثم التقى له الحب في قلوب الناس والوجامة وظهرت لم كرامات كثيرة وتحكم لهُ جمع كثير ثم ارتحل إلى الشيخ أبي الغيث بن جميل فاخذ عنهُ اليد أيضاً والبسه الخرقة الشريفة وكان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ولا يخاف في الله لومة لائم. وكان يقول شعراً حسناً ومن شعرهِ من قصيدةٍ طويلة يحث فيها السلطان على العدل وحسن السيرة هذا:

يا ثالث العمرين افعل كفعلهما ... وليتفق فيه منك السر والعلن
واستبد عدلاً يقول الناظرون له ... نعم المليك ونعم البلدة اليمن
عار عليك قصورات مشيدة ... وللرعية دور كلها دمن

(٦٤/١)

وصنف كتاباً في الوعظ نحى فينه منحنى ابن الجوزي فلذلك يقال له جوزي اليمن وله في التصوف فصول كثيرة يتكلم فيها على لغات شتى وقيل لبعض العارفين من أين كان الشيخ يعرف تلك اللغات وهو عربي ولم يعرف له خروج عن بلده فقال كانت روح الشيخ أحمد مهبطاً لأولياء الله ولهم لغات كثرة يتكلمون بها على لسان الشيخ فينطق بها ما يقولون. وكان الشيخ أشوق إلى كلامه من سامعيه. وكان متى علم أن في السامعين لكلامه من لا يفهمه قال معرضاً به يا واقفاً في الماء وهو

عطشان. وفي آخر الأمر تأهل بامرأة من أهل يفرس فسكن معها وترك قريته ذا الجنان ولم يزل بها حتى توفي ليلة العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة ودفن على باب المسجد وهو القبر الملتصق بالمسجد على يسار الداخل إليه وكان له ولد يسكن ذا الجنان وكان على طريق مرضي إلى أن توفي عشرة شهر شوال من سنة خمس وسبعمائة رحمه الله تعالى.

وفي هذه أسنة أيضاً توفي افقه الإمام العالم البارع أبو عبد الله بن أبي بكر بن الحسين بن عبد الله الزوقري الركبي المعروف بابن الحطاب لان أباه كان يسكن قرية النويدرة التي هي على باب سهام من مدينة زبيد وكان يبيع الحطب فيها. وكان ميلاد الفقيه في آخر المائة السادسة وتفقه بالفقيه علي بن قاسم الحكمي واطلع على علوم شتى وكان فقيهاً باراً أصولياً فرعياً فرضياً حسبانياً مفسراً مقرئاً يقرأ القراءات السبع وكان يقول أنا ابن عشرين ليس لي مناظر في شيء منها.

ويرى أن بعض الأكابر من أهل زبيد عمل وليمة وطلب أكابر الفقهاء فحضروا وحضر من جملتهم الفقيه علي ابن قاسم وتأخر ابن الحطاب المذكور وطال بطؤُه عن حضور الجماعة ثم وصل بعد ذلك والناس جميعهم في انتظاره فأقبل يميس عليه ثياب مرتفعة فقصد المجلس غير محتفل بأحد فقال شيخه علي بن قاسم ما هذا العجب مع هذا الصبي فنقل إليه المجلس ما قاله الفقيه. فقال متمثلاً بقول أبي الطيب:

أن اكن معجباً فعجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد

ثم قال وكيف لا اعجب وأنا ابن عشرين لا أجد من يناظرني في شيء منها فنقل الكلام إلى الفقيه علي بن قاسم فقال شغله الله فكان من أمره ما كان. ولما تفقه ابن الحطاب وبرع على أهل عصره انتقل من قرية النويدرة إلى مدينة زبيد وتزوج بنت شيخه علي بن قاسم الحكمي وحاز مسجد الأشاعر على أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهُ وأقام يدرس فيه وإذا دخل وقت الصلاة يأمر المؤذن بالأذان ثم يبادر إلى أداء الصلاة في أول وقتها فتعب من ذلك أصحاب الإمام أبي حنيفة وكان لا يكاد يوجد لا مدرساً لعلم أو مقبلاً على صلاة وكان غالب تدريسه في مسجد الأشاعر وتارة في المسجد الذي عند بيته وهو المسجد المعروف بمسجد الأمير فخر الدين في حافة الخبازين شرقي الموضع المعروف بالمدرك ولم يزل هذا دابه برهة من الزمان فلما كان ذات يوم من الأيام استدعى بأخيه أبي الخير بن أبي بكر الحطاب الذي هو جد بني الحطاب الموجودين في قرية النويدرة فقال لهُ يا أخي أني رأيت البارحة ربي تعالى فقال لي يا محمد أنا أحبك فقلت يا رب من أحببته ابتليتهُ فقال لي استعد للبلاء وأنت يا أخي فكن على أهبة من أمري. ثم أنه خرج في يومه ذلك إلى مسجد إلا شاعر بزبيد فصلى فيه العصر مع الجماعة ثم رجع إلى بيته مسرعاً فلما صار في أثناء الطريق غشي عليه فمرَّ به الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وهو في تلك الحال فأكبَّ عليه وقبله بين عينيه وقال أهلاً بك يا محبوب ثم حمل إلى بيته وكان ذلك وهو ابن خمس وعشرين سنة وكانت زوجته بنت شيخة الفقيه علي بن قاسم الحكمي ففسخ عليه نكاحها واشترى له من ماله جارية وخطبت زوجته فقالت لا أريد به بدلاً حياً ولا ميتاً فكانت الجارية تخدمه وتقوم بحاله وتحفظهُ في

ساعة غفلاته ووطئها فولدت له ابنتين عاشت إحداهما إلى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة. وكان من أكثر الناس حفظاً للآثار والأخبار والأشعار وكان الطلبة من أهل عصره وأصحابه يقرؤون عليه في الأوقات التي يكون فيها معافاً وكان يقول شعراً حسناً.

(٦٥/١)

قال الجندي اخبرني والدي يوسف بن يعقوب قال كنت أحب هذا الفقه على ما أسمع عنهُ واكره أن أراهُ وهو على ما بلغني عنهُ من الحال فجاءَني بعض الأصحاب يوماً وقال لي أريد أن تذهب معي إلى الفقيه محمد بن الحطاب لأسّلِمِ عليه وكان الرجل يصحبه أيضاً فرافقتهُ وسرت معهُ إليه فلما دخلنا عليه سلمنا فرد علينا السلام ردّاً حسناً ثم قال للرجل يا محمد هل جئتنا بشيء فقال ما جئت إلا بنفسي فقال مرتجلاً:

أتانا أخُ من غيبة كان غلبها ... وكان إذا ما غاب تنشده الركبا

فقلنا له هل جئتنا بهدية ... فقال بنفسي قلت نطعمها الكلبا

قال الجندي ونحو ذلك ما اخبرنا الشيخ أبو الحسن علي ابن الشيخ الفاضل منصور بن حسن عن أبيه قال دخلت أنا والمقري محمد بن علي بن الفقيه محمد بن أبي بكر الحطاب فسألَه المقري عن مسألة في الحيض مشكلة فأبانها له ثم انشدهُ:

لو علمنا مجيئكم لبذلنا ... مهج النفس او سواد العيون

وفرشنا على الطريق خدوداً ... ليكون المرور فوق الجفون

وأوصافه الحسنة جمة كثيرة لا يمكن استيعابها. وكانت وفاته بزبيد وقبر في مقبرة باب سهام وقبره معروف مشهور مزار وتبرك به وعند قبره قبر رجل من التابعين وقيل من الصحابة والله أعلم.

وفي هذه السنة توفي الفقه الصالح ابن إبراهيم بن صالح بن علي بن أحمد العبري وكان فقيهاً صالحاً وعاصر الخضري المعروف بالبرهان وولي قضاءَ تهامة اجمع فكان قضاؤه مرضياً وكان على يد عمارة الجامع المظفري بالمهجم في أيام الملك المظفر وكان من أهل الدين والدنيا وممن يأخذها ومن وجها ويضعها في مستحقها كثير البر والمعروف وله مكارم أخلاق وكان يضرب به المثل في الكرم وكان في حلقة تدريسه أكثر من مائة طالب وكانت لهُ مروءة وشفقة على الأيتام.

ويروى أنه كان يعمل في النصف من شعبان من الحلوى شيئاً كثيراً يفرقهُ على الأيتام وعلى الضعفاء وعلى الخواص من أصحابه ولا يدع فقيهاً في البلد إلا واساه بشيءٍ من ذلك ومكارمه أكثر من أن تحصى. ولم يزل على الحال المرضي إلى أن توفي في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى ولما توفي رحمهُ الله في التاريخ المذكور صار القضاء الأكبر بعده إلى الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وخلفه في رئاسة البيت ابن أخيه علي بن محمد ابن إبراهيم بن صالح والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه العالم أبو محمد عمرو بن علي بن عمرو بن محمد بن عمرو بن اسعد بن أبي جعفر بن عباس التباعي. وكان يلقب بمظفر الدين وولد في بلد بني شاور سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. وصحب الفقيه علي بن مسعود المقدم ذكره وتفقه بن ثم طلع الجبال وقصد جبا فأدرك الشيخ أبا بكر بن يحيى فاخذ عنهُ عربي الهروي ثم قصد مصنعة سير فقرأ فيها على الحسن بن راشد مسند الإمام أحمد بن حنبل وهو ممن أخذ عن ابن أبي الصيف وابن أبي حديد وغيرهما من الكبار ثم قصد مصنعة سير مرة أخرى في سنة ثمان وخمسين وستمائة فاخذ القضاء عنه بها شيئاً من مسند الإمام أحمد بن حنبل. ولما انتهى في الفقه انقطع عن شيخه علي بن مسعود وهو إذ ذاك ببيت حليفة عند الشيخ عمران بن قبيع القرابلي فاشترى موضعاً عند أبيات حسين وابتنى فيه مسكناً وأزدرع ما زاد على موضع البناء وكان قد تزوَّج بابنة أخي شيخه علي بن مسعود وبروك لهُ في الذرية منه بركة ظاهرة. وكان تزويجه بها سنة ثمان وعشرين وستمائة.

ويروى أن الفقيه المصري خرج من بلده وقد صار فقيهاً فقصد زبيد وناظر فيها فقهاءَها فلم يجد عندهم مقنعاً فتمثل بقول الأول:

لما دخلتُ اليمنا ... رأيت وجهي حسناً

أُفٍ لها من بلدة ... افقهُ مَنْ فيها أَنا

(٦٦/١)

ثم عاد من فوره وكلما مرَّ بفقيه قصده وناظره حتى أتى بيت حسين فأراد الاجتماع بالفقيه علي بن مسعود فقصد مدرسته وهو إذ ذاك مقيم مع تليمذه هذا عمرو بن علي الساعي. وكان أول من لقبه عمرو بن علي فظن أنه الفقيه علي بن مسعود ففاتحه السؤال فلم يزل عمرو يجيبه ويستزيده حتى تم سؤاله ثم ألقى عليه عمرو سؤَالات أجاب عن بعضها وتأخر عن بعض. فقال له الفقيه عمرو كيف ترى وجهك الآن إشارة إلى البيت الذي بلغه أنه تمثل به إذ كان قد بلغهم تمثلهُ به. فقال يا سيدي المعذرة إلى الله ثم إليك يا أبا الحسن فعلم الفقيه عمرو أنه لم يعرفه وإن في ظنه أنه الفقيه علي بن مسعود. فقال إنما أنا بعض تلاميذة الفقيه علي. وأما الفقيه علي فهو ذاك في محراب المسجد فأقدم إليه فقدم إليه وقد علم أنه لا طاقة له به. وقال في نفسه إذا كان هذا درسي من درسه فكيف يكون المدرس ثم دخل على الفقيه وسلم عليه. وسأل منه الدعاء. وكان عمرو كبير القدر معظماً عند أهل العصر. وكان شيخه علي بن مسعود يثني عليه ثناءً حسناً ويقول هو أكثر أصحابي أخذاً عني وهو الذي لقبه بمظفر الدين وأعطاه كتبه في آخر الأمر واستخلفه على تدريس أصحابه فدرس واشتغل بالفقه والعبادة. وتفقه به جمع كثير من أهل تهامة والجبال. وممن تفقه به ابنه محمد بن عمرو وعلي بن إبراهيم وأحمد إلى أن توفي عصر يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه اله تعالى. وفيها توفي الشيخ الصالح أبو محمد

عيسى بن حجاج العامري الغيثي نسبة إلى الشيخ أبي الغيث أولاً وهو أحد أصحابه واصله من عرب يقال لهم أبو عامر يسكنون جبلاً تحت حصن الشرف المذكور في بلد وصاب وهو قرب من سوق المجمع وبلادهم تعرف ببلاد أسل وكان الشيخ عيسى صاحب كرامات وصاحب حال ومقال وصاحب تربية وعلم من علوم الصوفية وكانت وفاته في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة ست وستين تسلم السلطان حصون علوان الجحدري وهي العرائس. وفي شهر جمادى الأخرى من السنة المذكورة وردت الأوامر الشريفة على الأمير علم الدين سيجر الشعبي بالتقدم إلى صعدة فخرج إليها في خمسمائة فارس وثلاثة آلاف راجل فحط في الجوف ثم تقدم نحو صعدة وجمع أمير صارم الدين داود بن الإمام كافة بني حمزة وعسكراً عظيماً فيهم عسكر بن سجر وفيهم م الرُّجل واحدة فحفظوا تلك الطريق بالخيل والرجل فلما وصل الأمير علم الدين إلى النقيل المذكور حط في أسفله ضحوة نهار تغدى وغدى الناس جميعاً ثم وقف إلى الظهيرة ورتب الأمير ابن نور في مائتي فارس وألف راجل في المحط ثم لبست الخيل وطلعت النقيل فلم يجد أحد فيه مسلكاً لضيقه ووعارته وكثرة العسا كرفيه فلما رأى الأمير علم الدين سجر الشعبي ذلك تقدم في كتيبة عظيمة من فرسان الخيل وأجواد الرجل وطلع في موضع آخر شعروا حتى صار معهم مستديراً لهم فلقيه الأمير عم الدين حمزة بن الحسن بن حمزة. وكان يومئذ فارس بني حمزة غير مدافع فكان أول من صرع منهم ثم انكسر عسكر الأشراف وقيل عسكر ابن مسحر. وكان فارساً شجاعاً فولوا مدبرين وأخذت طبلخاناتهم وسار العسكر المنصور في أثرهم فمال الأمير داود بن الإمام إلى براش صعدة ودخل الأمير علم الدين صعدة وقدامه رأس الشريف حمزة بن الحسن بن حمزة ورأس عسكر بن مسحر وأخرب في صعدة عدة مواضع وخرج إلى مخاليفها فأخربها أيضاً ونهب الناس كل من وجدوه في مخلاف صعدة ثم عاد إلى صعدة فأقام فيها أياماً ثم قفل إلى صنعاء ظافراً منصوراً.

وفي هذه السنة أمر السلطان بتحلية باب الكعبة بالذهب والفضة على يد ابن البعري. ووصل رسول صاحب مصر إلى اليمن بالمكتابات والهدايا فتوفي الرسول باليمن في آخر السنة المذكورة.

(٦٧/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه صالح بن علي بن إسماعيل الحضرمي، وكان فقيهاً صالحاً عابداً زاهداً ورعاً تفقه به أحمد بن سليمان الحكمي ومحمد ابن إبراهيم الشكر وغيرهما. وكانت وفاته رحمة الله تعالى عليه في سلخ شهر شعبان من السنة المذكورة. وفيها توفي الطواشي نظام الدين مختص المظفري. وكان مولى الغازي بن جبريل ثم خدم مع السلطان نور الدين فجعله لآلة ولده المظفر فرباه أحسن تربية وأدبه أحسن أدب. ولما صار أمر السلطنة إلى السلطان الملك المظفر حمل له طبلخانة وأقطعه إقطاعاً حاملاً، فكان كفؤاً لما ندب إليه. وكان شجاعاً مقداماً عالي الهمة. وكان

راغباً في طلب الأجر وبقاء الذكر كثير الصدقة. وابتنى عدة مدارس وآثاره باقية إلى عصرنا هذا. ومن مآثره المدرسية النظامية في زبيد ثم المسجد المعروف بمسجد السابق النظامي نسبة إلى عبد له. ثم مدرسة بذي هُزَيْم ناحية من نواحي تعز. وله مدرسة في ذي جبلة. وأخرى في موضع تعرف بالوحص بفتح الواو وسكون الحاء المهملة وآخره مهملة أيضاً وهو موضع قريب م نحصن بحرانه والله أعلم.

وفي سنة سبع وستين تسلم السلطان حصن براش صعدة من الأمير عز الدين محمد بن الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام بعد أن رهن الأمير عز الدين ابنه وابنته. ثم ورد الأمر على الأمير علم الدين سنجر الشعبي بالمحطة على ثلا فحط عليه محاطّ كبيرة وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وأخذ البعيرة قهراً بالسيف ورتب فيها من يحفظها.

وفي هذه السنة سار الأمير موسى بن الرسول والأمير مغلطاي أحد المماليك البحرية في عسكر من الباب الشريف مع الأمير عز الدين محمد بن أحمد بن الإمام للمحطة على تلمص. فلما اشتد الحصار على ثلا وتلمس اجتمع الأشراف والعلماء من الزيدية على الأمير صارم الدين داود بن الإمام وسألوه أن يخرج الحسن بن وهاس للنصرة به على رفع هاتين المحطتين. فأخرجه على كره منه خرج به الشريف علي بن عبد الله بن طيار إلى حصنه المنقاع فلما اجتمعت عساكرهم قصدوا صعدة فثبتوا التي على تلمص فانهزم مغلطاي بالمماليك إلى فللة. فأجارهم جولان وساروا بهم طريق تهامة. وأما موسى بن الرسول فتخفر بقوم من العرب يريدون نجران فعلم به الأشراف فتبعوه حتى أدركوه معهم فقتلوه دعمة تحت حصن تلمص في نصف شهر جمادى ورجع الأشراف من صعدة فجمعوا جموعاً عظيمة وقصدوا علم الدين الشعبي إلى ثلا فنزل من المحطة وكان سبب نزوله أن المكان وعر والخيل لا تقع فيه فخاف على الرتب فنزل وأنزلهم فدخل الأمير جمال الدين على عبد الله ثلا في رجل كثير وانحاز الأمير علم الدين إلى سام وسار منها إلى صنعاء فدخلها في شهر رمضان من السنة المذكورة. ثم خرج الأمير علم الدين إلى الطاهر الأعلى والأسفل فأَخر بهما خراباً كلياً وعاد إلى صنعاء.

وفي هذه السنة حج صاحب مصر وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري من الديار المصرية إلى مكة المشرفة رحمه الله تعالى. وفيها توفي الأمير نجم الدين عمر بن يوسف الرين وهو أخو الملك المظفر لامه. وكان أميراً كبيراً ذا همة عالية وسيرة حسنة.

ومن أثاره المدرسة المعروفة بالعمرية في مدينة تعز نسبة إليه وكانت وفاته في صفر من السنة المذكورة. والله أعلم. وفيها توفي الفقيه الإمام أبو محمد الحسن بن القاضي أبي الحسن علي بن عمر بن محمد بن علي بن قاسم الحميري. وكان شديد الاجتهاد في طلب العلم ومطالعة كتبه حتى ذكر الفقيه أنه أقام سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ولم يكن يسأل عن طعام ولا شراب حتى يؤتى به ولا يشتغل بأهل ولا ولد.

قال الجندي أخبرني الثقة أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءه في جماعة منهم الإمام الشافعي فاستحيى وقال يا رسول الله بِمَ استحققت هذه الزيارة فقال باجتهادك في طلب العلم وتتبعك الأسانيد العالية. وكان فقيهاً مباركاً رحالً في طلب العلم روى شرح ابن يونس للتنبيه عن محمد ابن عبد الله بن الحسن الأنصاري الخزرجي عن المصنف. وبلغهُ أن الفقيه محمد الهرمل لهُ رواية سندها قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتحل إليه فلما وصل إليه أخذ الرواية عنهُ فقال له ابن الهرمل نحب أن نسمع عليك البيان فأجابه إلى ذلك فكان وقت أن يسمع يقعد هذا الفقيه على الهرمل على السرير ويقعد هذا الفقيه دونه وقت قراءة البيان قد يرفع الفقيه محمد رأسه إلى السقف فيرى حنشاً مخرجاً رأسهُ من السقف وهو مثل المستمع ولا يزال هذا دأبه حتى تنقضي القراءة فاخبر الفقيه به الجماعة فقال ابن الهرمل هذا رجل من فقهاء قرأ عليَّ التنبيه والمهذب وهو الذي سألني أن أسألك إسماعنا البيان ولما قدم الشيخ علي بن بشير الواسطي مدينة الجند وصار إلى تعز أخذ عنهُ هذا الفقيه.

قال الجندي وذيل طبقات ابن سمرة ومن تعليقه أخذت تاريخ جماعة من الفقهاء فكانت وفاته في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أسعد كرامات وآثار مشهورات.

وكان رصيناً في دينه وعقله لا يأخذ العلم إلا عمن خبره وتفقه بابن ناصر ويعمر بن الحداد.

ويروى أنه قدم عليه البلد رجل غريب متظاهر بالعلم ومعرفته وعرض للفقيه وأصحابه أن يقرئهم فقال له الفقيه أنا لا أخذ العلم إلا عن من تحققنا دينه وأمانته وأنت غريب علينا ربما أوقعتنا في محظور من حيث لا نشعر. ولم يأخذوا عنه شيئاً. وكان شديد الورع عظيم الزهد قليل الكلام إلا في مذاكرة العلم وذكر الله تعالى وبه تفقه جماعة منهم محمد ابن أسعد الجعيم وأبو بكر بن أحمد التباعي وغيرهما.

ولما تحقق السلطان الملك المظفر صلاحه زاره إلى منزله بسفنهد ودخل مدينته وسأل أن يطعمهُ شيئاً فدخل الفقيه موضعاً من بيته واخرج له وللقاضي إليها خبزاً من برولم يكن يعهد معه شيءُ فأكل السلطان والقاضي ما أكلا ثم أخذا شيئاً ليتبركا به يعهده. وكان إذا مشى اطرق إلى الأرض ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً. توفي ليلة الجمعة أول وقت العشاء في شهر شعبان من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه سراج الدين أبو بكر بن عمر بن إبراهيم بن دعاس الفارسي نسباً وكان أديباً فاضلاً فقيهاً في مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهُ. ونال حظوة من السلطان الملك المظفر وابتنى مدرسة في مدينة زبيد خص بها أهل مذهبه لم تكد تخلو من مدرس وهي التي تعرف بالدعاسية فيما بين سوق المنحارة والسوق الكبير وكان شاعراً فصيحاً وله شعر رائق توفي في مدينة زبيد مهجوراً من السلطان لإدلال حدث منهُ على السلطان في حقه وحق وزيره البهاء فطرد من تعز

إلى مدينة زبيد فأقام بها إلى أن توفي في جمادى الآخرة من السنة المذكورة والله أعلم.
وفي سنة ثمان وستين تجهيز الأمير علم الدين الشعبي إلى صعدة فدخلها يوم الثالث من صفر من السنة المذكورة. وفي شعبان منها وقع الصلح بين السلطان والأشراف بني حمزة.
وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو زكريا يحيى بن زكريا بن محمد بن أسعد ابن عبد الله بن الكلالي ثم الحميري وكان فقهاً فاضلاً تفقه في بدايته بأهل الملحمة ثم تفقه بالحسن بن علي وأخذ البيان عن عبد الله الهمداني وأخذ عن اسحق الطبري ومحمد بن مختار الرداري ودرَّس في المدرسة المعروفة بالغرابية في مدينة تعز إنشاء السلطان نور الدين وكان فقيهاً عارفاً بالفقيه نقالاً توفي يوم الأحد لإحدى عشر ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المذكورة.

(٦٩/١)

وفيها توفي الفقيه العامة عبد الله بن يحيى بن أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن لهيب الهمداني نسباً وكان مولده سنة تسعين وخمسمائة تقريباً قاله الجندي وأدرك أحمد بن إبراهيم الأكشيبي أحد أصحاب الشيخ الإمام يحيى ابن أبي الخير وسمع عليه البيان فانتشر عنهُ سماع البيان بالسند العالي فاستدعه السلطان الملك المظفر فأخذ عنه بحضرة القاضي بهاء الدين وبعض أهله. وسألهُ يوماً فقال له يا فقيه لكم سمعت البيان فقال لخمس وعشرين سنة فقال وعلى ابن كم فقال على ابن خمس وثمانين سنة وكان عمرهُ حين سألهُ تسعين سنة تقريباً. فقال لهُ بعض الفقهاء ومتى كانت قراءَتك فقال سنة ستة عشرة وستمائة. ولما ابتنى الشيخ علي بن محمد بن عبد علي الحميري مدرسة في قرية الحُجْر بضم الحاءِ المهمة وسكون الجيم جعل هذا الفقيه مدرساً بها فكان الناس يأتون إليها ويأْخذون عنهُ فيها.
ويروى عنهُ أنه قال مرة كنت أيام طلبي العلم كثيراً ما أَرى النبي صلى الله عليه وسلم ولقد اعرف مرة إني كنت سائراً إلى الشيخ الذي أنا أقراُ عليه فاشتقت إلى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فملت عن الطريق ونمت فرأَيته صلى الله عليه وسلم ثم أنا الآن لم أجد ذلك وكان يتأَسف على ذلك.
وكانت وفاته في قرية مسورة بفتح الميم وسكون السيم المهملة وهي تحت حصن بيت عز رحمهُ الله تعالى. وقيل عاش إلى نيف وثمانين والله أعلم.
وفيها توفي الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بصاحب المقداحة وكان من أعيان العباد ومشاهير الزهاد.

(٧٠/١)

قال الجندي أخبرني الفقيه العارف بكثير من أحوال الناس أن هذا الشيخ كان في بدايته راعياً لغنم له في بعض نواحي المشرق. وكانت له زوجة فبينا هما ليلة على سقف بيتهما إذ أقبل فقير إليهما

فقالت المرأة لزوجها قم إلى هذا الفقير واعتذر إليه فإنا قد تعيشنا وليس معنا شيء نطعمه منه فقام الشيخ مبادراً فأمسكت رجلاه فدخل في نفسه أن ذلك حال من الفقير فغير نيته وعزم على تلقيه وإدخاله المنزل ثم قال لامرأته قومي اطبخي لنا شيئاً نأكله فكرهت فأَخذ عوداً لها ليضربها فقامت فصنعت لهم شيئاً وأتت لهما به فأَكل الشيخ والفقير وهما يتحادثان فلما فرغا مسح على رأس الشيخ وصدره ثم ودعه وسار ثم أن الشيخ عزم على الحج فأَعطى زوجته بعض الغنم الذي معه وباع الباقي فتزود بثمنه وسار إلى مكة. فلما قضى الحج عاد إلى بلده عازماً على خدمة الفقراءِ في بعض الربط فقدم الجند وبها عدة من المشايخ أصحاب الأحوال والكرامات فقصد شيخاً منهم يعرف بعبد الله بن الرُّميش بضم الراءِ وفتح الميم وسكون المثناة من تحت وآخرهُ شين معجمة ونسب بني الرميش في بني مسكين. قاله الجندي فالتزم خدمة الرباط فذكروا أنه امتحنهُ ولم يحكمهُ وأراد اختباره كما جرت العادة من المشايخ فظهر له منهُ أمور كثيرة وأحوال خارقة فأراد أن يحكمه فقيل لهُ أنه ليس من أصحابك إنما هو من أصحاب الشيخ أبي الغيث فقال لهُ يوماً يا علي تقدمَّ إلى الشيخ أبي الغيث فاصحبهُ فهو شيخك فبادر ونزل تهامة. فذكروا أن الشيخ أبا الغيت كان يقول لأصحابه يقدم عليكم رجل كبير من هذه الجهة في هذه المدة ويشير إلى الطريق فجاءَ منها فكان الفقراء يخرجون كل يوم إلى تلك الجهة يلتقونهُ فلما كان اليوم الذي وصل فيه خرجوا يلتقونهُ فوقفوا حتى أحرقتهم الشمس فلما دخلوا البيت قد الشيخ علي فدخل الرّباط فلما رآهُ الشيخ رحب بهِ وحكمه من ساعته وقد كان على معلوم حصله في نظر الشيخ الرميش لهُ بالجند فازداد بنظر الشيخ أبي الغيث حسناً حتى كان من أعيان الطريق يقولون نساجة صاحب المقداحة الرميش وقصارة الشيخ أبي الغيث. ثم عاد إلى الجبل بعد مدة وقصد مسجداً خراباً في موضع يعرف بالمقداحة فاعتكف فيه ولم يكن يومئذٍ فيه ساكن إنما يأْتيه الرعاءُ أحياناً. فلما علم به الناس أتوهُ وسكنوا عندهُ وبنوا له المسجد. ثم بنوا له رباطاً وتحكموا على يده فرباهم احسن تربية بإلزام الصيام والقيام والزهد والورع واقبل الناس على الشيخ من كل ناحية بالفتوحات الكثيرة فكان يقبلها ولا يبيت عنده شيء منها. واجتمع عندهُ جمع كثير ولازموا الجمعة والجماعة وساروا في طريق القوم والشريعة ولم يتجاوز الشريعة منهم أحدُ. فظهر في أصحابه جماعة أخيار وكان لا يميز نفسهُ على أصحابه فإذا وصل فتح وصل إلى الصغير منهم كما يصل إلى الكبير ومناقبهُ أكثر من أن تحصى. ولم يزل على الطريق المرضي إلى أن توفي ليلة الثلاثاء لست بقين من جمادى الأخرى من السنة المذكورة والله أعلم رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الإمام الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الهرمل وكان من أعيان الفقهاء وفضلائهم يسكن العطفة قرية بين كدرا سهام والعجمة وهي بكسر العين المهملة وكان من كرام الفقهاء وذوي الإحسان فيهم يقوم بالمنقطع من الطلبة. ويروى أنه لما توفي بكي عليهِ في أربعين بيتاً فسئلوا عن سبب ذلك فقالوا كان يقوم بكفايتنا ولا يعلم بنا أحدُ. وكان ورعاً شديد الورع.

يروى أن الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي قدم عليه في بعض الأيام فنزل عنده في جماعة من أصحابهِ فسألَهُ عن صابون ليغسل بهِ ثيابه. فقال لهُ منذ سمعت أن الغز يطرحون الجلجلان على الناس كرهت الصابون والغسل بهِ فلا اغسل ثيابي إلا بالحطم. فقال الفقيه إسماعيل لأصحابه لقد فاق علينا هذا الرجل بورعه. وله مصنَّفُ في الفقه سماهُ التحفة ضمنهُ زيادات الوسيط على المهذب يدخل في مجلدين يوجد مع أهل شحينه. وهو الذي قرأَ البيان على الفقيه حسن بن علي الحميري. وكان بعض فقهاءِ الجن يسمع لقراءَتهِ وقد تقدم ذكر ذلك. وكان مشهوراً مذكوراً وامتحن بالعمى في آخر عمرهِ وأَعاد الله عليه نور بصره. وكانت وفاته ليلة الاثنين لثمان خلون من رجب من السنة المذكورة في قريته المذكورة بعد أن تفقه به جماعة منهم علي الصربدح وعلي بن أحمد الحجنفي وعلي بن عبد الله العامري وإسماعيل بن علي الرقاني وجماعة كثيرون والله أعلم.

وفي سنة تسع وستين قتل الشريف إدريس صاحب مكة وترتب بعده فيها أبو يمى بن أبي سعد بن علي بن قتادة والياً فأقام بها إلى أن توفي في شهر ربيع الآخر من سنة سبعمائة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو عبد الله الحسين بن أبي السعود ابن الحسن بن مسلم بن علي الهمداني. وكان ميلاده سنة خمس وعشرين وستمائة فسلك طريق العبادة حتى توفي على ذلك. وكان وفاته لليلتين مضتا من شعبان من السنة المذكورة. وحضر دفنهُ خلق كثير أحصى القراء فيهم فكانوا سبعمائة رجل. وكان لهُ من الولد ثلاثة أكبرهم محمد مولده لليلتين خلتا من ذي الحجة آخر سنة اثنتين وخمسين وستمائة. وكان صاحب قراءات ومسموعات وغلبت عليه العبادة. وكان من أكثر الناس تلاوة للقرآن مع الزهد والورع إلى أن توفي على ذلك ليلة الاثنين لخمس بقين من شهر ربيع الأول أحد شهور سنة تسعين وستمائة. والثاني أحمد مولده يوم الأحد تاسع ذي الحجة من سنة إحدى وستين وستمائة. وكان فقيهاً مجتهداً محصلاً ورعاً زاهداً تفقه بمحمد بن أبي بكر الصبحي وكان كثير التردد إلى الفقيه أبي الحسن علي بن أحمد الأصبحي ويراجعهُ فيما يشكل عليه من المسائل. وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة من سنة سبع وتسعين وستمائة. والثالث أبو القاسم مولدهُ في رجب سنة ثلاث وستين صحب الفقيه ومال إلى طريقة التصوف وصحب الشيخ عمر القدسي وتحكم على يده ونصبهُ شيخاً. وكان على حال مرضي من سعة الأخلاق وإيناس الوارد والاشتغال بمطالعة الكتب والبحث عن فوائدها إلى أن توفي في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة رحمة الله عليهم أجمعين.

وفي هذه السنة أَيضاً توفي الفقيه الفاضل عثمان بن محمد بن سوادة الحضرمي الحنفي وكان فقيهاً فاضلاً وهو من أتراب الفقيه أبي بكر بن حنكاش ومعيدا معهُ وبه تفقه الفقيه يحيى بن عطية وغيره وكانت وفاته يوم الاثنين الحادي عشر من رجب من السنة المذكورة. وفي سنة سبعين وستمائة ورد الأمر العالي بإعادة المحاط على ثلا مرة ثانية فكانت المحطة على الجناب فحصروا أهل ثلا وضيقوا عليهم وأجهدوهم حتى أيقنوا بالهلاك. وتسلم السلطان حصون المصانع باعهُ عبد من عبيدهم يسمى محمد بن نفيل.

وفي هذه السنة قام الإمام إبراهيم بن أحمد بن تاج الدين الهدوي وكان قيامهُ في ذي الحجة منها ودعا إلى نفسه فأجابهُ أهل حصور وبنو الراعي وبنو شهاب وغيرهم من بلاد عنس وزبيد. ونهض الشرفاء والإمام إلى جبل يسمى طما. وكان الأمير علم الدين في الجماب فنهض لمحطته وحط تحت حصن كوكبان ونهض الشرفاء من محطتهم إلى حارة بني شهاب.

(٧٢/١)

وفيها توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن عمر القاضي عمر الهزاز المقدم ذكره. وكان مولده يوم الخميس ثامن عشر شوال من سنة إحدى وستين وستمائة. وكان موسوماً بالفقه والدين والعبادة والزهد والورع ولوزم على أن يتولى القضاء بعد أبيه فامتنع. وكان السلطان الملك المظفر يجله ويعتقد صلاحه وربما زاره إلى بيته سرّاً وكان يستدعي دعاءَه كثيراً. وله مصنفات رحمهُ الله في الفقه وتوفي بعد صلاة الظهر من يوم الاثنين لأربع بقين من شوال من السنة المذكورة رحمهُ الله. ولما علم السلطان الملك المظفر بوفاته كتب إلى أولاده يسألهم أن يدفنوهُ في التربة التي هي قبلي جامع بمدينة تعز ففعلوا ولم يكن يدفن فيها الأحواض بني رسول من القرابة والسراري والأولاد الصغار وخلف عدة من الأولاد النجباء انتهت إليهم الرئاسة في الدولة المؤيدية وسوف يأتي ذكرهم أن شاءَ الله.

وفيها توفي الفقيه الفاضل يحيى بن سالم بن سليمان بن الفضل بن محمد ابن عبد الله الشهابي ثم الكندي انتقل به أبوهُ من بلد بني شهاب إلى ذي جبلة فاستوطنها وتفقه بها ابنه يحيى المذكور وأخذ عن محمد بن عبد الله المازني وكان أول من بدر مدرساً في المدرسة العربانية وكان فقيهاً فاضلاً لهُ مروءَة وكرم نفس وكان يصحب الرشيد شاد الدواوين في صدر الدولة المظفرية. فلما توفي الرشيد نُقل إلى السلطان أن مع هذا الفقيه مال الرشيد فطولب باثني عشر ألف دينار وصُودر فلم تطل مدته بل وتوفي غيظاً في المدرسة المذكورة عشي الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الإمام البارع أبو علي يحيى بن إبراهيم بن العمك. وكان من أعيان العلماء وكان في أول أمره رئيساً على قومه يركب الخيل ولا يشتغل بشيءٍ من طلب العلم. وكان سبب اشتغاله بطلب العلم أنه خطب امرأَة من بني خطاب هي ابنة الفقيه أبي بكر بن خطاب فامتنع الفقيه أبو بكر من تزويجه إياها وقال لهُ لست كفئا لها فانك رجل جاهل فانف من قولهِ فاشتغل بطلب العلم حتى صار إماماً واشتغل بفن الأدب وبرع في النحو واللغة والنسيب والعروض وغير ذلك. وكان ممن يضرب به المثل في حسن الجوار والوفاء بالذمم وله في ذلك أخبار يطول شرحها. وكان شجاعاً مقداماً كريماً جواداً شاعراً فصيحاً حسن الشعر له في السلطان الملك المظفر عدة مدائح وصنَّفَ كتباً في النحو وغيره. ومن مصنفاتهِ في الأدب كتاب الكامل في العروض والوافي وهو

كتاب جليل والكافي أيضاً. وكتبهُ أحسن ما صنَّف أهل اليمن تحقيقاً وتدقيقاً.
ومن شعره أيضاً ما قالهُ في مدح السواد وهو هذا:
اعد لي حديثك يوم الكثيب ... وسلّي بهِ عن فؤَادي الكئيب
عشية سوداءَ قد أقبلت ... تسارقني لحظها من قريب
وقد أمنت رصدة الكاشحين ... وسمع الوشاة وعين الرقيب
تبدت لنا من خلال البيوت ... تجرر فضل الرداءِ القشيب
أرتنا النقا والقنا مائلاً ... قوام القضيب وردف الكثيب
مولدةُ من بنات الموال ... كمثل الغزال الغريب الربيب
فان لامني الناس في حبها ... فما لائمي أبداً بالمصيب
يقولون سودا ولو أنصفوا ... وما ذاك لو أنصفوا بالمعيب
فلولا السواد وما خصهُ ... به الله من حسن سّرٍ عجيب
لما كان يسكن وسط العيون ... ولا كان يسكن وسط القلوب
ولا زيَّن الخال خد الفتى ... ولا حسَّنَ النقش طرس الأديب
أَما حجر الركن خير الحجار ... أما المسك أطيب من كل طيب
أَما شغف الناس في دهرهم ... بحمد الشباب وذم المشيب
ولا تُحْسِن العين مرهى الجفون ... ولا الكف ما لم يكن بالخضيب
ولا كل عينٍ كعين المحب ... ولا كل قلب كقلب الحبيب

(٧٣/١)

وكان جامعاً بين رئاستي الدين والدنيا معظماً عند الملوك. يروى أنه كان في قريته رجل غريب مستجير به منتسب إليه فهمَّ الرجل بسفر إلى بعض الأماكن فاكترى دابة من بعض قرابة الشيخ إلى موضع غرضه وسافرا معاً فلما صارا في أثناء الطريق قتلهُ الرجل الذي أكرى عليه الدابة وأخذ ما معهُ وعاد إلى القرية كأنّهُ لم يفعل شيئاً فبلغ خبرهُ إلى الفقيه يحيى فبغت من ذلك وأَقام أياماً فلما كان يوم الوعد والناس جميعاً في السوق أمر بلزم القاتل فلزم وجيء به مربوطاً فأمر بقتله فقتل في السوق على رؤُوس الإشهاد ولما اشتغل الفقيه يحيى بطلب العلم وظهرت ثمرة اجتهاده خطب ابنة الفقيه أبي بكر بن خطاب وراجعه في زواجها فزَّوجهُ إياها فولدت لهُ عدة أولاد ولم تزل عندهُ إلى أن فرَّق بينهما الموت. وكانت وفاة الفقيه رحمهُ الله في السنة المذكورة وقيل في التي بعدها والله أعلم.
وفي سنة إحدى وسبعين أرسل الإمام إبراهيم بن أحمد بن تاج الدين الشريف جمال الدين محمد بن عبد الله إلى حصورَ وبلد بني شهاب وبلاد بني الراعي فتلقوه بالطاعة. وكان وصوله إليهم في سبعة نفرٍ فصلى بالناس أول جمعةٍ في سبعة آلاف. وفيها خالف الأشراف إلى سليمان بن موسى مع

الإمام وهم في أهل جهران وكان السلطان رحمهُ الله قد أقطعهم نواحي ذمار ثم تسلم منهم اللجام وقامت معهم علماءُ الزيدية في تلك الناحية فساروا في جموع عظيمة إلى ذمار فدخلوها قهراً وقتلوا جماعةً من الرتبة الذين كانوا فيها وخفروا الباقين وأخربوها خراباً كلياً. وكان ذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة. وسار الإمام إبراهيم والأمير صارم الدين داود بن الإمام والأمير عز الدين محمد بن شمس الدين وسائر الأشراف يريدون جدّة وساعاً فمروا على الحبة ولم يكن في صنعا إلا ابن نجاحٍ في مائة فارس من عسكر السلطان وكان الشعبي وعسكره في محطته بالجناب خوفاً على رتب ثلا فانصرف الأشراف من صنعا فلما كان آخر الليل دخلها الأسدية وكانوا تسعين فارساً نقاوة عسكر صنعاءَ وفرسانهم فطلع الشعبي في بقية عسكره فمرّ على المحاط التي على ثلا فقواها وسار إلى شبام ومن شبام إلى صنعاءَ وحصل بينه وبين الأَشراف قتال عظيم وجمع الأَشراف جمعاً عظيماً وساربهم علي بن عبد الله فارتفع عن ثلا. وسار بعسكره قاصداً الدروة وفيها الورد بن ناجي ولم يكمل عمارتها فهجم عليهم آخر الليل فأخربها وعاد إلى أصحابه بسباع. فاقتضى الحال طلوع الركاب العالي إلى ناحية ذمار فلما وصلها اقبل إليه تلك الناحية رغبةً ورهبةً في شعبان من السنة المذكورة. فأقام في ذمار أياماً وأمر بعمارة دربها. ثم سار يريد صنعاءَ فحط في درب عبد الله وانحاز الأشراف إلى بيت خبيص فطلع عليهم الأمر علم الدين الشعبي فكانت وقعة بين الناهم قتل الأشراف بنو صفي الدين وجماعة من عسكر الأشراف. وكان ذلك في ذي القعدة من السنة المذكورة. ثم تقدم السلطان إلى صنعاءَ في الميدان في ذي الحجة.

وفي هذه السنة بعث السلطان بكسوة البيت المعظم على يد قاسم بن محفوظ. وفيها توفي الفاضل أبو الحسن علي بن الحسين النحلي وكان فقيهاً محققاً غواصاً على دقائق الفقه عارفاً به كثير الاشتغال به تفقه به جماعة من أهل عصره. وكان كريماً جواداً شريف النفس عالي الهمة وكان كثير السعي في حوائج الأصحاب والقاصدين من الطلاب وربما قدم على أخيه الفقيه محمد بن حسين إذا عوتب في ذلك يقول

تلك بنات المخاض راتعةُ ... والعود في كورِهِ وفي قَتَبهْ

لا يستفق من مضاض رحلتهِ ... من راحة العالمين في تعِبهْ

وكف بصرهُ في آخر عمره. وكانت وفاتهُ في ذي الحجة من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ الصالح فيروز صاحب الشيخ أبي الغيث بن جميل. وكان كبير القدر شهير الذكر. وكانت يدهُ للشيخ محمد لن أبي بكر الحكمي صاحب عواجه. وبعد وفاة شيخه صحب الشيخ أبا الغيث صحبة مخصصة وكان من أكابر الصوفية وأهل الكرامات فيهم. ولما حضرت الشيخ أبا الغيث الوفاة استخلف الشيخ فيروز في رباطهِ وعلى أصحابهِ فقام بذلك قياماً مرضيّاً إلى أن توفي في السنة المذكورة.

وفي سنة اثنتين وسبعين دخل السلطان الملك المظفر صنعاءَ وكان دخوله يوم الثامن عشر من المحرم فأقام بها ونهض الأشراف إلى حصور واجلب معهم أهل حصور كافة وحطوا على عزان واجهدوا من فيه ووقع الخطاب على تسليم عزان وسلامة من فيه من العسكر فنزل العسكر وقبض الأشراف الحصن. ووصل عقيب ذلك أحمد بن جابر وشرع صلحاً بين الأشراف وبين السلطان خاصة ثم الإمام وكافة الناس عموماً. فتقدم السلطان إلى اليمن في شهر ربيع الأَول من السنة المذكورة ثم جرَّد عساكره المنصورة لقصد بيت خيّض فأخذهُ قهراً ووجد العسكر فيه خمراً كثيراً فكسروا أوعيته وأراقوه فقال غازي بن المعمار

وعند أَمير المؤمنين عصابةُ ... يقولون بالبيض الحسان وبالسمرِ

فان تكن الأشراف تشرب خفيةً ... وتُظهر للناس التنسك في الجهرِ

وتأْخذ من خلع العذار نصيبها ... فأني أَمير المؤمنين ولا أدري

وكان فتح بيت خيّض يوم الجمعة سلخ شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ولما دخل العسكر السلطاني بيت خيّض كما ذكرنا انهزمت الأشراف من خدة وسباع فأخرجهما السلطان خراباً شنيعاً وقطع أشجارهما وكانت فيهما أشجار قديمة لها مقدار مائتي سنة فما ترك فيهما شيئاً. ويقال أن شجرة لوز عقرت فوجد فيها لوح من رخام مكتوب فيه غُرست سنة أربعين من الهجرة. وأمر السلطان بعمارة الجبل المسمى قرن عنيز وسماهُ طفاراً وشحنهُ من أصناف الشجر ونهض بمحطتهِ إلى الصافية قافلاً إلى اليمن في شهر جمادى الأخرى من السنة المذكورة وسار الأمير علم الدين الشعبي صحبة ركابه العالي إلى ذمار فوقف الأمير علم الدين في ذمار وتقدم الركاب العالي إلى اليمن.

وفي هذه السنة خال الأمير الحسام بن البدلي في براقش وتغلب عليها وكان والياً فجرَّد له السلطان الأمير علم الدين الشعبي وأمر الأمير اردم بالوقوف في صنعاءَ وتقدم علي بن حاتم صحبة الأمير علم الدين إلى براقش فراسل الحسام بن البدلي وقبح عليهِ فعلهُ ووعدهُ بعطف مولانا السلطان عليهِ وما زال بهِ حتى أخذ لهُ شيئاً من الصدقات السلطانية براقش وعاد إلى صنعاءَ ثم اصطلح السلطان والإمام وسائر الأشراف وكان الصلح عن السلطان للأمير محمد بن حاتم بن عمرو بن علي الهمذاني. واتفق للأشراف مخرج إلى نجران عقيب الصلح فقتل فيه الأمير علم الدين علي بن وهاس قتلته يام.

وفي هذه السنة توفي الشيخ عبد الوهاب بن يوسف بن عزان العرنقي وكان شيخاً رئيساً من أعيان الرؤَساءِ شجاعاً مقداماً كريماً يحمل جواداً مهيباً عند الأعداء. وكان يتولى بلد العوادر بمال معلوم يحمل إلى السلطان. وكان يفعل الخير كثيراً ابتنى مدرسة في حصن الطفر ووقف عليها وقفاً جيداً ورتب فيها مدرساً وَدَرَسةً وكان ممتحناً بشرب المسكر فقدم مرة زائراً من بلده للفقيه عمر بن سعيد العَقَيبي فلما دخل عليهِ المسجد ربط منديلهُ في رقبتهِ ثم إلى رجل الفقيه وقال لا افتحهُ حتى تعطيني عهداً على التوبة وذمة من الشراب فراودهُ الفقيه على الترك فلم يفعل فأجابهُ إلى ذلك وعاهدهُ على

التوبة. وكان ذلك في شهر رمضان فكان ذلك سبب توبته.
ويروى أنه لما كان يوم العيد هم بشراب شيءٍ من الخمر كان قد أدخرهُ لذلك اليوم فأمر بإحضار شيءٍ منهُ فلما صار الكأس في يده وأهوى به إلى فمه أحس في ظهره بضرب السياط كلنها النار فرمى بالكأْس من يده وركض الإناء الذي فيه خمر برجله فكسره وأمر من حينئذٍ صائحاً يصيح في بلده بتحريم الخمر وشدَّد في شرّها تشديداً عظيماً ولم يشرب بعدها مسكراً. وحج في هذه السنة المذكورة سنة اثنتين وسبعين وستمائة. فلما انقضى حجه خرج يريد زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة على ساكنها السلام. فلما دخل المدينة ووقف موقف الزائرين من التربة الشريفة سمعهُ جماعة يقول يا رسول الله أنا جارك من العود إلى الظلم اللهم لا تعدني إليه. فتوفي عائداً من الزيارة على رجليه من المدينة فحمله أصحابه ورجعوا به المدينة وقبروه في البقيع بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

(٧٥/١)

وفيها توفي الشيخ إبراهيم بن محمد بن حجر وكان مشتغلاً بشيءٍ من القراءة ثم غلبت عليه العبادة والتنسك فسكن مكة وأَقام بها إلى أن توفي في شوال من السنة المذكورة. ويروى أنه اعتمر في السنة التي توفي فيها في رجب وشعبان ستين عمرة وفي رمضان خاصة ستين عمرة حكى ذلك الجندي في تاريخه.
وفي سنة ثلاث وسبعين حصل قحط عظيم في البلاد ومات من الناس عالم لا يحصى وأَكل الناس الميتة. وفي شهر ربيه الآخر أخذ حصن كوكبان جماعة من الخواليين واستولوا عليهِ فارتفع رأْس كل مفسدٍ وهاج الناس للخلاف.
وفي هذه السنة توفي الفقيه أبو الحسن أحمد بن يحيى بن الفقيه محمد بن مضمون وكان مشاركاً في العلم ولكن اشتغاله بأُمور الدنيا اكثر. وكان مشهوراً بالكرم وكثرة إطعام الطعام حتى أفنى من ماله جملةً مستكثرة فبلغ علمه إلى الأمير شمس الدين علي بن يحيى العسني فأدركتهُ عليه شفقة. وكان بصحبة فدخل عليه يوماً زائراً له مع جماعة من الفقهاءِ وكان قد أعلم بحاله فلما أراد الناس الخروج من مجلس الأمير استوقفه الأمير فلما خلى المكان قال له يا فقيه بلغنا عنك انك كثير التفريط لما في يديك وأنت فقيه ودخلك قليل من وجه حلال وما خَرَجَ عنك لا يكاد يقع لك عوضه إلا بمشقةٍ وأظنك تريد الاقتداءَ بنا ولا ينبغي لك ذلك لانَّا نحن محصولنا كثير من غير كلفة يسهل علينا خروجه كما يسهل علينا دخوله ثم وبخه على فعله وحذره من مرارة الفقر والفقيه ساكت مطرق ثم قال لهُ أحب أن تعاهدني انك لا عدت إلى شيءٍ من هذا فقال له الفقيه استخير الله الليلة وآتيك غداً أن شاءَ الله بما قويت عليه عزيمتي. أربعين فلما كان تلك الليلة صلى صلاة العشاء ثم صلى صلاة الاستخارة ونام فرأَى قائلاً يقول لهُ يا فقيه أحمد انفق فانك ممن وُقي شح نفسه فلما أصبح

غدا إلى الأمير فأخبره بمنامهِ وما قيل لهُ وأنه باقٍ على ذلك الأمر فبكى الأمير وقال في أَي صورةٍ ما شاءَ رَكَّبكَ ولم يزل على حالهِ إلى أن توفي في السنة المذكورة تقريباً كما قال الجندي.
وفيها توفي القاضي الأجل الصالح عيسى بن الفقيه علي بن الفقيه محمد ابن أبي بكر بن مُفَلَّت بضم الميم وفتح الفاءِ واللام المشددة وآخرهُ تاءً مثناة من فوقها. وكان فقيهاً ورعاً ديّناً عفيفاً وهو أحد من تعُدُّه الفقهاء من حفظة المهذب وولاة القاضي أبو بكر بن أحمد قضاء الجند فأقام بها قاضياً خمساً وأربعين سنة لم يذكر عنه ما يذكر عن غيره من نقص الحكام. ولما أَراد السلطان الملك المظفر زواج الحَّرة مريم ابنة الشيخ العفيف استدعاه فلم يعقد له حتى استكمل شرائط العقد ولم يتساهل في شيءٍ من ذلك. فاعجب السلطان بذلك وقال لو كان متساهلاً في شيءٍ من حكمه لتساهل معنا. فكان عندهُ معظماً وكانت جامكيته من جزية اليهود في الجند وهي خمسة عشر ديناراً. وكان كثيراً ما يُدان ولا يدان من أهل الجند تورعاً وكان لهُ أرض قريبة من الجند وارض ببلده ثابتة منها ما يقوم بكفايته وكان الغالب على حاله المسكنة والضعف. وتوفي مديوناً نحواً من ستمائة دينار وكان عمرهُ أكثر من مائة سنة لم يتغير له عقلُ ولا اختل له فهمُ وكان يحضر المجالس الفقهية والمواكب الملكية يستضاء برأْيه وينتفع بعلمه إلى أن توفي ليلة الأربعاء الحادي عشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

(٧٦/١)

وفي سنة أربع وسبعين خرج الأمير علم الدين الشعبي إلى مخلاف ذمار لقبض الواجبات السلطانية وترك المماليك الأسدية جميعهم رتبة في صنعاءَ مع ابن العلاب وسار مع الأمير علم الدين منهم رجل واحد فوقع بين ذلك الرجل وبين الداوي أحد مماليك الأمير علم الدين خصمة على شراب فقتله الداوي في مسير الأمير علم الدين إلى ذمار وهرب القاتل فلما علم المماليك الأسدية بقتل صاحبهم قاموا وقعدوا وكانوا قد أعجبتهم نفوسهم فخالفوا على السلطان واستولوا على صنعاءَ وقبضوا على موجود الشعبي وذلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. وكاتبوا الإمام والأشراف بالوصول إليهم فوصلهم الشريف علي بن عبد الله يوم السابع والعشرين من الشهر في سبعة آلاف راجل وكان في جبل حصور ثم جاءَ الإمام والأمير صارم الدين داود بن الإمام والإمام عز الدين محمد بن الأمير شمس الدين وسائر الأشراف فدخلوا صنعاءَ يوم الخامس من شهر جمادى الأولى وأقاموا في صنعاءَ وركب الإمام يوم الجمعة إلى جامع صنعاءَ ورَقي منبره وأذَّن المؤذن في منارته حي على خير العمل وخالطهم من الجذل والعجب أمر عظيم

ولو علموا عقبى الأمور لقابلوا ... أوائلها بالحزم واطرحوا العُجبا
ولكنهُ المقدور يلوي بذي الحجى ... فيَسلبهُ أن حُمَّ آراءه سلْبا

(٧٧/١)

وكانوا جميعاً على عزم الخروج من صنعاءَ إلى ذمار وربما طمعوا فيما خلف ذمار أن الأمير علي بن عبد الله ركب في بعض الأيام إلى الأمير صارم الدين داود بن الإمام فتراجعوا في أمورهم فقال الأمير داود أني رأَيتكم يا هؤلاءِ الشرفاء مذ دخلتم صنعاءَ ملتم إلى الراحة والدعة وأنفسكم تحدثكم بالخروج من صنعاءَ إلى دمار ثم إلى اليمن ومناصبة السلطان. وهذا رأي فاسد. فلو نظرتم في أموركم أولاً ثم نظرتم بعد ذلك إلى الخروج من صنعاء إلى دمار كان أصوب فلا تغتروا بحديث هؤلاء الغز الذين قد صاروا في جيشكم فوالله لو قد شموا ريح الملك المظفر وشاموا برقهُ لقد بانت لكم دخيلة أمرهم ثم إني أستفهمكم هل رأيتم أحداً وصلنا من همدان وهم الجزءِ الوافر وهل أحد يردهم عن صنعاء بعد إخلائنا عنها ألم يأمر إليهم أن يواكبوا إلينا فقالوا نحن لا نوكب حتى يجوزوا بلادنا فجزناها وما أتانا أحد منهم وكذلك سيحان هل هذا إلا تربص وترقب واستطلاع لما يأتي من ناحية اليمن والملك المظفر لا يترك بلاده ولا مدينته وما الذي شغله عن المبادرة والطلوع فانظروا في أموركم. فقال لهُ الأمير علي بن عبد الله النظر في أمورنا كلها إليك ونحن بين يديك فقال والله إنكم لترمون عن قوس واحد الإمام منكم والمأموم والعربي والعزي فقال ما الرأي الذي تأمرنا به وما هو الأصوب فقال الصواب أن قبلتموه أحد وجهين. أما الأول فنقف في صنعاء ونحن بثلاثمائة فارس نصبح كل يوم قرية من قرى همدان وسيحان حتى يدخلوا في طاعتنا أذلةً وهم صاغرون. وأما الوجه الثاني فنخرج إلى حافد ونخلي صنعاء ونخربها فنحن ثلاثمائة فارس وخمسة آلاف راجل أي قبيلةٍ ملنا عليها أخذناها ونحن نعود إلى معقل وحرز حريز. ومع ذلك لا يقدم علينا أحد ولا يدخل حد إلى صنعاء ونحن على هذه الصفة. ثم قاما وخرجا إلى الإمام فلم يكن غقيب ذلك إلا الخروج إلى ناحية جهران وتبطيل آراء الأمير صارم الدين فبرز الإمام إلى الميدان ثم نهض الجميع منهم إلى بئر الخولاني ثم نهضوا إلى العمري تحت الكميم فلما خيموا بالمعري أمر الإمام على الأمير علي ابن راشد ابن خالد بن عطوة أن يتقدم إلى حدار ويستنهض خاله الشيخ الحسام بن الفضل في كافة أصحابه من سيحان فتقدم حينئذٍ إلى الشيخ المذكور فلما وصل إليه وأخبروه برسالة الإمام فقال مالنا تأخر عن الوصول إلى الإمام فأمسى عندهُ فلما كان بعد مضي شطر من الليل وصل رسول من السلطان الملك المظفر بكتاب إلى الشيخ الحسام بن الفضل وإذا فيه صدورها من الحقل ونحن على المسير إلى صنعاءَ أن شاء الله تعالى ونحن نشعركم الوصول إلينا ونحذركم الاغترار بهؤلاء الشرفاء فسقط في يد الشيخ الحسام بن الفضل ودخل على علي بن راشد فأيقظه من منامه وأوقفه على كتاب السلطان وقال له قم وتقدم إلى الإمام وأخبرهُ بهذا فما بقي لنا إليه وصول. فلما وصل علي بن راشدٍ إلى الإمام اخبرهُ الخبر فطلب الإمام كافة الشرفاء واخبرهم الخبر فاضطربوا وقالوا للأمير صارم الدين ماذا ترى فقال قد أشرت عليكم في صنعاءَ فلم تقبلوا وأنا اليوم لا آمركم بالإقدام ولا آمركم بالإحجام أن أقدمتهم لم تأمنوا الكسرة وإن احجبتهم فهي كسرة الأحجام ولكن ارحلوا هذه الساعة قبل تشييع الخبر بطلوع السلطان فنهض الجميع منهم من العمري وانحدروا في نفيل الغارة وشاع الخبر بوصول السلطان فاضطربوا وتحيَّرُوا فعادت المماليك إلى صنعاء ثم تقدم الشرفاء فحطوا في معير

ونهضوا إلى أفق بكرة يوم الخميس وكان غرضهم النهوض بكرةِ يوم الجمعة إلى الجبجب فخرج الأمير عز الدين في ستين فارساً تستطلع الخبر فجاءوا وقد حطَّ الركاب العالي في دمار فأغارت خيلهم على أطراف المحطة فأمر السلطان أن لا يخرج إليهم أحد وحرم على الناس الركوب.فعاد الأشراف إلى محطتهم بأفق وقالوا وصلنا إلى السلطان فما خرج إلينا أحد والغالب أن المحطة ضعيفة فأمسوا في محطتهم مسرورين فلما كان صبح يوم الجمعة لم يشعروا حتى أطل عليهم فارس من الخيل فركب الأشراف وما شكوا إنها غارة لأجل غارتهم بالأمس فركب الأمير صارم الدين في نحو من أربعين فارساً وأمر الناس بالوقوف حتى يعود فما كان أسرع من عودته فاجتمعوا إليه وقالوا لهُ ما الخبر فقال هذا الملك المظفر في عساكره وكتايبهِ بعدي فقلوا فما ترى قال ما أرى إلا الصبر والحرب فإنه يوم عصيب. ثم

(٧٨/١)

طلب أهل أُفق وقال لهم اخبروني أَين عورة بلدكم وأَمر الإمام أن يقف في الحصن فإن وقع كسرة كان بعيداً عن القتال. وأما ما كان من أَمر السلطان فإنه لما حطَّ في ذمار وصل إليه الأمير علم الدين الشعبي وقال لهُ يا مولانا السلطان اليوم يوم الجمعة وهؤلاءِ العرب لا يستخيرون الصلاة إلا بعد الإمام. فإن تأخر عنهم مولانا السلطان إلى بعد الجمعة اجتمع معهم من العسكر ما لا تنحصر وكانت حربهم أَشد. فقال لهُ السلطان دعهم فلانا لا نريد سفك الدماءِ يوم الجمعة وأي أَي حالة كانوا فإنهم مهزومون فلم يقبل منهُ الشعبي ما قال بل قام من عندهِ وجمع عسكرهُ وأَخذوا عدتهم وجعلوا طريقهم على باب خيمة السلطان. فأَرسل السلطان إليه أن يقف فلم يفعل بل سار في عسكرهِ نحوهم. فنهض حينئذ السلطان وأَمر العسكر بالركوب وسار نحو أُفق فأَقبل علم الدين الشعبي فقصد الأَكمة التي فيها الأمير داود بن الإمام ثم أَبلت العساكر يتلو بعضها بعضاً ثم أَطل السلطان على الجبل الأسود في شرذمة من عساكرهِ وجنودهِ فكأنما اشتمل الجبل بثوبٍ ابيض غطى جوانبهُ كلها. ولما قصد الأمير علم الدين الأضكمة بعسكرهِ انهزمت الأشراف وحصلت العساكر على الغنيمة العظيمة ونجا الأمير صارم الدين داود بن الإمام وكافة الحمزيين بعد مشقة شديدة ثم أَحاطت العساكر المنصورة بالإمام في الحصن فأَسروه وقتلوا طائفةً ممن كان معهُ منهم الأمير أحمد بن محمد بن حاتم ووزير الإمام القاضي ابن أبي النجم وتمزَّق الشرفاءُ في تلك الأودية وتركوا محطتهم بما فيها ونزلوا عن خيولهم وتركوها قياماً تضطرب في أَرسانها ووصل العسكر بالإمام وسائر الأسرى إلى السلطان فلما وصل الإمام إلى السلطان وهو مكشوف الرأْس سلم وهنأ بالظفر فهنأَه السلطان بالسلامة وأَكرمهُ وآنسهُ وأَمر بستر رأْسهِ. وكان قد همَّ بهِ جماعة من المماليك فزجرهم السلطان وشتمهم واركبهُ بغلةً فكان يسير بينهُ وبين الصاحب بهاء الدين حتى دخل بهِ حصن تعز فأَودعهُ دار الأَدب. فلم يزل بهِ معزَّزاً مكرَّماً يحمل إليه في كل يوم عشرة دنانير ملكية والطعام بكرة وعشية

والكسوة لهُ ولمن معه من حريمٍ وخدمٍ بقدر كفايتهم. فقال لقد كان لنا في سلم السلطان غنيً عن حربهِ وكتب عَلَى باب مجلسهِ.

(٧٩/١)

هذي منازل سادةٍ أجواد ... ومحلُّ جودٍ شاملٍ وأياد
قصر الخورنق والسدير مقصر ... عنهُ وذو الشرفات من سنداد
ولم يزل على الإعزاز والإكرام في مجلسهِ إلى أن توفي في التاريخ الذي يأتي ذكرهُ أن شاءَ الله تعالى
وفي هذه الواقعة يقول القسم بن علي بن هُتَيْملٍ يمدح السلطان الملك المظفر
بوَّأت حزب الله دار قرار ... وأَحلَّ حزب الله دارَ بوار
ووضعت أوزار الذنوب بوقعةٍ ... ما حر بها موضوعةُ الأوزار
مشبوبة الطرفين تردي الجحفل ال ... جرار نحو الجحفل الجرار
شنعاءَ ما حسَّ الفوارس جمرها ... إلاَّ رمت شرراً على الأشرار
هي كالفجار الصعب أو كحنين أو ... كالشعب أَو كبغاث أَو ذي قار
راوحت بين الموكبين لراحةٍ ... لك في سروج الخيل والأكوار
وسريت في غسق الدجنة طاوياً ... بعد المشقة كالخيال الساري
عَجلاً إلى الحرب العوان فحيّها ... ركضاً على قدرٍ من الأقدار
لاقى بنو الهادي وحمزة ضعف ما ... لاقت سليم بجانب الثرثار
أنسيتهم ما سنَّ عمك فيهم ... بالأَمس في عصرٍ بيوم ذمار
عميت قلوبهم ففضت سرابهم ... بعمى قلوبهم عن الأبصار
طلبوا ذمار فرد سعدك ذالها ... دالاً وأي هزيمةٍ ودمار
حفوا بسيدهم فلما أيقنوا ... بالموت طاروا عنهُ كل مطار
صبوا السياط على قوارح خيلهم ... هرباً عن المهرات والأمهار
فكأَنهم شُهب البزاة تبللك ... بالغيث فانقضَّت إلى الأوكار
نكصوا عن الإقبال من ملمومةٍ ... مذ أقبلت نكصت على الأدبار
شمسية عُمرية علوية ... جفنية الإيراد والإصدار
شهباءُ محكمة العفاص كأَنها ... تحت السنور جنة النعار
فنجوا وإبراهيم يأْمر نفسهُ ... بالكر لا بالفر خوف العار
حتى إذا حمي الوطيس وأحصرت ... عنهُ السوابق أيما إحصار
حملتهُ مرَّة روحهِ متحصناً ... في الحصن لا متخفياً في الغار
لم يلق من يلوي عليهِ ولم يجد ... أحداً يقاتل من وراءِ الأحجار

فأَسرتهُ مستبسلا وحفظتهُ ... شرفاً بأَفضل حوطةٍ وجوار
جدُّ يفض شبا الصفا بزجاجه ... قهراً ويقتل نازلاً بجوار
وأخو الصبابة ما عليهِ غضاضة ... في الصبر أن لطمتهُ ذات سوار
أحييتهُ بالعفو ثمَّ لقيتهُ ... ببشاشةٍ وسكينةٍ ووقار
ووهبتهُ دمهُ بجاه محمدٍ ... ورضى عليّ وجعفر الطيار
لو أن غيرك يا مظفر صادهُ ... لكساهُ ثوبي ذلة وصغار
عان طمست قيامهُ ومقامهُ ... وتركته خبراً من الأخبار
أغرتهُ بالنقض الغواة فأُهلكوا ... وثمود كان هلاكهم بغرار
لو شاور المختار في غزواتهِ ... رجعت عليهِ مشورة المختار
يا فرحة البلد الحرام ويا ضيا ... جوّ العراق وفرحة الأمصار
جاءَتهم البشرى فكاد سرورهم ... يقضي على بادٍ هناك وقار
وكان من قص الصحيفة فيهمُ ... بالأسر فض لطيمة العطار
يا يوسف الحسن بن نور الدين يا ... ملك الملوك ومالك الأحرار
يا أفضل الحيين في خيرٍ وفي ... شّرٍ وفي نقضٍ وفي إمرار
عشقتك أبكار العلى فنكحتها ... طفلاً وليس نكاحها بشغار
وإذا بنوك تكنفوك تحيرت ... أبصارها في الشمس والأقمار
صور سرى فيها الكمال فأُودعت ... ما ليس في بشرٍ من الأبشار
فكأَنها خلقت تعالى الله من ... فخرٍ وكل الناس من فخَّار
أخليتم شرقي هذاد وعزة ... من راشدٍ ويمين من عمار
وخلا الرياشي بن راشد خيفةً ... منكم ولم يكُ حاذراً بحذار
وابن المعثور لو يغيث بعوضة ... لحضارةٍ ما بات في عقار
وإذا أردت تلمصاً وطفار لم ... يعجزك ملك تلمصٍ وطفار
ماذا أقول وعبد عبدك يا أبا ال ... منصور سيد يعرب ونذار

ولما أسر الإمام إبراهيم كما ذكرنا أراد الأشراف أن يقيموا بن هاوس بعدهُ إماماً فكرة فقال الحاي في ذلك قصيدة يمدح بها السلطان الملك المظفر

أقبلت في لجب تسد فضاءَهم ... من خلقهم وأمامهم يتجلجل

(٨٠/١)

وإلى ابن هاوس أتوا من فورهم ... مستنهضين قيامهُ فاستعجلوا
فأَجابهم وإذا تكون عظيمة ... ندعى لها أين الإمام الأول

ولما رجع السلطان من ذمار أمد علم الدين بمال جزيل فسار إلى صنعاءَ وكانت طريق الأشراف يوم هزيمتهم المغارب ولحقتهم مضرَّة شديدة وساروا إلى حصن ذمار المعروف بالخواليين وكان في يد الشريف علي بن عبد الله فأقاموا فيه مدةً والأمير صارم الدين يراسل الإمام مطهر بن يحيى ويستدعيه الإمامة. فلما وصل إليه الزمهُ القيام بالإمامة فدعى إلى نفسه فأَجابهُ كافة الزيدية. فأقام الأشراف مدَّة في بلد بني شهاب على غير قاعدة ثم حصل عقيب ذلك بين السلطان وبين الأمير صارم الدين مراسلات أفضت إلى الصلح فيما بينها فاخرج الأمير صارم الدين الإمام مطهر والشريف علي بن عبد الله وتصوَّراتهم يحفظون الحصون ويحاربون فيها فكان الأمير علي بن بن عبد الله يختلف بن الحصون فتارةً في كوكبان وتارةً في ردمان وأخرى في القاهر وعران.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن علي بن إسماعيل الحضرمي. وكان كبير القدر شهير الذكر من كرام الفقهاء وخيارهم وكان جواداً كريماً. يروى أنه ما سأَلهُ سائل شيئاً من الدنيا فرده وربما لقيهُ السائل فأَعطاه بعض ثيابهِ حتى أنه كان يأتي عليهِ وقت يعجز فيهِ عن الخروج من عدم الثياب. ويروى أنه عاهد الله لا رد سائلاً قط. حكي أنه سأَلهُ سائل يطلب شيئاً فدخل منزلهِ فلم يجد إلا الطعام الذي تطبخهُ الخادمة فأَخذهُ بإنائهِ وذهب بهِ إلى السائل فأَعطاه إياه. وكان الفقيه إسماعيل يعظمهُ ويقول هو أزهدنا وأعلمنا وأَورعنا وامتحن بحصر البول فكان يقل مجالسه الناس لذلك. وكانت وفاته رحمهُ الله في زبيد يوم رابع المحرم من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه الفاضل سعيد بن منصور بن محمد بن أحمد الجيشي بالجيم والياء المثناة من تحتها والشين المعجمة وهو الذي يقال لهُ سعيد بن أَنعمَ وكان أُبوهُ يلقب بأَنعمَ وكان فقيهاً محققاً درس بعد شيخه عمر بن مسعود في مدرسة ذي هريم وأَصل بلدهِ مصنعة سير وكان حسن السيرة وتوفي في السنة المذكورة وقبره عند شيخهِ المذكور في مقبرة صينة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن موسى المعروف بالحرف. تفقه بابن الرسول وكان قاضياً في ناحية من نواحي أَبين وتوفي بهما في هذه السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي القاضي اسعد بن مسلم. وكان من أهل الدين والمروءة شهد له بالخير أَعيان زمانه. ويروى أنه اجتمع برجلي زمانه عمر بن سعد العقيبي وسليمان الجندر رحمهم الله تعالى في بيته فباتا في صلاة وقيام وركوع وسجود. وبات القاضي نائماً قال الفقيه عبيد السهولي وكنت معهم ليلتئذ فتحيرت هل أُوافقهما في الصلاة والقيام أَو أوافق القاضي في النوم وبقيت متردداً فأَوجز الفقيه صلاته ثم سلم وقال لي يا فلان أن صاحبك هذا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فلا تعلمه بذلك وتزوَّج بابنة القاضي مسعود بن علي فاتت له بابنتين وابن تزوج إحداهما القاضي بهاءُ الدّين والأخرى أخوه حسان ولم يزل القاضي اسعد على أَحسن سيرة إلى أن توفي يوم الأربعاء العشرين من شهر صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة خمس وسبعين وستمائة تسلم السلطان حصن الريشة في ذي الحجة من السنة المذكورة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل عبد الله ابن الفقيه عمر بن مسعود بن محمد بن سالم الحميري

وكان فقيهاً عالماً عاملاً كاملاً مبرزاً في جميع أنواع العلوم درس بعد أبيه بمدرسة ذي هُزَيْمٍ إلى أن توفي رحمة الله عليه في السنة المذكورة.

وفي سنة سبع وسبعين حط الأمير علم الدين الشعبي على الحصون الحصورية وهي القاهر وعزَّان فاستمد الشريف علي بن عبد الله بالأشراف فلم يمده أحد منهم إلا الإمام مظهر بن يحيى فإنه جمع جمعاً عظيماً وقصد الشعبي إلى محطته وكان بالرّعلا. فوصلت عساكره القاهر. وعجزوا عن قصد علم الدين إلى المحطة. فلما رأَوا أمورهم إلى نقصان طلب الأمير جمال الدين علي بن عبد الله لقاءَ الأمير شمس الدين علي بن حاتم وتحدث معه في أَمر الصلح. فقال الأمير جمال الدين خذول لي من مولانا السلطان مائة ألف دينار وأعطوني في رهينة منكم في تسليم المال.

(٨١/١)

ولم يزل إلى أن اتفقوا على تسليم ألفي دينار ويخرجون من الحصون ويسلمونها فانعقد الأمر على ذلك. وصاحت الصوائح لهم بالذمة. وسلموا كافة الحصون الحضورية وفي شهر رمضان تسلم السلطان حصن ردمان. وخرج من فيه من الأشراف وعاد الشريف علي بن عبد الله على الظاهر والإمام إلى المعازب.

وفي هذه السنة توفي الشيخ والفقيه الإمام العارف بالله أبو الفدا إسماعيل بن الفقيه الصالح محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن إسماعيل ابن أحمد بن ميمون الحميري اليزني نسبةً إلى ذي يزن الملك المشهور. وكانت ولادة الفقيه إسماعيل يوم التاسع من ذي الحجة من سنة إحدى وستمائة ويروَى أنه لما تزوج أمه قيل له يا محمد يأْتيك ابنان محدث ومحدث الأول بفتح الدال. والثاني بكسرها. وكان تفقه بابيه وعمه علي بن إسماعيل. ثم أخذ عن جماعة من الكبار. كيونس بن يحيى والبريان الحصري وغيرهما. وكان نقالاً لفروع الفقه غواصاً على دقائقه. وله مصنفات مفيدة. منها شرح المهذَّب وغيره. ثم ارتحل إلى زبيد لغرض الزيارة في طلب العلم. فتزوج بابنة الفقيه أبي بكر بن حنكاش المقدم ذكره وبابنة الفقيه أبي الخير الذي سيأتي ذكره فيما بعدُ أن شاءَ الله تعالى وغلب عليهِ حب استيطان زبيد. واجتمع به السلطان الملك المظفر غير مرةٍ وسمع عليه البخاري. وولي القضاء الأكبر في تهامة فأقام فيه نحو سنة فاستخلف في القضاءِ من وثق بدينهِ وورعهِ واشترط عَلَى كل قاض إلا يحكم إلا بمحضر من الفقهاءِ. فيقال أنه خوطب يا إسماعيل رضيت بالنزول عن التسمي بالفقه إلى التسمي بالقضاء أو كما قيل. وقيل بل كان كثير التردد إلى تربة الشيخ الصالح أحمد بن أبي الخير الصياد. وكان قد يجد عندها دليلاً على صلاح حالهِ فنوجي هنالك بذلك فعزل نفسهُ من القضاءِ. ومما يروى عنهُ أنه دخل بيت قاضي زبيد. وكان من خواص أصحابهِ وزوج أُخته. فوجد في بيته ثياباً من الخَزَ. وكان لا يعرف معهُ شيئاً من ذلك. فقال لهُ من أَين لك هذه الثياب فقال من تركتك يا أبا الذبيح فقال ذبحني اله أن لم أعزلك ثم عزله نفسهُ بعده. وكان مبارك

التدريس انتفع بهِ خلق كثير من فقهاءِ اليمن. ومن عجيب ذلك ما روي عن الفقيه الصالح محمد بن معطن. وكان من الفقهاء الزهاد قال كنت في بلدي فعرض لي أن اقرأَ النحو فرأَيت في المنام قائلاً يقول لي اذهب إلى الفقيه إسماعيل الحضرمي واقرأْ عليه النحو فعجبت من ذلك لأنهُ لم يشتهر بمعرفةٍ تامة في النحو. ثم قلت قد حصلت الإشارة فعزمت على السفر من بلدي وهي قرية الرقبة من قرى وادي رمع. فسافرت حتى دخلت الضحى. فوجدت الفقيه في حلقة التدريس من أصحابه. فلما رآني سلمت عليهِ فرد عليَّ ورحب بي وقعدت بين أصحابه. فقال لي يا فقيه قد أجزتك في جميع كتب النحو فأّخذت ذلك بقبولٍ وعدت بلدي فما طالعت شيئاً من كتب النحو إلا وعرفت مضمونه ببركة الفقيه رحمه الله تعالى ونفع بهِ.

قال الجندي. واخبرني الثقة عن الفقيه حسن الشرعبي أنه سمعهُ يقول رأَيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ليلة من الليالي فقلت يا رسول الله من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. فقال هم الدرسة فلما كان الليلة المقبلة رأَيته صلى الله عليه وسلم. فقلت يا رسول الله أي الدرسة هم قال هم درسة الفقيه التنبيه والمهذّب. فقلت يا رسول الله فدرسة القرآن قال أولئك أصفياءُ الله. وكانت وفاة الفقيه نفع الله بهِ يوم التاسع من ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الإمام البارع أبو عبد الله محمد بن الحسن الصمعي وكان فقيهاً فاضلاً عارفاً متفنناً وغلب عليه فن النحو. وله فيه مصنفات كثيرة مفيدة. وله مصنف في العروض وتفقه بهِ جماعة. وهو الذي درس قبل السرَّاج في المدرسة المنصورية بزبيد. وله عبارات مرضية توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(٨٢/١)

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن حزابة بضم الحاءِ المهملة وفتح الزاي والباء الموحدة. وكان تفقهه بأَبي شعبة المذكور آنفاً وأخذ شيئاً من الأصول عن السلعاني. وكان سبب تفقههِ أنه اشترى وعاءَين من الأرز من الفقيه أبي بكر بن حجر فأكل أحدهما. ثم لما فتح الوعاءَ الآخر وجده أبو بكر بن حجر احسن من الأول. فاسترجع وقال بعتك ما لم أَرهُ فلا يصح البيع. فحملته الأَنفة على قراءَة الفقه فقرأَ على أبي شعبة. ثم أن أَبا بكر بن حجر حدث معه حادث سرور استدعى شيئاً من الزعفران. وكان الزعفران يومئذ معدوماً لا يوجد إلا عند ابن حزابه المذكور. وكان عطاراً فوصل الفقيه أبو بكر بن حجر إليه وعوَّل عليه في شيءٍ منهُ فأَجابه قال يا فقيه بعتك معلومةً من غير نظر الزعفران. ثم استدعى بوعائه فلما فتحهُ قال يا فقيه بعتك ما لم أَره فالبيع فاسدُ. فتوقف أبو بكر بن حجر. وناوله الفقيه دراهمه فأَخذها وهم بالرجوع بغير قضاء حاجةٍ. فذكره ابن حزابة بما فعل معه يوم أرز ثم باعه مراده من الزعفران ولم يرده خائباً. وكانت وفاة ابن حزابة قبل وفاة شيخه أبي شعبة بأيام قلائل في السنة المذكورة والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن حسن بن علي الفارسي بلداً التمي نسباً. وكان أَصل بلده من بلاد فارس دار جرذ بكسر الجيم وسكون الراء وآخره ذال معجمة. كانت فيما تقدم دار ملك فارس. وكان أهل هذا الرجل بيت وزارة ملوك فارس قاله الجندي. قال ونستهم ترجع إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وارتحل والد هذا الفقيه المذكور من بلد فارس إلى مكة المشرفة فجاور فيها ست عشرة سنة. ثم قدم عدن فتديرها وظهر له فيها الولد المذكور. فلما أَراد الولد الاشتغال قرأَ على السلعاني الفقه والمنطق والأُصول وأخذ عن الصغاني اللغة. وأخذ عن الشريف الطب والمنطق والموسيقى وعلم الفلك وبه اشتهر. وله فيه مصنفات عديدة وله في الموسيقى كتاب دائرة الطرب ورسالة فيها. وكتاب في وضع الألحان. وكتان التبصرة في علم البيطرة ولايات الأناق. في خواص الأَوفاق. وكتاب في معرفة السموم. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة سبع وسبعين توفي الأمير الأجل الكبير أسد الدين محمد بن الأمير الكبير بدر الدين الحسن بن الأمير الأجل الكبير شمس الدين بن علي ابن رسول الغساني وكان من أكمل بني رسول في الدين والشجاعة واكرم وعلو الهمة وكان أسداً قوياً شديداً وبقوته يضرب المثل. وكان يقبض على الركاب الحديد فيضم بعضه إلى بعض. وهو الذي رمى الهلال الذي على منارة صنعاء بدبوس من حديد فأسقطه عن مستقره. وكان كريماً جواداً. قل ما قصده إنسان إلا وأناله مقصوده. وأجل عطاءه ورفده وله من الآثار الدينية مدرسته التي في مدينه ابٍ. ومدرسته التي بالحبالى وفيها قبره وقبور جماعة من ذريته. وبنى سدًّا في قرية قرنة. ووقف على الجميع أوقافاً جيدة تقوم بكفاية الجميع. ولما سجنه ابن عمه السلطان الملك المظفر اشتغل بالقراءة فكان يستدعي الفقهاء إلى موضعه فيقرأ لهم ويحسن إليهم لاسيما الفقيه أحمد ابن علي السرددي. أنه كان رأس المحدثين يومئذ في مدينة تعز. فقرأ عليه عدة من مسموعات الحديث. ونسخ عدة من الكتب والمصاحف والمقدمات ووقفها ف عدة من الأماكن ولم يزل على أحسن حال إلى أن توفي يوم الثالث عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى. وله عقب كثير. وأولاد من خيرة أولاد الأمراء. وكان افضل أولاده أبو بكر. كان كاملاً عاقلاً متأدياً يقول الشعر حسناً:

إذا لم أقاسمك المسرة والأسى ... ولم أجد الوجد الذي أنت واجد

ولم اسهر الليل الطويل كآبةً ... فما أنا مولود ولا أنت والد

وهذا البيتان من قصيدة له كبيرة كتب بها إلى أبيه وهو في السجن رحمة الله عليهما. وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو بكر بن يوسف المكني الحنفي وكان فقيهاً جليل القدر مشهوراً ورعاً راضياً من الدنيا بالكفاف وكان عالي الهمة شريف النفس عالماً عاملاً مشهوراً نحوياً متأدياً مترسلاً عارفاً بالطب شيخه في ذلك أبو سواده. وكان يقري أهل المذهبين كما كان شيخه.

قال الجندي اخبرني الثقة من أصحابه أنه قال له يوماً عل قرب من وفاته رأيت كأن القيامة قد قامت وأحضرت الأئمة بين يدي الله تعالى. وهم أبو حنيفة. ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل. فقال الباري جل جلاله. إني أرسلت إليكم رسولاً واحداً بشريعة واحدة فجعلتموها أربعاً ردوها عليهم ثلث مرات فلم يجبه أحد. فقال له أحمد بن حنبل يا رب أنت قلت وقولك الحق لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً. فقال له تكلم فقال يا رب من شهودك علينا قال الملائكة قال يا رب لنا فيهم القدح. وذلك انك قلت وقولك الحق.)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض حليفةً. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء(فشهدوا علينا قبل وجودنا. فقال الباري جلودكم تشهد عليكم. فقال يا رب كانت جلودنا لا تنطق في الدنيا وهي تنطق اليوم مغصوبة. وشهادة المغصوب لا تصح فقال الباري جل جلاله أنا أشهد عليكم. فقال يا رب حاكم وشاهد فقال الله تعالى اذهبوا فقد غفرت لكم. ثم لما كان في السابع عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. رأى بعض أحبار أهل زبيد أن منارة مسجد الأشاعر قد سارت من مكانها حتى خرجت من المقابر وتغيبت فيها فتوفي الفقيه بعد ذلك وخرج الناس لدفنه فرأى الرائي أن للفقيه قبراً في الموضع الذي غابت فيه المنارة فعلم إنها عبارة عن الفقيه رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن سالم علي العنسي بنون بين العين والسين المهملتين. وكان يُعرف بابن التائه تفقه بعمر بن مسعود الأبيني وبالوزيري وأخذ عن المقدسي. واتهم في دينه ولم يزل مهاجراً للفقهاء منافراً لهم حتى أمكنه الدخول على البهاء وهو يومئذٍ متولي الوزارة والقضاء فحلف لهُ أنه ما تغير عن معتقده وأوقفهُ على كتاب صنفهُ في معتقد السلف قبل منهُ بعض قبول. وكانت وفاتهُ ليلة الفطر من السنة المذكورة. وقيل يوم عبد الفطر قبل الصلاة من السنة المذكورة والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن مسعود بن إبراهيم بن سالم بن أبي الخير بن محمد الصحاوي وكان مولدهُ في النصف من شعبان سنة ثماني عشرة وستمائة وتفقه في بداءته بابن يعيش وبعبد الله بن عبد الرحمن وأخذ درجة الفتوى بعدهما وارتحل إلى عدة من الأماكن في طلب العلم. وكان رجلاً صالحاً فاضلاً مبارك التدريس خرج من أصحابه ثلاثة نفر تفقه بهم خلق كثير وأجمع الناس على صلاحهم وعملهم وحسن فقههم وربما قدمهم الناس عليه وهم صالح بن عمرو وعبد الله الحساني وأبو بكر بن العزاف فكان يفتخر بهم ويقول ليس لأحدٍ من أهل العصر مثل هؤلاء الثلاثة. أما ابن العزاف فمتقن للفقه وأما صالح فمتقن للفرائض وأما الحساني فهو الفاضل بعدهما. وكانت وفاتهُ بذي السعال في السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفي سنة ثمان وسبعين كان فتح مدينة ظفار الحبوضي وقتل صاحبها سالم بن إدريس وقتل معه يومئذ نحو من ثلاثمائة رجل وأسر خلق كثير. وكن السبب في ذلك حدوث مجاعة عظيمة وقحط شام وقع في بلد حضرموت. فما قبل صاحبها إلى سالم بن إدريس وطالبوا منه ما يدفعون به كل تلك السنة عنهم وسلموا إليه مصانع حضرموت وحسنوا له ذلك ورغبوا له في فأجابهم إلى ما طلبوا وخرج معهم إلى حضرموت لثمام ما قد شرعوا فيه وهو أمر لم يسبقه إليه أحد من آبائه ولم يعلم دهاهم ولا مكرهم. فلما أخذوا منه جميع ما طلبوا سلموا إليه المصانع فقبضها وعاد إلى ظفار. ورأى أنه قد أفلح وأنجح. وإن حضرموت قد صارت تحت يده وفي قبضته. فلما رجع إلى ظفار مال أهل حضرموت ميلةً واحدةً إلى مصانعهم فأخذوها طوعاً وكرهاً ولم يكن دونها حائل يحول بينهم وبينها فأصبح لأمال ولا بلد وكاد يهلك أسفاً على تضييع أمواله في غير مواضعها فاتفق من القضاء المبرم أن مولانا السلطان الملك المظفر رحمه الله عليه ندب سفيراً إلى ملوك فارس بهدية جيدة وصحبته جماعة من التجار فصرفتهم الريح ورمت بهم إلى ساحل ظفار فقبضهم سالم بن إدريس وقبض ما معهم من الهدية والأموال والبضائع وسوَّلت له نفسه أن هذا جبران ما فات عليه في حضرموت فراسلهُ السلطان بذلك وكاتبهُ وقال لهُ لم يجر بذلك عادة من اهلك ونحن نحاشيك من قطع السبيل وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك وما بيننا وبينك والمكانة يننا وغير أنا نتأدب بآداب القرآن الكريم قال الله تعالى)وما كنا معذبين حتى نبعثَ رسولاً(فازداد غلظةً وجهلاً ورجع الجواب يقول فيه هذا الرسول وأين العذاب وغير ذلك من الجهل ثم لم يكن بعد ذلك إلا أنه أفسد صاحب الشحر راشد بن شجيعة وحملهُ على العصيان فمال إليه هرباً من الخراج الذي عليه لصاحب اليمن وكان عليه خراج معلوم يحمله في كل سنة إلى الخزانة المعمورة فكان حتفه في سوء رأيه:

والأمر لله رُب مجتهدٍ ... ما خاب إلا لأنهُ جاهدْ

ومتق والسهام مرسلةُ ... يجيص عن حائص إلى صارد

فخرج الأمر غقيب ذلك إلى والي عدن وهو الأمير شهاب الدين غازي بن المعمار بالتقدم إلى ساحل ظفار بالسواقي والرجال فوصل ظفار ولم تكن حرب طائلة ثم عاد إلى عدن المحروسة. فلما رجع ابن المعامر من ظفار نهض سالم بن إدريس وسولت له نفسهُ الغارة على ساحل عدن ولم يكره ذلك صاحب الشحر. فوصلت غارته في البحر إلى الساحل ساحل عدن وكان السلطان يومئذ في الجند فاستنكر الناس ذلك الأمر من سالم بن أدرس إذ لم يقدم على مثله صاحب الهند ولا الصين ولا ملوك فارس فاستشاط السلطان غيظاً وخرج أمرهُ بعمرة الشواني والمراكب والطراريد وأنواع مطايا البحر وتقدم ركابه العالي إلى ثغر عدن المروس والمقدمين وانفق من الذهب والفضة ما يزيد على عدد الحصى وجهز الأمراء والمقدمين والعساكر المنصورة من الخيل والرجل وملأ البر والبرح خيلاً ورجلاً وأزواداً وسارت العساكر ثلاث فرق فرقة في البحر وهم معظم الرجل فيهم الشيخ فارس بن أبي المعالي الجزائري والشيخ محمد بن محمد بن ناجي والشيخ الهمام بن علي بن غواص المليكي وشمس الدين بن المكبوس والشيخ بدر الدين حسن بن علي المذحجي وهو أكثرهم جيشاً. وكان

المقدم على أهل البحر الأمير سيف الدين سنقر الترنجلي نقيب المماليك البحرية. وسارت الفرقة الثانية مع الشيخ بدر الدين عبد الله بن عمرو بن الجنيد وهم العرب وكانوا ثلاثمائة فارس ساروا على طريق حضرموت قهراً على رقاب أهلها وهي مشحونة بقلاع بني الحبوضي وأحلافهم ولم يكن في تلك الجهة من أحلاف السلطان إلا أبا شماخ والشيخ عمر بن علي بن مسعود وفيهم أيضاً ميل إلى بني الحبوضي.

(٨٥/١)

قال صاحب العقد الثمين وبلغني أن الشيخ بدر الدين عبد الله بن عمرو بن الجنيد وأصحابه ما فارقوا الحرب ليلةً واحدةً حتى عبروا حضرموت وما زال أصحابهُ تخلفون عنهُ حتى وصل إلى ظفار الحبوضي في مائة فارس وثلاثة عشر رجلاً بعد خمسة اشهر من يوم خرجوا من صنعاء. وسارت الفرقة الثانية عن طريق الساحل وهم أربعمائة فارس من المماليك البحرية وحلقة السلطان. وكان مقدم المماليك الأمير حسام الدين لؤلؤ التوريزي وهو أمير العلم المنصور والمقدم على الحلقة الأمير فيروز وكان المقدم على الجميع الأمير شمس الدين أردمر أستاذ دار وقال له السلطان أنت تقتل سالماً أن شاء الله تعالى فأني رأيت فيما يرى النائم أن حيةً عظيمةً خرجت إليَّ من كوة فقلت لك اقتلها يا أردمر فقتلها وعدت إلى مقامك. وكانت طريق الأمير شمس الدين صعبة وعرة لأنها في شواهق الجبال وجبال من كثب الرمل فكان يسير هو ومن معه أضعف السير والمواكب في البحر تسير معارضة لهم فإذا بعدت بهم الطريق فيستريحوا لأنهم يتناولون من المراكب ما أرادوا من الطعام والتمر وسائر الحبوب والحوائج خانات ثم أنواع السلاح من القنا والسيوف والزرد والبيض والخفاتين والسقي والسهام والتراس والأوضاف ومن نعال الخيل واللجم وسائر أنواع العدد على اختلاف أحوالها من المنجنقيات ستة بجميع عددها وآلتها ورجالها وأحجارها. وقال بلغني أنه رست عليهم في البحر ألف قطعة والقطعة عبارة عن الجوالق العظيمة من أنواع الشحن فما فقدت ثم كانت الأسواق في البحر قائمة كأعظم ما يكون من أسواق المدن وفيها من أصناف الطباخين والخبازين وأرباب الصناعات ولم تزل كل فرقة تسير على حسب ما يمكنهم من السير حتى جمع الله بينهم في يوم واحد على بندر ريسوت. هكذا ذكر صاحب العقد الثمين فأقبلت مطابا البحر من الشواني يقدمها الحواسك والسنابيق كأنها العقبان. ثم أقبلت الطرابيد وهي المركب الأعظم وقدامها السفن وكأنها بعض الملوك والسيوف مسلولة والإعلام منصوبة والطبلخانات راجفة. وفي هذه الطريدة الخزانة السعيدة ومبلغها أربعمائة ألف. وأما القماش من البندقي والسوسي والموصلي والزبيدي شيُ لا يحيط به الحصر فلله دره من ملك ملأت البر والبحر كتائبه ووسعت العرب والعجم مواهبه ورغائبه وبالله أنه أحق قال عمرو بن كلثوم التغلبي حيث يقول

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤهُ سفينا

ولما اجتمعت العساكر المنصورة في بندر ريسوب كانت الخيل خمسمائة فارس والرجل سبعة آلاف راجل فقال بعضهم لبعض قد رأيتم ما نحن فيه من إنفاق الأموال وركوب الأهوال والتواني حينئذ منا عجز وخور ولم يبق إلا الحزم والعزم فساروا حتى بلغوا عوقد وهي محلة من محال ظفار فارجف عليهم بأن خيل حضرموت وصلت إلى ظفار وكذلك خيل البحرين فتذامروا فيما بينهم وقالوا إنما جئنا للقتال لا لغيره وأين تعز منها ولم يكن ظنهم أن سالم ابن إدريس يبرز إليهم فينا هم كذلك إذ أقبلت عساكر ظفار يقدمها سالم ابن إدريس فلما رآهم العسكر المنصورة تأهبوا للقائه فصف لهم على بعدٍ من المدينة وصفوا له. فكان الشيخ عبد الله بن عمر بن الجنيد وأصحابه في الميسرة وكانت الحلقة في الميمنة وكان الأمير شمس الدين أردمر في القلب ولم يكن بأسرع من أن التقوا واصطدموا صدمةً واحدةً فجالت العساكر المظفرية جولة واحدة ابتلعت منها نحواً من خمسين فارساً. ثم كانت الهزيمة فما نجا من أهل ظفار إلا من استأسر فقتل منهم نحواً من ثلاثمائة قتيل وأسر منهم نحواً من ثمانمائة أسير وأخذ من العبيد ما شاء الله. وقتل سالم بن إدريس فيمن قتل ولم يكن له قاتل واستبق الناس إلى باب ظفار.

وكان الأمير شهاب أحمد بن أردمر قد تركه أبوه في المحطة فجاءَ العلم منهً ليلاً إلى أبيه والأمراء مجتمعون على باب المدينة بان رأس سلم بن إدريس قد صار عنده. وقيل بل عرف أخوه موسى مصفحة وملوظته فقال هذا مصحف أخي وما أظن أخي إلا مقتولاً فطلبوه بين القتلى فوجدوه قتيلاً فحمل وقبر بعد أن أخذ رأسه. وكانت الوقعة يوم السابع والعشرين من رجب من السنة المذكورة.

(٨٦/١)

وطلب أهل ظفار الذمة فأذم لهم الأمير شمس الدين أردمر ودخلت الأعلام السعيدة المظفرة مدينة ظفار يوم الأحد الثامن والعشرين من الشهر المذكور. ووقع العفو عن الناس كلهم ولا يؤخذ لأحد منهم شيء واختطب الخطباء على منابر ظفار بالألقاب الشريفة المظفرية في يوم الجمعة الثالث من شهر شعبان. وتسلم العسكر السلطاني مدينة شيام في حضرموت يوم الثامن من شهر رمضان وقبض كافة بني الحبوضي يوم السادس والعشرين من شهر رمضان من قصر ظفار وأرسل بهم الأمير شمس الدين أردمر إلى الأبواب الشريفة فأمر السلطان بحملهم إلى زبيد فلم يزالوا تحت الصدقات السلطانية حتى انقرض آخرهم ولم يبقَ منهم أحد في وقتنا هذا.

ولما افتتح السلطان رحمهُ الله مدينة ظفار في التاريخ المذكور كما ذكرنا وقتل سالم بن إدريس ارتعدت الأقطار القصية هيبةً للسلطان وامتلأت من خوفه قلوب ملوك فارس وأصحاب الهند والصين لما رأوا من علو همتهِ وعظيم نقمته. أرسل صاحب عمان بهديته فرسين ورمحين إلى الأمير شمس الدين أردمر وهو يومئذ في ظفار ووصلت هدايا صاحب الصين ووصل صاحب البحرين إلى زبيد ورتب الأمير شمس الدين أردمر في ظفار نائباً وهو الأمير سيف الدين سنقر الترنجلي وجعل

الحسام التوريزي معه وعدهُ من مشاريخ العرب ومقدمي الرجل وعاد إلى اليمن.
وقال صاحب السيرة المظفرية يمدح الملك المظفر من قصيدة طويلة منها هذا
فاسأل به الأيام فهو عقيدها ... والعلم فهو مصنف ومؤَلف
واسأَل شَبَام وحضرموت ومن بها ... أَو عبد يوسف صادق أَم مخلف
أَم راضها بالسيف اغلب لم يزل ... للحق ينصف والأَعادي ينسف
إذا أصبحت ببقاع حريم خيلهُ ... كالطير للمهج الكرائم يخطف
يرمي العدى بشواظ كل مثقف ... فيهِ لمعوجّ الطغاة مثقّف
فهناك ما بيتُ نعى بتهامةٍ ... إلا بسيف أبي الممهد تقطف
من لا يفوت عليهِ نيل مرامةٍ ... لو أنه خلف الكواكب يقذف
هو في الأعابد كالأقارب حاضرُ ... كالشمس من كل المطالع تشرف
ومن الملوك الصيد تحت لوائهِ ... فرق وأُخرى في حديد ترسف
ليست ظفار بمعظم في ملكه ... بل في مواهبهِ تهون وتضعف
كالبحر ليس يزيد في أمواجه ... نهرُ وليس يضرُّهُ من يغرف
أظفار بدع من مدائن حازها ... بالسيف لا تحصي ولا هي تحصف
أَم تلك بدع من حصون شواهق ... تبدو فتتكر في النجوم وتعرف
ألقت بساحتك الرحال ملوكها ... فبظل بابك شملهم متأَلف
أَدنيت قاصيهم فككت أَسيرهم ... أَلبستهم أَمنت من يتخوَّف
هي عادة لك من قديم لم تزل ... للذنب تغفر والشدائد تكشف
كم من ملوكٍ قد أضعت دماءَهم ... لما عصوك ولم تُضِع من خلفوا
قال صاحب العقد الثمين وقال أخوه كندة مهنئاً للسلطان الملك المظفر رحمة الله عليهِ: بسم الله الرحمن الرحيم)فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين(مطالع صدق بالنصر نورها. وتباشير صدق تضاعف على العالمين سرورها. وسطوات ملك دفع من البدعة بطلها. وجيوش نصر عقدت الأرض لمشارق قساطلها. وهدمت من ربوع البغي منزالها. حتى حلت الخسار. ونزلت بوائق البوار. بمن نهض فلم يقدر. وزاحم فلم يصبر. فالحمد لله الذي حبا لمولانا المقام الأعظم السلطاني العالمي العاملي الجوادي الرحيمي الملكي المظفري خلد الله ملكه في عصور الأزمان ومعاطف الملوان وهذا الفتح المبين. واخمد بسيفه نار المبطلين.
وليست ببكر لم يرَ الناس مثلها ... ولكن علوان كان مثل لها قبلُ
وحين وردت البشارة وضح الحق للمرتابين. وازدادت طمأنينة قلوب المطمئنين.
وعاين الناس هاماتٍ مقطعة ... جاءت من البحر تسري بين أمواج
تؤُمها هامةُ كانت متوَّجةً ... أَودى بها الملك الصنديد ذو التاج
ساق المظفر جيش النصر من عدَن ... يأْتم في البحر أفواج بأفواج

وأَفعمَ البرَّ حتى ضاقَ واسعهُ ... بجحفلٍ لجب الأصوات عجَّاج
من كل معاجةٍ تعدو وتسكنها ... وكل نهدٍ حموم السد معاج
كتائبُ لأبي المنصور ما فترت ... لفرط أينٍ وتهجيرٍ وأدلاج
تشق في فلوات البيد سابحه ... بحراً من الرمل إلا أنه ساج

(٨٧/١)

يا طول ذلك من جلّ ومرتحل ... وكثر شدٍ والجام وأسراج
حتى وردت ظفاراً بعد ما نبذت ... ما في البطون من أفلاءٍ وأمشاج
وبعد أن عقدت في عوقد فتناً ... ما كان سالمها بالسالم الناج
ما أنعلت ثم حتى منهم انتعلت ... نصالكم من دم الأجواف ثجاج
تعساً لسالم من غاوٍ لقد سلكت ... بهِ الغواية نهجاً شرَّ منهاج
فصار موردِ أمرٍ غير مُصْدِره ... وصار ولاَّج حربٍ غير خرَّاج
أضحت بعوقد منهُ جثة طرحت ... والرأْس في كل أرض فوق معراج
رام المضاهاة جهلاً فاعتدى سفهاً ... ولا مضاهاة بين الدرّ والعاج

ولا زالت الثغور معمورة. والجيوش مؤيدة منصورة. وعقود التهاني منتظمة السلوك. والجنود المظفرية قافلة بجماجم الملوك. ما همر ركام. وسجع على فروع الأيك حمام.

ولما افتتحت ظفار كما ذكرنا انقادت حضرموت فجعل السلطان أميرها محمد بن محمد بن ناجي فأقام مدة ثم رجع إلى تعز فقيل له كيف عاملت أصحاب حضرموت قال لما حللت بشبام زاحمني رجل يقال لهُ يماني أعظمهم رجلاً فجمع عسكراً عظيماً لقتالي وجمعت أيضاً عسكراً لقتاله وطاولته في الحرب حتى انفق ما كان عندهُ من صامت وناطق ولم يبقَ عندهُ شيءُ وكنت استمد من مولانا السلطان فلما لم يجد شيئاً ينفقه على من معه وصلني بنفسه فلما أناخ بعيره على باب داري ودخل الحاجب يستأذن لهُ فقلت لهُ يصل. فلما دخل عليَّ قال لي أعلم لما أردت الخروج إليك أشهدت جماعة أهل بيتي إني عل ذمة ابن رسول وذمتك يا محمد قل فقلت لهُ وهما عليك ثم أكرمتهُ وأحسنت إليه وجعلت لهُ موضعاً بكفيه وعاد إلى أهله على أحسن حال فجرى على ذلك النمط أربعة أقوام أحاربهم حتى يؤدوا أنفسهم إليَّ وبعد ذلك لم يرفع رأسه إليَّ أحد من أهل حضرموت.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو محمد سعيد بن أسعد بن علي الحراري واصل بلده قرية المراح في راس وادي نخلان وكان حافظاً لكتاب الله تعالى في ذي أشرق وكان حسنَ الصوت والخط فاستدعته الدار النجمي إلى ذي جبلةَ فصار بينهم معلماً عندهم. وكان السلطان الملك المظفر يختلف إليهم في أيام أمريته فحصلت بينهم وبينه معرفة فلما صار الملك إليه سأل من عمته الدار النجمي أن تؤثره به ففعلت فجعله معلماً لولده الأشرف فنال نصيباً وافراً من الدنيا وكان كثيراً ما

يصدهُ عن أمور غير لائقة. فلما توفي ترحم عليه الأشرف وقال لقد كان يردنا عما لا يليق بنا. وهو الذي عمل الحوض الأسفل من النقيلين وجرَّ إليه الماءَ. وكان الغالب عليه الخير وصحبه الفقيه إسماعيل الحضرمي وأمثاله. وكانت محاضرة عند الأشرف جيدة وتأهل بامرأة من أهل السمكر واستوطنها. ولم يزل بها إلى أن توفي في شهر شوال من السنة المذكورة وكان له ثلاثة أولاد أكبرهم عمر خدم الأشرف سنتين. ثم صحب الفقيه أبا بكر التعزي الآتي ذكره وشغف به فترك الخدمة وتزهد وبعد ذلك سلك الطريق المعتادة. واشتغل بالزراعة وغيرها إلى أن توفي لعشر بقين من جمادى الأولى من سنة سبع وسبعمائة. وكان أخوه اسمه عل بن سعيد وكان كثير التلاوة للقرآن. واعتزل الناس حتى توفي سنة ست عشرة وسبعمائة. وكان اسم ابنه الثالث محمد رحمهم الله. وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو زكريا يحيى بن عثمان بن يحيى بن فضل بن اسعد بن حمير بن جعفر بن أبي سالم المليكي. وكان ميلاده آخر نهار الجمعة الخامس من شهر صفر من سنة سبع عشرة وستمائة. وتفقه بابيه. وكان فقيهاً خبيراً كاملاً عارفاً ورعاً فاضلاً. واليه انتهت رئاسة التدريس بعد إيابه وكان ذا دين. وورع وزهد وفضل وكرم نفس درس في المدرسة الشرقية في جبلة وكان يطلع بلده أيام الحصاد فيقف شهرين هنالك. ثم يقطع من نفقته في المدرسة نصف الشهري بغيبته عن المدرسة. وإذا قبض ما يستحقه إنما يصرفه على المحتاجين من طلبة العلم. ولم يزل على أحسن سيرة إلى أن توفي في النصف من صفر من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى.

(٨٨/١)

وفي سنة تسع وسبعين كانت الفرحة السعيدة فاستدعى السلطان رحمه الله الأمر علم الدين سنجر الشعبي إلى محروسة زبيد. واستدعى كافة الأشراف الحمزيين إلى أبوابه السعيدة. فلم يصل منهم إلا الأمير جمال الدين علي بن عبد الله بن الحسن بن حمزة. والأمير عز الدين محمد بن الأمير شمس الدين أحمد بن الإمام المنصور عبد الله بن حمزة. واعتذر الأمير صارم الدين داود بن الإمام. وسائر الشرفاء. فلم يزل الأمير عز الدين والأمير جمال الدين على الأبواب الشريفة بسبب الفرحة كما ذكرنا .فقبض الأمير صارم الدين داود بن الإمام عبد الله بن حمزة حصينهما. وكان لعز الدين تعز صعدة. فطلع الصاحب بهاء الدين محم بن اسعد العمراني محاكماً للأمير صارم الدين داود فحط بالجنان بالنون وكان الأمير صارم الدين بالمصنعة الجبل المطل عليها. فكانا يلتقيان على الثالث والرابع. والأمير علم الدين في صنعاء فلم يتم بينهم أمر ورأى الصاحبي من تعجرفهم وأدلالهم بكثرة عساكرهم وسوء فعالهم ما غاظه فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. فرد جواب السلطان يقول أن لم يدخلوا فيما قد شرطوه فانبذ إليهم وأشعرهم النقض فتوقف الصاحب عن النقض رجاء أن يعودوا ورجع إلى اليمن.

وفي هذه السنة استعاد السلطان حصن كوكبان من الخواليين بحصن ردمان واثنين وعشرين ألفاً.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن أحمد بن أسعد الأصبحي الفقيه الخطيب وكان فقيهاً صالحاً ذا دين وصلاح وورع وكان خطيب القرية المعروفة بالذمتين. وكانت وفاته ليلة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وهو والد الفقيه الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الأصبحي صاحب المعين. وسأذكره في موضعه أن شاء الله تعالى.

وفي سنة ثمانين وستمائة وقع النقض بين السلطان والأشراف فنزول الأمير جمال الدين علي بن عبد الله والأمير عز الدين محمد بن أحمد بن الإمام إلى الأبواب الشريفة. فلم يزالا هنالك حتى انفصل أمرهما على تسليم حصينهما المنقاع وتعز صعدة. فقبضهما نواب السلطان في المحرم أول سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وفي هذه السنة المذكورة اعني سنة ثمانين وستمائة. توفي الفقيه الإمام الحافظ أبو الخير بن منصور بن أبي الخير الشماخي السعدي نسباً الحضرمي نزيل زبيد. وكان فقيهاً إماماً حافظاً عارفاً. أدرك جماعة من الأكابر وأخذ عن أصحاب السلعة بمكة كابن الجميزي بجيم مضمونة وميم مشددة مفتوحة وياء مثناة من تحتها وبعدها زاي ثم ياء النسب. وأخذ عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عراف صاحب احور عن يحيى بن أبي نصير الطفاوي عن الإمام القلعي وتطلع على علوم كثيرة منه الفقه والنحو واللغة والحديث والفرائض والتفسير. وصنف ما يدل على جودة معرفته. وأخذ عن الإمام بطال بن أحمد الزكي. ولم يكن في آخر عمره نظير في جوده العلم وضبط الكتب بحيث لا يوجد له في آخر عمره نظير في الضبط.

قال الجندي أخبرني في جماعة ممن أدركه أنه كان لا يوجد إلا وعنده كتاب ينظر فيه ومحبرة وأقلام يصلح بها ما وجد في الكتاب من غلط أو سقط أو تصحيف وكانت وفاته بزبيد في سنة ثمانين وستمائة وعمره يومئذ سبعون سنة وجمعت خزانته من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه. ويقال أنه كان فيها مائة أم سوى المختصرات والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الكبير يحيى بن عبد الله بن الفقيه الكبير محمد بن يحيى. وكان فقيهاً محققاً ذا كرامات ومكاشفات وبه تفقه جمة كثير وقصده الطلبة من نواحٍ شتى وقصده فقهاءُ تعز. وكان رأسهم يومئذ أبو بكر بن آدم الجبرتي الذي تقدم ذكره فأَخذوا عنه البيان. قال الجندي وكانت وفاته على طريق البيت سنة ثمانين وستمائة. أخبرني بذلك فقيه جبار وحاكمها والله أعلم.

(٨٩/١)

وفيها توفي الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن منصور الجنيد وكان فقيهاً تقياً خيراً تفقه بحسن بن راشد وبعمر بن يحيى وغيرهما ثم امتحن بقضاء ذي اشرق واليه انتهى تدريسها فذكروا أنه كان يوماً جالساً في مجلس التدريس فقال لأصحابه اليوم نحن فقهاء وغداً نكون صوفية. فلما كان من الغد قدم عليه رجل من أهل بعدان صوفي من أصحاب الشيخ عمر بن المسن يقال له جبريل فقال له يا

علي كن معنا ومد يده إليه فحكمه ثم نصبه شيخاً وأَذن له في التحكيم. وكان الفقيه أبو بكر التعزي يومئذ في أول ظهوره وتعرضه للشهرة. وتظاهر بصحبة الصوفية ومحبتهم. وكان يومئذ شاباً فوصل إلى هذا الفقيه وتتلمذ له وكان من اظرف الناس في اجتلاب القلوب إليه فاحبه الفقيه علي لأنه يتواضع له ويعظمه ثم اجلبه إلى تعز وتلطف له بتدريس المدرسة الأسدية في معزية تعز. فأَجابه إلى ذلك. فنزل ودرس بها مدة ولم يزل إلى أن توفي في مستهل ذي الحجة من السنة المذكورة والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه أبو بكر بن عبد الله الريمي وكان فقيهاً كبيراً تفقه بعلي بن قاسم الحكمي. وتفقه به جماعة كثيرون كأحمد بن سليمان الحلمي وعمه عيسى وغيرهما فكانت وفاته في السنة المذكورة تقريباً. قاله الجندي قال وخلف ولدين فقيهين هما عبد الله ومحمد. فكان عبد الله معيداً فيها مدة ثم حصل عليه بن أيمن وجعل مكانه الفقيه محمد بن أبي بكر الناشري ليستعين به في نيابة الحكم إذا خرج إلى بلده والله أعلم.

وفيها توفى السلطان أبو السمو العلاء بن محمد بن العلاء الوليدي الحميري قال الجندي واصل بلده عفينة بفتح العين المهملة وكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون وآخر الاسم هاء وهي من معشار تعز سكنها جماعة من قومه يعرفون بالأحاصر أهل رياسة مباثلة وانتقل إلى السمكر وكان يختلف إلى الجند وزيران وجبلة والى تعز ونواحيها وجبا. فأَخذ في أجند عن ابن المبردع وغيره وأخذ بزيزان عن ابن رفيد وبتعز عن علي السردي وغيره وبنواحي جبا عن أحمد بن علوان وبجبلة عن محمد بن مصباح وكان رجلاً صالحاً بورك له في دينه ودنياه وكان الشيخ أحمد بن علوان يثني عليه وبوده وأجازه في جميع مقروءَاته ومسموعاته ومنظوماته ومنثوراته.

ومن عظيم ما كان بينه وبين الشيخ أحمد بن علوان من الألفة والمحبة أنه متى انقطع عن الوصول إليه والزيارة له وصله الشيخ إلى السمكر وأقام عنده أياماً. قال الجندي توفي على رأس ثمانين وستمائة وهي السنة المذكورة.

وفي هذه السنة أيضاً توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله الحسين بن علي بن عمر ابن محمد علي بن أبي القسم وكان مولده لخمس بقين من جمادى الأولى من سنة ثمان وستمائة تفقه ثم غلبت عليه العبادة.

ويروى أنه في أيام قراءَته ترتب في مدرسة عومان مع الفقيه يحيى بن سالم فذكروا أنه باع شيئاً من كليته بدراهم ثم ربطها في طرف ثوبه ثم احتاج أن يأْخذ شيئاً منها لبعض الأمر فلما فتح عنها وجدها عقارب فلفظها من ثوبه ولم يعد بعد ذلك إلى أخذ طعام المدرسة. وكان يكثر زيارة القبور ومتى صار في طرفها خلع نعليه وحملهما في يده ولم يزل على أحسن صورة إلى أن توفي يوم الخميس ثامن عشر المحرم من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح يعقوب بن محمد التربي نسبة إلى قرية من قرى وادي زبيد يقال لها التربة بضم التاءِ المثناة من فوق وسكون الراءِ وفتح الباءِ الموحدة وآخر الاسم هاءُ. ثم انتقل إلى موزع

فتفقه بها على الفقيه بكر بن علي بن يحيى وكان على طريق الورع الكامل يزار للتبرك وينتفع به. وكان يدخل على نساء العرسانيين للشهادة في النكاح وغيره ولما اقطع السلطان المظفر ولده الملك الواثق موزع وكان قد نزل إليها فأقام بها مدة بلغه علم صلاح هذا الرجل فزاره إلى بيته نهاراً فلم يشعر الفقيه حتى قيل له هذا الملك الواثق صاحب البلد على الباب يستأذن عليك في الزيارة فأذن له فلما وصل سلم عليه فرد عليه الفقيه السلام ورحب به فسأله الدعاءَ فدعا له ثم خرج فتعب الفقيه من ذلك اشد التعب. ثم سأَل الله تعالى أم ينقله فلم تطل أيامه بعد ذلك فتوفي. وكانت وفاته في السنة المذكورة تقريباً كما قال الجندي والله أعلم.

(٩٠/١)

وفيها توفي الشيخ الفاضل عمر بن الشيخ الصالح مدافع بن أحمد بن محمد المعيني وكان محبوباً عند أبيه ونال منه حظّاً وافراً. وكان لا يقصده أحد بسوءٍ إلا وبلي بلاء ظاهراً. وكان من المترفين يلبس الثياب الفاخرة. ولم يزل مجللاً محترماً عند السلطان إلى أن توفي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى. وكان والده الشيخ مدافع بن أحمد ممن فتح اله عليه بالدين وأخذ يد التصوف عن الشيخ ابن الحداد نحو أَخذه عن الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني. وكان مدافع بن أحمد ممن اجتمع الناس على صلاحه وكماله. ولما فقد الشيخ أبو العيث بن جميل شيئاً من أحواله وصل إلى الشيخ مدافع وأَقام عنده في قرية الوجيز في مسجد قريب من بيته فأعاد الله عليه ما فقده وصحبه جماعة من أعيان الصوفية كعثمان بن سادح وعلي المرميمة وعمران الصوفي من عبلة وغيرهم. وكان الملك المسعود ابن الملك الكامل يومئذٍ صاحب اليمن من قبل أبيه وكان كثيراً ما ينزل من الحصن فيقف في الميدان أَو في المطعم يطعم الجوارح الصيدية فرأَى العسكر يروحون طريق الوجيز فسأَل عن ذلك فقيل لهُ انهم يروحون لزيارة رجل من الصوفية كبير الحال فبحث عنهُ فقيل لهُ أنهم يروحون لزيارة رجل من الصوفية كبير الحال فبحث عنهُ فأُخبر أن لهُ قبولاً عظيماً عند سائر الناس فأَحب أن يطلع على أمره واظهر أن غرضهُ زيارتهُ ووصل إلى بابهِ. وكان من عادة الشيخ مدافع أنه لا يجتمع بهِ أحد من الناس من أذّان الصبح إلى قريب من الزوال فوصل الملك المسعود إلى بيت الشيخ والشيخ مقبل على صلاة الضحى فوقف على الباب ينتظر الأذن والشيخ في صلاتهِ لم يعلم بوصوله فلما طال وقوفه على باب الشيخ وكلما خرج أحد من الفقراء قال الشيخ مشغول والساعة يخرج. اغتاظ من ذلك ورجع قبل أن يعلم به الشيخ وتوهم أنه ربما حدث منهُ ما حدث من رغم الصوفي فأمر بقبض الشيخ مدافع فقُبض وكان قبضهُ في عشرة رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فأقام محبوساً في حصت تعو إلى سلخ شهر ربيع الأول من سنة ثماني عشرة وستمائة ثم سفر به إلى الهند فدخل بلد الدنيول فأقام بها شهرين وثلاثة أيام ثم خرج منها لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ثماني عشرة وستمائة ثم دخل ظفار فأقام بها ثمانية عشر يوماً وتوفي

هناك رحمه الله تعالى.

وفي سنة إحدى وثمانين طلع الأمير جمال الدين علي بن عبد الله وخرج الأمير علم الدين الشعبي في عسكر وساروا جميعاً إلى الظاهر فحط الأمير على الدين الشعبي على الكولة وشرع في عمارتها ومعه الأمير عز الدين وحط الأمير جمال الدين علي بن عبد الله على حصن كحل وأشيح الظاهر الأعلى فأخذهما في اقرب مدة وعاد الأمير علم الدين إلى محطته وقد رتب في الدخصة والحبسيين والذروة بعض النقاء في عساكر جيدة. ثم رتب الشريف علي بن عبد الله بالكولة مائة فارس وألف رجَّال وأضاف إليه سائر الرتب ونزل هو والأمير علم الدين نحو سوانة ولم ينقل الأمير علم الدين محطته من الكولة إلا بعد سنة حتى استقامت أمور الرتب على ظفار من الناحية العليا ثم نهض إلى الناحية السفلى في سوانة هو والأمير عز الدين فعمر درب سوانة وشحنه ورتب فيه الأمير عز الدين في الناحية السفلى.

وفي هذه السنة توفي الأمير الكبير شمس الدين علي بن يحيى العنسي نسبة إلى عنس من مذحج بنون وهي من قبيلة كبيرةٍ من قبائل مذحج. وكان لهُ من السلطان نور الدين مكانة عظيمةُ وحمل طبلخانة وقطعهُ إقطاعاً جيداً وكان السلطان نور الدين ابن عمتهِ وقيل ابن أخته ولم يزل معززاً مكرماً إلى أن توفي المنصور واشتغل الملك المظفر بالملك فمال إلى أولاد عمه أَسد الدين وأخيه فخر الدين فلما لزم فخر الدين وحبسه المظفر كما ذكرنا أولاً كتب إلى أسد الدين يحثه على القيام واستنقاذ أخيه من السجن ويقول

لو كنت تعلم يا محمد ما جرى ... لشَنَنْتها شعث النواصي ضُمَّرَا

جرداً تراها في الأَعنَّة شُزَّباً ... تفري السباسب والنبات المقفرا

ترمي بها دربي تعزّ على الوجى ... لتقيم عذراً أَو تشيّد مفخرا

فأجابه ابن دعاس بأبيات احسن منها لا اذكر منها إلا بيتاً واحداً قوله

انظر إلى عدنٍ أطاعت أمرهُ ... والى تعز ومكةٍ أم القرى

(٩١/١)

ولما بلغ شعر علي بن يحيى إلى السلطان الملك المظفر تغافل عنهُ وأبقاه على حاله إلى أن مات المنصور وهو عليها وفي نفسهِ شيءُ عظيم فلما كانت سنة ثمان وخمسين تعب أسد الدين من كثرة الخلاف على ابن عمه وخشي من العرب القتل أو الأسر فأرسل إلى السلطان يريد الصلح فطلب السلطان يومئذٍ الأمير شمس الدين علي بن يحيى وأرسلهُ إلى أسد الدين ليسعى في الصلح بينهُ وبين السلطان فطلع إليه رسولاً بسبب الصلح فنزلا معاً. وكان السلطان يومئذٍ في زبيد فلما وصلا إلى زبيد أخلى لهما موضعاً من الدار فنزلا فيه ثم أمر بالقبض عليهما في آخر يومهما ذلك فقبضا. وأرسل بهما إلى حصن تعز ولم يزالا في السجن إلى أن توفيا رحمة الله عليهما.

وكان علي بن يحيى رجلاً كريماً شاعراً فصيحاً وكان يحب الفقهاء والصالحين ويحسن إليهم كثيراً وكان مع صحبتهِ لهم يتواضع لهم ويتأدب معهم ويقبل شفاءتهم وكان مهما أمرهِ به الفقيه ائتمر. وكان الفقيه يدعو له ويذكره بالخير فقل للفقيه إذا هذا رجل ظالم فقال أن دخل علي بن يحيى النار فإنها صحبة حمار بن والله لا مات إلا طاهراً مطهراً فقيل له وما تطهيره قال القيد والحبس فتما عليه ومات مسجوناً وعلم صدق ألفيه. وكانت وفاتهُ يوم الاثنين سلخ شهر صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى. وكان قد ابتنى مدرسة في بلده ووقف عليها وقفاً جيداً حاملاً لكل أولاده فلما افتقروا عادوا إليه واستأثروا به والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الفاضل عبد الله بن أبي بكر بن مقُبل لدين وكان مولده سنة ثمان وثمانمائة وتفقه بجدهِ أحمد وكان زميله في الدرس والقراءَة عمر بن الحداد وعرض عليهِ بنو عمران ولاية القضاء بعدَن وقد كان جدهُ بها فامتنع وكره ذلك وكانت وفاتهُ في قريتهم التي تسمى عرج في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه النبيه جمال الدين محمد بن حسين بن علي بن المحترم الحضرمي وكان فقيهاً فاضلاً أديباً لبيباً غلب عليهِ فن الأدب وكان خطَّاطاً مجيداً فسأَل المظفر عن رجل يصلح لتعليم ولده المؤَيد فأرسل إليه فاستدعى به وأمره بالتعليم فعلم وأجاد وكان المؤَيد ببركة تعليمهِ من أعيان الملوك عقلاً ونبلاً. وكانت وفاته ليلة الاثنين مستهل الحجة من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه الصالح عبد الله بن محمد بن علي بن إسماعيل بن علي الحضرمي وكان فقيهاً صالحاً مباركاً ذا كرامات مشهورة. ومن غريبها ما ذكر أنه مرَّ على باب السلطان بزبيد نوَبة خليل تضرب ومن العادة أنه لا يستطيع أحد أم يمرَّ هنالك لا راكباً ولا ماشياً ما دامت تضرب فمرَّ الفقيه راكباً ولم يقل له أحد شيئاً فعجب الحاضرون من ذلك. وكان مبارك التدريس درَّس بالمدرسة الشمسية بذي عدينة من تعز وكانت وفاته في العشرين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة.

وفيها توفي الإمام الكبير محمد بن نجتح وكان من أمراء الدولة المظفرية ولهُ طبلخانة وإقطاع جيد وهو الذي ابتنى المدرسة المعروفة بالنجاحية بالناحية الشرقية من المغربة في مدينة تعز وأوقف بتعز وأخرى بالجَند وكان كثير فعل الخير والمعروف وامتحن في آخر عمرهِ بالعمى وأقام كذلك مدة ثم توفي يوم الاثنين ثامن القعدة من السنة المذكورة وخلف ابناً اسمهُ " كذا في الأصل عاش بعدهُ سنة وستة أشهر " ثم توفي في جمادى الأولى من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ولم يعقب وله ذريةُ من قبل النساء يعرفون ببني السلاح.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أحمد بن مصباح بن عبد الرحيم الأحولي. وكان فقيهاً فاضلاً زاهداً ورعاً شريف النفس عالي الهمة حسن المقابلة. وكانت وفاتهُ في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة اثنتين وثمانين انهدم القصر بصنعاء على الأمير علم الدين سنجر الشعبي فمات هو وجماعة ممن كان معهُ تحت الهدم.

وحكى صاحب العقد في كتابهِ قال كنت ممن حضر يومئذٍ في المجلس مع الأمير علم الدين دخلت إليه يومئذٍ ومجلسهُ يغصُّ بالناس فحضر غداؤُهُ فتغدى الناس معهُ وانقضت حوائجهم وخرجوا ولم يبقَ في المجلس إلا الأمير علم الدين وصهرهُ محمد بن يزيد ومملوكان للأمير صغيران وأبو بكر بن عمار وكاتب الأمير وقاضي الشرع عمر بن سعيد وأنا وأخي علي بن حاتم. فوقفنا إلى أن أذن المؤَذن للعصر فقام الأمير فصلى وعاد إلينا ثم قال لمملوكه احمل الماءَ للجماعة يصلون فطهرنا وصلينا ثم عدنا إلى ما كنا فيه من الحديث فلم نشعر إلا ودخل علينا غبار من أقرب الشبابيك إلى الأمير فقام وسأَل مملوكه ما سبب ذلك الغبار فانتثر علينا غبار وتراب من السقف فهممنا بالخروج فانحطم السقف الأسفل من تحتنا قبل الأعلى وذلك آخر عهد بعضنا ببعض وكان الهدم في أول وقت الظهر فوقفنا تحت الهدم إلى المغرب وكنت اقرأ ما احفظ من القرآن وأدعو بما تيسر من الدعاءِ وأتضرَّع إلى الله ولم يبقَ في خاطري إلا الموت فما شعرت إلا بالمساحي فوق رأسي فكان حسها يقرب قليلاً حتى فتشوا عن رأسي ووجهي فذكرت الله تعالى فاستخبروني عن نفسي فقلت أنا بخيرٍ أن شاءَ الله تعالى فسأَلوني عن الأمير فقلت هو قريب فأخرجوني وحفروا عن الأمير فوجدوهُ ميتاً قد وقعن على رأسِهِ خشبة عظيمة واستمر الحفر عن الجماعة فاخرجوا القاضي عمر بن سعيد سالماً وهلك الباقون ولم يصلوا إلى آخرهم إلا آخر الليل. وفي هذا التاريخ كانت وفاة الأمير علم الدين سنجر الشعبي. وكان أميراً شجاعاً فارساً مقداماً لهُ همة عالية ومواقعهُ مشهورة مذكورة في اليمن الأعلى. وكان متديناً متنسكاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها سفراً وحضراً مع شدة البرد في الجبال حتى أنه يكون يقال ما يصلي أحد في المحطة إلا الأمير. وكانت تكة شراويله أو سراويله إذا وضعت على المعسر تضع ولدها للفور. وهو من مماليك الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل الأيوبي وإنما سمي الشعبي لأنه كان في بيت المماليك وهو صغير ولم يكن يعرف من فسقهم ولا من شيطنتهم شيئاً فكانوا يسمونهُ شعيباً أي أنه عريٌّ لا يشينه شيءُ من أفعال المماليك.

ولما وقع هذا الحادث العظيم اضطراب الناس في صنعاء وأعمالها وبلغ العلم إلى الأمير صارم الدين داود بن الإمام فجمع عسكره والمماليك الأسدية وتوسموا قصد الأمير جمال الدين علي بن عبد الله ورفع المحاط عن ظفار فخرج الأمير عز الدين بلبان دويدار الأمير علم الدين الشعبي من صنعاءَ في مائة فارس وخمسمائة راجل إلى البون وجاءَت عيون الأمير صارم الدين إليه بالعلمِ فخرج بعسكره إلى الظاهر الأسفل وعرد عن الظاهر الأعلى ثم سار إلى حوب. ولما وصل العسكر المجرد من صنعاءَ إلى الأمير جمال الدين أغار على الأمير صارم الدين إلى حوب ثم عاد إلى ظفار ثم طلع محطة الأمير فخر الدين بن فيروز في عسكر اليمن إلى صنعاءَ فاستقرَّت المحطة على ظفار بعد ذلك نحواً من سنة.

وفي هذهِ السنة توفي القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد ابن علي بن أبي القاسم

الرياحي وكان قاضياً مرضيّاً في غاية من الزهج والورع والاقتصاد في مطعمهِ وملبسهِ. وكان مولدهُ في سنة تسع وتسعين وخمسمائة وأصل بلدهِ إب وكان والدهُ قاضياً بها فلما دنت وفاتهُ حَذَّر ولدهُ محمداً من القضاء فلما توفي والدهُ لم يتعرَّض لهُ امتثالاً لأوامر أبيه لهُ فحدثت عليهم مظالم ومشاق كثيرة فقالت له والدتهُ يا ولدي اذهب إلى سير واعلم قاضي الأقضية بوفاة أبيك وما جرى عليك وعلى اخوتك من العنف والظلم فلعله يجعلك مكان والدك فتستتر عن الظلم فحينئذٍ تقدم إلى قاضي الأقضية وأعلمهُ بوفاة أبيه فعاد إلى البلد فأقام بها قاضياً سالكاً للطريق المرضية. وكان تفقه بمحمد بن مضمون فلما توفي قاضي تعز ابن أبي الأعز بعث إليه وولاَّه القضاء في مدينة إب. وكان القاضي محمد بن علي عالماً عاملاً ناسكاً ورعاً كثير السعي في قضاء حوائج الناس غير متكبر ولا متجبر.

(٩٣/١)

قال الجندي أخبرني الثقة عن الثقة أنه رأى القاضي محمد بن علي يمشي حافياً في هاجرة النهار ونعله في يده قاصداً من المعزية إلى ناحية المحاريب في مدينة تعز قال فقلت له يا سيدي لم فعلت هذا قال بلغني عن النبي صلى الله عليهِ وسلم أنه قال)من مشى في حاجة أخيه المسلم حافياً كان لهُ أجر عظيم(أو نحو مما قال ويروى عنهُ أنه خرج يوماً حافياً مقرعاً فلقيه بعض من يعرفه فصافحهُ وسار بسيرهِ لينظر أين يقصد فإذا هو قد قصد بيت أمير بدار الملك المظفر فلما وقف على الباب بادر الخادم إلى الأمير فاعلمهُ بوصوله فخرج الأمير مسرعا وقبل يديهِ ثم قال له يا سيدي لم وصلت وهلاَّ أرسلت إليَّ كنت أصلك فقال القاضي أنا أحقُّ بالأجر فإن ساعدتني كنت شريكي فيهِ فقال لهُ الأمير وما الذي تريد يا سيدي فقال وصلني أولاد فلان وذكروا انك حبست والدهم بالسوية وهم فقراء محتاجون وبلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من مشي في حاجة أخيه المسلم حافياً حاسراً أتاهُ اللهُ أجراً عظيماً فلذلك جئت فقال يا سيدي إنما حبس بأمر السلطان ولا يمكن إخراجه إلا بعد مراجعةٍ ثم استدعى الأمير بدواة وقرطاس وكتب إلى السلطان يعلمه بوصول القاضي إليه حافياً حاسراً وأنه يشفع في فلان وأرسل بالكتاب رسولاً فعاد الجواب من السلطان بإطلاق الرجل ولم يخرج القاضي من بيت الأمير إلا بالرجل معهُ وكان معهُ عند المظفر محلٌّ عظيمُ وجاهُ جسيم من طريق الورع والصلاح.
قال الجندي وأخبرني الفقيه عثمان الشرعبي وهو الذي علقت عنهُ أخبار هذا القاضي وغيره من فقهاء تعز المتقدمين. قال كتب أهل بلدٍ غير بلدهِ يشكون قاضيهم إلى السلطان الملك المظفر فكتب السلطان إلى القاضي بهاء الدين انظر في أمرهم فالقضاة كلهم في النار إلا محمد بن علي وذلك لما تحقق من ورعهِ بعد البحث الشافي عنهُ على يد من يثقهُ. ومن بعض ما يروى عنهُ أن بعض التجار حضرته الوفاة فاستدعى القاضي محمد بن علي إلى بيتهِ أتاهُ القاضي إلى بيتهِ خلا بهِ وقال

لهُ إني بنيت هذا الموضع على يدي بمال جزيل لا أكاد أحصر مبلغهُ وأولادي كما ترى صغار وقد نزل بي ما ترى ولا أستطيع إعلام أحد منهم وقد أعلمتك بهِ لتكون وديعةً عندك فقال لهُ القاضي لا بأس بذلك. ثم أمره أن يوصي إلى رجل خبير بأموره الظاهرة ففعل ثم توفي الرجل وكبر أولاده فأتلفوا ما ظهر لهم من التركة وأرادوا أن يبيعوا البيت من شدة حاجتهم فمنعهم القاضي فأَقاموا مدةً في ذلك الحال ثم بلغهُ صلاحهم فصبر مدَّة ثم أمر من يختبرهم فوجدوهم قد رشدوا فأخبر القاضي بذلك وأتاهم القاضي إلى بيتهم ففرحوا بهِ وأدخلوهُ البيت ليتبركوا بهِ فقال للأرشد منهم افتح هذا الموضع ففتحه فخرج ذلك المال فقال لهُ القاضي هذا أمانة عندي من والدك إليك لتتصرَّف بهِ على نفسك وعلى اخوتك بالمعروف فسأَلهُ الولد أن يأخذ منهُ شيئاً ويحتسب بهِ الولد من نصيبهِ فلم يفعل.

ويروى عن الأمير غازي بن يونس التعزي قال كنت أيام شبابي قاعداً في البيت إذ بطالبٍ يطلبني إلى القاضي فداخلني منهُ فزع عظيم ثم زال ذلك عني لما أعلم من عدل القاضي وحسن سيرته فسرت إليه فحين رآني تبسم فلما دنوت منه سلمت عليه فرد عليَّ بوجه مسفر. ثم قال هل لأبيك من ولدٍ غيرك فقلت لا فقام ودخل بيته وأمرني بالدخول خلفه فدخلت ولم يكن في البيت أحد. فسار أمامي حتى جاء المطبخ فلما توسط أشار إلى موضع وقال لي افتح هاهنا ففتحت فظهر لي أنالا فأخرجته فأَمرني بفتحه فوجدته مملوءاً ذهباً فقال لي خذ هذا المال واحتفظ بنفسك فهو عندي وديعة لأبيك ولم أسلمه آلتيك إلا بعد سؤالي عنك. وأعلمت انك عاقل رشيد ولا ولد لأبيك غيرك. والحمد لله الذي منَّ عليّ ببراءة ذمتي قبل الموت. وأخباره كبيرة مشهورة. وكان كثير العبادة مصاحبا للعباد. وكان يصحب على الرميمة أحد عباد جبل صبر. ويكثر زيارته ويخبر عنه بأشياء كثيرة. وكان يقول ما على قلبي هم إلا أن أكون في بعض المساجد أو الربط حتى أستفرغ بقية عمري في عبادة الله تعالى.

ولم يزل على القضاء المرضي ممتحناً به إلى أن توفي يوم السبت الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(٩٤/١)

وفيها توفي الفقيه أبو عبد الله محمد بن سفيان بن الفقيه أبي القبائل عبد الرحمن بن منصور بن أبي القبائل. وكان مولده لثمان خلون من جمادى الأخرى سنة سبع وستمائة. تفقه بعمر الجرادي وبالصوفي من أهل الملحمة وبابن مصباح وغيرهم. وكانت أمه بنت الشيخ علي بن عجل. وكانت امرأة صالحة قارئة لكتاب الله تعالى ذات مروءَة قدم الفقيه سفين إلا بيني إلى جبلة لغرض الزيارة فعزمت عليه فأدخلته البيت. وكان نزوله في مسجد السنة. ويقال أنها ولدت ابنها هذا سفين تلك المدة فلذلك لقبه به ويقال أنه خطبها فقال لا أتزوج بعد أبي القبايل أحداً. ولا أغير صحبته بغيره وكان شديداً في ذات الله قائلاً بالحق آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ثم كان بينه وبين الفقيه عمر

بن سعيد العقيبي مودة حتى توفي على الحال المرضي في السنة المذكورة وقبر بمحيطان ودفن إلى جنب قبر أبيه. وكانت وفاة الفقيه أبي القبائل في سنة تسع وستمائة رحمهما الله تعالى.

وفيها مات الفقيه الصالح عثمان بن محمد بن علي بن أحمد الحساني ثم الحميري. وكان يعرف بابن جعام بفتح الجيم والعين المهملة وتشديدها وبعد الألف ميم وأصل بلده جبلة. وكان فقيهاً صالحاً ورعاً صادق الحديث. وكان يقارض أهل جبلة بأموال جزيلة إلى عدن وكان من خبره منهم لا يسمح به أن يقارض غيره محبة فيه ووثوقاً بدينه وأَمانته وبركاته وكان يجمع ما يتحصل له من ذلك. فلما اجتمع له ما اجتمع اشترى أرضاً فسكنها وبورك له في ذلك رغبة في الحل. ويروى أنه كان إماماً في المدرسة النجمية فظهر له في بعض بدنه جرح استنصر ولم يكد يبرأُ بل لم يزل يسيل منه ماء أو ما يشبه الماءَ فكره الصلاة بالناس لذلك تورعاً فقيل له استنب لك نائباً ببعض نفقتك. فقال لا حاجة لي بذلك ثم عرض عليه الطين والقرية فاشتراهما وكانت القرية غير مسكونة وإنما كان فيها رجل يخدم صاحب الأرض ويحرث له فلما صارت ملك الفقيه انتقل إليها من جبلة وليتني بيتاً وانتقل بأولاده وزوجته ابنة عمران الصوفي. وكان قد تفقه على فقهاء جبلة ولازم الفقيه أَبا بكر بن العزاف أن يطلع معهُ إلى قريته ويسكن معه في المنزل فقال له يا فقيه تقف معي ويكون لك نصف هذه الأرض فلم يوافقه إلى ذلك. وفارقه وصار إلى تعز. وأَقام الفقيه مقبلاً على القراءة والعلم والعبادة منفرداً في تلك القرية إلى أن توفي في سلخ شوال من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة ثلاث وثمانين طلع الملك الواثق إلى صنعاء مقطعاً لها فدخلها يوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة . وتسلم حصن براش صنعاء وقبض على الأمير سيف الدين بلبان العلمي دويدار. وكان قد ظهر منه ما يوجب ذلك. ولما تضايقت الأحوال بالأمير صارم الدين داود بن الإمام عن علي الإمام الحسن بن وهاس القيام معه فأَبى عليه فعرض عليه الإمام مظهر بن يحيى فأبى عليه أيضاً لما يعلمون من قبح سيرته مع الأئمة ومخالفته لهم فعمد إلى ابن أخيه وهو إبراهيم بن الإمام. وكان قد قرأ شيئاً يسيراً في العلم وليس بكامل الإمامة ولا الغيرة. فأقامه إماماً وأخرجه إلى تلا ولبس به على العامة واجتمع معه عسكر كثير ثم خرج بهم إلى الظاهر فانحاز منهم الشريف علي بن عبد الله إلى جبل المنقاع إذ لم يكن معه من العسكر ما يقاتلهم به فقاتلوا على الكولة والحبسين فلم يظفروا منهما بشيءٍ فقصدوا المثقل والمنارة فأخذوهما قهراً ثم ساروا نحو صعدة فطلب الأمير علي بن عبد الله المادة والعسكر فجهز إليه الملك الواثق الفهد بن حاتم في سبعين فارساً من همدان والأمير شمس الدين أحمد بن ازدمر في ثلاثين فارساً وخمسمائة راجل. فلما وصلوا الكولة إلى الأمير جمال الدين في العسكر المنصور نحو صعدة وكان العسكر يومئذ نحو أربعمائة فارس وألف راجل فساروا حتى دخلو صعدة. وكانت محطة الأشراف تحت تلمص فتراكزوا نحواً من شهرين ووقعت حروب شديدة وعقرت خيول كثيرة من الفريقين. فكان الأمير جمال الدين يعدم الخيل ويطعم الطعام ويتولى الأمور بنفسه ويباشر المحطة ليلاً ونهاراً. وكان السلطان رحمه الله يجهز إليه الخزائن ونفقات العساكر قبل استحقاقها. فعجز الأمير صارم الدين عن مقاومته فخرج

هارباً على جبل بني عويمر على سواد عدان ثم على شطب حتى دخل بلاد الشريف علي بن عبد الله معارضاً له حتى حط في الجنات.

(٩٥/١)

وفي هذه السنة توفي الإمام الفاضل إبراهيم بن أحمد بن تاج الدين الهدوبي في حصن تعز أسيراً. وكان من الشجعان المشهورين والفرسان المذكورين. وكان يقول شعراً حسناً ومن شعره قصيدة يصف فيها أسره ويعتذر فيها

خطب أَلم فأَنساني الخطوب معا ... وصير القلب في أحشائه قطعا

حتى إذا جاء من خلفي ومن قبلي ... عساكر حملوا الأنصاف والقطعا

وامسكوا السيف من خلفي مغادرة ... والرمح قد امسكوه والجواد معا

وكنت في موضع مستصعب حرج ... لم أَلق فيهِ لسعي الطرف متسعا

ثم انتهيت إلى سوحِ بهِ ملك ... يحل بيتاً من العلياء مرتفعاً

فجاد بالعفو والإحسان شميتهُ ... ولم يزل للعلى والجود مصطنعاً

وهي أطول مما ذكرت وإنما اثبت منها ما يستدل به على ما فيها. وكانت وفاتهُ في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة. وقبرهُ في مقبرة تعز معروف يزار ويتبرَّك بهِ وتطلب عندهُ الحوائج رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الإمام أيضاً أبو محمد الحسن بن وهاس الجمزي وكانت وفاتهُ في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة وتوفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن أحمد ابن الفقيه اسعد بن الهيثم. وكان مولده يوم الخميس عشرة صفر من سنة تسع عشرة وستمائة. وتفقه بالفقيه أبي بكر بن ناصر وولي قضاء بلده. وكان يتردد بين بلده والجند وتعز. وكان وفاته لسبع بقين من رجب من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى. وكان له ولدان هما يوسف وأبو بكر. فأما يوسف فكان ميلاده عشرة شهر ربيع الأول من سنة خمسين وستمائة. وتفقه أولاً بأبيه ثم بمحمد بن أبي بكر الأصبحي. وكان حاكم بلده كما كان أبوه وكان ينوب القاضي عمر بن سعيد على قضاء صنعاء. وكان وفاته لتسع من شوال سنة تسع وستمائة. وسنذكر أخاهُ في موضعهِ من الكتاب أن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو عفان عبد الله بن أحمد بن أبي القسم بن أحمد بن اسعد الخطابي نسبة إلى عرب يقال لهم بنو خطاب يسكنون حارة دوال صاحب هُدّافه بضم الهاء وفتح المهملة وبعد الألف فاءُ ثم هاءُ وكان مولده سنة ثماني عشرة وستمائة. وتفقه بعلي بن أبي السعود وبعثمان الوزيري ثم غلب عليه التصوف والعبادة ويقال أنه أُوتي اسم الله الأعظم. وكان له مكرمات عظيمة وكان صبوراً على إطعام الطعام.

(٩٦/١)

قال الجندي حصلت في يدي نسخة التنبيه الذي له فوجدت فيها بخطه مكتوباً في بعض ورقات الكتاب ما مثاله. حدثني الفقيه السيد الأجل الفاضل الكامل الموفق يحيى بن أحمد بن زيد بن محمد بن دهير بن خلف الهمذاني وفقهُ الله تعالى أنه رأى في المنام في منتصف جمادى الآخرة في نصف الليل الآخر سنة ست وستمائة أنه كان في مسجد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فوجد القبة التي على قبره وقبر صاحبيه رضي الله عنهما منكشفة من غير تخريب وقد بقي منها ما يغطي القاعدة ومن القائم إلى مقعد الإزار فدنا منها فوجد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنهما قاعدين متوجهين إلى القبلة قال فاستقبلتهم من وراء الجدار الباقي وجعلت القبلة إلى ظهري ثم أُعطيت نوراً في قلبي وطلاقة في لسامي وقلت يا رسول الله القرآن كلام الله غير مخلوق قال نعم بحرف وصوت يسمع ومعنى يفهم قال نعم قال فقلت فمن قال أن القرآن مخلوق كافر نعن قلت وإن صلى وصام وآتى الزكاة وحج البيت هل ترجى له الشفاعة قال لا قلت يا رسول الله طلاق اليتامى باطل أَو صحيح فقال صلى الله عليه وسلم. باطل باطل وأنا اشك في الثالثة. وغالب ظني أنه قالها. ثم قلت يا رسول الله تارك الصلاة كافر قال نعم قلت يا رسول الله فهؤُلاءِ يرعون البقر والغنم ويحيعلون وهم يشهدون أن لا اله إلا الله وإن محمداً رسول الله ويؤُتون الزكاة متى وجدوا ويحجون البيت إذا استطاعوا ويصومون شهر رمضان ويحبون الصلاة ولكن يقولون هذه الدواب تنجسنا وإذا أتجعلنا أيضاً تنجسنا أهم كفار أَم مسلمون. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وانقطعت عن الكلام. فقال أبو بكر وعمر نكتب لك بهذا كتاباً لا ينسى فسكت ولم أَدرِ ما شغلني عن القول لهما يكتبان لي ذلك. وكانت وفاة هذا الفقيه عثمان على الطريق الكامل من الزهد والعبادة وإطعام الطعام في السنة المذكورة بعد أن امتُحن بالجذام حتى سقطت رجلهُ اليمنى من الكعب ويبس من يدهِ اليمنى إصبعان. وكان عظيم الحال لهُ كرامات كثيرة يطول تعدادها رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن أبي بكر بن محمد بن حسين البجلي وكان تفقه بعمه إسماعيل ووُلي القضاءَ في بلده وكان فقيهاً فاضلاً ورعاً وكانت وفاتهُ في السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفي سنة أربع وثمانين جهز مولانا الملك الواثق عسكراً إلى المنقب وخشي أن يخرج الأمير صارم الدين من ثُلاَ إلى البلاد الشهابية فحصروهُ في ثلاَ فتداركه الشيخ بدر الدين عبد الله بن عمر بن الجنيد وسعى في الصلح بينهُ وبين السلطان وارتفعت المحاط وعاد الكل إلى صنعاءَ. وكان الصلح على خلاص رهينة الأمير صارم الدين داود وهو ولده محمد بن داود وكان في حصن الدملؤَة وعلى تعديل حصن القُفل بظفار وانعقد الصلح على ذلك واستمرت الذمة والصلح برهة من الزمان.

وفي هذه السنة توفي الفقيه العلامة أبو الخطاب عمر بن عاصم بن عيسى اليعلي بياء مثناه من تحت . وعين ساكنة مهملة وآخره لام وبعدها ياء النسب وهو بطن من كنانة. وكان فقيهاً كبيراً فاضلاً متفنناً عارفاً بالفقه والنحو واللغة والحديث. وكان يقول شعراً حسناً تفقه بعلي بن قاسم الحكمي وبه تفقه كثير من الناس. وممن تفقه به أبو الحسن الأصبحي صاحب المعين. والفقيه يوسف بن

يعقوب الجندي ووالد البها صاحب التاريخ وغيرهما. واليه انتهت رئاسة الفتوى والفقه بزبيد وأَظن المدرسة العاصمية إنما تنسب إليه. وحصل بينه وبين قاضي الأقضية عليه وكان والنائب يعانده في مدرسته ويقابله بما لا يليق وكانت له عند المظفر مكانة حسنة فكتب إلى السلطان يشكو من النائب في قصيدة من شعره يقول في أولها

خربت مدارسكم معاً يا يوسف ... وفتى وحيش لو علمت لمتلف

فلما وقف السلطان على كتابهِ وكان قاضي القضاة حينئذٍ عند السلطان فقال لهُ السلطان يا قاضي بهاء الدين من الناظر على مدارس زبيد فقال ابن وحيش يا مولانا فقال لا يكون لهُ على مدرسة الفقيه ابن عاصم نظر فقال سمعاً وطاعة. ثم كتب إليه السلطان قد صرفناه عن النظر في مدرستك فاجعل عليها ناظراً من شئت. وهو القائل في ذم المدارس

بيعُ المدارس لو علمت بدارس ... يغلو وأخسر صفقةٍ للمشتري

دعها ولازم للمساجد دائماً ... أن شئت تظفر بالثواب الأوفر

(٩٧/١)

ومن تصنيفه زوائد البيان على المهذب في كتاب. ويقال أن ذلك سبب الوحشة بينهُ وبين قاضي القضاة بهاء الدين أحد قرابة صاحب البيان فإنه نقل إليه أنه قصد بذلك حط البيان وإن لا يتلفت إليهِ مع وجود المهذب مع أن كتابهُ لم يكد يشتهر ولا يتداول بين الناس. وكانت وفاته عند طلوع الشمس من يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن علي وكان فقيهاً ورعاً زاهداً عالماً بالفقه تفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. وكان لا يتعلق بشيٍ من الدنيا ولا يتعلق بأهلها وعلقهُ دين عظيم هرب بسببه إلى الجبال وبلغه أن قضاة سير يفعلون المعروف فقصدهم وأَقام عندهم فسأَلهُ بعضهم عن المعتقد فأَجابهُ بما أنكر عليهِ السائل فأفضى ذلك إلى شقاق وتكفير فخرج الفقيه هارباً وبلغ القضاة ذلك فلم يعجبهم وأمروا برده إليهم فلم يوجد فشق عليهم فشكوا إلى أَخيهم القاضي بهاء الدين الوزير يخبرونهُ بقصتهِ ويسأَلونهُ أن يبحث عنهُ بتعز ففعل فلما جاءهُ بجلهُ وأكرمهُ واعتذر إليهِ من فعل ذلك المجادل ثم سأَلهُ عن سبب قدومهِ فأخبرهُ بدينهِ فسعى له في قضاء دونهِ وزيادة. وتوفي في مدينة زبيد في المحرم أول السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي القاضي الفقيه أحمد بن حمزة بن علي بن حسن الهرامي ثم السكسكي وكان فقيهاً فاضلاً متأَدباً وكان يقول الشعر ودرَّس في مدينة حصن الظفر وهي التي أحدثها الشيخ عبد الوهاب بن رشيد. ثم توفي في بلدة العماني وكانت وفاتهُ في صفر من السنة المذكورة.

وفيها توفي القاضي أبو حفص عمر بن سعيد بن محمد بن علي الربيعي وكان فقيهاً محدثاً أخذ عن أَخيهِ لأبيه علي بن عمر وعن غيره وتولى قضاء صنعاءَ حين عزل سه عنه. وكان من افصح

الناس وأحسنهم. وأية للحديث والتفسير. وكان إذا حضر مجلساً لم يكن لأحد فيه ذكر دونهُ. ويروى أن محفوظهُ خمسة آلاف حديث. وكان السلطان الملك المظفر يعظمهُ ويبجلهُ ورزقهُ على القضاء جزية اليهود في جهته. وكانت دنياه متسعة اتساعاً عظيماً .

ومن عجيب ما جرى له أنه كان قاعداً مع الأمير الشعبي في دار السلطان في صنعاءَ إذ خرَّ عليهم السقف وهم جماعة منهم محمد بن حاتم الهمداني وأخوه ومحمد بن زيد صهر الشعبي فمات الجميع تحت الهدم وسلم القاضي المذكور ومحمد بن حاتم. وكان القاضي يحكي أنه لما تهوَّر الدار رأى رجلاً كبير السن التقى عنهُ خشبة وسحقاً وسقفهما عليه فلم يصله الهدم. وكان هذا القاضي عظيم القدر شهير الذكر معظماً عند كبراءِ العصر. انتشرت فضائله شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً ولا أعلم أحداً من أهل عصره اشتهر كاشتهاره حتى رأيت مجلداً لطيفاً في مناقبه تصنيف الفقيه علي بن أبي بكر الفراء الصنعائي وجاءَ تقليدهُ من بغداد متوَّجاً بالعلامة الشريفة العباسية المستعصمية وفيه من التعظيم لجلاله والتنويه بقدره ما يليق به. وكانت ولايته من مدينة إب إلى نفسه ومضت أحكامه في هذه البلاد كلها ونفذت. وأخذ عنهُ جماعة من أهل صنعاءَ وغيرهم. وكان له عدة أولاد لم يقم أحد منهم مقامهُ وكان من زواجا في صنعاءَ وكانت وفاته في السنة المذكورة وقيل في سنة خمس وثمانين والله أعلم.

وفي سنة خمس وثمانين وستمائة ضرب الدرهم السعيد المظفري في مدينة صعدة في شهر جمادى الأخرى. ونزل الأمير جمال الدين علي بن عبد الله إلى الأبواب السلطانية فتلقاه الملك لمسعود والقاضي بهاء الدين الصاحب إلى الحوبان وحضر المقام السلطاني للفور وأَقام أياماً ثم حملت له طبلخانة خمسة أحمال وخمسة أعلام وزاده مع البوابين الخشب والجارود ومطرت وحصن دهان فانشأ قصيدة يمدح بها السلطان ويقول

وأعلمت بالأعلام يوسف إنني ... صفيُّ وإني عبد حادثة ذخرُ

وحركت بالكوشات ما كان ساكناً ... ولكن به عن سمع تحريكها وقر

(٩٨/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن محمد بن حجر ابن أحمد بن علي بن حجر الأزدي نسباً والهجري بلداً. وضبط حُجْر بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وآخره راء. وكان يُعرف بابي حجر وسكن عدن وكان مولده سنة ثماني وتسعين وخمسمائة تقريباً وكان فقيهاً محدثاً له مسموعات وإجازات. وكان دنياه واسعة وكان متورَّعاً أن يخلط ماله بشيءٍ من الشبه وكان لا يعامل من يتهمهُ بذلك وكان لا يحتكر في بيعه .

قال الجندي وأخبرني والدي يوسف بن يعقوب رحمه الله قال كان رجل في مدينة الجند عطَّاراً وكان أصله من مدينة إب وكان لا يتجاوز في الدرهم إنما يأْخذ الواحد من العشرة فاتفق له سفر إلى عدن

ليشتري عطراً فوصل إلى هذا الفقيه وسأَله عما يريده من الحوائج فقال لهُ كلها موجودة فناولهُ صرَّة دراهم فقال الفقيه لبعض عبيده خذها وأنقدها فقال الأبي لا تحتاج أنقاده فليس في بلدي من يحتكر الدرهم مثلي فقال له الفقيه وأنت تحتكر الدرهم قال نعم قال أعد له دراهمه فما تدخل بين دراهمي فأعادها عليه وانصرف خائباً وكان كل من قدم عدن من أهل الفضل إنما ينزل في الغالب على هذا الفقيه فينزله في بيت من بيوته على قرب منهُ. ويكون الناس يجتمعون إليهِ للقراءة في مسجد السماع. ويسمى مسجد السماع لكثرة ما يسمع فيه من الكتب على وأرديه. وكان جملة من قدم عليه الفقيه أبو الخير بن منصور بن أبي الخير وربما قيل أنه أخذ عنهُ. وقد أخذ عن أبي حجر جماعة من أهل عدن وغيرها منهم الفقيه أحمد الحراري وأحمد القزويني ومحمد بن حسين الحضرمي وغيرهم. وبلغ الفرض الزكوي من ماله أربعين ألفاً وقيل ستين ألفاً يتصدق بذلك في غالب أيامه حتى كادت تنقطع صدقته. ولم يزل ذلك إلى أن توفي ليلة الأربعاء الخامس من صفر من السنة المذكورة وهو ابن ثمان وثمانين سنة. وخلف ولدين هما محمد وعبد الله فأما محمد فتفقه وزوجه والده على بنت بعض التجار يقال لهُ إدريس السراج. وكان فيه سخاءُ مفرط لا يليق شيئاً ولا يخيب لهُ قاصد أبداً فتضعضع حاله وركبه دين كثير بعد وفاة أبيه فوصله بعض مستحقي الدين وطالبهُ واغلظ لهُ في القول وسمَّعهُ كلاماً فاحشاً. وكان قاعداً على باب داره فدخل من فوره الدار وعمد إلى حبل فشنق بهِ نفسه وذلك يوم الجمعة لأيام مضين من ذي القعدة من السنة المذكورة. فرأى بعض الأخيار من أهل عدن تلك الأيام أنه قائم على باب المسجد الذي يقال لهُ مسجد إياب إذا بجماعة قد اقبلوا من باب عدن قاصدين المدينة وعليهم هيئة سنيَّة ولهم وجوه مضيئة فسأَل الرجل عنهم فقيل له هذا رسول الله عليهِ وسلم وجماعة من الصحابة يريدون الصلاة على رجل من أهل المدينة يموت غداً. فلما أصبح الرجل وجرى لهذا محمد بن أبي حجر ما جرى ولم يمت في ذلك اليوم أحد غيره وصل الرجل إلى الموضع الذي يصلي فيه على الموتى وقعد فيه ينتظر وصول الميت المذكور ليصلي عليه من جملة الجماعة قال فأخذت ونمت مجنباً وقد فكرت وقلت ما يتصوَّر لمثل هذا أن يصلي عليهِ النبي صلى الله عليهِ وسلم وقد شنق نفسهُ فسمعت قائلاً يقول لي لا تفتك هذه الجنازة فهو هذا الرجل بعينه فاستيقظت وجددت الوضوء وتقدمت إلى باب بيت الميت فشيعت جنازته وحضرت الصلاة عليه ودفنه.

قال الجندي وأخبرني شيخي أحمد بن علي الجزائري أنه كان للفقيه أبي حجر عدة بنات صالحات في الغالب فذكرت إحداهن أنها رأَت أباها بعد موت أخيها بمدة فقالت له يا أبت ماءَ بك فقال منذ وصلنا أخوك نحن في ملازمة الله تعالى أن يغفر له جنايته على نفسه فلم يفعل ذلك إلا بعد مشقة شديدة وأشراف على اليأس من ذلك.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو بكر بن معطٍ وكان فقيهاً صالحاً أصلهُ من حارة وادي زبيد من قرية تعرف بمحل مبارك. ومن أصحابه المتقدمين المقارنين له في السن والرتبة محمد بن علي الصريفي. وكان فقيهاً مشهوراً من أصحاب أبي حنيفة الإمام رضي الله عنه. وله تصنيف حسن يسمى

الإيضاح تفقه بجماعة منهم الملكي وغيره وله ذرية يعرفون به. توفي في مدينة زبيد في أثناء السنة المذكورة رحمه الله.

(٩٩/١)

وفي سنة ست وثمانين احتال الأمير صارم الدين داود بن الإمام في فكاك حصنه القفل وحشي عليه القوات فتقدم إلى جهة صعدة وأصلح أموره فيما بينه وبين أخيه نجم الدين موسى بن أحمد بن الإمام فاستنجدوا بالإمام مطهر. وحملوه على الخروج إلى ناحية صعدة فخرج من دروان إلى حجر وجمع جموعاً عظيمة وسار نحو صعدة وجاءته خولان فقاتل على الدرب فأخذه قهراً. وقتل الرتبة الذين كانوا فيه وهم نحو من ثمانين راجلاً وأسروا الوالي غلاب وقتل من عسكر الإمام خمسة النشاب ثم سار الإمام ومعه الأمير نجم الدين موسى بن أحمد إلى الجوف فأخذوا الفجرة وسواقة وطلعوا الظاهر. وحرقوا الكولة والدحضة وحطوا على الزاهر ووثب الأمير صارم الدين بن الإمام على حصنه القفل فحط عليه وأرسل إلى مولانا السلطان الملك الواثق بالنقض فجهز الملك الواثق مائتي فارس من الغز والعرب. ومقدمهم الشريف جمال الدين علي بن عبد الله وأمرهم بطلوع الظاهر فلم يهيأ لهم الطلوع ثم جهز السلطان الملك المظفر أستاذ داره الأمير شمس الدين علي بن الهمام في خيل من اليمن وأمره بالغارة على الزاهر. فلما وصل إلى صنعاء خرج الملك الواثق بشحنة إلى دروة وجهز الأمير علي بن محمد بن عبد الله والأمير شمس الدين أستاذ داره لرفع المحطة عن الزاهر. فلما علم بهم الأشراف ارتفعوا عن الزاهر. وطلع الإمام إلى الظاهر واشتدت محطة الأمير صارم الدين على القفل. وعاد الملك الواثق إلى صنعاء. فكثرت الأراجيف والعوار في البلاد واضطربت البلاد اضطراباً شديداً وتفاقم الأمر واشتد وخالف أهل المشرق وأهل المغرب. وفسدت البلاد من نقيل إلى صعدة. فلما حدثت هذه الحوادث أرسل السلطان ولده الملك الأشرف إلى صنعاء مقطعاً بها. واستدعى ابنه الواثق فدخل الملك الأشرف صنعاء يوم الثامن من جمادى من السنة المذكورة. ثم خرج منها إلى محطة ذيفان ثم سار نحو الظاهر وطأة شديدة وأخرب اجزل الظاهر الأعلى وأجزل الظاهر الأسفل ووصلت عساكره المنصورة عنان وخيوان ولم يمتنع شيء منه في الظاهر ولا بلغ أحد حيث بلغ وقاتل عن العنة مراراً وأمر بعمارة الكولة. ورتب الشريف علي بن عبد الله واطل عيد رمضان الكريم وهو محتم في الكولة. وكان احسن عيد وأبهجه. ولما أخرب الظاهر كما ذكرنا وحضر الأمير صارم الدين في العنة وقوى الرتب على ظفار وعمرها ورتب الأمير إلى بلد الأمير عبد الله بن علي بن وهاس فأخرجها وقطع أشجارها وكرمها. وأخرب فيها دروباً من زمان الجاهلية. ثم نقل من بلاد بن وهاس إلى صنعاء فخرجت العساكر من صنعاء في لقائه وحشدت الجنود فلم ير يوماً اعجب ولا أبهج ولا أكثر جموعاً من ذلك اليوم فدخل من باب النصر. فلما حاذى القصر السعيد فرش لجفائه ثياب الحرير المعلمة بالذهب. ونثر على الناس من البيضاء والصفراء ما لا

يحصر فأقام في صنعاء والأمور منتظمة والثغور منسدة والحرب على العنة والحصار على ظفار. والإمام مطهر في ينعم في جبل ينعم لا يميل أحد إليه من العرب والأمير صارم الدين محصور في العنة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل علي بن أسعد بن محمد بن إبراهيم بن تبع بن علي بن منصور المنصوري نسبة إلى جده المذكور في انتهاءِ النسب كان علي بن أسعد بن منصور فقيهاً فاضلاً مشهوراً تفقه بأحمد بن عبد الله الوزيري. وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين المذكورة في قريته المعروفة بالقدمة رحمه الله تعالى.

وفي سنة سبع وثمانين جرى حديث الصلح فاصلح الأمير صارم الدين بعد استيلائه على القفل. وصاحت الصوائح بذلك في محروسة صنعاء يوم السبت الثاني عشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ثم وقع الصلح بين الإمام وبين الملك الأشرف وصاحت الصوائح بذلك يوم العاشر من جمادى الأخرى من السنة المذكورة. ولم يصلحه على شيٍ من البلاد ولا من الرعايا إلا على بعض القبائل الأَخيار كبني حي وبني سحام والأعروش وبني مطعم. ثم قفل إلى اليمن فكان خروجه من صنعاء يوم الجمعة عشرة شهر رجب من السنة المذكورة ثم طلع الملك المؤَيد صنعاءَ وصله جميع الناس من العرب ووصل الأمير جمال الدين علي بن عبد الله. ووصل رسل الأشراف كافة بالخيل ضيفة فأَقام مدة في صنعاءَ ثم خرج إلى جهات ذمار وتغير الصلح بينه وبين الإمام مطهر بن يحيى.

(١٠٠/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل محمد بن علي بن عمر الشرعبي المعروف بابن المسود الحلي. وكان فقيهاً متفنناً أخذ الفرائض عن ابن معاوية والفقه عن ابن عاصم والريمي. وهو الذي أصم في مدرسته التي أنشأَها الأمير سيف الدين سنقر وهي التي تعرف في مدينة زبيد بالعاصمية وكانت وفاته في أثناء السنة المذكورة رحمه الله.

وفيها توفي الفقيه النبيه أبو الحسن أحمد بن محمد بن عيسى الحواري وكان فقيهاً في علم الكلام ولهُ فيهِ مصنفات على مذهب الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. وكان تفقه فيهِ على البيلقاني بعدن. وكان يغلب عليه طريقة التصوف وأخذها عن البيلقاني أيضاً وأخذ عنهُ جماعة من أهل تعز وزبيد وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله. وقيل في سنة تسع وثمانين والله أعلم.

وفيها توفي الطواشي افتخار الدين ياقوت بن عبد الله المظفري. وكان خادماً حازماً ذكيّاً لبيباً وهو الذي أرسله الملك المظفر صحبة ولده الأشرف إلى الدملؤة ليكون الأشرف رهينة عند عميه المفضل ويستميل قلوب المرتبين بالقول والفعل حتى أحكم الأمر. ثم عرض عارض أوجب نزول الفائز والمفضل ووالدتهما بنت حوزة إلى المنصورة أو قيل إلى الجوة فلما صاروا خارج الحصن ثار

الطواشي ياقوت بمن معهُ في الحصن وملكه لسيده المظفر ولم يزل ياقوت نائباً لسيده في الحصن إلى أن توفي في سلخ القعدة من السنة المذكورة. وكان صاحب عسفٍ وحروب وكان مع ذلك كثير الصدقة مجلاً للعلماءِ والصالحين وابتنى مدرسة في منصورةِ الدملؤة رحمه الله تعالى.

وفي سنة ثمان وثمانين رغم المرتبون بحصن براش في شهر رجب فسار إليهم الملك المؤَيد فقتل منهم طائفة وأّخذه منهم قهراً.

وفي هذه السنة وثب جماعة من حصهم على حصن بنت انعم وكان الإمام مصلحاً عليهِ. وكان في شرط الصلح أنه رأَى قبيلة بعدت من أحد الحصنين وامتنعت بحصن أو جبل فانهم غرماءُ للسلطان والإمام وإن الإمام والسلطان يتفقان على من أَحدث حدثاً ويعتضدان عليهِ فلما حدث من هؤلاء ما حدث أمر السلطان بالمحطة على حصن بنت انهم وطلب من الإمام خروجِ من يخرج من جهتهِ للمحطة عليهم فلم يفعل الإمام ولا ساعد على شيٍ من ذلك.

وفي هذه السنة توفي الفقيه النبيه أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن زكريا وكان فقيهاً فاضلاً مولده سنة تسع عشرة وستمائة وتفقه بابن عمه محمد بن عمر بن يحيى بن زكريا وأخذ عن صالح بن علي بن الحضرمي وولي قضاء الكدراء من قِبَل بني عمران وقدم فاخذ عنهُ أبو بكر بن محمد بن عمر كتاب الوجيز. وكانت وفاته في السنة المذكورة. وخلفهُ في القضاء ولده أبو بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن وكان أحد أجواد زمانه شريف النفس عالي الهمة. وامتحن في آخر عمره بفقر مدقع وعزله عن القضاء بنو محمد بن عمر بغير وجهٍ يوجب العزل والله أعلم.

وفيها توفي الشيخ الفاضل أبو الخطاب عمر بن عبد الرحمن بن حسان القدسي وكان والده من أهل دمشق وأمه من عسقلان فاجتمعا بالقدس وأَقاما هنالك فتزوجها فولدت له هذا الولد سنة أربع وقيل سنة ست وستمائة ولحق بأم عبيدة وهو ابن اثنتي عشرة سنة فأدرك الشيخ نجم الدين المعروف بالأخضر وهو من ذرية أخي الشيخ الصالح أحمد الرفاعي فاخذ عليهِ العهد وتربى بين يديه. فلما رأَى كماله أمره أن يدخل مكة ويحج ثم يدخل اليمن لينشر فيه الخرقة الرفاعية واخبره أنه يجتمع فيهِ برجل ينتفع به في دينهِ ودنياه. ففعل ذلك ولما دخل اليمن اجتمع بالفقيه عمر بن سعيد العقيبي فأقام عندهُ بذي عقيب أياماً وذلك في سنة تسع وأربعين وستمائة فشهره عمر وبجلهُ ثم اسكنهُ موضعاً على قرب منهُ يعرف بالمعر ثم انتقل منهُ إلى أماكن كثيرة بنى له فيها ربط كثيرة حتى كان آخر رباط سكنه الدهوب تحت مدينة إب فلم يزل حتى توفي بعد أن انتشرت عنهُ الخرقة الرفاعية لاسيما في جهة المخلاف. وكانت وفاتهُ ليلة الجمعة لثمان بقين من شهر ربيع من السنة المذكورة رحمهُ الله.

وفيها توفي الفقيه الصالح عبد الرحمن بن الفقيه يحيى بن سالم الشهابي وكان فقيهاً خيراً سليم الصدر انتهت إليهِ رئاسة الفقه والفتيا بذي جبلة وكانت أمور الفقهاء إنما تنتظم برأيه. ولما بنيت المدرسة الشرفية بذي جبلة ونسبتها إلى الأمير شرف الدين موسى بن علي بن رسول المتوفى في مصر رحمه الله تعالى. كان الفقيه عبد الرحمن المذكور أول من درس بها وكان يومئذ اكبر الفقهاء وكان الفقهاء بذي جبلة لا يطلعون من مصلى العيد يوم العيد إلا إلى بيتهِ يدخلون إلى سماط يعمله لهم فلما توفي والده بالعومانية انتقل إليها عن ولم يزل بها مدرساً إلى أن توفي في جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمهُ الله.

وفي هذه السنة توفي القاضي الأمثل الأوحد الأكمل أبو بكر بن محمد ابن الفقيه أحمد الجنيد. وكان فقيهاً صالحاً ديتّاً حبراً تفقه في بدايته بعمه عبيد بن أحمد ثم مسعود ثم صحب الفقيه الصالح عمر بن سعيد العقيبي وأخذ عنهُ ثم امتحن بقضاء جبلة فسار سيرة مرضية ثم امتحن بقضاء عدن فكان الزاهد المعروف والعادل الموصوف واجمع أهل عدن على عدالتهِ ونزاهته وصيانة عرضهِ وأخذ بعدن الوسيط للغزالي عن الفقيه عبد الرحمن الأبيني واستفاض ورعه عند الأمراء في اليمن وغيرها. ولما دخل الملك المظفر عدن أثنى التجار على القاضي ثناءً حسناً بعد سؤَال السلطان عنهُ. ثم حدثت قضية أوجبت حضور القاضي إلى مقام السلطان فأمر السلطان بطلبهِ فوصل الرسول وعليه ثياب البذلة وثيابه مع الغسال فرجع الرسول وأعلم السلطان بذلك فازداد عند السلطان مكانة وقال قد " مضى " لهذا الحاكم مدة في هذه البلاد وهو لا يملك إلا بذلة واحدة أن هذا لأمر عظيم. ثم حضر القاضي إليها فقال له السلطان يا قاضي بهاء الدين بلغنا أن القاضي فقير ويجب أن تزيد في رزقه فكم ترى نزيده فقال عشر دنانير وكانت ثلاثين ديناراً فعتب التجار على القاضي بهاء الدين حيث لم يجعل الزيادة أكثر من ذلك وحملوه كان ذا سيرة محمودة.

قال الجندي أخبرني الخبير بحاله قال كانت سيرته أنه إذا صلى الصبح ذكر الله تعالى ساعة ثم يقوم إلى زيارة ترب الصالحين فيبدأُ بتربة الشيخ جوهر ثم ابن قيدر ثم بتربة ابن أبي الباطل ثم يقوم منها إلى مسجد أبان فيصلي فيه الضحى ثم يأْتي إلى مجلس الحكم فيعقد فيه ما شاءَ الله يقضي بين الناس ثم يدخل منزله فيقيل فيه ساعة ثم هذا دأْبه إلى أن توفي ليلة الخميس السادس من شهر رجب من السنة المذكورة وقبر في القطيع إلى جنب قبر القاضي محمد بن أسعج العيسي رحمه الله عليهما.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن محمد بن عثمان بن أبي الفوارس القيني نسبة إلى قين من عك تفقه في الجبل على الإمام بطال بن أحمد بن الركبي وأخذ عن علي بن مسعود وأبي حديد وغيرهما. وكان الفقيه إسماعيل كثير التكرر لزيارته. توفي في السنة المذكورة تقريباً قاله الجندي والله أعلم.

وفيها ولد الفقيه الفاضل أبو عمرو عثمان بن يوسف بن شعيب بن إسماعيل. وكان فقيهاً نبيهاً تفقه بالفقية صالح بن عمرو البرهي. وارتحل إلى حبأ فأَخذ عن عبد الله بن عمر ثم ارتحل إلى تهامة

فأَّخذ بها عن إبراهيم ابن علي البجلي صاحب شجينة. وأخذ عن إسماعيل الحلي ثم عاد إلى بلده وولي القضاء بها. وكان ميلاده لخمس مضين من صفر من السنة المذكورة ولم أَتحقق تاريخ وفاته والله أعلم.

وفي سنة تسع وثمانين توفي الأمير صارم الدين داود بن الإمام المنصور عبد الله بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة وكانت وفاته في من صفر وكان من وجوه الأشراف وصدورهم. وكان شاعراً صبيحاً ومن شعره قصيدة يمدح بها الملك المظفر ويسأله خلاص ولده محمد وكان رهنةُ في قلعة الدملؤة وهي التي يقول فيها

أعاتبه في الهجر أم لا أعاتبه ... واصبر حتى يرعوي أم أُجانبه

فمن مبلغ عني إلى الملك يوسف ... أبي عمر معطي الجزيل وواهبه

فشفع أبانا في بنيه فانه ... شفيعك في الذنب الذي أنت كاسبه

فيقال أن الخليفة رحمه الله لما قرأَ هذا البيت بكى. وقال أخلصه كرامة لجده صلى الله عليه وسلم. ويقال أنه رأَى النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهه وقال لأَجازينك يوم القيامة بها.

(١٠٢/١)

وفي هذه السنة نزل السلطان إلى زبيد بسبب الفرحة التي أنشأَها لتطهير أولاد أولاده ونزل بسببها الملك المؤَيد من صنعاء ونزل الشريف جمال الدين علي بن عبد الله والأمير نجم الدين موسى بن أحمد بن الإمام فكان ذلك سبباً لقوة إمارة الأمير همام الدين سليمان بن القسم ابن عمه الأمير صارم المتوفى إلى رحمة الله تعالى فملك الأمير همام الدين حصون ظفار. وسار إلى تلمص بصعدة. فقبضه فلما رجع مولانا الملك المؤيد إلى صنعاء وقد انتقض الصلح بين الأمير والسلطان كما ذكرنا تظاهر الإمام بنقض الذمة. ولما نقض الإمام الذمة جاءَت كتب أهل المشرق بالطاعة لمولانا السلطان فطلع مولانا الملك بجيوشه وعساكره فلم يبق أحد من قبائل المشرق إلا وصل ودخل في طاعته رغباً ورهباً. ومنهم من امتنع فقاتل الملك المؤَيد الممتنعين وأَخرب ديارهم فدخلوا في طاعته قسراً واستولى الملك المؤَيد على كافة المشرق جميعه فأخرجه.

وفي هذه السنة توفي الأمير الكبير محمد بن عباس بن عبد الجليل وكان قد نال مرتبة مع السلطان الملك المظفر وحمل له طلبخانة وجعله من جملة حرفائه. وكان أميراً كبيراً شهماً فارساً شجاعاً مقداماً لكن غلب عليه العجب فكثر عليه " التشكي " إلى السلطان. ونقل عنه إلى السلطان أمور لا يحتمل الملوك بعضها فلزمه وأَمر بكحله وكان ذلك في زبيد بسنة ثلاث وتسعين وستمائة. فانتقل إلى بيت الفقيه ابن عجيل وسكن هنالك. ولم يزل يتردد بين زبيد وبيت الفقيه إلى أن توفي في شهر رمضان من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أحمد بن أبي بكر بن أحمد القايشي. وكان مدرساً في الجند تفقه بيحيى

بن محمد بن ملح وبغيره وأخذ عن عثمان بن رقيد من أهل زيران وكانت وفاته في السنة المذكورة.
وفيها توفي الفقيه النبيه أبو العتيق أبو بكر بن محمد بن سعيد بن علي الحفصي ثم الأزدي فالحفصي نسبة إلى العشاري أبي عمرو حفص المعروف بالدوري أحد من قرأ على الإمام أبي عمرو بن العلاء البصري والأزدي نسبة إلى الأزد وهي قبيلة مشهورة من قبائل اليمن وهو المعروف بابن العراف. وكان فقيهاً حافظاً بالفقه عارفاً به وكان مولده ومنشأه في قرية ذي السفال. وكان تفقه على محمد بن مسعود ودرس في أول أمره بذي جبلة في المدرسة الرابية ثم انتقل إلى تعز بسؤَال من القضاة بني عمران فدرس بالوزيرية وأشفق عليه بنو عمران وسأَلوه أن يكون مدرساً لأبناء حسان ونائباً لهم في الحكم. فأقام على ذلك أياماً . ثم اعتذر عن الحكم فعذر عن الحكم بابن النحوي وتفقه به جماعة منهم ابن النحوي وابن دريق وابن الصفي وعبد الله الريمي وغيرهم. وكانت وفاته يوم عرفة بعد صلاة الصبح من السنة المذكورة. وعمره يومئذ ثمان وأربعون سنة رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو بكر بن علي بن اسعد. وكان اصله من الصفة بني عزلة من جبل عنة والصفة بكسر الصاد المهملة وعنة بفتح العين المهملة والنون المشددة. وهو اسم جبل من جبال اليمن التسعة. ظهر فيها جماعة من الفقهاء والعباد. وكان مولد الفقيه أبي بكر هذا في العاشر من شوال سنة تسع وثلاثين وستمائة. وتفقه بأبي بكر بن العراف وابن التائه وأخذ النحو عن المقدسي المقدم ذكرهما. وكانت وفاته ليلة الجمعة الرابع من ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٠٣/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح موسى بن عمر بن المبارك بن مسعود بن سالم ابن سعيد بن عمرو بن علي بن أحمد بن مسيرة الجعفي. وكان فقيهاً صوفياً عارفاً سالكاً. اشتغل بالفقه مدة بسهفنة على ثم ارتحل إلى تهامة فتفقه بها على الفقيه إسماعيل الحضرمي . ثم صحب الشيخ محمد بن الفصيح أحد أكابر أصحاب الشيخ أبي الغيث فرباه تربية الصوفية حتى صار كاملاً وأمره بالعود إلى بلده. فكان فقيهاً صوفياً وظهرت له كرامات كثيرة كان يبعد من الطعام السنين إنما يشرب بعد العشاء لبناً بعد أن يخلط فيهِ خبر مسحوق وكان هذا دأْبه غالب دهره. ويروى أنه مرض له ولد فأرادت أمه أن تعمل له فروجاً فقال أن تعملي لكل واحد من أولاد الفقراءَ فروجاً فروجا وإلا فلا تفعلي. وكان يُقال لهُ جُنَيْد اليمن وعلى الجملة فمناقُبه كثيرة ثم كان من تأَخر عن الجماعة من أصحابه ضُرب ومن طلع عليهِ الفجر وهو نائم ضُرب ولم على يزل الطريق من المجاهدة بظاهره وباطنهِ إلى أن توفي في المحرم أول شهور السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الصالح عثمان بن علي بن سعيد بن سارج وكان فقيهاً صوفياً تفقه ثم تصوَّف وصحب الشيخ مدافع والشيخ علي الرُّميمة واشتهرت له كرامات كثيرة مأْثورة وحكايات معروفة مشهورة توف على الطريقة المرضية يوم الاثنين مستهل ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله

تعالى.

وفي سنة تسعين وستمائة سار الملك المؤيد من صنعاءَ في عساكره إلى جبل اللوز فقابل الإمام مظهر بن يحيى هنالك وكان الإمام مظهر بن يحيى قد رتب ابن عمه الشريف اسعد بتنعم وفيه حرمه وأولاده فقاتلهُ الملك المؤيد أياماً على الجبل ثم طلعه عليهِ قهراً في خامس المحرم أول سنة وتسعين وستمائة.

وفي هذه السنة المذكورة اعني سنة تسعين وستمائة توفي الفقيه الإمام العلامة قطب اليمن وعلامة الشام واليمن أبو العباس أحمد بن موسى بن علي بن عمر ابن عجيل. وكان مولده في شهر رمضان المعظم أحد شهور سنة ثمانٍ وستمائة وكان إماماً من أئمة المسلمين عالماً عاملاً صالحاً ورعاً زاهداً لم يكن في الفقهاء المتأَخرين من هو أدق منه نظراً في الفقه ولا أعرف به منهُ غوَّاصاً على دقائق الفئة موضحاً لغوامضة معدوداً تاج العلماء وختام أهل الحقائق اجمع على تفضيلهِ المخالف والمؤَالف ولم يتردد في صلاحه وفقهه جاهل ولا عارف تفقه بعمه إبراهيم بن علي وبه تفقه جمع كثير من نواح شتى. وكان مبارك التدريس دقيق النظر فيهِ والى ذلك أشار الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الصبحي صاحب المعين حين سئل عن شيءٍ من معاني كلامه على بعض مشكلات المهذب فأجاب عن ذلك وبينهُ ثم أثنى على الفقيه وقال ما مثلنا ومثل هذا الإمام إلا كما قال أبو حامد الأسفرائني في حق ابن شريح نحن نجري مع أبي العباس في ظواهر الفقه دون دقائقه. وكان صاحب كرامات مشهورة ومآثر مذكورة يظهر منها ما يظهر عن كره منهُ.

قال الجندي اخبرني والدي عن بعض ثقات أصحاب الفقيه أنه قال حضرنا يوماً وجماعة عند الفقيه فتذكرنا كرامات الصالحين وربما عنيناه على وضربنا له مثالاً بأهل عواجه وبالفقيه إسماعيل الحضرمي ومن ماثلهم فقال لكل ولي كرمة أما فلان وما ظهر من كراماته فهو نقص من الإناء واحب أن ألقى الله تعالى بإناءٍ ملآن. وكانت الملوك تصلهُ وتزوره وتعظم قدره وتقبل شفاعته ويريدون مسامحتهُ بما يجب عليه من الخراج السلطاني فلا يقبل ذلك ويقول أحب أن أكون من جملة الرعية الدفاعة. وكان كثير الحج إلى مكة المشرفة وإذا حج معهُ خلق كثير من أهل اليمن تبركاً به وإنساً فلا يكاد يتعرض لهم أحد من العرب بسوءٍ وإن تعرَّض أحد له لم يفلح فكانت القافلة التي تسير إلى مكة في البر في عصرهِ وبعد عصره بدهر طويل إنما يقال لها قافلة ابن عجيل سواءُ سار معها أَو سار معها غيره من الفقهاء وهذا من اعجب الأشياء وما أشبه هذا يقول الأول

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم في الناس أموات

وكان متى دخل مكة اشتغل الناس بالسلام عليه عن كل شيءٍ ومتى صار في المطاف أَو في الحرم ترك الناس أشغالهم وأَقبلوا على مصافحته وتقبيل يده تبركاً فيقول انتم في بيت الله ومحل بركته ورحمته وإنما أنا واحد منكم مخلوق مثلكم فلا يزدادون بذلك إلا إقبالاً عليه.

قال الجندي وحكى بعض الثقات أنه سمع رجلاً من أهل مكة من أهل الدين والعلم والصلاح يقول لي كذا وكذا سنة فذكر مدة طويلة قلَّ من يعيشها. وفي كل سنة يدخل مكة من العلماءِ جمع كثير ففيهم من يجاور ويقيم وفيهم من يذهب إلى بلده فما رأَيت أحداً فيهم إلا ونور الكعبة وعظمتها يزيد عليهِ إلا ما كان من ابن عجيل فإنه متى دخل الحرم زاد نورهِ وعظمته على نور الكعبة بحيث لا يبقى للناس تعلق بغيره. ثم كان متى قدم المدينة فعل الناس معهُ كذلك فيقول لهم اتقوا الله هذا نبيكم وهؤلاء صحابته وإنما أنا رجل منكم فلا يزداد الناس إلا إقبالاً عليهِ. وكان إذا ضجر من الناس بمكة والمدينة يغيب عنهم لقضاء مأَربهِ من قراءَة أ ذكر أو صلاة وهذا غالب شغله. وكان إماماً في الفقه والأصولين والنحو واللغة والحديث والفرائض وهو أحسن من ضبط الفنون وقرَّت بمذاكرته العيون.
قال الجندي وأخبرني الثقة من فقهاء عصره أنه قال ارتحلت من بلدي إلى الفقيه أزورهُ وكنت قد أعددت مسائل فقهية وأصولية وكلامية. فلما وصلت إلى الفقيه وسلمت عليه واطمأَن بي المجلس أَقبلت اسأَلهُ عن الفقهيَّة وهو يجيبني ثم عن الأصولية وهو أيضاً يجيبني ثم عن الكلامية فقال أمهلني فأضمرت في نفسي قصوره عن ذلك. ثم لما انفض المجلس وكان حافلاً دخل الفقيه منزله ثم استدعى بي إليه وقال أن العقول لا تكاد تحتمل جواب ما سأَلت عنهُ وربما حصل بيننا مراجعة واعتراضات تشوّيش على بعض السامعين لكن هات السؤَال الأول فأوردتهُ فجاوَب عليه جواباً شافياً ثم أوردت بقية الأسئلة فجاوَب عليها كذلك فحمدت الله تعالى على ذلك وعظم عندي وله مسائل كثيرة سأَلهُ عنها عدة من الفقهاء الإجلاء فأجابهم بأحسن جواب وأَبينه. ولم يكد أحد من فقهاء عصره إلا افتقر إلى فقهه ومعرفته ولم يسمع أنه افتقر إلى معرفة أحد منهم في جواب ولا سؤَال. ولم يزل على ما ذكرنا من التدريس ومجاهدة النفس إلى أن توفي يوم الثلاثاء بين صلاتي الظهر والعصر لخمس بقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.
وكان الملك الواثق إبراهيم بن الملك المظفر يومئذ في مدينته فشال وكانت يومئذٍ إقطاعه من أبيه وهو على نصف مرحلة من بيت الفقيه تقريباً فلما علم بوفاة الفقيه ركب في خاصته وحضر غسل الفقيه وكان من جملة الغاسلين ثم لما حمل إلى تربته كان من الحاملين وتولى إنزاله في قبره مع من تولى ذلك فغبطه على ذلك كثير من أعيان زمانه. وكان للفقيه عدة أولاد منهم إسماعيل كان فقيهاً فرضياً توفي في سنة سبع عشرة وسبعمائة. وموسى كان فقيهاً حبراً ديناً تفقه بأبيه وتوفي في سادس شعبان سنة عشرين وسبعمائة. وإبراهيم كان فقيهاً ديناً ورعاً يحب الاعتزال قلَّ من يجتمع به من الواصلين إليه تفقه بأبيه وأخذ النحو عن الفقيه عمر بن الشيخ من أهل شريح المهجم توفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة رحمة الله عليهم أجمعين.

وفيها توفي الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى بن علي بن محمد بن مغلب وكان فقيهاً بارعاً عارفاً بالفروع والأصول تفقه بأبيه ثم بفقهاء المصنعة ثم بالفقيه عمر بن مسعود الأبيني بذي هريم. ثم بأحد الوزيرين وربما قيل بهما. وكان فقيهاً كبيراً وهو آخر من يعد فقيهاً من بني مغلب. قالهُ الجندي وكانت الجند موردِ العلماء ومستقر الملوك وهي مسكنه فكان يأخذ عن كل من ورد إليه من العلماء فاكتسب علوماً جمَّة. وكان معظماً عند أهل الدولة والبلد وكرههُ بنو عمران لأنه لم يكن يخضع لهم ولا يلتفت إليهم فكانوا يذكرون للسلطان عنهُ أموراً قبيحة منزهُ عنها وإنما كان غرضهم بذلك إسقاطه عند السلطان فوقر كلامهم في أذن السلطان الملك المظفر. وكان قد استفاض ين الناس صلاحه وعمله فقعد السلطان يوماً في مجلس حافل بأعيان دولته ولم يكن الوزير فيهم فتذاكروا الجند ومن فيها من العلماء فذكروا هذا إبراهيم بن عيسى فقال السلطان أنه يذكر لنا عنهُ أشياء لا تليق فذكر بعض الحاضرين للسلطان وحقق لهُ أنه ليس في الجند أحد افقه منهُ ولا أصلح وإنما لهُ أعداء يكرهونهُ ويحسدونهُ ويكذبون عليهِ كراهة لهُ أن يتصل بكم. فوقع ذلك في قلب السلطان ثم أمره ولدهُ الأشرف أن يستدعيه ويقرأ عليه ففعل ذلك فلما حضر وجدهُ فقيهاً كاملاً ورجلاً مباركاً فلازمهُ على أن يكون له وزيراً فلم يفعل فجعل لهُ انتقاداً جيداً في كل سنة. وتفقه به جماعة منهم أبو بكر بن مليح وأبو بكر بن المغربي ويوسف ابن يعقوب الجندي والد المؤرخ. وأخذ عنهُ أبو الحسن علي بن أحمد الأصبحي وجمع كثير . وكان لبسه القطن وتوفي في الجند في عشرة شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي السعود بن الحسن بن مسلم بن علي الهمداني. وكان مولده لليلتين من ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وستمائة. وكان صاحب قراءات ومسموعات وغلبت عليه العبادة وكان من أكثر الناس تلاوة للقرآن مع الزهد والورع إلى أن توفي على ذلك ليلة الاثنين لخمس يقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح عبد الرحمن بن سعد بن علي بن إبراهيم بن أسعد بن أحمد بجمعة والفقية عمر بن سعيد العقيبي أسعد بن أحمد . وكان مولده سنة ست وثلاثين وستمائة بعمه عمر بن سعيد ولزم مجلسه بعده وعكف عليه أصحابه. وكان كثير الحج والزيارة وهو أول من ادخل العزيز شرح الوجيز إلى الخيال ومنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأصبحي عن أبيه وصحح به معينه. وتفقه به جماعة من أهل عصره. وكانت وفاته يوم الأحد لإحدى عشر ليلة خلت من المحرم أول شهور السنة المذكورة. وعمره يومئذ ثلاث وخمسون سنة قاله الجندي . والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو العباس أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن يوسف بن أبي الخل. وكان مولده ليلة الأربعاء السادس عشر من شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة. وتفقه بعمه صالح وتزوج ابنته وغالب تفقهه بالإمام إسماعيل بن محمد الحضرمي. وكان فقيه عصره فقيهاً محجاجاً غواصاً على دقائق الفقه عارفاً بأخبار المتقدمين صاحب فنون متسعة. ولما تحقق الملك المظفر كماله ونبله وفضله وعمله وأنه يصلح لقضاء الأقضية استدعاه إلى تعز فلما وصل تعز استدعاه

السلطان إلى مقامه واستحضره فرأى رجلاً كاملاً فسأله أن يلي قضاء الأقضية بتهامة فاعتذر وسأل من السلطان الأذن في العود أي بلاده فأذن له فسافر من فوره. وكان قد اعترضه ألَم فلم يصل حيس إلا وقد أشفى فتوفي بها وقبر في مقبرة حَيس الشرقية على يمين الخارج من حيس إلى قرية السلامة. وكانت وفاته يوم الأربعاء السادس من شوال من السنة المذكورة رحمه الله تعالى ويقال أنه مات مسموماً والله أعلم.

(١٠٦/١)

وفيها توفي الشيخ أبو الحسن علي بن عمر المعروف بالأَهدل. وكان كبير القدر شهير الذكر يقال أن جده محمد قدم من العراق إلى اليمن على قدم التصوف وهو شريف حسيني فسكن أجواف السوداء من وادي السهام وأولد هنالك. وكان ابن عمه هذا علي بن عمر محمد على طريقة مرضية وأختلف فيمن أخذ عنه اليد فقيل أنه مجذوب. وقيل بل صحب رجلاً سائحاً من أصحاب الشيخ عبد القادر الجيلاني يقال له محمد بن سنان الأحوزي وقيل بل رأَى أبا بكر الصديق فصافحه وأخذ عنه يد التصوف. وقيل صحب الخضر عليه السلام.

قال الجندي وسمعت بعض أصحابه وذريته يقولون كان الشيخ يميل إلى تبجيل الاحوزي. ولما توفي على قدم السياحة إذ لم يزل ذلك دأبه خرج الشيخ علي بن عمر إلى أصحابه فنعاه إليهم وأمرهم بالاجتماع للصلاة عليه فاجتمعوا وصلوا عليه. وكان الشيخ صاحب تربية وكرامات وأحواله أكثر من أن تحصر. وكانت وفاتهُ في أثناء المذكورة تقريباً والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو القبائل عبد الرحمن بن الحسن بن علي بن عمر بن محمد بن علي بن أبي القسم الحميري. وكان من الرجال المعدودين وكان تفقه بأبيه ثم بالفقيه إسماعيل الحضرمي والقاضي عباس صاحب في المظفرية ثم الفصل إلى مدرسة ذي هريم ثم إلى الناجية. ثم لزم بيته بمعزية تعز وحصل عليه في آخر عمره مرض شديد وتطاولت عليه أيام المرض فأراد الطلوع إلى صنعاء لاعتدال هوائها فاكترى من رجل غريب وسافر معه فلما انفرد به في الطريق قتله وأخذ ما معه. وكان قتله في السنة المذكورة تقريباً والله أعلم.

وفي سنة إحدى وتسعين أخذ الملك المؤَيد جبال اللوز فطلعها في خامس المحرم كما ذكرنا. وقتل طائفة من عسكر الإمام وخرج الإمام هارباً في طريق متوعرة وشعوب لم تسلك قبل ذلك فخرج على بلاد بني وهاس ثم على الظاهر إلى أن سار إلى ذروان. وعلا الملك المؤَيد جبال اللوز إلى صنعاء ظافراً مسروراً فأقام فيها بقية عامه ذلك.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الإمام الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن محمد بن منصور الأصبحي. وكان فقيهاً كبيراً عالماً عارفاً محققاً مدققاً موفقاً في الجواب مبارك التدريس تفقه به جمع كثير من نواحٍ شتى وله عدة مصنفات منها المصباح مختصر في الفقه. والفتوح في غرائب الشروح

والإيضاح في مذاكرة التنبيه. والوسائل. والترجيح. وفضائل الأعمال. والإسراف في تصحيح الخلاف. وكان الناس قد عكفوا عليه حتى ظهر كتاب المعين تصنف تلميذه أبي الحسن علي ابن أحمد الأصبحي. فاشتغل الطلبة وغيرهم بالنظر فيه عن غيره. وكان هذا الفقيه رجلاً عابداً زاهداً متورعاً كثير التلاوة للقرآن. وكان راتبه كل يوم من الأسبوع سبعاً من القرآن. وفي شهر رمضان ستين ختمة يقرأُ في كل يوم ختمة وفي كل ليلة ختمة فلما جاءَ شهر رمضان الذي توفي عقبيه ختم خمساً وسبعين ختمة وكان شديد الورع من صغره لا يأكل إلا ما تحقق حله. ولقد أَقام في مصنعة سير فوق عشرين سنة لا يأكل لهم طعاماً إنما يأكل من كيلته من وقف وقفهُ القاضي أبو بكر بن أحمد على من يدرس في جامع المصنعة وكان كثير العبادة وزيارة الصالحين والمساجد المباركة.
وممن تفقه به الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الأصبحي والفقيه عبد الوهاب بن الفقيه أبي بكر بن ناصر وعبد الله بن سلم وأبو بكر بن الليث ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن عبد الله بن أسعد العمرانيان وغيرهم. وكانت حلقته تجمع أكثر من مائة فقيه في غالب الأوقات وربما بلغوا أكثر من مائتين في كثير من الأوقات ثم ضاقت به المصنعة فانتقل عنها إلى مدينة إِب فتلقاه أهلها بالإجلال والإكرام واحتملوا من جاءَ معهُ من الطلبة وقاموا بكفاية الجميع ما داموا منقطعين. وتوفي على أَحسن حال يوم الجمعة السادس من شوال من السنة المذكورة رحمه الله. وعمره يومئذ تسع وخمسون سنة. وقبر إلى جنب قبر الإمام سيف السُّنَّة ورآه بعض الفقهاء بعد موتهِ في المنام فقال له ما فعل الله بك. فقال أخذ بيدي وأدخلني الجنة.

(١٠٧/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح محمد بن يَنَال بياءٍ مثاة من تحتها مفتوحة ونون بعدها ألف ولام. وكان أبوه بليغاً سكن بذي جبلة ثم تأَهل بها فظهر له هذا المذكور فنشأَ نشوءاً حسناً وتفقه بأهل جبلة. وكان جيداً حسن الأُلفة كثير المحفوظات فقيهاً فرضياً درَّس بالشرفيَّة إلى أن توفي أول السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفي سنة اثنين وتسعين حصلت الوحشة بين الشريف جمال الدين على ابن عبد الله وبين الملك المؤَيد فتخوَّف الشريف جمال الدين من الملك المؤَيد فترك الوصول إليه وأخرج حريمه من صنعاءَ ليلاً فنمي ذلك إلى الخليفة فكتب إلى الشريف علي بن عبد الله يسأَله عن سبب تخلفه عن الوصول فكتب إليهِ الشريف جواباً يقول فيه أن ابنك ملك شاب قادر وأخاف منه بارة وأكثر ما تقول أَخطأَ داود. فعاد جوابه معاذ الله أن يفعل ذلك وإن يفعل أبوه فلم تطب نفس الشريف وبقي على الامتناع ثم تأَكدت الوحشة وتظاهر الأمير جمال الدين بالخلاف ومراسلة الإمام. وكان الإمام في حصنه بحجة والأمير في حصنه براش في المعازب فأجابه الإمام وطلع إليه بعسكر عظيم وحشر الأمير جمال الدين ومن معه من أهل شظب وأهل الظاهر والتقى بالإمام وقصد الجميع منهم الكولة وحطوا

عليها أياماً فلم يتصلوا بشيءٍ منها. وبعد ذلك اتفق كافة الأشراف واختلفوا وهدموا ما بينهم من الذحول والقتل واجتمعوا على حرب السلطان فكتب بعض الأشراف إلى الملك المؤَيد كتاباً يقول فيه

تنح عن الدست الذي أنت صدره ... وعدّ عن الملك الذي حزته غصباً

رويدك أن الله قد شاءَ حربكم ... وصيرني الرحمن في ملكه حرباً

سأجلبها شعثا إليك سواريا ... مضمرة جرداً مطهمة قبا

عليها ليوت من لؤَي بن غالبٍ ... بها ليل بسامون قد مارسوا الحربا

فما في جبال اللوز عارُ لسدٍ ... غدت وأكفاف السحب من دونه دربا

فأجابه الملك المؤَيد بكتاب وأبيات يقول فيها:

رويدك لا تعجل فما أنت بعلها ... سيأتيك فتَّاك يعلمك الضربا

فان تك ذا عزم فلا تك هارباً ... كعادة من قد صرت من بعده عقبا

وسائل جبال اللوز عنا وعنكم ... فأفضلكم ولى وخلفكم نهبا

فعاملتكم بالصفح إذ هو شميتي ... وما انتم تعفون عن واقع ذنبا

ولما اتفقت كلمة الأشراف واجتمعوا على حرب السلطان جرد عساكره المنصورة. وطلعت خزانته المعمورة من اليمن فكانت الخيل نحواً من ألف فارس والرجل نحواً من عشرة آلاف راجل وخرج الملك المؤَيد في عساكره من صنعاء وعساكر أبيه التي طلعت من اليمن فطلع الظاهر وحط في الماجلين فحصل بينه وبين الأمير جمال الدين علي بن عبد الله بن علي بن وهاس خطاب ومراسلات . ثم التقوا واصطلحوا. وقد عاد إلى الملك المؤَيد بعد أن حلف له على الوفاء فأقام الملك المؤيد هنالك شهراً. ثم طلع الظاهر وأقام في الظاهر الأعلى أياماً ثم نهض إلى الظاهر الأسفل ثم قصدهم إلى ما جل الصعدي فوقع هنالك قتال عظيم وولت الخيسل والرجل من عساكر الأشراف حتى صاروا بالأكمة الحمراء فخالف بنو شهاب وأهل حضور وانحازوا من عسكر السلطان إلى عسكر الاشراف وردوا ردة صادقة فقتل خمسة أنفار وعاد الملك المؤيد إلى محطته ثم نهض إلى الكولة ولم يقف غير ليلة واحدة ونهض إلى البون وطلب منهُ الأمير عبد الله بن علي بن وهاس عسكراً يقف معهُ فأعطاهُ خيلاً ورجلاً ورجع إلى صنعاءَ.

وفي هذه السنة اقطع السلطان الملك المظفر ولده الملك الواثق إبراهيم ابن يوسف ظفار الحبوضي فسافر إليها في البحر من عدن في شهر رمضان ولم يزل إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره أن شاء الله تعالى.

(١٠٨/١)

وفيها توفي القاضي الأجل أبو محمد عبد الرحمن بن القاضي محمد بن أسعد ابن محمد بن عبد الله بن سعيد المقري العبسي المذحجي. وكان مولده في الثامن عشر من جمادى الأخرى من سنة سبع

وأربعين وستمائة. وكان ذا عبادة وزهادة واجتهاد في العلم . وولي قضاءَ عدن مدة فكادره رجل من التجار يقال له بن مكاس بان كذب عليه إلى السلطان فحمل السلطان كلامه على الصدق وأَمر بعزل القاضي فعزل عن قضاء عدن ولم يفلح التاجر بعد ذلك بل أخرجه الله من عدن واسكنه بين الكفار في الهند وصار غلاماً لملك منهم إلى أن توفي على حالة غير مرضية. ولما انفصل القاضي من عدن كما ذكرنا ورجع إلى بلاده من ذي اشرف حسده بعض أهل الوقف فكاده إلى القضاة أهل سير فكرهوه وظهر له منهم ذلك فلاذ بالملك الأشرف توقياً لشرهم فجعله والياً وأحسن إليه. فلم يزل معه مجللاً إلى أن توفي في آخر يوم من رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن نجاح المعروف بابن ثمامة بثاءٍ مثلثة مضمومة وميمين مفتوحتين بينهما ألف وآخر الاسم هاء تأنيث. وكان مولده سنة سبع وعشرين وستمائة وتفقه بألفيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وتزوَّج بابنته فولدت له ولدين هما إسماعيل ابن علي ومحمد بن علي واستخلف الفقيه إسماعيل على قضاء القحمة فذكر عنه حسن السيرة وكمال القضاء ولم يزل حتى جاء خصمان أدعى أحدهما على الآخر شيئاً. وكان المدعى عليه قد تقدمت له هدية إلى القاضي وصحبه قبل القضاء " كذا في الأم " . وكان مبارك التدريس أثنى عليه الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الحضرمي. قال وكان من ابرك المدرسين تدريساً. وكان عظيم الخشية سريع العبرة عند ذكر الله تعالى وكان يسمى البكاء لذلك. وكان ممن يزار ويتبرَّك به. وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى. وخلف ابنه إسماعيل فكان فقيهاً كريم الأخلاق. وتوفي في جمادى الأولى من سنة تسع وسبعمائة.
وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الخطاب عمر بن محمد بن أحمد بن مصباح العنسي بالنون وكان فقيهاً حسن السيرة كثير الحج يقال أنه حج ستاً وثلاثين حجة. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٠٩/١)

وفي سنة ثلاث وتسعين تجهز الملك المؤيد للحرب والطلوع إلى ناحية حضور والبلاد الشهابية. فخرج من صنعاء وحط في القبة فوقع بينه وبين الأمير جمال الدين علي بن عبد الله مراسلة وخطاب في معنى الصلح على أن الملك المؤيد يرجع إلى صنعاءَ وإن إتمام الصلح يكون في ظفار ولم يرد الأمير جمال الدين بذلك إلا الخديعة لأنه كان غير أهبة للحرب فرجع الملك المؤيد إلى صنعاءَ وتجهز الأمير جمال الدين للمسير إلى ظفار واستصحب معه مشايخ البلاد وأكابرها. وجهز الملك المؤيد وزيره الفقيه شرف لدين أحمد ابن علي بن الجنيد في خمسين فارساً من المماليك البحرية ومائتي رجَّال وما يحتاج إليه من الخام والمطابخ والآلة وجماعة من الجاندارية والبردارية فخرج من صنعاءَ وحط تحت ظفار في ورود ثم طلع إلى ظفار في جماعة من الجند وجماعة من

الرجال وتحدثوا في أمر الصلح وأوجدوا الوزيران أن الأشياء تامة وما مرادهم إلا إصلاح أمرهم واستلحاق من تأخر عنهم من أصحابهم مثل الأمير موسى بن أحمد بن الإمام والأمير جمال الدين عبد الله بن علي بن وهاس فكاتبوهما واستمالوهما فخالفا على السلطان أيضاً ودخلا ظفار موكبين فاتفقوا جميعاً وحلف الكل منهم للأمير همام الدين سليمان بن القسم. فلما اتفقت كلمتهم اجتمعوا بالفقيه شرف الدين وقد كتبوا كتاباً بسبب الصلح. وتشرَّطوا فيه أشياء لم تجرِ بها عادة وقالوا نحن لا نصالح إلا على ما قد ضمنَّاه هذا الكتاب فأرسل به إلى مخدومك. فصدره الوزير إلى الملك المؤَيد فلما وقف على مضمونه أرسله إلى والده الخليفة فلما قرأه الخليفة استنكره ولم يكن له جواب إلا خروج الأمر العالي إلى ولده الملك المؤَيد يأمره بالخروج في عساكره إلى البلاد الشهابية والحضورية وتجهز الأمير بدر الدين حسن ابن بهرام والفهد بن حاتم إلى ناحية صعدة فخرج الملك المؤَيد إلى البلاد الشهابية فأخرب منها عدة مواضع ثم نهض إلى ناحية حضور فأخرب فيها مواضع أيضاً في حارة الجبل ووصل الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى ابن حمزة بعسكر جرار نحو من ألفي راجل مادة للأمير جمال الدين علي بن عبد الله وخرج الأمير همام الدين سليمان بن القسم من ظفار فحط في موضع يسمى قسط من بلاد ابن وهاس قريب من الرحبة . فكان الملك المؤَيد يحاربهما تارة في رهقه وتارة في حبل حضور. وصبح بيت شعيب فأخذه قهراً بالسيف وقتل أهله ثم عاد إلى بلد ابن وهاس فأَخذ قرية بني القديم واخرب البلاد وعاد إلى صنعاء في شعبان من السنة المذكورة . فوقع عقد ذمة في باب السلطان بالصلح بينهُ وبين الأشراف. وأَما جريدة صعدة فكان مقابلتهم الأمير نجم الدين موسى بن أحمد بن الإمام في نحو من ثلاثمائة فارس ما خلا الرجل فوقعت بينهم حروب حصل القتل في الفريقين ثم حصلت ذمة ثلاثة اشهر ثم نزل الملك المؤَيد إلى الأبواب السلطانية ونزلت رسل الأشراف لتمام الصلح وخرج الأمير علي بن عبد الله إلى ناحية المشرق فابتنى مصنعة تنعم وأجابه أهل المشرق قاطبة واتصل بالأمير سليمان بن محمد سليمان بن موسى وكان في ناحية ذمار وركن اليأس إليهم ووقع الفساد في البلاد فورد أمر السلطان بطلوع الملك الأشرف إلى البلاد العليا بسبب الصلح فتقدم إلى صنعاءَ فكان دخوله صنعاءَ يوم الاثنين العاشر من ذي القعدة من السنة المذكورة. فوصل إليه أهل المشرق قاطبة وكافة أهل حضور والأمراء الشهابيون وجاءَ بنو الراعي إرسالاً ثم خرج الأمير علي بن عبد الله من ظفار إلى ردمان فخرج أمر مولانا السلطان الملك الأشرف على الأمير بدر الدين محمد بن حاتم بالمضي إلى ردمان والمسير مع علي بن عبد الله إلى صنعاءَ. وقد كان الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة وصل إلى الشريف علي ابن عبد الله وأَقام عنده في ردمان فنزلا معاً صحبة الأمير بدر الدين محمد ابن حاتم إلى الملك الأشرف بصنعاءَ. فلما وصلوا القلعة لقيهم الأمير صلاح الدين أبو بكر بن الملك الأشرف مؤْنساً لهم ومشرفاً. فلما صاروا قريباً من المدينة لقيهم الملك الأشرف بنفسه في عساكره وجنوده فسلموا عليه ودخل الجميع منهم تحت ركابه حتى وصلوا القصر السعيد فأكرمهم وقابلهم بالقبول ولم يبقَ

أحد ممن شهر نفسه بالخلاف إلا وصل إليه رغبة ورهبة. وقال في ذلك أخو كندة يمدح الأشرف في قصيدة أولها.

(١/١١٠)

هو في انتقاد البيض طب صيرف ... فتنحَّ عنهُ فربما لا يعرفُ
يرتاح من كل الملاح إلى التي ... في ثغرها بردُ يرف وقرقفُ
واسأله عما شئت من ألم الهوى ... يخبرك فهو المستهام المدنفُ
ما فارق العلمين حتى علما ... أجفانه كيف المدامع تذرفُ
أبداً ولا عنت بعسفان المها ... إلا وعَنَّ له هوىً متعسفُ
ولطالما سارت غرائب نظمهِ ... وسمت فكان له النقاع المشرف
مدحُ إذا رُويت أشاد بذكرها ... عمر وشرفها المليك الأشرف
عقل به وسمت ومن تنكيرها ... أضحت بطيب ثنائه تتعرَّفُ
وبضاعة حليت فشتى ريحها ... فيما لديهِ مخطبُ ومعرَّفُ
ملك بيمن قدومهِ باب الرجا ... فتح وسحب الجود جودُ وكَّفُ
فرمُ تشذر فالوغا مشبوبة ... والخيل تعدو والركائب توجفُ
ومعوَّدُ للنصر مشهورُ بهِ ... راياتهُ بدمِ الفورس ترعُفُ
وأفا وليُّ العهد جاد عهادنا ... وأَماننا من كل ما يتخوَّفُ
برد تقمصه الممهد خصةُ ... بلباسهِ الملك المظفرَّ يوسفُ
قل للأولى زعموا بان عنادهم ... ما كان حتى كلفوا ما كلفوا
ليعد إلى المحبوب كل مكلفٍ ... فلديه ملكُ بالرضا متعطفُ
أوْ فليثق أن لجَّ في طغيانهِ ... بعقاب يوم ليس فيهِ منصفُ
هذا ملاذ الخائفين وهذهِ ... عين الحياة فمن احب فيعرفُ
هذا ابن سيد يعربٍ ومليكها ... هذا الجواد السيد المتغطرف
حرام الخلافة ما عداهُ فخائفُ ... من حوله يتخطف المتخطفُ
شن الو قبلهُ ... في الصيت إلا آخر متخلفُ
وتألفت فيه تكن ... إلا بسيرة عدلهِ تتألَّفُ
ودعا مناديه الأنام فلم يكن ... للخلق عند ندائهِ متوقفُ
يغشون باب متوجِ ما أن لهم ... عنهُ وعن غشيانهِ متصرفُ
ويروعهم خلف الحجاب مملَّك ... يمضي وينجز ما يقول ويسعفُ
سهل لمن والاه عدلُ منصفُ ... وعرُ لمن عاداهُ حتفُ متلفُ

عمت مراحمهُ وعمَّ عقابهُ ... فهو النسيم يهبُّ فيهِ الحرجفُ

قال صاحب العقد ثم اقبل الملك الأشرف على حديث الصلح فيما بينهُ وبين الأشراف كافة على يد الأمير جمال الدين علي بن عبد الله وتمت الأمور وصاحت الصوائح واطلّ عيد النحر والخلق كلهم على بابه من الشرق والغرب والغز فخرج إلى الميدان في عساكره المحشودة. ثم انقلب إلى المصلى إلى أفخم حال وأعلى شأْن ووقف في صنعاءَ في الحجة والمحرم .

(١١١/١)

وفي سنة أربع وتسعين تجهز الملك الأشرف للنزول إلى اليمن فكان خروجه من صنعاءَ يوم الجمعة الثاني عشر من صفر من السنة المذكورة. فلما وصل إلى تعز واستقر بها اختصهُ والده بالملك العقيم ومكنه أزمة الأمر القويم وخرج التقليد الكريم. بمشهد من الملوك العظماء والجحاجح الكرماء. ناطقاً بفصل الخطاب. وإنارة التحقيق وأصواب. بما يربي على الروض غب السحاب. ويزري بفريد الدر في عُنق الكعاب. قائلاً بعد الحمد قال المصنف رحمهُ الله وكان للمظفر رحمه الله من الآثار الحسنة ما هو مشاهد إلى الآن. فمن ذلك المدرسة التي أنشأَها في معزية تعز المعروفة بالمظفرية جعل فيها مدرساً ومُعيداً وعشرة من الطلبة ورتَّب فيها إماماً ومؤذناً ومعلماً وعشرة أيتام يتعلمون القرآن وقيما ووقف عليها ما يقوم بكفاية الجميع منهم. وابتنى مسجداً في معزية تعز يعرف في وقتنا هذا بالمسجد الجديد ورتَّب فيهِ إماماً وخطيباً ومؤَذنين وقيمين ووقف عليهِ ما يقوم بكفايتهم الجميع.؟ وله دار الضيف بذي عُدينة أيضاً. وابتنى الخانقة التي في مدينة حيس ورتب فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن. وجعل طعاماً للواردين في كل يوم مد من الحب بمد أهل اليمن يزيد على حمل الجمل الضخم الشديد خارجاً عن اللحم والتمر. ووقف ويقال أن وقف الخانقة المذكورة التي في مدينة حيس في كل سنة من الطعام. ومن مآثره الجامع المظفري الذي في مدينة المهجم رتب فيهِ مدرساً ودرسه وإماماً وخطيباً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً ووقف عليهم وقفاً جيداً يقوم بكفايتهم. ومن مآثرِهِ أيضاً الجامع في واسط المحالب ورتب فيهِ إماماً وخطيباً ومؤذناً ومعلماً وأيتاماً ووقف عليهم ما يقوم بكفايتهم. وابتنى مدرسة في ظفار الحبوضي وأوقف عليها ما يقوم بكفاية المرتبين فيها. وابتنى خادمه بدر المظفري في مدينة زبيد مدرسة للفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنهُ ومدرسة لأصحاب الحديث ومدرسة لقراء القرآن الكريم بالقراءات السبع ودار مضيف ورتب في مدرسة الفقه ومدرسة القراء ودار المضيف في كل موضع إماماً ومؤذناً وقيماً ووقف على الجميع ما يقوم بكفايتهم.

(١١٢/١)

وكانت دولة الخليفة رحمه الله تعالى أقرب إلى العدل والرأفة وكان يجالس العلماء والصاحين. وكان رحمه الله مشتغلاً بالعلم أخذ من كل فن بنصيب قرأ الفقه على الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي وغيره والحديث على الفقيه محمد بن إبراهيم الفشلي وعلى الفقيه محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري وقرأ النحو واللغة على الشيخ بن يحيى إبراهيم الحمك وقرأ المنطق على الفقيه أحمد بن عبد الحميد السرددي وجمع أربعين حديثاً من أحاديث رسول الله صلى عليهِ وسلم عشرين في الترغيب وعشرين في الترهيب. وحدثني الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي وسمعتهُ غير مرَّة يقول طالعت أمهات كتب الحديث من كتب مولانا الخليفة المرحوم فوجدتها كلها مضبوطة بخط يده حتى أن من رآها يقول لم يكن له شغل طول عمره مع كثرة اشتغاله بالعلم في فنون شتى واشتغاله بأمور المملكة. وقال معلمه الفقيه محمد بن الحضرمي كان مولانا الملك المظفر يكتب كل آية من كتاب الله تعالى وتفسيرها فيحفظها ويحفظ تفيرها على ظهر قلبه غيباً. وكان له في علم الطب يد طولي. ولما افتتح مدينة ظفار الحبوضي ذكر في كتابه إلى الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر أنه يحتاج إلى طبيب لمدينة ظفار لأنها وبيئة. وقال ولا يظن المقام العالي أنا نريد الطبيب لأنفسنا فإنا نعرف بحمد الله من الطب ما لا يعرفهُ غيرنا وقد اشتغلنا فيهِ من أيام الشبيبة اشتغالاً كثيراً وولدنا عمر الأشرف منت العلماء بالطب وله كتاب الجامع ليس لأحد مثله. وكان المظفر رحمهُ الله متضلعاً من العلوم. ويؤَيد ذلك ما رأيت بخطه في جزءٍ من تفسير فخر الدين الرازي ما نصه: نقول طالعت هذا التفسير من أوله إلى آخرهِ مطالعة محققة ورأيت فيهِ نقصاناً كثيراً وجاءَني من الديار المصرية أربع نسخ من قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فرأيت فيها النقصان على حاله فلم اقنع بذلك بل اعتقدت أنه من الناسخ فأرسلت رسولاً قاصداً إلى خاسان إلى مدينة هراة فجاءَني بنسخة المصنف وقد قرئت عليهِ فرأيت فيها النقصان على حاله وتبيضاً كثيراً فانظر إلى هذه الهمة العالية في تحقيق العلوم والاجتهاد فيها ومطالعة هذا التفسير الجامع للعلوم. وكان محباً للرعية ومحسناً إليهم لا يكلفهم فوق ما يطيقونهُ. وإذا شكا أهل جهة من عامل من العمال أو كاتب من الكتاب عزله عنهم ولا يعيدهُ إلى تلك الجهة أبداً خوفاً من عائلته عليهم. وكان إذا زادت جهة في الخراج على المعتاد أو نقصت عن الخراج المعتاد سأَل عن سبب الزيادة والنقصان فإن كانت الزيادة من بدعة أبدعها العامل أو النقصان لخراب في الجهة أدب العامل أدباً بليغاً وصادرهُ وترك استعماله البتة. وكان يأْمر الولاة والمقطعين بالعدل في الرعية وتبجيل العلماء.

ويروى أنه كان لهُ خمسمائة فارس في مصر يجاهد الإفرنج ويحمل حواتكها من اليمن مع ما كان يحمله إليهم من أصناف الهدايا والتحف.

ويروى أن ملك الصين حرم على المسلمين في بلده الختان فتعبوا من ذلك وضاقوا فكتب إليه السلطان الملك المظفر رحمهُ الله كتاباً يشفع إليه في الإذن لهم وأرسل إليه بهدية سنية توافق مراده فقبل شفاعته وأذن لهم في ذلك. وظهر له من الولد سبعة عشر ذكراً مات أكثرهم في سن الطفولة وعاش منهم بعد وفاته خمسة رجال وهم: عمر الأشرف. وداود المؤيد. وإبراهيم الواثق. وحسن

المسعود. وأبو المنصور. وكلهم ولي ملكاً وخطب له على المنابر وضربت السكة على اسمهِ إلا المسعود فإنه لم يتصل بشيءٍ من ذلك. وكان وزيره القاضي بهاء الدين محمد بن أسعد العُمراني. ومدحهُ عدَّة من الشعراء الفصحاء المشهورين منهم الشاعر المشهور محمد بن حمير وكان أوحد عصرهِ أدرك صدراً من دولتهِ ولهُ فيهِ غرر المدائح في أيام إمارتهِ وأيام خلافته. وهو القائل يهنئهُ في أيام إمارته وقد أقطعه والدهُ رمع وظهر له يومئذٍ ولده الملك الأشرف فقال يهنئهُ

هنيت بالولد الميمون والبلدِ ... ولا برحت سعيداً مدَّة الأبد

في غرَّة البدرِ في عمر الشوامخ في ... سعادة المشتري في جبهة الأسد

أُعيذهُ بعد أسماءِ الإلهِ بقل ... وقل وقل وبحمد الواحد الصمد

من العيون ومن ريب المنون ومن ... دقس المنون ومن نفاثة العقد

(١١٣/١)

ومنهم القاسم بن هتيمل شاعر المخلاف السليماني رحمه الله. وكان فصيحاً حسن الشعر مداحاً وله في السلطان الملك المظفر رحمة الله عليه عدة قصائد من المشهورات من ذلك قوله:

أَّعدلي أَحاديث الفريق وكرر ... وهات لنا عن حاجر ومحجر

وكيف الله أَرتاضه ... ترف برقراق النضارة أخضر

تطل طله ... بأَبيض في أَحوى النبات وأصفر

كان دهاق أرب يمم فوقه ... سبائب مرّ أو درانك عبقر

إذا ما النسيم الرطب صافح تربه ... تعطر من حوذانه المتعطر

وهل من نسيم الريح والرند نفحة ... ممسكة في طي نشر معبر

ويا لائمي في نفحة حنيت بها ... ضلوعي على جمر الغضا المتسعر

أرحني فما صدري بهضب عمانه ... فاسلو ولا قلبي صفاة المسيفر

ومن لي ويوم الدجن ليس بمشمس ... مضيءٍ وليل الحظ ليس بمقمر

بساقيه تسعى إليَّ بأَُزهر ... رذوم بذي لونين أحمرٍ أحمر

إذا باشرته بالبنان تعصفرت ... أناملها من صبغة المتعصفر

تدل بخصر في النطاق مؤَنث ... لطيف وصدر في العناق مذكر

ترى الليل فوق الشمس في خيزرانة ... مرنحجة في حقنها المتمرمر

تذلل فإن يشمخ عليك بأنفه ... عزيز فلازم عزة المتكبر

ولا تكترث واجزع من الضيم آنفاً ... ولن لم يكن بد من الصبر فاصبر

فقد قدم المقدار غير مقدم ... وقد أخر المقدار غير مؤخر

ودالت على الإسلام للشرك دولة ... حنين وأحد فيض بدر وخيبر

ولا وأبي لا ذقت راحة عيشةٍ ... إذا أنا لم أظفر بعفو المظفر

فتى ورث الإذواءَ غير مدافع ... وأحرز فضل الأسدين ومنذر

أعم سماحاً من سماحة حاتم ... وأعظم بأساً من بسالة عنتر

تحاط ثغور الملك منهُ بقادر ... على كون ما لم يقض أو لم يقدر

أعز رسوليّ يزر قميصه ... على القمر التم الخضم المظفر

سماح كفيض اليم في هضب يذبل ... ووجه كبدر

هو الملك الموفى على ملك تبع ... على علاعن ملك كسرى وقيصر

قل الحق واعجب من مليك مملك ... رقاب الرعايا لا أمير مؤمر

فوا الله ما تدنو أكاسر فارس ... إليه ولا تسمو تبابع حمير

ولو وزن الأملاك منهُ بخنصرِ ... لما وزنوا منهُ قلامة خنصر

أحامل أعباء الخلافة إذ وهت ... دعائم عباس وأركان حيدر

أقلني فلم اعثر وهبني لأَفرخ ... كزغب القطابين الأفاحص قعر

ولا تقف بي عمرو بن هند وطرفة ... ورأي أنوشروان في برز جمهر

وهب لي ذنباً قد أتيتك تائباً ... من الذنب واستغفرتك الذنب فاغفر

فلو إنني في الأبلق الفرد نازل ... لأدركتني أوم في قلال ذمرمر

وماذا يضر البدر أن طن تحتهُ ... بعوضة حس أو ذبابة مجزر

وما أنا قدر لا حبيب لطيء ... فأبقى ولا كنت الوليد لبحتر

ولست وإن خُوّلت ما لست أهلهُ ... بأفصح من أهل الزمان وأشعر

ليهن سراج الدين أن قد أنلتهُ ... مكانة فتح من خلالة جعفر

لك الخير فعل الخير في غير أهله ... لعمرك فعل غرسهُ غير مثمر

فهل لك من رام يفوّق ما رمت ... يداهُ وما يرمي بأفوق أزعر

أخافطنة أن يمنع النصف يحتسب ... غناءً وإن يُعْطَ النفاية يشكر

وانك إن أهملتني وتناسخت ... عليَّ الليالي من سنين وأشهر

أتاك وإن كنت الغني عن الذي ... يحيك بتفويف الصباغ المحبر

من اللاء ما غنى الوليد بل بلبل ... بهن ولم يخلع على ابن المدير

خوالد يفنى عمرَ لقمان عمرها ... ولقمان أفنى عمر سبعة أنسر

وحاشاك أن علي قصيدتي ... براقش أو تضحى كلمة جحدر

ومدائحه فيه كثيرة مشهورة. ومهم الفقيه سراج الدين أبو بكر ابن دعاس وكان شاعراً ماهراً فقيهاً نبيهاً نحوياً لغوياً. وكان أحد جلساء الخليفة وخصيصاً بهِ. وكان الخليفة رحمهُ الله يثني عليهِ ويفضلهُ على ابن حمير ويقول إنما ابن حمير ويقول إنما ابن حمير صاحب خلاعة. وكان ابن دعاس المذكور متوسعاً في العلم. وكان من أهل زبيد ينسبونهُ إلى سرقة الشعر ويقولون إذا حوسب الشعراءُ يوم القيامة يؤْتى بابن دعاس للحساب فيقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر لفلان وهذا العجز لفلان فيخرج بريئاً ويروى أنه لما حج السلكان الملك المظفر ورجع إلى اليمن اسِتأذنهُ بن دعاس من المهجم للتقدم قبل ركابهِ إلى زبيد. فقال له أتريد أن تتقدم لتجمع شعراً من الدواوين وتلقانا بهِ. ثم أذن له في التقدم فلما دخل الخليفة زبيد انشده ابن دعاس يوم قدومه قصيدة باهرة وأول بيت منها لابن الحجاج البغدادي وهو:

ليس في قدرة ولا إمكان ... نيل ما نلت يا مليك الزمان

وفيها يقول

هاك شعراً منظماً لم أغز ... فيه لا مصحف ولا ديوان

فقال لهُ الخليفة نهيناك عن الدواوين فتعديت إلى المصحف. ولما قدم العماد الأعمش بكتاب الدرج من مصر قال فيهم ابن دعاس المذكور

أهدى العماد نحونا ... من مصر كتاباً غرز

سفيروا بقائراً ... لكنها على غرر

ولم يكن كما قال وإنما كانوا أهل فضل وفواضل. ويرى أنه لما قدم أبو الظاهر البيلقاني الأنصاري إلى عدن وكان عالماً متفنناً أعلم الخليفة به فأمر بتجهيزه إلى حضرته فلما حضر المقام السامي أمر السلطان من باحثهُ فوجده كاملاً فأَراد الخليفة رحمه الله أم يقرأ عليه شيئاً في المنطق فاستشار ابن دعاس فقال له أما علمت يا مولانا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " البلاء موكل بالمنطق " فتطير الخليفة من قوله وقال لقد حلت بيننا وبين الانتفاع به. ومنهم المسحي أحد شعراء الشام وهو القائل في السلطان الملك المظفر رحمهُ الله تعالى

لكم كيمياء الملك صحت وغيركم ... يعالج في تحصيلها الماءَ والملحا

وتصبح أقلام الوقائع في الوغى ... سراعاً على أعدائكم تكتب الفتحا

الباب الرابع

ذكر قيام الدولة الأشرفية الصغرى

(١/١١٥)

قال المصنف رحمه الله لما توفي السلطان الملك المظفر رحمه تعالى كما ذكرنا في تاريخه المذكور قام بأمر الملك بعده ولده الملك الأشرف ممهد الدين عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول

فاستولى على الحصون والمدن وسائر المخاليف والبلاد كلها. وكان ملكاً سعيداً عاقلاً فاضلاً أديباً لبيباً حسن السيرة وادعاً. وكان قد اشتغل بطلب العلم في أيام إمارته حتى برع في عدة من الفنون وشارك فيما سواها وصنف مصنفات كثيرة وكان محبوباً عند الناس على اختلاف حالاتهم وتباين طبقاتهم. ولما علم أخوه الملك المؤَيد بموت والده وكان في الشحر يومئذٍ كما ذكرنا خرج من الشحر يريد اليمن لطلباً للملك. قال ابن عبد المجيد فلما قرب من اليمن وصل إليه كتاب من أخيه الملك المنصور يحذره وعرض عليه حصن السَّمَدَانِ وكان يومئذ في يده فشكر له هذا الصنيع وكان متردداً بين الأقدام والأحجام فبينا هو كذلك إذ وصله كتاب القاضي موفق الدين علي بن اليحيوي يقول فيه قد شاع الخبر انك واصل إلى اليمن وسمعت من محقق أن أخاك السلطان الملك الأشرف قد أرسل نفرين من الفداوية إليك فالحزم الحزم واحترز في نفسك. فلما جاءَه كتاب القاضي موفق الدين بما ذكرناه اشتد عليه الأمر وسار مجدّاً. فلما وصل أبين وكان فيها عسكر من جهة الملك الأشرف هرب المقدم إلى اليمن في طائفة من العسكر ومالت طائفة أخرى إلى الملك المؤَيد فجهز أثقاله وحريمه إلى حصن السهدان وجهز معهم عسكراً فوصلوا على السلامة وعزم على حصار عدن وأخذها لينظر أين يبلغ معه أخوه فتوجه إلى عدن وتأَملها فرأى في بعض نواحيها درباً ضعيفاً متشعثاً فطلب صياداً من الصيادين الذين يصطادون حول الجبل وسأَله عن الجبل وعن طرقه وهل هو سهل أَو ممتنع وهل فيه طريق يفضي إلى باب عدن أم لا. ففكر الصياد أن فيه طريقاً يصل الإنسان منها إلى باب البلد فقال له تقدر أن تأخذ معك عسكراً وتسير بهم إلى الموضع الذي ذكرت قال نعم. فكتم السلطان أمره واستوقفهُ عنده. فلما كان بعد صلاة المغرب أرسل معهُ من أجواد الرجال ثلاثمائة رجال وأوصاهم أن لا يظهروا حتى يروا السلطان بالقرب منهم فساروا صحبة الصياد. ولما أَصبح الملك المؤَيد جمة عسكره وتوجه نحو الباب. وكان الوالي قد جمع عسكراً من داخل البلد لحفظ الباب. فلما قرب منهم الملك المؤَيد وتأَهبوا لقتاله ثار عليهم أولئك الرجال وصاحوا من رأْس الجبل ونزلوا إلى الباب فملكوهُ وهرب الوالي وعسكره إلى داخل المدينة وصاحوا الأمان الأمان فأذم عليهم السلطان واستدعاهم إلى عنده فخرج إليه الوالي والنظار وأعيان البلد وصدور التجار رغبة ورهبة فاستولى على عدن ولم ينلها من أرباب الطمع أحد ورجع إلى الأجنة وهو في أشد ما يكون من الفرحج وجعل يتمثل بقول الشاعر

إذا لم يكن إلا الأَسنة مركباً ... فلا رأْي للمضطر إلا ركوبها

ثم تقدم السلطان إلى لحج وأبين فاستولى عليهما وامتلأَ اليمن هيبة منه وقلوب الناس محبة له. فلما سمع السلطان الملك الأشرف ما كانه مه في عدن ولحج وأَبين وإن الناس مالوا إليه كما يميل الحديد إلى المغناطيس جهز ولده الناصر في ثلاثمائة فارس فساروا إلى الراحة ووقف فيها. ووصل الشريف جمال الدين علي بن عبد الله من البلاد العليا فجهزه السلطان الملك الأشرف في خيل والحقه بولده الناصر. ثم طلب الجيوش من صنعاءَ وغرها وجهز ولدي الأمير شمس الدين أردمر نجم الدين وبدر الدين. فكثرت الجموع وتأَلبت الخيل من ناجية. ولم يكن يومئذ مع الملك المؤَيد إلا عسكره

الذي وصل بهِ من الشحر وجماعة من الجحافل مقدمهم عمر بن سهيل.
وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو محمد عبد الله بن عبيد بن أبي بكر بن عبد الله البلعاني وكان فقيهاً فاضلاً ولد في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستمائة. وتفقه بعلي بن قاسم الحكمي صاحب زبيد وعمر بن مفلح فقيه أَبين وبأحد الوزيرين ودرس في معزية تعز في النجاحية. وعنهُ أخذ جماعة من أهل تعز وغيرها. وإثنى عليه الفقيه عفيف الدين عثمان الشرعبي في تعليقته. وكانت وفاته نهار الخميس الرابع عشر من شعبان من السنة المذكورةِ رحمه الله تعالى.

(١١٦/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح عبيد بن أحمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود بن عليان الزحمي وكان فقيهاً عارفاً. ولد يوم الثاني من ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وستمائة وتفقه بالفقيه. وبعلي بن الحسين الأصابي وبمحمد بن يحيى بن إسحاق وابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن إسحاق وغيرهم. ويروى عنه رحمه الله أنه قال رأيت ليلة إني سائر في طريق فوردت على ثلاث طرق يمناهن متسعة ويسراهن ضيقة والتي بينهما بين بينِ فتحيرت أيهن أسلك ثم قوي عزمي على سلوك الوسطى فلما صرت فيها لقيني رجل فقال أتدري ما الطريق قلت لا. قال أم الكبيرة فطريق ابن حنبل والوسطى طريق الشافعي والثالثة طريق مالك. ثم ارتحل إلى زبيد فاخذ بها الفرائض عن سعد بن معاوية والتنبيه عن الفقيه علي بن قاسم فقيه زبيد وسمع البيان عن عبد الله بن يحيى. ولما حج أخذ في مكة عن ابن النعمان التبريزي وتفقه به جماعة من بلده. وكانت وفاته فجأةً ليلة الاثنين لثمان بقين من صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الصالح سبأ بن عمر الدمني. وكان فقيهاً صالحاً حبراً قرأ القرآن للسبعة القراء حتى أتقن. وكانت قراءَته على رجل من صهبان وأخذ كتب الحديث عن عبد الله بن أسعد الحديقي وتفقه. ثم قدم عدن فترتب في مسجد السوق صاحب المنارة. وكان يقرأ فيه القرآن والحديث وعنهُ أخذ أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الحارزي كتاب البخاري ومسلم وامتحن في آخر عمره بكفاف بصره. وكانت وفاته في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفي هذه السنة توفي المقري الفاضل أبو محمد عبد الرحمن بن القاضي عبد الله بن أسعد بن الفقيه محمد بن موسى العمراني. وكان مقرئاً مجيداً فاضلاً عارفاً بالقراءات مشهوراً بها محققاً لها. وله في اللغة معرفة حسنة. توفي في سلخ شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الصالح الفاضل أبو حامد محمد بن أبي بكر بن أحمد ابن دروب صاحب ريمة إلا وكان فقيهاً بارعاً صوفياً تفقه بالجحيفي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن أسعد بن علي بن فضل الصعبي المعروف بالجعميم بكسر الجيم وسكون العين المهملة وبعدها ميم مكسورة وياءُ وميم. وكان فقيهاً صالحاً تقياً

مبارك التدريس موفقاً في الفتوى تفقه بابي العباس أحمد بن عبيد بن يحيى مقدم الذكر ودرس بعده وسألَهُ جماعة من فقهاء سهفنة أن يسمعهم تفسير النقاش فتهيأ لذلك فقال له بعض أولاد القاضي أسعد بن مسلم أحب يا فقيه أن تجعل ذلك عندي في داري يريد أن تقوم بكفاية الجميع من الجماعة فأجابهُ إلى ذلك. وسار من سهفنة إلى دار يزيد فاجتمع إليه خلق كثير. قال الفقيه صاح وكنت القارئ الغالب الكتاب والجماعة يسمعون. قال وكان الفقيه قد تنعس في اثناءِ القراءَة فتغلب على الظن أنه لا يسمع فأردت أن أكاسر عن القراءة إذا بي أَرى النبي صلى الله عليه وسلم قاعداً مع الفقيه وهو يقول لي اقرأْ يا صالح فقرأْت ولم اسكت بعد ذلك. ثم رأيت الفقيه قد فتح عينيه عقيب ذلك وتبسم إليَّ خاصة. فلم ادر ما تحت تبسمه من معنى. وكانت وفاتهُ في شهر ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة خمس وتسعين وستمائة سارت العساكر الأشرفية من الراحة إلى الجوة إلى كثيب القشيب. وسار إليهم المؤَيد بين ولديه الظافر والمظفر كما قال الشاعر

تراهُ من نفسهِ ... في جحفل لجب

(١١٧/١)

فلما اصطدم الناس هزمهم حتى أعقلهم بالكثيب فنزل الشريف علي ابن عبد الله ووجوه العسكر فملكوا بعض العرصة. واصطدموا صدمة أُخرى فاهتزمت الجحافل وولوا الأدبار وهم معظم عسكره فرجع إلى الدرب على حامية وقد نهبت خزانته وآلتهُ وأحاطت العساكر بالدرب من كل ناحية فدخل عليه ابن أخيه محمد الناصر ووقف معهُ ملياً ثم خرجوا جميعاً إلى خيمة قد ضربت فلم يزالوا بهِ حتى تقيد هو ووالداه وأقاموا بقية يومهم هنالك. واصبحوا سائرين إلى الجوة. وكان السلطان الملك الأشرف واقفاً بها منتظراً لما يحدث من إخبارهم فلما أتاهُ العلم بتقييدهم بكى بكاءً شديداً وأمر بإكرامهم وأرسل بهم إلى حصن تعز فوصلوا يوم الأحد التاسع عشر من المحرم من السنة المذكورة فاسكنوا دار الأدب. وأمر السلطان الملك الأشرف لهم بترتيب الأطعمة والأشربة وجعل عليهم خادماً اسمهُ كافور البتولي. وكان إذ ذاك مقدماً على المماليك فكان فيما يقال عنهُ يكسر الخبز إذا دخل عليهم وربما يفتش الربادي. ولما صار في السجن كما ذكرنا كتب إليه الفقيه أبو بكري بن محمد بن عمر اليحيوي كتاباً يقول فيه:)بسم الله الرحمن الرحيم. والضحى والليل إذا سجى(. ما ودعك ربك ضعيفاً. وأخبرني الفقيه محمد بن إبراهيم الصنعاني قال اخبرنا شيخنا الفقيه العلامة نفيس الدين سليمان بن إبراهيم العلوي قال حدثني جدي القاضي شرف الدين أبو القاسم بن عبد الرحمن الأشرفي أنه قال وجد ورقة مكتوبة بخط القاضي بهاء الدين فاستضعف خطه جداً. ثم أرسل بها إلى السلطان الملك المجاهد رحمه الله يعجبه من ذلك فأجاب رحمه الله نعم سيد الوزراء لسيد الملوك هذا لفظه بعينه. وكان أيضاً خطيباً مصقعاً لبيباً ذا دهاءٍ وسياسة ولم حسن نظر في تدبير المملكة. وكان

يحترم الفقهاءَ ويجلهم وهو أول من جمع له الوزارة والقضاء باليمن في الدولة المظفرية. وبعده القاضي موفق الدين علي بن محمد اليحيوي في الدولة المؤَيدية. ثم القاضي موفق الدين عبد الله بن علي بن محمد اليحيوي في الدولة المجاهدية ثم القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن عباس في الدولة الأشرفية. وهؤلاءِ جملة من جمع له القضاء والوزارة إلى هذا التاريخ وهو سنة اثنين وثمانمائة. ولم يزل القاضي بهاء الدين في وظيفتي الوزارة وقضاء الأقضية كما ذكرنا إلى أثناء سنة أربع وتسعين وستمائة. فلما كان في شهر جمادى الأخرى من السنة المذكورة. وأقام السلطان المظفر رحمه الله ولده الملك الأشرف في الملك والمملكة وقلده أمور البلاد والعباد. أشار القاضي بها الدين على السلطان الملك المظفر أن يكون أخوه القاضي حسام الدين حسان وزيراً للأشراف. فأمر الخليفة بذلك وبقي القاضي بهاء الدين على قضاء الأقضية وأخوه حسان يراجعه بما يرد عليه من أمر التهائم إلى أن توفي القاضي بهاء الدين في النصف من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة سنة خمس وتسعين وستمائة رحمه الله.

وفي هذه السنة توفيت الدار الشمسي وهي ابنة السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول. وكانت امرأَة عاقلة عفيفة حازمة لبيبة. وكانت تحب أخاها المظفر حبّاً شديداً ويحسّنِ سياستها وتدبيرها حتى اتصل بالملك إذ كانت يومئذ بزبيد حين توفي والدهما. فشمرت وبذلت الأموال للرجال حفظت المدينة حتى وصل أخوها من المهجم إلى زبيد ملكها فهي أول مدينة ظهر فيها ملكه. ثم كانت هي السبب في أخذ الدملؤه وقد تقدم ذكر ذلك. ولذلك كان يبرها ولا يخالف لها رأْياً. وكانت ذات صدقة ومعروف ومآثرها كثيرة منها المدرسة المعروفة بالشمسية بذي مدينة من مدينة تعز لها وقف جيد على إمام ومؤَذن وقيم ومدرس وطلبة ومعلم وأيتام يتعلمون القرآن وابتنت مدرسة في زبيد معروفة بالشمسية أيضاً في جنوبي سوق المعاصر وأَوقفت عليها أيضاً وقفاً جيداً يقوم بكفاية المرتبين فيها. وهي التي تولت كفاية المؤَيد ابن أخيها. وكانت تحبه حبّاً شديداً. وسافرت معهُ إلى الشحر فتوفي أخوها السلطان الملك المظفر وهي هنالك فرجعت هي والمؤَيد فلما اعتقل المؤَيد كما ذكرنا صارت إلى تعز فنزلت في مدرسة أخيها المظفر وأقامت فيها أياماً فمرضت فاشتد بها المرض فانتقلت إلى دار المؤَيد ابن أخيها فلم نزل به حتى توفيت في شهر رجب من السنة المذكورة رحمها الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل يوسف بن أحمد بن الفقيه حسين العديني وكان فقيهاً فاضلاً عارفاً بالفقه والفرائض وهو ممن ارتحل إلى تهامة فقرأ فيها الخلاصة على الفقيه عمر بن عاصم بزبيد. وزار الإمام العلامة أحمد بن موسى بن عجيل. وكانت وفاتهُ في قرية للذنيتين لأربعه بقين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة رحمه الله.

وفيها توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن علي السرددي. وكان فقيهاً مجوداً وغلب عليهِ فن الحديث. وأدرك الشيوخ الأَكابر من تهامة والجبال والواردين إليهما من غيرهما. من تهامة محمد بن إبراهيم القشلي وإسماعيل ابن محمد الحضرمي وعمر السباعي. ومن الجبال محمد بن مصباح وغيرهُ.

وأما القادمون فجماعة منهم العماد الإسكندري والقطب العسقلاني وابن حشيش وإسحاق الطبري. وعنهُ أخذ غالب فقهاء تعز كتب المسموعات كالبخاري ومسلم. وغالب كتب الحديث. وكانت كتبه محققة مضبوطة عند الفقهاء المحققين. وكانت وفاتهُ في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح الإمام أبو محمد عبد الله بن عمر بن سالم الفائشي. وكان مولده سنة تسع وخمسين وستمائة تقريباً. قالهُ الجندي وكان فقيهاً فاضلاً مقرئاً نحوياً له معرفة جيدة في الفقه والقراءات والنحو ولهُ مصنف جيد نحا فيه نحو البابشاذية سماه اللوامع. ولهُ يدُ في الأصول واللغة والحديث. وسافر إلى أبين فاخذ بها عن محمد بن إبراهيم وعن ابن الرسول. ثم سافر إلى تهامة فأخذ بها عن الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل.

قال الجندي ثم قدم علينا الجند فاخذ عنه أربعين الإمام بطال بروايتها لها عن التهامي بن بطال مصنفها. قال وكان أوجه أهل البلد ديناً وعلماً. فلما مرض واشتد به المرض دخل عليه جماعة من الفقهاء يزورونهُ فدعوا لهُ فجعل يوصيهم بتقوى الله وكلما دعوا لهٌ بالعافية أعرض عن ذلك. فقالوا لهُ أنا نجدك في عافية وكلامك كلام من قدآيس من العافية وأيقن بالموت فقال إني رأيت الباحة أن سقف بيتي هذا كشف حتى رأيت السماء ونودت مها اقدم يا فقيه من باب الترحيب ونوديت باسمي واسم أبي أقدم مرحباً بك فعلمت أن أجلي قد دنا. فتوفي وهو على تدريس النجمية يوم الأربعاء لإحدى عشر ليلة خلت من شعبان من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله بن عمران الخولاني. وكان فقيهاً مقرئاً محدثاً. ولد سنة إحدى وستمائة. وقرأ القرآن بجياً والفقه والحديث على عشرين شيخاً. أكثرهم أخذاً عنهُ حسن بن راشد وأبو بكر بن ناصر. وكان الغالب عليه المسموعات والإجازات. وحج ثلاث سنين ودرس في مصنعة شير وفي الجند. وكان مسكنهُ في الجهة عزلة يعرف بريد براءٍ مكسورة وياءٍ مثناة من تحتها وآخر الاسم دال مهملة. وكان فقيهاً شخياً عالي الهمة. وتوفي في العزلة المذكورة ليلة الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان من السنة المذكورة رحمهُ اللهُ تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد بن علي ابن إبراهيم بن أسعد الهمداني يجتمع مع الفقيه عمر بن سعيد العقيبي في أسعد بن أحمد. وكانت له قراءات وسماعات وإجازات واشتغل عن العبادة وكان مشتغلاً بالفقه والدين من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وارتحل إلى تهامة فاخذ بها عن الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي.

قال الجندي وعليه قرأت الأربعين سريع الدمعة. ومتى سئل الدعاء مد كيفه ودعا وهو يبكى واستولى رأسه لموضع بعد ابن عمه عبد الرحمن المذكور أولاً. ولم يزل على حالٍ مرضي إلى أن توفي يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة رحمه الله. ولما بلغ خبر وفاته إلى

الفقيه الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الأصبحي طلع الذي عقيب وحضر دفنه وأقام هنالك يوماً أو يومين بسبب القراءة على تربته ثلاثة أيام. فبلغه خبر وفاة القاضي بهاء الدين الوزير محمد بن أسعد العمراني المذكور أولاً فسافر من هنالك إلى المصنعة يعزي. وقرأ بعض أيام القراءة ثم عاد إلى بلده رحمهُ الله تعالى.

(١١٩/١)

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أسعد محمد بن موسى العمراني. وكان فقيهاً فاضلاً درس مدة في جامع المصنعة قال الجندي وعنهُ أخذت بعض كافي الصردفي والمهذب وبعض مصنعة في الرقائق وهو كتاب سماهُ: جامع أسباب الخيرات. ومثير عزم أهل الكسل والفترات. وهو من احسن كتب المتعبدين. ولهُ مختصر سماهُ البضاعة. في فضل صلاة الجماعة. قال وهو من المختصرات البديعة في ذلك. والتبصرة في علم الكلام. وشرح التنبيه شرحاً شافياً لائقاً اجمع الفقهاء على سماعه بعد فراغه من جميع فقهاء الجبال. وكان فيهم عدة من أكابر العصر قال وسمعت عليه بعضه وقرأت عليه جميع مصنفه الذي سماه البضاعة وإيضاح الأصبحي. وكانت وفاتهُ في شهر شوال من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفي سنة ست وتسعين توفي السلطان الملك الأشرف محمد الدين عمر بن يوسف ابن عمر بن علي بن رسول. وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لسبع بقين من المحرم أول شهور السنة المذكورة. وكان ولده الناصر يومئذٍ في القحمة والعادل في صنعاء لأمر أراده الله تعالى فاتفقت آراء الخدم الخاصة والعامة والستور الكريمة على إبراز بدر الجود. وإصباح شمس الوجود. وإن يزأر الليث في غابه. وإن يستقر الحق في نصابه.وان يسوس الدولة نعمانها. وإن يتسلم الحكمة لقمانها. فلما كان السحر من تلك الليلة تقدمت الأكابر من الخدام إلى مولانا السلطان الملك المؤيد وهو في مجلسه فأخبره بانتقال أخيه الملك الأشرف إلى رحمة الله تعالى فناله من الأسف ما ناله لفقد أخيه وداخل المسلمين من السرور ما كاد يذهب بنفوسهم. ومن فرح النفس ما يقتل. ولما خرج من سجنه طلب من والي الحصن سيفاً يكون في يده فأتى بثلاثة سيوف له ولولديه وسار حتى وقف على رأس أخيه وبكى بكاءً شديداً وتأسف عليه تأسفاً عظيماً ثم خرج من عنده وقد أمر بتجهيزه فقعد في تخت الملك إلى أن طلع الفجر فلما لاح ضوء الفجر أمر نوابة الحصن أن يصيحوا بالترحم على الملك الأشرف وبالصباح السعيد على الملك المؤيد فسبحان من لا يزول ملكه. ولا يبيد سلطانه.

وكان الملك الأشرف ملكاً سعيداً صالحاً براً باخوته وقرابته محباً لهم. وكان رؤوفاً للرعية عطوفاً عليهم وحصل في مدته في اليمن جراد عظيم استولى على الزرع والثمار فاشتكت الرعية إليه فأمر بمسامحتهم فتوقف الوزير عليهم وهو القاضي حسام الدين بن حسان بن أسعد العمراني ولم يمض المسامحة لهم كما أمر السلطان فاشتكوه إلى السلطان ثانية فكتب إليه يا فلان اقتصر عنهم ولا

تفرقهم علينا فإنه يصعب علينا جمعهم.
ومن مناقبه رحمه الله تعالى أن رعية النخل بوادي زبيد كانوا قد تلفوا من الجور الشديد وإفلات الملوك عليهم فبلغ بهم الأمر أن من كان له نخل لا يزوجه أحد وأي امرأة كان لها نخل لا يتزوجها أحد إلا مغرور. وكان الرجل الذي ليس له نخل إذا تزوج امرأة لا نخل لها يقال عند عقد النكاح بينهما ومن سعادتهما أنه لا نخل لأحد منهما. لما ولي الملك الأشرف أمر من افتقد النخل فأزال عن أهله ما نزل بهم من الظلم. فهو أول من سن العديد بالفقهاء العدول وتبعه على ذلك بعده رحمهم الله أجمعين. وكان له من الولد محمد الناصر وأبو بكر العادل. ووزيره القاضي بهاء الدين وزير والده فلما توفي القاضي بهاء الدين استوزر أخاه القاضي حسام الدين واستعفى القاضي بهاء الدين عن الوزارة وبقي على قضاء الأقضية وإنما كان أخوه حسان يستشيره فيما يتعاظمه من الأمر والله أعلم.

الباب الخامس

ذكر أخبار الدولة المؤيدية

وما كان فيها

قال علماء السير والأخبار لما توفي السلطان الملك الأشرف ممهد الدين عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول رحمة الله عليه وأعلن الصائح بالترحم عليه والصباح السعيد على السلطان الملك المؤيد كما ذكرنا ارتجت المدينة وانزعج الناس وماج بعضهم في بعض فأمر السلطان بفتح أبواب الحصن فكان أول من طلع إليه من الناس الوزير القاضي حسام الدين حسان بن أسعد ين محمد بن موسى العمراني وزير أخيه المرحوم فاجتمع به وحلف لهُ الإيمان والمغلظة واستحلف له الجند والأمراء واعيان الدولة فيختلف عليه منهم اثنان ولم يمتنع عليه سهل ولا جبل ولا بلد ولا حضر. جرت أموره كلها على السداد والوفاق.

(١٢٠/١)

وكتب تاج الدين الموصلي في ذلك اليوم مكاتيب إلى بلاد التهائم بأجمعه والى الجبال بأجمعها والى جهة صنعاء والأشراف فدخل الناس في الطاعة أفواجاً وأمر بتجهيز أخيه وتنفيذ وصيته فخرجوا به من الحصن في صبيحة الليلة التي توفي فيها وإمامه الظافر والمظفر يمشيان واعيان الدولة جميعاً حتى دخلوا به مدرسته التي أنشأها في معزية تعز فدفن بها وأقام القراء عليه سبعة أيام كما جرت عادة الملوك.
وهنأه جماعة من الشعراء منهم الأديب شائق الدين يوسف بن محمد العنسي بقصيدة بديعة استهلال بارزة في قالب الكمال وهي:
القوس مرتزة في كف باريها ... فليعلم الناس قاصيها ودانيها
وليلبس الكل منهم درع مسكنة ... كي يصبحوا في أمان من مراميها

وكل نعمة من ندا ملكٍ ... أبغي سالبها والذل كاسيها
يهنئ المؤيد بل تهنئ خلافته ... أني أهنيه منها ما أهنيها
خليفة الله من بعد الخليفة يا ... ملك الملوك جميعاً لا أحاشيها
أن الخلافة ما قرت ولا هدأت ... حتى رمت نفسها كف حاميها
أضحت محجلة الأيام مذ وقعت ... في كف داوودها غرا لياليها
وفيها يقول:
أن الرعية في أمنٍ وفي دعة ... وفي بُلَهْنيةٍ إذ أنت راعيها
وكم يد لهزبر الدين قد حملت ... لغير طالبها منها وراجيها
بلاد غسان ما انفكت دعائمها ... لما أنت من معاليه معاليها
ترى لملك آسٍ لوالده ... سقاه قبل أياديه وهاميها
وهنأه العفيف عبد الله بن جعفر بقصيدة أولها:
أملك داود أم ملك ابن داود ... ما أن أقيس بكنعان ونمرود
أفي الرواق هزبر تحت غابته ... أم الهزبر هزبر البأس والجود
بين السماء وبين الأرض مزدحم ... ومن القنا والظبا والشرب والقود
ومن ذوائب رايات إذا رفعت ... حسبتها طاردات بعد مطرود
تدافع الريح أن يجتاز ساحتها ... طوراً وتكمل طوراً في الأماليد
كان أمواج بحر الهند من زرد ... تفيض ما بين موضون ومسرود
لله من طود ملك في السماء سما ... وظل أمن على الآفاق ممدود
ورثت دولة غسان كما ورثت ... آباؤك الغلب من أجدادك الصيد
نامت جفون البرايا في حماك وفي ... أجفان سيفك أي تسهيد
فالأرض مشرقة والسحب مغدقة ... والنبت ما بين مخضود ومنضود
ولي مواعد من نعماك صادقة ... ومنك نعرف إنجاز المواعيد
كم انعم لك أيام الخليفة لي ... قد كان أول مسقي بها عودي

ولما علم الملك الناصر جلال الدين محمد بن الملك الأشرف بوفاة أبيه واستيلاء عمه على الملك والسلطنة وكان في أقطاعه القحمة بادر إلى باب عمه متمثلاً أمره فلما وصل إلى عمه اقبل عليه واحله من العز محلة عظيمة. ثم وصل أخوه فعاملهُ معاملة ترضيه من الكرامة والإنصاف وعرض عليهما الاستمرار على أقطاعهما فاستعفيا عن الآمرية وقالا لا نحب خدمة بعد الوالد. وكان الواسطة بينهما وين السلطان الفقيه أبو بكر بن محمد بن عمر اليحيوي وأخذ لهما من السلطان عهداً وثيقاً أنه لا يغير عليهما ولا على أحدهما وأخذ عيهما أن لا ينازعاه ولا ينازعه أحد منهما. وكنا بين السلطان الملك المؤيد وبين الفقيه أبي بكر اليحيوي المذكور صبحة أكيدة ومحبة شديدة. وكان السلطان رحمه الله يعتمد رأي الفقيه أبي بكر في جميع ما يشير به عليه. وكنا الفقيه أبو بكر أوحد

أهل عصره وعلماء زمانه. فلما حصل ما ذكرنا من قصة الدعنس وسجن السلطان الملك المؤيد في حصن تعز اغتم الفقيه أبو بكر على ما ناله غماً شديداً. واتصل العلم بالملك الأشرف أن الفقيه أبا بكر قصد المخالفة وإثارة الفتنة فاستوحش منه الملك الأشرف. وعلم الفقيه بالمكيدة فكتب إلى السلطان قصيدة يقول فيها:

تبغون قتلي ومالي فيكم غرضٌ ... غير النجاة على مجموع أحوالي
وتزعمون بان الجن طوع يدي ... هل يقهر الجن إلا بالملأ العالي
مهلاً فهذا عصا موسى وحربته ... وتاج منزر معها تاج عطكال
وذي الهياكل والأجراس أجمعها ... وذي البثور وذا المزراق يا عال
وذي الحراب أولى الأملاك كلهم ... ما ينثني حدها عن هتك أجيال

(١٢١/١)

ظننت أَني دعوت الله ذا غضب ... عليك بالهلك يا حاشا لأمثالي
ما كنت أدعو على شيءٍ بلا أدب ... وقد تمسكت من طه بأذيال
وخاتم الرسل لم يدعو على نفرٍ ... آذوهُ جهلاً فلم يعبأْ بجهَّال
وفارق الدار والأهلين مرتحلاً ... إلى المدينة حسب الأمر لا قال
وقام من بعده الصديق محتسباً ... حتى قضى نحبه في سم مغتال
أبو حسين قضى وابناه نحبهما ... سمّاً وقتلاً بأسيافٍ لضلاَّل
كذا ابن ادهم لم يدعو وقد عبثوا ... وصبَّ بالرأس منه بول بوال
وشبهوا لحية منهُ وقد كرمت ... على المهيمن علجاً غير ذي بال
فلم أحول ولا حالوا ولا عجلوا ... ما ثمَّ أمر بدا يقضى بإعجال
من ذاك منهم ترى لم يدر كيف أتى ... بعرش بلقيس داعي الله في حال
وكلما ترتضوا مني وتنتقموا ... ما القول قولي ولا الأفعال أفعالي
فاحكم بما شئت أن صبراً وإن عجلاً ... فالأمر اقرب من فعل على بال
هل يحرق السجن من ملاه أدبه ... إلا أخو الجهل بالآتي وبالحال
فليس شهران مما يقتضي عجلاً ... إن كنت تسمع فانظر صدق أقوالي
عشرون شهراً توالى لا تجاوزها ... وليس آخرها يقضي بإكمال
ويدخل الدار من لا يرتضيه لها ... فصائح منكم يدعوا بأعوال
لم تنكروا النص والتنزيل ويحكم ... ووعد ربي ما هذا بإجمال
فاسمع لما قلتهُ وارقبه مصطبراً ... ولا تعرج على قيلٍ ولا قال
وخذهُ بالجد لا هزلاً ولا كذباً ... فليس ذا القول من أقوال هزَّال

وهذه الأبيات من وقف عليها علم بمكان الشيخ العارف من علم المعارف وفي ذلك كفاية لمن تأمل والله أعلم.

ثم توجه الفقيه بعد إنشاء هذه القصية إلى ناحية وصار هارباً من الملك الأشرف فأقام هنالك إلى أن توفي الملك الأشرف في التاريخ المذكور فلما استولى السلطان الملك المؤيد على الملك والمملكة رجع الفقيه إلى مدينته واجتمع بالسلطان وفرح به فرحاً شديداً. واستوزر أخاه الصاحب موفق الدين علي بن محمد بن عمر بن اليحيوي المعروف بالصاحب وكانت وزارته في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة وصنع له ما يصنع للوزراء من رفع الدواة وعقد الطيلسان وفوض إليه قضاء الأقضية وكان ثابتاً في أموره كلها لم يكن معهُ من الطيش والعجلة شيء ونفذ أمرهُ في البلاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وعاضده السلطان على ذلك وتقدم عند السلطان تقدماً كلياً لم يسمع بمثله وانطلق عليه اسم الصاحب انطلاقاً كلياً في أقطار اليمن حتى صار علماً في حقه كالصاحب بن عباد في العراق فجمع أولاده واخوته لا يكادون يعرفون حتى يتعرفون به إما بنبوة أو أخوة.

ولما استوزره السلطان كما ذكرنا في تاريخه المذكور برز أمر السلطان على القاضي حسام الدين بن أسعد العمراني أن يكن هو وأخوته سهفتة على الأعزاز والإكرام ولم يغير عليهم حال من الأحوال. ثم بلغ السلطان من الناصر ابن أخيه على جهة النصح لعمه أن عبداً للقاضي حسان طلع إلى جهة عومان ووجد معتقة من الأشرفية كانت تحت القاضي بهاء الدين محمد بن أسعد فتحدث العبد معها بحديث أسره إليها أن معه قارورة السم من عند سيده القاضي حسان بن أسعد أمره أن يتلطف إلى من يتصل بالملك المؤيد ويسقيه منها وإن غرض القاضي وبني أبيه أهلاك بني رسول قاطبة. فلما اتصل العلم إلى السلطان بهذا غضب غضباً شديداً وطلبهم بحسبة أموال الأيتام وغلل الموقوفات في مدة نظرهم عليها فما أجابوه إلى شيء من ذلك أبداً فقبض عليهم وبنى لهم سجناً على باب دار الولاية استكفاءً لشرهم.

ومن صحب لدنيا طويلاً تقلبت ... على عينه حتى يرى صدقها كذباً

(١٢٢/١)

وقد كان في قلب السلطان من ولدي أزدمر نجم الدين وبدر الدين ومن ابن الهكاري استياء من يوم الدعيس فأمر بالحوطة عليهم فقبضوا فأرسلهم إلى حصن الدملؤة ثم قبض بعدهم أمير جاندار فجعل معهم في دار الأدب بالدملؤة. وفي خلال ذلك قدمت بعدهم رسل الأشراف على السلطان بالتهنئة بالملك ولعقد الصلح وقد كانوا عقيب موت الأشرف رحمة الله عليه استولوا على الكولة وأحرقوها واخذوا حصني اللجام ونعمان وعلى مدينة صعدة وأصلحوا على ذلك وكان الإمام مطهر بن يحيى حاطاً على كحلان الشرف فطلبه الأشرف للدخول معهم في الصلح ورفع المحطة فأمرهم بالصلح وطيبهم ولم يزل حاطاً على الحسن حتى أخذه.

وفي هذه السنة نزل السلطان الملك المؤيد زبيد وكان نزوله في شهر جمادى الآخرة بعد أن أقطع ولده المظفر صنعاء والظافر الفخرية والحربين فتوجه الملك المظفر إلى صنعاء في رجب من السنة المذكورة فاستعاد حصن ود من بني الحرث في آخر شعبان بهد أن زماه بالمنجتيق. ورجع السلطان إلى تعز في شعبان وصام في مدينة تعز. ونزل الملك المظفر من صنعاءَ في أول النصف الثاني من رمضان وكان نزوله بسبب العيد فعيَّد في تعز ثم عاد إلى إقطاعه. واستعاد السلطان حصون حَجَّة في ذي الحجة وأخذ المخلافة من الصارم إبراهيم بن يوسف بن منصور. وكانت في يده من سنة إحدى وتسعين وستمائة. واشترط الصارم شروطاً منها إقطاع مَوزع ونصف حَيس والذمة الشاملة والعفو عما جناه.

وفي هذه السنة اظهر الملك المسعود خلافاً على أخيه السلطان وكان مقطعاً بالأعمال السرددية ومقيماً بها فأوقع وسار إلى حرض فاستولى عليها وكان قد وصل ولد أسد الإسلام محمد بن الحسن إلى عمه السلطان المؤَيد وهو في مدينة تعز فأكرمه وانصفهُ وأبقى أباه على إقطاعه فلما خالف الملك المسعود على أَخيه وسار إلى حرض جمع العساكر وجاءَه الأشراف السليمانيون وسقط إليه من الجبال والجَوف خيل كثيرة فاجتمع معه عسكر عظيم. فجهز السلطان لحربه أَخاه الملك المنصور أيوب بن يوسف ووزيره القاضي موفق الدين الصاحب وولده الظافر عيسى بن الملك المؤَيد وأرسل معهم ثلاثة أفيال فساروا إليه في عسكر جيدٍ من عسكر الباب.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن عمر بن إسماعيل ابن زيد يحيى العزيزي لقباً والشعبي نسباً. وكان فقيهاً عارفاً بالصوليين والفروع والنحو واللغة. وهو من قوم من الشعوب يقال لهم بنو الشاعر من بطن يقال لهم بنو أحمد يسكن بعضهم في سامع وبعضهم في إكنيت بكسر الهمزة ويكون الكاف وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها وآخره تاء مثناة من فوقها. تفقه بالفقيه منصور والشعبي. وكان شريف النفس عالي الهمة مجللاً عند أهل بلده وغيرهم. وكان شجاعاً في الحرب فتاكاً عداءً يذكر من عدوه أنه كان إذا عدا خلف ظبي في البيداءِ لزمهُ مجاورة. وكان يقول شعراً رائقاً. وكان له أعداء يغزونه في جمع كثير يريدون قتله ونهب بيتِهِ فيخرج إليهم ويقاتلهم ويهزمهم وحده وربما قتل أَو جرح فيهم. وكان يكرم واصليه ويحسن إليهم. وكانت وفاتهُ رحمهُ الله تعالى في جمادى الأولى من السنة المذكورة. وكان له من الولد محمد بن علي ومنصور بن علي تفقه بشيخه منصور الشعبي. فأما منصور بن علي فعكف على الفقه والحديث وتقنه والنحو واللغة والفرائض والأصول والحساب. وكان مع ذلك شجاعاً وله بصيرة في الصناعات كالتجارة والخياطة وغيرهما. وكان يقول الشعر أيضاً وامتحن بقضاء الدملؤَة من قبل ابن الأديب فأقام فيه مدة يسيرة ثم توفي أول سنة ثماني عشرة وسبعمائة.

وأما أخوه محمد بن علي فإنه خدم في الدولة المؤَيدية كاتب الإنشاء وكان ذا دراية ثابتة وكان يقول شعراً مستحسناً. وكان كريم النفس وله مروءَة طائلة. ويحب أبناء جنسه من الفقهاء والطلبة ويعتني بحوائجهم. وكانت وفاته في غرة رجب من سنة ثماني عشرة وسبعمائة رحمهم الله تعالى.

وفي هذه السنة المذكورة توفي الفقيه الصالح أبو محمد عبد الله بن محمد عرف بمكرم بن مسعود بن أحمد بن سالم العدوي نسباً والمكرم لقباً. وكان فقيهاً صالحاً زاهداً ورعاً متمسكاً بالأثر. وكان عارفاً بالنحو والفقه واللغة والحديث. وكان ذا سيرة مرضية مواسياً للأصحاب كثير الذكر. ولما مرض دخل عليه أصحابه يعودونه فجعل يستحل منهم واحداً واحدا فقيل له لا تجزع فأنت في خير وعافية. فقال لم يبق من عمري سوى خمسة أيام. فقيل له بم عرفت هذا. فقال رأَيت الحق نهار أمس فهممت أن أتعلق بهِ فقيل لي بعد ست فوقع في قلبي إنها ستة أيام وقد مضى لي يوم فكان كما قال. فلما حضرته الوفاة أُغمي عليه فلما أفاق قال لمن حوله أين الثوب الذي أعطاني ربي. ولازم على ذلك ملازمة شديدة فأعطوه ثوباً من ثيابهم فردَّه. فقال أن ثوب ربي لا يشبه ثياب الآدميين وما كان ربي ليرجع في هبته. ثم عاد في غشيته وكان آخر كلام سمع منه إلا إله إلا الله. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أحمد بن البناء واصله من ظفار الأشراف. تفقه في بدايته في مذهب الزيدية ثم غرز عمله فصار مجتهداً لا يقلد إماماً ولا غيره. وكان كثير العزلة عظيم الورع إلى أن توفي في السنة المذكورة وقيل كانت وفاته في سنة خمس وسبعين وستمائة.

وفي هذه السنة توفي السيد الأجل الفاضل يحيى بن محمد بن أحمد بن علي بن سراج بن الحسن السراجي نسبة إلى جده سراج أحد الأشراف الحسينيين وكان إماماً كبيراً في مذهب الزيدية وعليه عكفوا مدة حتى أدعى الإمامة ونزل مع قوم يقال لهم بنو فاهم في حصن لهم وأطبق على أجابته خلق كثير من الناس وحسده الأشراف الحسينيون على الرئاسة. وكانت قراءَته للعلم في تهامة على الإمام أبي العباس أحمد بن موسى بن عجيل. ولما ادعي الإمامة كما ذكرنا كان الأمير في صنعاءَ يومئذٍ الأمير علم الدين الشعبي فحبسه أياماً ثم كحله فأرسل الله على الذين لزموه الجذام حتى أن الرجل إذا أصابه هذا الداء يعتزل في كهف من الكهوف لئلا يتعدى الداءُ منه إلى غيره ولا يدري حتى قد انبعث الداءُ بالباقين من أهله. ثم تغيرت روائحهم بحيث لا يستطيع أحد أن يقربهم من نتن الرائحة فهلك كثير منهم في مدة يسيرة وألقى الله بينهم العداوة والبغضاء فما برح بعضهم يقتل بعضاً حتى قلَّ عددهم ولم يبق منهم إلا اليسير. وأَقام السيد في صنعاءَ مكحولاً يؤخذ عنه العلم ويأتيه النذور من المسلمين إلى أن توفي في صفر من السنة المذكورة في مدينة صنعاء وقبر في مسجد الأجذم وقبره من اجل المزارات الصنعائية يتبرك بالدعاء عنده وتستنتج عنده الحوائج فتقضى. قال ابن عبد الحميد زرته مراراً ورأَيت منهُ آثاراً حميدة. ويوجد عنده رائحة المسك ليلة الاثنين وليلة الجمعة رحمه الله تعالى.

وفي سنة سبع وتسعين ركب الملك المسعود فيمن معه من العساكر التي جمعها من المخلاف الأَسفل ومن انضم إليه من أهل الجوف وغيرهم يريد المحالب فواجهه العسكر السلطاني المؤيدي

صحبة الملك الظافر عيسى ابن الملك المؤيد. والصاحب علي بن محمد التحيوي فيما بين المحالب وحرض فلما تراءى الجمعان وتهيأ للحرب الفريقان رأى الملك المسعود أنه مغلوب لا محالة فأذعن إلى الصلح قبل اصطدام الخيل فقبض العسكر السلطاني عليه وعلى ولده أسد الإسلام. وكان ذلك في المحرم من السنة المذكورة فساروا بهما إلى الحرم الشريف السلطاني فحنا عليهما واسكنهما دار الأدب من حصن تعز فأقاما فيه أياماً ثم أطلقهما وأمرهما بسكنى حيس. وقدر لهما جامكية جيدة حاملة لهما ولمن معهما من حاشيتهما وخدمهما

مكارمُ تسع الجاني بنائلها ... وتُورث الضد عزّاً بعد إذلال

(١٢٤/١)

وفي شهر صفر من السنة المذكورة نزل الملك المظفر متبرئاً من صنعاء ولم يكن دخلها إنما كان واقعاً في ذمار. وفي شهر ربيع الأول قتل الشيف سليمان بن محمد بن سليمان بن موسى قتله عبيدة بالوادي الحار. وفي شهر ربيع الآخر طلع الأمير سيف الدين طغريد للمحطة على حصن شَخَبٍ فوثب عليه. ولزم جماعة من مشائخ مذحج. ونزل في آخر ليلة من جمادى الآخرة. وهي ليلة السبت وقع مطر عظيم في قطر اليمن فعمَّ اليمن كله. وكان حدوثه على مضي النصف من الليلة المذكورة. وكان فيه رعد عظيم وريح شديدة. وكان معزم المطر في تهامة حتى قيل إنها أخرجت سفناً من ساحل الشرجة والأهواب بما فيها. وطرحتها على الساحل. وهدمت حصوناً شامخة في جبال تهامة وأقلعت أشجاراً عظيمة بأصولها.

قال المصنف رحمه الله وأظنها المطرة التي تسمى مطرة السبت فإنها مشهورة مذكورة. وكانت في آخر المائة السابعة وقل من يعرفها في عصرنا هذا سنة ست وتسعين وستمائة. وأدركت جماعةً ممن يعرفها وقد انقرضوا الآن لتقادم العهد. وفي شهر شعبان طلع الأمير جمال الدين علي بن بهرام إلى مأرب فعمر الحرمة وأعاد أمورها كما كانت على أَحسن قاعدة ملوكية.

وفي هذه السنة توفي الإمام مظهر بن يحيى وكانت وفاته يوم الاثنين الثاني عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة. وكانت بذروان حجة. وفي النصف الثاني من شهر رمضان المذكور طلع الملك المظفر إلى صنعاء. وقد كان السلطان جهز عسكره إلى حجة. منهم أستاذ دائرة الأمير الكبير بدر الدين محمد بن عمر بن ميكائيل. والفقيه شرف الدين أحمد بن علي الجنيد للمحطة على ابن الصليحي بيمين وعلى عمر بن يوسف بالطفر. فسلما الحصنين ونزلا على الذمة. ثم توجه الركاب العالي إلى البلاد العليا. وذلك عند امتناع الأشراف من الصلح فكان دخوله صنعاء لخمسة أيام بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة ثم طلع الظاهر يوم الرابع عشر من ذي الحجة. وكان طلوعه في اليوم المسفر صاحه عن ليلة الكسوف القمري ويقال

مع السعادة ما للنجم من اثرٍ ... فلا يضرُّك مرّيخ ولا زحل

ولما استقر السلطان بالمعسكر يوم الأحد سار يوم الاثنين نحو المنقاع بعساكره فقاتل عليه ثم عاد إلى محطته. وقد كان الأمير بن وهاسٍ والشيخ قاسم بن منصور صاحب ثلا خالفا على أصحابهما الأشراف. ووصلا إلى السلطان قبل طلوعه الظاهر. فصدر مع أولاد الشيخ قاسم ابن منصور الأمير علم الدين قاسم بن حمزة والأمير الصارم إبراهيم بن يوسف بن منصور في عسكره إلى بلاد حمير والطرف لحرب الأمير تاج الدين وأقام على العسكر ثمانية عشر يوماً في أثنائها دخلت عساكره صعدة مع الأمير جمال الدين علي بن بهرام. والأمير أسد الدين محمد بن أحمد بن عز الدين فذاكر لهم الأمير نجم الدين موسى بن أحمد والأمير أحمد بن علي والشريف محمد الهادي. ولما افترقت عساكرهم نزل الأمير موسى إلى حصنه عزان فخرب العسكر داره وبستانه.

(١٢٥/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن سعيد السعدي نسباً إلا بيني بلداً المعروف بابن الخطيب. وكان أبوه خطيباً في قرية من قرى أبين تعرف بالطرية. وكان مولده بها يوم الجمعة السادس من شهر رمضان من سنة أربع وعشرين وستمائة. فلما شب وقرأ القرآن خرج من بلده طالباً للعلم فوصل قرية الضحى من نواحي سردد فأدرك الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي فأَخذ عنه بعض شيءٍ ووجده مشغولاً بالعبادة قليل الفراغ لإقراءِ العلم فعزم على الانتقال إلى بعض الفقهاء وخرج عن القرية لذلك. فعلم بن الفقيه محمد بن إسماعيل فتبعه وأعاده وجاء به إلى ولده إسماعيل وقد تفقه وهو معتكف في المسجد يطالع الكتب. فقال له يا ولدي قد ألزمتك إقراء هذا الفقيه وتعليمه فقال حباً وكرامة. فكان أول من لزم مجلس الفقيه إسماعيل وتفقه به ولم يزل عنده حتى كمل تفقهه. ثم حصلت له عناية من الفقيه إسماعيل فاستغرق في العبادة وظهرت له كرامات وكان كثيراً ما يرى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن أمور مشكلة فبينها له. ولما كمل تفقهه وصار مملياً من سر الله عاد إلى بلده الطرية فلم يطب له فدخل مدينة عدن وسكن مسجداً يعرف الآن به بناحية حرام الشوك. فتسامع به أهل بلده وقصدوه إلى المسجد وترددوا إليه حتى شغلوه عن العبادة فتعب لذلك اشد التعب. وشكا إلى بعض خواصه ذلك فقال يا فقيه سلهم قرض شيء من أموالهم فعمل ذلك مع أحدهم فاعتذر وخرج وصار كلما لقي أحداً من أصحابه خبره أن الفقيه سأله قرض شيء من ماله فاعتذر منه فعرفوا أنهم متى وصلوا الشيخ سألهم كما سأل الأول فلم يعد أحد بعد ذلك يأتي الفقيه وانقطع الناس عن الوصول إليه فاستراح لذلك أشد راحة. وكان في عدن رجل مغربي له بنات وفيه خير ومحبة للعلماء والصالحين وعنده دنيا واسعة فوصل إلى الفقيه وصحبه وائتلف به ائتلافاً شديداً وزوجه واحدة من بناته فولدت له عدة أولاد وصحب الفقيه جماعة من أهل عدن وانتفعوا به نفعاً عظيماً وتهذبوا وصاروا أهل عبادة وزهادة. وأقام الفقيه في عدن مدة ثم خرج منها قاصداً تهامة فلما وصل موزع وقد علم بوصوله فقيهاً وحاكمها يومئذ الفقيه حسن

الشرعي. خرج في لقائه فلما التقاه أكرمه وانصفه وأنزله في بيته وبجلهُ وعظم حرمتهُ. فلما رآه الناس تأسوا به ثم أن الفقيه أعجبته موزع فتديرها وظهرت له فيها كرامات تخرج عن الحصر حتى أن كل من جنى ذنباً وهرب على ناحية الفقيه لا يقدر عليه أحد أبداً ولا يقصدهُ أحد بشر ما دام في جوار الفقيه. ولما مرض الفقيه مرض موته الذي مات فيه دخل عليه جماعة يعودونه في يوم سبت فقال يكون يوم الثلاثاء جلبة عظيمة يالها من جلبة. فكانت وفاته في يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وقبره في المقبرة التي قبر فيها الفقيه يعقوب وغيره من فقهاء موزع والى جنبه قبر الكاشغري في وسطها والشرعبي في شرقها ويعقوب في غربها رحمة الله عليهم أجمعين.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن الحسين بن أبي السعود ابن الحسن بن مسلم بن علي الهمداني. وكان مولدهُ يوم الأحد تاسع الحجة من سنة وتسعين وستمائة. وكان فقيهاً مجتهداً محصلاً ورعاً زاهداً تفقه بمحمد بن وكان كثير التردد إلى أبي حسن الأصبحي ويراجعه فيما يشكل عليه من المسائل ومن ورعه أنه كان في قرية العراوي شي يعتاده وهو قدر جيد من الطعام وهو من أملاك وقفها أهل الدار الشمسي وبراً فتورع هذا عنه ولم يقبله. وانقطع ذلك عن القائم بالقرية إلى عصرنا. وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لثلاث عشرة بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو حفص عمر بن عبد الله المعروف بابن عقبة نسبة إلى بني عقبة القضاة الذين ذكرهم ابن سمرة في قضاء جبلة. وكان تفقه بالفقيه عبد الرحمن بن سعيد العقيبي وغيره من فقهاء جبلة ودرس في مدرسة الجبالي. وتوفي في صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٢٦/١)

وفي سنة ثمان وتسعين نهض السلطان الملك المؤيد أول يوم من المحرم من محطته إلى أطراف الظاهر فوقف هناك ثمانية أيام ثم نهض إلى جهران فوقف فيها ثمانية أيام أيضاً. ثم نهض فحط بالظاهر الأسفل. وكان قد أخرب دار الأمير همام الدين وبستاناً له. ثم سار نحو جبل ظفار فتأهب الأشراف لقتاله فأحرقت ما حوله من الأعشاب. ووصله الأمير محمد بن داود بن الإمام فوقف عندهُ أياماً ومات في المحطة.

وفي هذا التاريخ وصل شريف السيد محمد بن الهادي المعروف بالقطابري إلى الأشراف فأرادوا أن يقدموه إماماً وكان كاملاً فامتنع من ذلك. فلما كان يوم الاثنين الثالث من صفر نهض السلطان من محطته مبات بالكولة وأقام يوم الثلاثاء ثم سار يوم الأربعاء فحط في القصر عند أشيح فأقام هنالك يوم الخميس وسار يوم الجمعة السابع من صفر فحط على البقاع بعساكره وجنوده. فملأت جيوشه

تلك الأماكن كلها وانتشرت في تلك الجهات.

إذا حلَّ في ارض بناها مدائناً ... وان سار عن أرض توت

فلما اصبح يوم السبت الثامن من الشهر المذكور نصب المنجنيق على الحصن المذكور وحاصره حصاراً شديداً وهو يومئذ للأمير جمال الدين علي بن عبد الله ولم يكن يومئذ فيه وإنما كان فيه ابنه الشريف إدريس ابن علي فزحفت العساكر المنصورة على الحصن ثلاثة أيام متوالية فكتب الأمير جمال الدين علي بن عبد الله إلى سائر الأشراف كتباً متتابعة يطلب منهم النصرة وهم يغالطونه ويعتذرون بالعجز. فلما اشتد عليهم الأمر كاتب في معنى الصلح وحصل خطاب ومراجعات. واستقر الحال على أن الأمير جمال الدين يواجه الصاحب موفق الدين فوصل إليهِ. واتفق حضور الملك المنصور والملك المظفر فاجتمعوا جميعاً وساروا بأجمعهم إلى المقام الشريف السلطاني. فلما علم السلطان رحمة الله عليه بوصول الأمير جمال الدين علي بن عبد الله ركب من مخيمه للقائه وقد صاروا بالقرب منهُ. فأكرمه وانصفه وانعقد الصلح بينهم وأخذ للأشراف ذمة سبعة اشهر وسلم لأجلها حصن ذيفان لان السلطان امتنع من الذمة عليهم. فلما استقر بالمحطة طلب من السلطان دخول الإعلام الشريفة الحصن اظهراً لطاعة والتسليم فنصبت في أعلى الحصن وكذلك العظيمة خفقت ذوائبها في أعالي الحصنين ولقد أحسن الحسن بن هاني حيث يقول

من كان بالسمر العوالي خاطباً ... جلبن لهُ بيض الحصون عرائساً

ولما انتظم الصلح وتسلم السلطان الحصنين المذكورين العظيمة والميقاع قال العفيف عبد الله بن جعفر يمدح السلطان الملك المؤيد ويذكر أخذه للحصنين المذكورين فقال

إرث الخلافة في يديك مشاعُ ... وغرارُ سيفك شاهدُ قطاع

شمس رأَت غلب الملوك شعاعها ... فقلوبها منها تطير شعاعُ

تبع التتابع في عناصر حمير ... والى المناقب هم لهُ أَتباعُ

عمرو وعمرو ذو الجناح ومنذرُ ... والأيمانِ وفايش وكلاعُ

ماء السماءِ سقى منابت اصلهِ ... ريّاً فأَورق عرقهُ النزاعُ

فلقد أَعاض بيوسف يقطان لا ... نكل ولا وكلُ ولا مجزاعُ

أَرى إلى الشرق القصي بشرب ... خطواتها نحو المغار سراعُ

والشمس من لمع الحديد كليلةُ ... والجو من سمر اليراع يراعُ

وفيالق سالت هوادئ خيلها ... سيل الأَتيّ تداولتهُ تلاعُ

تسري فمن زُرق الأَسنة فوقها ... نارُ ومن أسل الوشيح شعاعُ

غسلت مياه سيوفها ماء الدجي ... فتشابه الإصباح والأهزاعُ

ينحو بها مبدأ النجوم طوالعاً ... ملكُ مطيعُ للإلهِ مطاعُ

ليس العظيمة بالعظيمة عند من ... لسيوفهِ ميقاعها ميقاعُ

لم يشقَ وافدهم إليه وهل ترى ... يشقى أمرهُ وجليسهُ القعقاعُ

فغنمت أَدعيةً بأفواهٍ لهم ... فيهنَّ من ثدي البتول رضاعُ
وحفظت حقاً للنبي محمدٍ ... فيهم ولست بما حفظت تضاعُ
أَمؤَيد الإسلام داود الذي ... للعالمين بفضلهِ إجماعُ
ما يلتقي شرق البلاد وغربها ... إلا إذا ما امتدَّ منك الباعُ
أَهويت بالسيف العداة كما هوى ... وُد بسيف محمدٍ وسواعُ
الله أَعطاك السعادة كلها ... ماذا يضرُّ وربك النفَّاعُ

(١٢٧/١)

وهي أطول مما ذكرت وهذه عيونها ثم اقبل السلطان رحمهُ اله تعالى على الأمير جمال الدين علي بن عبد الله إقبالاً عظيماً وأزال عنهُ ما في خاطره وجدد له حمل الطبلخانة وحمل لهُ من الأموال والكساوي شيئاً كثيراً. ووصل ذلك كله إلى الميقاع. فخرج لإنشاء الرضاء مزفوفاً بالطبلخانة تحت خوافق الأعلام الهزبرية. وأعاد له بلاده التي كانت له. وفي أول يوم من شهر ربيع الأول ارتفع السلطان من المحطة إلى صنعاء.

أمام الكتيبة تزهى بهِ ... مكان السنان من العامل

قال الشريف إدريس وسرت في خدمته مع والدي وعدت من هناك وقد كنت خرجت إليه في محطة الميقاع فانصفني وأكرمني وأمر لي بمال جيدٍ وكسوة نفيسة وحصان جواد ولما استقر السلطان في صنعاء وصله أمراء الأشراف ومشايخ العربان. ووصل في جملتهم الأمير نجم الدين أحمد بن علي بن موسى بن الإمام لتمام صلح الأشراف فتم على تسليم اللحام ونعمان وصعدة وقسمة بلاد مدع كما كانت أيام الخليفة. وسارت البشائر بما استولى عليه من الممالك.

ثم توجه السلطان طالباً قبة العز من مدينة تعز وفي صحبته الأمير جمال الدين علي بن عبد الله والأمير نجم الدين أحمد بن علي بن موسى بن الإمام والأمير جمال الدين عبد الله بن علي بن وهاس وأمراء العرب. وقد دانت له البلاد والعباد فأقام في تعز أربعة اشهر.

وفي هذه المدة ظهر للسلطان ولده الملك السعيد من الجهة الكريمة ابنة الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول. وكانت له فرحة عظيمة ولم تطل مدته بل توفي بعد أيام قلائل فكان كما قال التهامي حيث يقول:

يا كوكباً ما كان اقصر عمرهُ ... وكذاك عمر كواكب الأسحار
وهلال أيام مضى لم يستدر ... بدراً ولم يمهل لوقت سرار

ثم توجه السلطان إلى زبيد في شهر جمادى الأخرى من السنة المذكورة وصحبته أمراء الأشراف ومشايخ العرب ودخل بجيشه مدينة زبيد فأقام فيها شهر شعبان الكريم فصام رمضان في مدينة تعز وعيَّد عيد الفطر بها. واستودعه الأمير جمال الدين علي بن عبد الله يوم العيد وهما على السماط

وتوجه إلى بلاده في شوال.

وحكى الشريف إدريس في كتابه قال تذاكرنا عند والدي رحمه الله إنصاف السلطان له وما أعطاه من يوم خروجه من الميقاع في سلخ صفر إلى أن فارقه في مستهل شوال فحسبناه جملاً لا تدقيقاً فكان اكثر من سبعين ألف دينار ملكية خارجاً عن الكسوات والخيول والعروض والآلات. وما أشبهها بقول القائل

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

وفي شهر ذي القعدة قدم الملك المظفر حسن بن داود إلى إقطاعه بصنعاء. وكان قد نزل مع أبيه يوم نزوله. فكان دخوله صنعاء يوم الاثنين ثالث عشر ذي القعدة من السنة المذكورة. فأقام بها إلى سلخ ذي الحجة من السنة المذكورة.

وتقدم الركاب العالي إلى عدن. وكان تقدمه في آخر شوال من السنة المذكورة فأقام هنالك إلى سلخ ذي الحجة وعيَّد عيد النحر بها وكان السماط في حقات تحت المنظر السلطاني على شاطئ البحر وقام الشعراء على السماط بأنواع الممادح. وبعد عبد الله بن جعفر فأرسل بقصيدته صحبة الشيخ محمد بن خطاب فانشدها وهي قصيدة طنانة من مختارات شعره

أعلمت من قاد الجبال خيولاً ... وأفاض من لمع السيوف سيولا

وأماج بحراً من دلاصٍ ذاخرٍ ... جرَّت أُسود الغاب منهُ ذيولا

ومن القسي أهله ما ينقضي ... منها الخصاب من النصول نصولا

وتزاحمت سمر القنا فتعانقت ... قرباً كما يلقى الخليل خليلا

فالغيث لا يلقى الطريق إلى الثرى ... والريح منهُ لا تطيق دخولا

سحب سرت فيها السيوف بوارقاً ... وتجاوبت فيها الرعود صهيلا

طلعت أسنتها نجوماً في السما ... فتبادرت عنها النجوم أُفولا

تركت ديار الملحدين طلولا ... مما يبيح بها دماً مطلولا

والأرض ترجف تحتها من أفكل ... والجوُّ يحسب شلوه مأْكولا

حطمت حجافلها الجحافل حطمة ... تدع الحمام مع القتيل قتيلا

طلبوا الفرار فمد شيطان القنا ... فأَعاد معقلهم بهِ معقولا

عرفوا الذي جهلوا فكل غضنفرٍ ... في الناس عاد نعامة أجفيلا

أين الفرار ولا فرار وبعدهم ... من ليس يترك للفرار سبيلا

(١٢٨/١)

ملكُ إذا هاجت هوائج بأْسهِ ... ترك العزيز من الملوك ذليلا

يقفو المظفر والشهيد مآثراً ... وعلىً وفخراً في الملوك أَثيلا

وافى إلى عدنٍ كمقدم جدهِ ... سيف بن ذي يزن الكرين أصولا
بحرُ إلى بحر يسرُّ بمثلهِ ... عيذاب ينذر دجلة والنيلا
وتقبلت عدنُ جبينك والتقت ... في ملتقاه سعادة وقبولا
فالشمس تحسد تاجك المعقود وال ... كليل يحسد ذلك إلا كليلا
لو يستطيع الثغر كان مقبلاً ... بالثغر منهُ ركابكم تقبيلا
أن جاوزت هذي الشمائل بحره ... جعلت مذاق الماء منهُ شمولا
أنت الذي الدنيا ميسرة بهِ ... والناس ينتظرون جيلاً جيلا
فاليوم قد وهب الإله لخلقهِ ... ظلاً على الأَقطار منهُ ظليلا
وأَتى لهم بدر السماء بذمةٍ ... مكتوبةٍ لا يظلمون فتيلا
الهزبر غسان بن قحطان الذي ... يدعوهُ في النسب القبيل قبيلا
في كل يومٍ لا برحت مقابلا ... فتحاً من الملك الجليل جليلا
في حيث ما رفعت بنودك نُزّلت ... آيات نصرك فوقها تنزيلا
لولا العوائق والعلائق لم أَغب ... عن ظل بابك بكرةً وأَصيلا
ومن التكرُّم والتفضل لم يزل ... عذري إلى صدقاتكم مقبولا
لا زال توفيق الإلهِ مقارناً ... لك حيث كبت إقامة ورحيلا

وقدم التجار المقيمون بالثغر النقاديم النفيسة على عوائد الملوك فردها السلطان وأمر بإفاضة الخلع عليهم والتشاريف والمراكب من البغال المختارة بالعدد الكاملة والسروج المذهبة والزنانير المنوعة. وأجرى نواخيذ الهند على جاري عادتهم. وأمر بإكرام النواخيذ والتجار المترددة إلى الثغر المحروس وأمر بأبطال ضمان بيت الخل. وأقام بفضله موسم العدل. وشاهد موسم الخيل من باب الطويلة. وسارت النواخيذ والتجار الكارمية ناشرين لواء عدله في أمصارهم. وابتسم الثغر عن مقابلته وعاد قافلاً إلى مدينة تعز.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح عبد الله بن أحمد بن محمد الشكيل وكان مولده سنة سبع عشرة وستمائة أخذ في بدايته عن أبيه ثم عن ابن ناصر بالذبيتين ثم عن عبد الله بن عمران الخولاني المتقدم ذكره. وكان جميل الخلق حسن القامة ذا لحية حسنة. ولقد سمع منه كثير يقول ما ذقت مسكراً قط مع كونه في بلادهم كثيراً ولا فاتتني صلاة لوقتها منذ بلغت ولا أتيت كبيرة.

ويروي عن الفقيه صالح بن عمر الرهي أنه رأى في منامه قائلاً يقول إذا أردت أن تنظر شيبة أبي بكر الصديق فاخرج ضحى ليلتك هذه إلى صلب ذي السقال تلق الرجل. قال فصليت الضحى وقتها ثم خرجت نحو الصلب الذي أشار إليه المخبر في النوم فلم الق ذا شيبة إلا عبد الله بن شكيل ماشياً ومعه صاحب له يحمل مشعله فلم اشك أنه المعني فسلمت عليه وتبركت به. وكانت وفاته ليلة الجمعة بعد صلاة المغرب غرة ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله.

وفيها توفي الفقيه الصالح إبراهيم بن الفقيه محمد بن إبراهيم المارني. وكان مولده سنة خمس عشرة

ستمائة وتفقه بعمر بن سعيد وهو اكثر من تروى كراماته ودرس بعد الفقيه أبي السعود في حياة شيخه.

(١٢٩/١)

ومن غريب ما يروى عمر من الكرامات أنه قال حصلت عليّ حمى حتى انقطعت بسببها أياماً في البيت فسأل الفقيه عني فاخبره اخوته بذلك فاتاني يزورني إلى ذي محدان. وقال لي يا إبراهيم أتحب أن اكتب لك عزيمة تعلقها عليك وبشرط أن لا تفتحها ولا تنظر ما فيها فقلت نعم فاستدعى بدواة وقرطاس. وكتب سطراً لم ادر ما هو ثم طوى الورقة وناولنيها وامرني بتعليقها على عضدي بخيط ففعلت. فلم أكد أتمم تعليقها حتى انقطعت عني الحمى فعجبت من ذلك فقلت في هذه الورقة اسم عظيم وأظن الفقيه حسدني عليه. ثم فتحتها. فوجدت فيها مكتوباً بسم الله الرحمن الرحيم لا غير فعجبت من ذلك وداخلني بعض ما يدخل العارف من المعروف إذ بالحمى قد عودتني بحالة أشد من الأولى فرحت إلى الفقيه وأخبرته فقال لعلك فتحت العزيمة فقلت نعم فقال اكتب لك غيرها بشرط أن لا تنظر فيها فقلت سمعاً وطاعة. فكتب مثل ذلك. وأمر من عمل لها خيطاً وعلقها عليَّ فلم تأتني فلبثت أياماً ثم فتحتها فوجدت فيها ما وجدت أولا. فداخلني شيء ما هو دون ما داخلني أولا فلم أقم حتى عادت الحمى فرحت إلى الفقيه وسلمت عليه فقال هل نظرت في العزيمة فقلت نعم فقال ألم أنهك اقتصر عن ذلك وأنا أكتب لك غيرها. فأجبت بالطاعة وكتب لي غيرها فلما علقها انقطعت الحمى فحمدت الله تعالى ولم أفتش العزيمة إلا بعد سنتين عديدة فلم أجد غير ما وجدت في الأولى والثانية فقبلت ذلك ووضعته على رأسي فلم تعد لي الحمى بعد ذلك ولما صار القضاء إلى بني محمد بن عمر جعلوا هذا إبراهيم قاضياً في جبلة فأقام مدة يسيرة. وتوفي وكانت وفاته في شهر رمضان من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو محمد عبد الرحمن بن أسعد بن محمد بن يوسف الحجاجي ثم الركبي وكان مسكنه بقرية تعرف بأروَس بهمزة مفتوحة وراء ساكنة. وواو مفتوحة وآخره سين مهملة. وهي من ناحية الدملؤة تفقه بعبد الله بن عبيد السجعي. ثم ارتحل إلى عدن فاخذ بها عن الفقيه أبي بكر المقري وأخذ عن السلفاني وكان فقيهاً عارفاً درس في بلدة وأخذ عنه بها جماعة وانتفعوا به. وكان مبارك التدريس فمن تفقه به محمد ابن أبي بكر مسبح. وعبد الله بن عبد الرحمن حاكم الدملؤة. وعلي بن محمد السحيلي. ومحمد بن عمر الخطيب وعبد الله بن أبي بكر الخطيب قاضي الجوة وأبو بكر بن محمد الأشعري.

قال الجندي. ولما منحت بحسبة عدن جعلت ابحث عن أحوال حكامها وفقهائها القاطنين والواردين فسمعت أهل عدن يذكرون عن هذا أنه كان ذا قضاء مرضي وإنه لم يصل أيام بني محمد بن عمر قاض مرضي السيرة في الظاهر والباطن غير هذا الفقيه. وكانت وفاته في السنة المذكورة في ناحية

المفاليس رحمة الله.
وفيها توفي الفقيه الصالح ابن عمر يوسف بن عمران بن النعمان بن زيد الحرازي وكان فقيهاً صالحاً حبراً عالماً ورعاً زاهداً وولي قضاء الجند. وكان متحرباً ولم تطل مدته وتوفي على النهج المرضي في أول السنة المذكورة.
وفي سنة تسع وتسعين أخذ الملك المظفر حصن غراس بالسيف قهراً وأخذ قبله حصن أرياب وهما للإسماعيلية. وأقيمت لذلك في صنعاء فرحة عظيمة وكسى جامعها بأنواع الملابس. وأمر أمير البلد أن يلبس الدكاكين والأسواق واظهروا سب الإسماعيلية.
وفي هذه السنة توفي الأمير الكبير جمال الدين علي بن عبد الله بن الحسن بن حمزة بن سليمان بن حمزة في حصنه الميقاع. وكان من رؤوس الأشراف ووجوههم وأعيانهم وصدورهم. وكانت وفاته يوم الثامن من جمادى الآخرة من السنة المذكورة. وعمه يومئذ نيف وسبعون سنة ولما توفي في تاريخه المذكور تمثل بقول زياد الأعجم حيث يقول
مات المغيرة بعد طول تعرض ... للقتل بين أسنة وصفاح

(١٣٠/١)

ولما مات الشريف جمال الدين اجمع أهله على تقديم ولده الأمير عماد الدين إدريس. وكان الريف إدريس من أعيان الرجال جامعاً لخصال الكمال فارساً هماماً شجاعاً مقداماً أدبياً أريباً عاقاً لبيباً جواداً كريماً عفيفاً حليماً جامعاً لأشتات العلوم من المنثور والمنظوم وهو مصنف كتاب كنز الأخبار في التواريخ والأخبار. وله غيره من التصانيف المفيدة لاسيما في التاريخ. ولما توفي والده كما ذكرنا كتب إلى السلطان الملك المؤيد يعرف خاطره الكريم أنه ثمرة شجرة غرسها إنعامه وغصن دوحة إكرامه وتقدم شكر بن علي القاسمي إلى الباب الشريف فقرر له عند السلطان. وكتب إليه بان يصل إلى الأبواب الشريفة وأرسل له بذمة سلطانية فلما وصلته الذمة السلطانية تقدم إلى الباب الشريف وكان وصوله آخر ذي القعدة من السنة المذكورة. وكان السلطان يومئذٍ في تعباب فأحضر للسلام إلى دار السلام فتلقاه السلطان بالترحيب التام والإجلال والإكرام واتفق حضور عيد النحر من السنة المذكورة. فبرز الأمر الشريف إلى أتابك العساكر المنصورة لأنه لا يستفتح الميدان أحد غيره مقدماً على كافة الأمراء ووجوه الدولة فكان كذلك ولما كان بعد العيد جرى الكلام على تسليم ما تحت يديه من الحصون وكان تحت يده العظيمة والميقاع فرأى أن تسليمها عنوان السلامة لأنه عنده عدالة فخشي أن يؤخذ عليه فيهم إلى المساعدة.
وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل الإمام أبو العباس عباس المساميري ثم الرافعي وكان مسكنه قرية القرشية من وادي رمَع. وكان فقيهاً فاضلاً كبير القدر شهير الذكر من أقران الفقيه أبي الخير بن منصور المحدث بزبيد وكان كثيراً ما يقول أبو الخير أكثر كتباً مني وأنا أكثر علماً منه. وكان

يغلب عليه فن الأدب ويقول شعراً جيداً

لا يطلب أعلم إلا الحرُّ ذو الكرم ... أو من لهُ حسب الآباءِ والشيم

أَو لوذعيٌّ أبي سيدُ فطنُ ... مقبَّلُ يقظُ مستقبل الفهم

إما ذوو الصّدِ ممن قد ذكرتهمُ ... بالفلس عندهم من اشرف الهمم

أُفّ لهم ولدنياهم وما جمعوا ... وحبذا الجهبذ النقاد للكلم

كل امرئ راسب في العلم عنصرهُ ... فانهُ في اقتباس العلم ذو قدم

وفيها توفي الفقيه الحسن علي ابن محمد الحكمي كان فقيهاً فاضلاً عارفاً تفقه بعلي بن إبراهيم النخلي. ودرَّس في حياته مدة وانتفع به جماعة وتزوج بابنة أخيه الفقيه عمر بن إبراهيم وظهر له منها أولاد. ولم يزل على التدريس إلى أن توفي في صفر من السنة المذكورة رحمهُ الله. وكان له ولد سلك مسلكاً غير لائق وتوفي هنالك والله الموفق.

وفي سنة سبعمائة تسلم السلطان الحصون التي كانت تحت يد الشريف إدريس بن علي في سادس عشر المحرم. وأمر السلطان أن يجري على عادة أبيه فحملت له الطبلخانة والإعلام وأمر له بسبعة آلاف دينار وتحف وملابس وخيل ومماليك. وركب الأمراء والأجناد إلى الخدمة الشريفة تحت خوافق الإعلام السلطانية وارداً وصادراً وانثنى إلى داره فيمن معه من العسكر المنصور. ودخلوا إلى سماط جليل الشأن مختلف الطعم والألوان. وقبض المنشور بإقطاع مدينة القحمة. وقال في ذلك قصيدة يمدح فيها السلطان يقول فيها

عوجاً على الربع من سلمى بذي قار ... واستوقفا العيس لي في ساحة الدارِ

وسائلاها عسى تنبئكما خبراً ... يشفي فؤداي ويقضي بعض أوطاري

وقال في أثنائها

يا راكباً بلّغن عني بني حسن ... وخص حمزة منهم عصمة الدارِ

أنَّ المؤَيد أَسماني وقرَّبني ... واختارني وهو حقّاً خير مختارِ

أعطى وأمطى وأسدى كل عارفةٍ ... يقصر الشكر عنها أيَّ إِقْصارِ

واختصني بولاءٍ منهُ فزت بهِ ... فاصبحَ الزند مهُ أَيما وارِى

فلست أخشى لريب الدهر من حدث ولا أُبالي بأهوالٍ وأخطارِ

وكيف خوفي لدهري بعدما علقت ... كفي بملكٍ شديد البطش جبارِ

الأروع الأغلب الغلاب والأسد الليث الهصور الهزبر الضيغم الضاري

بمن إذا خفقت راياته خضعت ... له الملوك وخافت حكمة الجاري

وقابلتهُ بمن تهواهُ باذلةً ... ما يرتضي من أقاليم وأمصارِ

ثم تقدم الركاب العالي إلى تهامة فكان مسيره من تعز يوم السبت الثالث من صفر. فلما دخل زبيد أقام بها إلى أيام في شهر ربيع الأول. ثم نهض يريد الأعمال السرددية فدخل المهجم في ألف فارس من عسكره. وهنأه عدة من شعراء دولته. منهم الفقيه العفيف عبد الله بن علي بن جعفر الشاعر المشهور فقال:

لو كان يقدر أن يكون الزائرا ... لك سردد لمشى إليك مبادرا

منع الجماد جموده أن يعتري ... عتبات بابك وارداً أو صادرا

وتمرَّغت ارض على الأرض التي فيها مقامك أوجهاً ومحاجرا

شرَّفت مهجم سردد فتشرفت ... ورفعتها فوق النجوم مفاخرا

أوردتها رجراجة جفنيةً ... خضراء طامية لقبض عساكرا

بحرُ إذا ما الريح سارت فوقه ... جعلت لمسلكها البنود قناطرا

شرعت صدر الخيل في حافاتهِ ... حتى حبست الفلك فيه مواخرا

أذكرته مَقْدى أبيك لمكةٍ ... وإنابةً منه فاصبح ذاكرا

وكفاهُ فخراً أن يمس قساطلاً ... لركابكم ومناسماً وحوافرا

حظ يكون بهِ تراب بلاده ... مسكاً ويرمعه يعود جواهرا

عجباً لحلمك في الخلائق عادلاً ... ولحكم كفك في الخزائن خاطرا

ولحد سيفك أين غاية حدهِ ... إذ ليس يبرح في الرقاب مسافرا

نار يقبضة راحةٍ فيّاضةٍ ... كالبرق يصطحب الغمام الماطرا

ولقد تعدى في الطلا أفعاله ... ضرباً وكن لها الفتوح مصادرا

ثبتت أصول الملكِ بين بيوتكم ... فسقيتموها سؤْدداً ومآثرا

فحكت أواخركم بذاك أوائلاً ... وحكت أوائلكم بذاك أواخرا

أنجبت من جرثومة ملكيةٍ ... حسن المظفر ثم عيسى الظافرا

أعجزت ألسنة الخلائق كلها ... مدحاً فكيف أكون وحدي قادرا

فبقيت يا ركن الخلافة دائماً ... أبداً وكان لك المهيمن ناصرا

فأقام السلطان في المهجم أياماً ثم نقل إلى زبيد. فتقدمت العساكر المنصورة إلى بلاد المعازبة لفساد ظهر فقتل منهم جمعاً كثيراً ونهب أموالهم نهباً شديداً وسلموا الرهائن فتركت رهائنهم في زبيد. وتقدم السلطان إلى النخل في أوائل شهر رجب فقام هنالك أياماً. ولما عزم على الطلوع على تعز تقدم ولده الملك الظافر إلى صنعاء مقطعاً بها فلقيه القبائل إلى نقيل صيد. فلزم أهل صعدة خاصة وأخذ خيلهم لموجب فعلوه. وسار إلى رداع ثم إلى ذمار. ثم دخل صنعاء في العشر الأواخر من رمضان. وسار السلطان من زبيد يريد تعز في النصف من رجب. وفي أواخر هذه السنة وقع بين السلطان والأشراف مكاتبات بسبب حوادث بين الأمير محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد والأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى فتحرك السلطان إلى الجند وطلب المناخات السعيدة من التهائم. وتقدم

الأمير سيف الدين طفريل الخازندار إلى ذمار وعزم السلطان على طلوع البلاد العليا فوصل القاضي الذماري بما يرضي السلطان من رهائن الأشراف وتمام الصلح.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل عثمان بن أبي بكر بن منصور الشعبي وكان من الفقهاء الناسكين مشهوراً بكثرة الصيام والقيام وقل ما يفطر من الأيام إلا قليلاً. وتفقه أولاً بفقهاء المصنعة وبأهل سهفنة ثم ارتحل إلى تهامة فتفقه بها أيضاً على الإمامين إسماعيل بن محمد الحضرمي وأحمد بن موسى بن عجيل وكان كثير الحج والزيارة إلى أن توفي في السنة المذكورة تقريباً. فكانت وفاتهُ في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ودفن في البقيع مع الصحابة رضي الله عنهم.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر بن الشيخ علي الأهدل. وكان فقيهاً شيخاً فاضلاً. ويروى أن الشيخ أَبا الغيث بن جميل مرَّ بهم في بعض أسفاره فأقام عندهم أياماً في رباطهم واجتمع عنده يوماً جماعة من الفقهاء وسأَلوهُ عن عبارة الشيخ أبي بكر وأجاب السائل. فقال الشيخ أبو الغيث خذوا جوابكم منكم. وكان رجلاً مباركاً فاضلاً. وغلب عليه التصوف وطال عمره حتى قيل أنه بلغ عمره مائة سنة وخمس عشرة سنة توفي في السنة المذكورة.

(١٣٢/١)

وفي هذه السنة توفي الشيخ الفاضل منصور بن حسن بن منصور بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي بن محمد الفرسي نسباً بالفاءِ المضمومة والراءِ الساكنة والسين المهملة قبل ياءِ النسب. ولد في شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة. وكان أحد أعيان الكتاب في الدولة المظفرية وصدر المؤَيدية ولم يكن فيهم نظير في كتب الأدب ولا في كثرة المحفوظات نظماً ونثراً ومهما أشكل من ذلك في وقته إنما يرجع إليه في الغالب. وأخذ عن الإمام الصنعاني المقامات وغيرها. وأخذ عن غيره كزكريا بن يحيى الإسكندري عدة من كتب الحديث وغيرها. ويقال كان محفوظه من الشعر يزيد على عشرة آلاف بيت. وكان غالب أوقاته ناظراً إما في عدن وإما في جبلة وهما من أعظم محطات اليمن وما عرف يغلط في الحساب ولا خيانه لخدوم ولا بظلم الرعية. وتوفي وهو ناظر في جبلة في اليوم العاشر من المحرم من السنة المذكورة والله أعلم.

وفي سنة إحدى وسبعمائة سار السلطان من الجند إلى الدملؤَة فأقام فيها عشرين يوماً. وعاد إلى تعز وعزم على طلوع البلاد العليا فاستدعي الشريف عماد الدين إدريس بن علي من القحمة. فلما وصل تعز اتصل العلم أن الأشراف بني علي أصحاب المخلاف السليماني قتلوا المقدم خطبا وأخذوا من رتبته أربعين فارساً وكان مقيماً بالراحة في مائة فارس فبرز مرسوم السلطان إلى الشريف إدريس بالتقدم نحوهم. وأضاف إليه عسكراً من الحلقة المنصورة ومشد زبيد أحمد بن الحربتري والأمير المتولي بحرض. فسار العسكر المنصور إلى الراحة ودخلوها قهراً آخر شعبان من السنة المذكورة. وخرجوا هاربين فتبعهم العسكر إلى نحو اللؤْلؤَة. وحرق العسكر قرى المفسدين ثم انهم طلبوا الذمة

والصلح وإعادة الخيل التي أخذوها من الراحة. وتسلم نائب السلطان الراحة وهو الشريف علي بن سليمان بن علي وانثنى العسكر المنصور قائلاً إلى الحرم الشريف السلطاني.

الأخرى من هذه السنة أوقع الأمير سيف طغريل بالجحافل والعجالم. وكان يومئذٍ مقطع لحج فقتل منهم نحواً من أربعين رجلاً. ثم أوقع بهم وقعة ثانية في ناحية الدعنس فقتل منهم نحواً من سبعين رجلاً. وفي آخر شعبان من السنة المذكورة طلع السلطان إلى البلاد العليا فأقام بالجند أياماً وبالموسعة أياماً وبصنعاءَ أياماً ثم خرج منها إلى الظاهر من بقيل عجيب. وكان السبب الذي أوجب طلوعه ما فعله الأميران موسى وتاج الدين في الصلح من حراب تعز والقنة. ثم دعوة ابن مظهر إلى نفسه بالإمامة واجتماعه بالأشراف في حوت وتقدمه إلى الطرف. ونزل الأمير تاج الدين إلى حجة المخلافة وقد خالف إليه بنو ساور وغيرهم من قبائل العرب فاحرق العارضية وعاد.

فلما طلع السلطان من بقيل عجيب لقيه الأمير موسى بن أحمد إلى هنالك والأمير عبد الله بن وهاس وطلع السلطان جبل ظفار من جبل صبح. واستولى على القنة يوم الثلاثاء آخر يوم من رمضان فحط فيها بجميع عساكره. وسار بكرة يوم الأربعاء. واشرف ظفره على ظفار من الجهة التي تلي القاهر من غربيها ونزل جماعة من العسكر يقاتلون في الساقية وقتل نقيب الملك المنصور وعاد السلطان إلى القنة فأقام بها ثمانية أيام وشرع في عمارتها فلحق العسكر فيها مضرَّة شديدة من عدم الماسِ والزاد فبلغت القربة عشرة دراهم والزبدي الدقيق كذلك.

(١٣٣/١)

ولما تحقق السلطان مضرة العسكر أمر بان تنتقل المحطة إلى ورور ورتب في القنة الأمير نجم الدين موسى بن أحمد ورتب في تعز الحسام بن مسعود ابن طاهر وهو الحصن القديم الذي أخربه سليمان بن قاسم. وأمر بعمارة الموضعين ونصب في تعز منجنيق فاضرَّ بهم المنجنيق غاية الضرر واستمر الرمي والحصار وقد يقع قتال بعد قتال في بعض الأوقات تحت باب النصر بين أهل المحطة وأهل ظفار. ثم أصاب المحطة آفة فمات كثير من الجمال خاصة. وكان السعر تارة يرخص فيبلغ الزبدي أربعة دراهم وقد يعلو فيبلغ سبعة دراهم. واشعر على العسكر بالزحفة والقتال فدقت الكوسات الهزبرية وخفقت السناجق السلطانية فأشبهت البروق اللوامع. فرأَى الأمير علم الدين سليمان بن قاسم أنه إذا دام هذا الأمر أدى إلى خراب بلاده فأعمل الحيلة في ذلك فأخرج بني أخيه وجماعة من الأشراف إلى خارج درب ظفار عند باب جبير. وكان وزيره علي بن دحروج فصاح بأعلى صوته أن الأمير والأشراف يسأَلون من السلطان أن يشرف عليهم فخدموا لهُ بأجمعهم وقالوا نحن غلمان السلطان. فطلب ابن دحروج ذمة يصل بها إلى المخيم فأُجيب إلى ذلك فنزل ومثَّل بالمقام السلطاني. واستقرَّ الأمر على أن الشريف سليمان بن قاسم يبيع على السلطان تلمص بخمسين ألف دينار ويرهن بذلك أحد ولدي أخيه محمداً وداود ووزيره علي بن محمد بن دحروج وإن

يخرب السلطان تعز المعمور على ظفار والقنه وعلى أن الأمير تاج الدين يسلم حصن الحدة والحقوب. فقال من حول السلطان هذه مصلحةُ عظيمة فإن السلطان يملك صعدة بغير شك. وهذه الرهائن وثيقة لمن صدق. فأجاب السلطان إلى ذلك وقبض الرهائن بعد أن صاح لهم بالطيب واطلع لهم المال المشروط. وجهز السلطان الفقيه شرف الدين أحمد بن علي الجنيد في عسكر لقبض تلمص. وأرسل الشريف سليمان بن قاسم رسولاً معهم من أحد ثقاته وتقدموا جميعاً إلى صعدة. وعيَّد السلطان عيد النحر في ورور. وتخلف الشعراء لبعد الشقة فلم يحضر منهم إلا الأديب شائق الدين يوسف العنسي فقام يوم العيد بقصيدة بديعة. وهي:

الملك يوم ينام منه عيون ... حتى يسيل من الدماء عيون

لولا ادالتك المصون من العدى ... ما بات وجه الدهر وهو مصون

ضمنت لك الملك السيوف وكل ما ... ضمن السيوف فإنه مضمون

وافيته بكتائب أعلامها ... النصر والتأْييد والتمكين

من كل أرعن مكفهر أصبحت ... منه سهول الأرض وهي حزون

لو شئت تورد بعضه جيحون ما ... أَرواه جيحون ولا سيحون

كم نقع ليل قد دجا من ركضه ... فجلاه سرد دلاصه الموضون

ضاقت لكثرته البسيطة كلها ... فمقامها في الشرق أين يكون

فدع الحصون بلاقعاً من أهلها ... فلقد أَصلتهم عليك حصون

ملوا السكون بها وظني انهم ... قد ملهم أيضاً هناك سكون

فأطحنهم طحن الردى بكتائب ... هي للطغاة جميعهم طاحون

فارض إرثك كلها من تبع ... فاعقل حديثي فالحديث شجون

غمدان قصركم القديم وقصركم ... صرواح كان وقصركم بينون

أظهرت بالجيش العرمرم كلما ... أَخفت ظهور منكم وبطون

خرب ظفار ولا تدع كحلان تا ... ج الدين فهو لملكهم قانون

واقبض ظفار ولا تدعه معجلا ... يابن الملوك ففوقه لك دون

أنت المؤَيد بالإله فلا تخف ... ممن يكيدك جاهداً ويخون

هذى الخلافة سعدها بك طالع ... في حيث كنت ووجهها ميمون

لولاك للإسلام يا ملك الورى ... لتنكر المفروض والمسنون

فبقيت للإسلام ما سطع الضحى ... كهفاً يلوذ بظلك المسجون

وأرسل الفقيه عفيف الدين عبد الله بن جعفر بقصيدته إلى المحطة بورور وهي التي يقول فيها

فعلت بمهجته النوى أفعالها ... ما حدت تلك الحداة جمالها

متحملاً ثقل الهوى لما رأَى ... عِيسَ الأحبة حملت أثقالها

وفيها يقول

يا منصبي البكرات في طلب الغنى ... ما أن تراقب أينها وكلالها
أن لم تشد رحالها يوماً إلى ... سرح الحرير فلا تشد رحالها
ساد الملوك فلا تكون مثاله ... أَبد الزمان ولا يكون مثالها
ودعت بداود الهداية حيث ما ... عثرت فقال لها لما وأقالها

وحوى الخلافة لم تكن إلا له ... طول الزمان ولم يكن الإلها
ملك إذا شن الجياد لغارة ... جعل الخدود من الملوك نعالها
وتذكروا بالمنجنيق عليهم ... يوم القيامة إذ رأوا أهوالها
فرموا إليها بالحصون مخافة ... من رميها ومن القسي تنالها
لو لم يطعك ظفارها وتعزها ... وسما فسها سمت أحبالها
وغللت منها في الشمال يمينها ... وغللت منها باليمين شمالها
يا ابن المظفر يا هزبر الدين يا ... داود منتخب الورى مفضالها
لا زلت تقسم المرجى فضله ... من راحتيك وللعدى آجالها

ولما كان يوم الجمعة الخامس عشر من الشهر المذكور نهض السلطان من محطة ورور وسار نحو خربان فزحف عليه يوم الثامن عشر من الشهر المذكور فقاتل العسكر قتالاً شديداً وبلغ الشفاليت باب الحصن. ووقع عنده هنالك الطعن والضرب ونزل السفاليت المكسورة. فاخرب أهل الحصن المحمولة. ورجع الشفاليت للقتال فوجدها قد أُخربت. وإلا فما كان دون فتحه شيء. وقتل من العسكر جماعة رمياً بالنشاب فمنهم الأمير محمد ابن الشعبي فأمر السلطان عليهم بالمحطة ونصب المنجنيق. فأقام ثمانية أيام. ثم سار إلى صنعاءَ وترك في المحطة على خربان الأمير شمس الدين عباس بن محمد بن عبد الجليل.

وفي هذه السنة توفي الأمير الكبير الشريف أبو تمي محمد بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسني صاحب مكة حرسها الله تعالى. وكان أميراً كبيراً له حظ وافر في الأمرية راغباً في الأدب وسماعه. وله الإجازات للشعراء الوافدين عليه من إطلاق الخيال وإجازات القصائد.

قد كان لما اتصل السلطان الملك المؤيد بالملك جهز تلك السنة علمه المنصور ومحمل الحج السعيد صحبة القائد بن زاكي فتلقاه الشريف أبو تمي بالإجلال والإكرام. وخفقت ذوائب العلم المنصور على جبل التعريف بعرفة. وأعلن مؤذنه على قبة زمزم بمناقب السلطان على رؤُوس الإشهاد فسمع تلك الأوصاف من ضمه ذلك المقام الشريف. وحلف السلطان الملك المؤيد الإيمان المغلظة ولبب على قميصه على مقتضى ما جرت به العادة ووصل إلى الشريف المذكور ما اقتضته المواهب السلطانية مما كان قرره الخليفة من العين والغلة والكساوي والطيب والمسك والعود والصندل والعنبر والثياب

الملونة والخلع النفيسة. وكان مبلغ العين ثمانين ألف درهم ومبلغ الغلة أربعمائة مد. واستمرت أمريته على مكة ونواحيها اكثر من خمسين سنة. وكان له من الولد اكثر من عشرين ولداً. فافترقت أولاده بعده. وافترقت الأشراف والقواد مع أولاده. فكان طائفة منهم مع وميثة وحميضة وطائفة أخرى مع أبي الغيث وعطيفة فاستقوى رميثة وحميضة على أبي الغيث وعطيفة فلزماهما فأقاما في محبسهما مدة ثم احتالا فخرجا وتجورا في بعض بيوت القواد والأشراف فأجاروهما.

ولما وصل الحاج المصري تلقاهم أبو الغيث فمالوا إليه فلما انفصل الموسم قبض أمير الحاج المصري على الشريف بن رميثة وحميضة. وكان أمير الحاج يومئذ الأمير الكبير ركن الدين بيبرس فسار بهما إلى مصر مقيدين وأمر في مكة محمد بن إدريس وأبا الغيث وحلفهما لصاحب مصر فأقاما أياماً ثم أن الشريف أبا الغيث اخرج محمد بن إدريس واشتد الأمر وجرت بينهما حروب كثيرة قتل فيها جماعة من الأشراف.

ثم إن الشريف أبا الغيث كتب إلى السلطان الملك المؤَيد ببذل الطاعة والخدمة والنصيحة وأرسل برهينة فقبل منه السلطان ذلك.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل محمد بن علي بن عيسى العكاري نسبة إلى قوم يقال لهم الاعكور. وهم بيت من السكاسك قاله الجندي وكان فقيهاً حبراً تفقه بالفقيه علي بن أحمد الأصبحي صاحب المعين وحج معه في هذه السنة فدخل مكة محرماً بعمرة فلما حل من عمرته قصد مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للزيارة فزار الضريح النبوي وأقام أياماً هناك. ثم قفل نحو مكة حرسها الله تعالى فتوفي في وادي مر عائداً من الزيارة في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو بكر بن مسعود. وكان فقيهاً فاضلاً يسكن قرية العراهد. وكان مستجاب الجعوة تفقه بالفقيه أبي القسم الزيلعي وبغيره. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٣٥/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن سلمة الحبيشي الوصابي. وكان ذا علم وعمل وزهد وله الشهرة في التعبد والصلاح وكان قد تفقه بالفقيه إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل المازني وعلى غيره من العلماء. وتولى القضاء في ناحية وصاب. ولم يزل على الطريقة المثلى إلى أن توفي يوم الاثنين الخامس عشر من جمادى الأخرى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو عبد الله محمد بن علي بن جبير. وكان فقيهاً عارفاً محققاً ولد في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وستين وستمائة وتفقه في بدايته بخاله الفقيه أبي عبد الله محمد بن أبي

بكر الأصبحي ثم الإمام محمد بن علي ابن أحمد الأصبحي ثم الفقيه صالح بن عمر ثم بفقهاء تعز كابن صفي وابن النحوي ثم ارتحل إلى عدن فأخذ بها عن أبي العباس القزويني وعن أبي العباس بن الحواري. وأخذ صحيح مسلم عن التاجر المعروف بالشهاب صقر البكربتي لعلو سنده فيه. ثم رجع إلى بلده ودرَّس في المدرسة الجديدة بالحمُيراءَ في مدينة تعز. وكانت وفاته في شهر محرم من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة اثنتين وسبعمائة جهز السلطان الملك المؤَيد رحمه الله الشريف إدريس بن علي فاخرب الجاهلية ورجانة وجهز الأمير شمس الدين عباس بن محمد إلى جبل جشم فأَخرب زورعهم. وكان السلطان رحمه الله قد قض رهائن الأشراف حين أراد النهوض من محطة ورور وهم الأميران محمد بن أحمد بن القاسم وأخوه الأمير داود بن أحمد بن القسم والشيخ علي بن دحروج وولده وولد القاضي أحمد الذماري. وجهز الفقيه شرف الدين أحمد بن علي الجنيد لقبض تلمص. وصدَّر معهُ الأشراف رسولاً منهم كما ذكرنا. فامتنع أيهل الحصن من تسليمه وسلموه إلى الشريف أبي سلطان فسار الشريف شكر إلى الأشراف بظفار لتمام ما قد قيدوه من تسليم حصن تلمص فأقام عندهم أياماً. ثم وصل كتابه بطلب وصول الأمير محمد بن حاتم فسيرهُ السلطان إليهم. وفي خلال ذلك وصل الأمير سيف الدين طغريل من أقطاعه بلحج فاقطعه السلطان صنعاءَ وذلك في النصف الثاني من صفر. وأقام الأمير شكر والأمير محمد بن حاتم أياماً بظفار. ثم عاد إلى السلطان بذمة ستة أشهر على رهائن أُخر بذلها الأشراف. وطال الحديث في ذلك فغضب السلطان غضباً شديداً وجهر الأمير سيف الدين طغريل والأمير بن وهاس فحطوا في ورور ومعهم الشيخ محمد بن علي دحروج في الترسيم وقد اظهر الخدمة والنصيحة وتكفل للسلطان بأخذ ظفار في ثمانية أيام. فلما صاروا في ورور صدروا جيشاً فلزموا القنة وشرعوا في عمارتها وأقامت المحطة بورور. ووقع في البلاد قحط شديد فبلغ الزيدي في المحطة أربعة دنانير واكثر من ذلك. وخلا كثير من البلاد من أهلها وماتوا جوعاً وابتيعت الأطيان بأرخص الأثمان. وعم القحط اليمن جميعه سهلاً ووعراً واستمر الشريف أبو سلطان في تلمص وخالف الأمراء إلى عز الدين وعاودوا أهل صعدة من فللَة. وجهز السلطان الأمير نجم الدين موسى بن أحمد إلى صعدة لصلاح أمرها. وجهز الأمير عباس بن محمد في عسكر إلى بلاد الأمير تاج الدين لحربه. ولزم الأشراف القاضي محمد الذماري وأخذوا ما وجدوا في بيتهِ.

وفي شهر رجب وقع في مخلاف صنعاء أمطار عظيمة والسع على حاله ودخل ظفار من هذا المطر ما ملأ مواطنه. ولم تزل المحطة على تلمص وظفار وازداد الغلاء حتى بلغ الزيدي من الدقيق في المحطة ثلاثين درهماً. وفي بواقي آثام من رجب تداعى الناس إلى الصلح على رد المال المسلم في تلمص فسلموا منهُ ستة عشر ألفاً وحريراً وحلياً باثني عشر ألفاً وامتهلوا في الباقي إلى عشرة أيام في شوال ورهنوا فيه ولدي الأمير أحمد بن قاسم. وحصن المدارة على يد الأمير وهاس. واخرج بنود حروج حريمهم من ظفار وسكنوا صنعاءَ.

وسلم الأمير تاج الدين الحدود ورهن ولده مه رهينه الأمير سليمان بن قاسم وانعقد الصلح بين السلطان وأصحاب ظفار وتاج الدين على أن السلطان يحارب تلمص ويفعل فيه ما شاء ولا عيب.

(١٣٦/١)

وفي هذه السنة اقطع السلطان رحمه الله الشريف عماد الدين إدريس ابن علي لحجاً حين انفصل منها طغريل وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة فسار إليها فوصلها يوم الرابع من شهر ربيع الآخر. وكانت الجحافل قد جمعت جموعاً. وحطت بالصعيد فلما وصل الشريف عماد الدين إلى الدعبس ارتفعوا من محطتهم. فأغار عليهم العسكر فأدركوا جماعة منهم يوسف بن مدقة فقتلوه واحترزوا رأسه وأقامت الجحافل بعد ذلك بصهيب مدة وهم يعدون إلى الساحل وغيره ثم قصدهم الشريف عماد الدين ولقبه الأمير بدر الدين محمد بن الحسن بن نور. وكان مقطع أمين يومئذ فدخلوا عليهم موضعاً يسمى الشعبة. وبلغوا مواضع من بلادهم لم يبلغها أحد من العساكر السلطانية قبل ذلك. ولما رجع الأمير عماد الدين من غزوته جهز عسكرا فظفروا بإبراهيم بن سعد بن عبد العزيز وكان فارس الجافل يومئذ فقتلوه واحترزوا رأسه فظفرت خيل الصعيد بخمسة من العجالم فقتلوهم.

وفي شهر شعبان من هذه السنة توجه السلطان إلى اليمن فدخل حصن تعز المحروس آخر يوم من شعبان وقيل أول يوم من رمضان.

في هذه السنة توفي الملك العادل صلاح الدين أبو بكر بن الملك الأشرف وكانت وفاته رحمه الله في قرية ضراس وفي آخر شهر رمضان طلع الشريف عماد الدين إدريس بن علي إلى تعز المحروس بسبب العيد. وحضر جماعة من الشعراء وقام الفقيه عفيف الدين عبد الله بن جعفر بقصيدة طنانة من عيون شعره فأنشدت يوم العيد وهي

أثمار هذا القضيب الرطب ألوان ... كرم وطلع وتفاح ورمان

أهكذا الفضة البيضاء قد نبتت ... غصنُ وزهر بها في الخد عقيانُ

ظبيُ مباسمه در وريقنه ... خمر وأنفاسه روح وريحانُ

وأضرم الحسن في أمواج وجنته ... ناراً لها مهج الأكباد قربانُ

عجبت إذ نبت المرجان في فمه ... وقبلها لم يكن في العذب مرجان

تصوير شخصك في عينيَّ ممتنع ... أن يلتقي لي فوق النوم أجفان

هذى دموعي بوجدي فيك شاهدة ... ينبيك بالشان ما يجري به الشان

ما اختص ناظرك الساجي لأنفسنا ... بفتنة كل شيءٍ منك فتان

لا تمش بالصب في طرق الهوى مرحاً ... واقصد كما قال في فحواه لقمان

أَتستبيح جهاراً قتل أَنفسنا ... والأَرض فيها هزبر الدين سلطان

سيف من الله لولا حده عبدت ... مع المهيمن أصنام وأَوثان
ملك مكارمهُ غيث ونجدتهُ ... غوث وأيامهُ أَمن وإيمان
في سلمه لشديد الناس مدراَة ... يرضى الإله وحد السيف غضبان
مستحسنات صفات الناس قد جمعت ... فيه فدعهم فأَهل الأرض إنسان
لم لا ويوسف شمس الدين منبتهُ ... ومنبت الأصل قابوس ونعمان
وتبع الأكبر السامي وذو يزن ... عم وبيتك صرواح وغمدان
إذ كان في فرع صنعاء بناؤُهم ... قد تستضيءُ سمرقند وحلوان
تلك المعاهد من قحطان أن عدموا ... فللمؤَيد عادوا مثل ما كانوا
كَأَنما الشهب من ظلمائه قنص ... تخطفته من الرايات عقبان
كأَن رؤوس رماح فوقها رفعت ... منها على الجوّ أَحواض وغدران
فيها القنا شهب والحلو ملتهب ... والسيف محتطب والقوس مرنان
كأَن حصن ظفار تحت لجتها ... من الهلاك ابن نوح وهي طوفان
حتى تظنوا بأَن الأرض قد طويت ... وان موضعها خيل وفرسان
يمدها من دواهي الأرض ماثلة ... تمخضت بحجاز وهي عيدان
مطاعة كلما نادت برفع يدٍ ... تبادرت نحوها دور وحيطان
حتى إذا طحنتهم تحت كلكلها ... شهباء منها يطيش الإنس والجان
تشفعوا بكتاب الله وارتفعت ... أمامهُ صحف فيهنَّ قرآن
فرد عنهم حياء من كرامتها ... زاكي الأُصول كريم الخَيمْ يقظانُ
ومنَّ داود في الأَسرى فأَطلقهم ... دوداً وإن هزبر الدين منان
وواثق القنة الشماء مشرقة ... على ظفار بها جيش وبنيان
كمثل جنة نون الأرض تحرسه ... من أَن يميل لهُ بالأرض أركان
ما ضرَّ داود مال ظل ينفقه ... داود بحرُ به المرجان مجان
ما صاع من ضيعوه في رفاقتهم ... لقد وقفت لهم في حيث ما كانوا
واستحسنوا الغصب في أمواله فأبى ... بكفك تحمى وهي جيران

(١٣٧/١)

أنت المليك الذي في عصره أمنت ... من عصرهن عناقيد وقنوان
وطهر الله أرضاً أنت مالكها ... من أن يكون لها كفر وعصيان
جددت في مشترى عنقي لكم شرفاً ... وللعبيد من المعروف إثمان
سقيت غرسي بأنعام تجدده ... ومن سجاياك للإحسان إحسان

هنئت يا مالك الدنيا ابن مالكها ... ثلاثة هن للأفواج صيوان

نصر وجيش قدوم جاءَ بعدهما ... عيد بوجهك من داود مزدان

وفي الليالي فنون من سعادتكم ... أن الليالي لما تهواه خزان

فلا برحت على مر الزمان كذا ... ولا خلت منك أوقات وأحيان

وفي هذه السنة المذكورة أمر السلطان رحمه الله ببناء مدرسته المعروفة بالمويدية في ممزية تعز ورتب فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن الكريم ومدرساً على مذهب الإمام الشافعي معيداً وطلبة للعلم الشريف ومقرئاً يقرئ القرآن بالسبعة الأحرف ووقف عليها من الأراضي والكروم ما يقوم بكفاية الكل منهم ووقف عليها عدة من الكتب النفيسة.

وفي هذه السنة توفي الأمير الكبير نجم الدين موسى بن الأمير الكبير شمس الدين أحمد بن الإمام عبد الله بن حمزة وكانت وفاته يوم السادس والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة في نواحي سعدة ورحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي القاضي عمران بن القاضي عبد الله بن أسعد بن محمد بن موسى العمراني وكان فقيهاً فاضلاً وأخذ أيضاً حسناً واستوزره إبراهيم بن الملك المظفر فلما اقطعه والده إقليم ظفار امتنع أهله العمرانيون عليه من السفر مع مخدومه فلم يسافر معه وأقام مع أعمامه بتعز وتولى القضاء بها ثم صودر أهله كان من اشد الناس عداء يوم أنزل هو وعمه محمد بن حسان ابن أسعد إلى زبيد على صفة الرهائن فأقام في زبيد تحت الاعتقال إلى أن توفي في السنة المذكورة وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو القاسم بن علي بن موسى الروائي الحربي لقبا والزيلعي بلداً. وكان فقيهاً عارفاً فاضلاً تفقه بتهامة على فقهها الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وأحمد بن موسى بن عجيل فأخذ على محمد بن علي بن عمر الإمام ثم طلع الجبال فورد مدينة إب فرتب مدرساً في مدرسة لبني سنقر. فانتفع به الناس انتفاعاً عظيماً لا سيما أهل إب وما قرب منها وكان يعرف المهذب معرفة شافية ولم يزل بأب إلى أن توفي بها في هذه السنة المذكورة وله يومئذ نيف وتسعون سنة وقبر في حناط الإمام سيف السنة إلى قبر الفقيه محمد الأصبحي ورحمة الله عليهم أجمعين.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو حفص عمر بن عيسى محمد بن سليمان المسلمي ثم العامري. وكان منزله العفلة بضم العين المهملة وسكون الهاء وفتح اللام وبعد اللام هاء تأنيث. وكان فقيهاً متأدباً راوياً للشعر ويقول شعراً حسناً وكان عارفَ أدبياً أربياً مقبول الكلمة في بلده توفي في أثناء السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

فيها توفي الفقيه البارع أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن عبد الحميد المسابي نسبة إلى قوم يعرفون ببني المساب وشهر بابن الحميدي نسبة إلى جده عبد الحميد. وكان في بدايته إسماعيلياً. ثم انتقل إلى مذهب الشافعي. وتفقه بابن جبر وبالقاضي عمر بن سعد في الفقه والحديث وأخذ الأصول على رجل غريب يعرف بالأريلي وأخذ النحو عن الوشاح وأيه انتهت رئاسة الفتوى في

مدينة صنعاء ونواحيها على مذهب الإمام الشافعي وتوفي في شوال من السنة المذكورة وله نيف وتسعون سنة والله أعلم رحمه الله تعالى.

(١٣٨/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح محمد بن عمرو بن محمد بن عمرو الساعي وكان فقيهاً ورعاً وصالحاً فاضلاً عارفاً بالفقه والحديث تفقه بابيه عمرو بن علي وبسليمان بن الزين وأخذ عن أبي الخير بن منصور الشماخي. وكان له صهر يصحب عباس بن عبد الجليل. فلما توفي الأمير عباس بن عبد الجليل وشا بعض الوشاة إلى الملك الأشرف بصهر الفقيه. وذكر أن تحت يده مالاً لأمير عباس فلزم الأشرف وأراد مصادرته فتقم الفقيه إلى باب الأشرف وكان يومئذ في المهجم إذ هي أقطاعه من أبيه المظفر فلما علم الأشرف بوصول الفقيه إلى بابه استدعاه فلما دخل عليه رحب به وأكرمه واجله فلما كلمه في صهره قال له قد شفعتك فيه بشرط انك تقف تدرس في المسجد الذي بناه الوالد في أواسط المحالب فأجاب بالقبول والطاعة. ثم تقدم ودرس في المسجد المذكور مدة وهو قلق غير راض وكان مهما حصل له من الطعام أنفقه على الطلبة المنقطعين أو في بعض وجوه البر ولم يزل على ذلك حتى دخل عليه يوماً فقير فسلم عليه وسأله أن يكتب له شفاعةً إلى صاحب الحادث بان يركبه في بعض الجلاب إلى جده فكتب له الفقيه فلما فرغ قال له لفقير يا فقيه أجدك في فكر وفي نفسك شيء وقد أحببت أن أسمعك أبياتاً توافق المعنى وهي

كن عن همومك معرضاً ... وكل الأمور إلى القضا

وابشر بعاجل فرحة ... تنسى بها ما قد مضى

فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا

ولرب أمر مسخط ... لك في عواقبه رضا

الله يفعل ما يشا ... فلا تكن متعرضاً

فوقع في نفس الفقيه الترك للمسجد والزهد في جميع العلائق ثم جعل يفكر في الأبيات ثم أفاق فمل يجد الفقر. فطلبه وأمر من تبعه الطريق فلم يوجد له خبر فخرج الفقيه من فوره عن المسجد سائراً قاصداً يريد بلده فمر بالجبرية وهي قرية من قرى تلك الناحية. وكان فيها تلميذ لأبيه فلقيه هنالك فاستوقفه يريد إكرامه فوافقه ودخل لمسجد بينما يهيئ رأسه شاخصاً ببصره إلى السماء حتى انقضى النهار وبقي مطروحاً لا يجيب ولا يتكلم. فحمل عن المسجد إلى بلده فادخل يته فأقام سنة لا يفهم منه أمراً ولا أكل شيئاً من الطعام غير شربة لبن ثم فتح عليه عقيب ذلك بمكاشفات وكرامات وبكلام في الحقيقة.

فمن قوله لذعات الغفلة في قلب المراقب أعظم من لدغات الحيات والعقارب.

ثم أقام سنة أخرى لا يأكل شيئاً وفي السنة التي مات فيها أقام تسعة أشهر لم يذق طعاماً. ثم أكرمه

أهله قبل موته تسعة أيام على طعام وكانت وفاته يوم الاثنين ثاني عشر صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة أيضاً توفي الفقيه الفاضل أبو محمد الحسن الشرعبي نسبة إلى شرعب بن سهل بن زيد الجمهور بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم العطمي بن عبد شمس الملك بن وايل بن الغوث بن حمدان بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ أو إلى الناحية التي تسمى شرعب. وهي ناحية مشهورة قبلي مدينة تعز سميت باسم شرعب بن سهل المذكور.

وكان المذكور فقيهاً فاضلاً بارعاً في الفقه مشهوراً خرج من بلده نقدم زبيد. وكان فقيهاً يومئذ علي بن قاسم الحكمي ثم خرج من زيد فقدم موزع فأقام بها مدة ثم انتقل عنها إلى البرقة فأقام بها أيضاً فلم تطب له فطلع إلى تعز وقصد القاضي بهاء الدين وهو يومئذ قاضي القضاة ووزير فشكى عليه حاله فولاه قضا موزع والزمه الدخول فيه الزماً. فنزل إلى موزع قاضياً فسار في القضا سيرة مرضية ووقفت عليه امرأة من الرسابيين أرضاً وبنت مسجداً وسألت من الفقيه أن يكون مدرساً في ذلك المسجد وله غلة الأرض الموقوفة فأجابها إلى ذلك. وتفقه به جمع كثير من موزع ونواحيها.

وفي تلك المدة ابتنت الحرة مريم بنت الشيخ العفيف زوجة السلطان الملك المظفر مدرسة في زبيد وهي المدرسة المعروفة في زبيد بمدرسة مريم. وتعرف بالسابقية أيضاً. ثم سألت من الفقيه أن يكون هو الذي يدرس فيها إذ كان أكبر فقهاء الوقت العاملين وذلك لما بلغهم من فضله فاستدعاه السلطان إلى تعز وسأله أن ينتقل إلى زبيد بسبب التدريس في المدرسة المذكورة فاشترط إبقاء. ولده في قضاء موزع نائباً. فأجيب إلى ذلك ثم انتقل إلى زبيد فدرس في المدينة المذكورة.

(١٣٩/١)

قال الجندي وأدركته فيها فقرأت عليه بعض المهذب تبركاً لما ذكر أنه من أكابر أصحاب الفقيه علي بن قاسم. وقد تفقه به جماعة وقصدهُ الطلبة من نواحٍ كثيرة. وأقام في زبيد عدة سنوات حتى كبر وهرم وضعف عقله وبصره. ثم عاد إلى موزع وجعل مكانه في تدريس المدرسة المذكورة محمد بن عبد الله الحضرمي. وكان إذ ذاك معيدهُ في هذه السنة المذكورة وهي سنة المجاعة الشديدة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل محمد بن يوسف بن شعيب بن إبراهيم. وكان فقيهاً فاضلاً عارفاً تفقه بابن النحوي وابن البويم. وكانت وفاته في المحرم من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة وصل الأمير بدر الدين مكتوب المرقبي سفيراً من الديار المصرية إلى اليمن يخبر بانتصار المسلمين على عسكر التتر بمرج الصفر وكانت عدة قتلى في الوقعة المذكورة يومئذٍ مائة ألف قتيل فاحتفل السلطان بالرسول الوارد إليه بكتاب النصر ودقت الطبلخانة وأعلن

السرور والبشائر وخرج أعيان الدولة بأسرهم من الوزراء والأمراء والمقدمين يتلقون السفير. وقال الشريف إدريس بن علي في ذلك

لم تأتك الرسل من مصرٍ وساكنها ... إلا مؤدية حقاً لكم يجبُ

وحين لاحت قصور الحصن لاح لهم ... من نور وجهك ما لا تستر الحجب

واستقبل العسكر المنصور فانصدعت ... قلوبهم فهي في أجوافهم تجب

كتائب مثل ضوءِ الشمس قسطلها ... غيم فساروا بليلٍ والقنا شهب

خفت بهم فرأوْا أسداً ضراغمة ... عاداتهم في الورى أن غولبوا غلبوا

وكيف لا والأمين الروح يقدمهم ... في كل روع وحيزوم به يثب

وعاينوا منك وجهاً طال ما سجدت ... لهُ الملوك وقامت باسمه الخطب

وأمر السلطان رحمهُ الله تعالى بإكرام السفير المذكور وإنزاله مكاناً يناب حاله. وأفيض عليه الأنعام التام. وكتب له جواب في معنى ما جاء به وعاد إلى مخدومه قافلاً إلى مصر.

ثم وصلت الأخبار بوصول عسكر جرار من الديار المصرية إلى مكة المشرفة حرسها الله تعالى فاخذ السلطان بالحرم. وتوجه من تعز إلى زبيد في آخر ذي القعدة وأمر بعمارة البرك. وبعث بمقدم في قطعة من العسكر المنصور إلى هناك. ولما انقضى الحج وصل العلم بان الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة في الديار المصرية حج في جيش عظيم. وإنه تصدق على أهل الحرمين بصدقة عظيمة.

قال ابن عبد المجيد في كتابه بهجة اليمن ان صدقته تنيف على ستمائة ألف درهم. ومن الغلة الجيدة المحمولة في البحر من جهة القصير إلى جدة عشرة آلاف أردب وإنه لم يترك بالحجاز في تلك السنة من عليه دين. قال بلغني أنه أدخل أقطاعه وضماناته مستأجراته وأجرة عقاره بمصر والشام في يوم مائة ألف درهم خاصة لحراسه خارجاً عن كلفته المختصة بحاشيته انتهى.

وفي هذه السنة وصل رجل من التجار من بلاد الخطأ عن طريق الصين يقال له عبد العزيز بن منصور الحلبي بمال يعظم شأنه وكان معه من الحرير ثلاثمائة بهار البهار الواحد ثلاثمائة رطل بالبغدادي ومن المسك المفرغ في أواني الرصاص أربعمائة رطل وخمسون رطلاً ومن الفخار الصيني جملة مستكثرة ومن الأواني الشم المطعمة بالذهب من الصحون الكبار جملة جيدة. ومن الثياب المختلفة الألوان مثل ذلك. ومن المماليك والجواري شيء كثير. ومن الفضة الماس خمسة أرطال زعم إنها صدقة للمحرمين على يديه من تجار تلك الناحية فتقرر عشور ما وصل به إلى ثغر عدن المحروس ثلاثمائة ألف درهم.

فلما استقر بعدن توجه إلى الباب الشريف فتلقاه الكريم الهزبري بالأنعام العام فقم بين يدي نجواه هداياً عيناً وتحفاً استحسنها فبرز المرسوم بقبولها. وأفاض السلطان عليه خلعاً نفيسة وأعطاه المراكب السنية. وكتب عوضاً عما قدمهُ بأضعاف ذلك. وتقدم المرسوم الشريف إلى نواب الثغر

المحروس بإجلاله واحترامه. وخير بين السفر والإقامة فاختار الرحلة إلى صور مصر ونواحيها ليحدد عهداً بأهله.

(١٤٠/١)

وفي هذه السنة المذكورة أوقع الشريف إدريس بن علي بالجحافل وقعة أبان فيها عن همة علوية وشهامة حسنية. وكان جملة من اجتمع فيها من الجحافل أربعين فارساً وألفاً ومائتي راجل. وكان الشريف في مائتي راجل وأربعين فارساً فقتل من الجحافل مقتلة عظمة وقتل من العسكر نفر يسير منهم الشريف علي بن محمد الأبرص وهو ابن عم الشريف إدريس وفي هذه الوقعة يقول الشريف عماد الدين إدريس بن علي رحمهُ الله حيث يقول

ولو لم تخني عند صنوى كبوه ... من الأحمر الحناس ما فات مطلب
ولكن خرصان الرماح تشاجرت ... هنالك حتى كاد يؤدي ويعطب
فلو كان فيمن أدركته رماحنا ... صريع لنا وثأر يعد ويحسب
فقد صرعتت حوليه سبعون أغلباً ... تهاد أهم في القفر ذئب وثعلب

وفي هذه السنة توفي الأمير أبو سلطان المستولي على تلمص وكان قد اتفق هو والأمير جمال الدين علي بن بهرام على تسليم الحصن للسلطان وتراهنا على ذلك فغلب المرتبون بعد موته على تمام الأمر وباعوه بعد موته على الأمير علي بن موسى بن أحمد بن الإمام فسار نحوه بشحنةٍ من الطعام آخر الليل. فلما علم بن بهرام خرج من صعدة نحوهم. فوقع بينهم قتال شديد وتلازم الأميران علي بن موسى علي بن بهرام وقتل فارسان من الفريقين. وكان السلطان قد أرسل الأمير علي بن موسى لصلاح صعدة. وأرسل الأمير عباس بن محمد بن عبد الجليل إلى بلا تاج الدين لمحاربته. فكان من علي بن موسى ما كان.

ولما طلعت الشحنة إلى تلمص وصل الأمير المؤيد بن أحمد الهدوي. وكان من علماء الزيدية وفضلائها وذوي السن والرئاسة فأقام في محطة الأشراف أياماً. وكانت محطتهم تحت حصون الأمير موسى.

وفي خلال ذلك وصل الأمير محمد بن مظهر بن طليمة قاصداً صعدة فلقبه الأمير المؤيد بن أحمد إلى بلدي عوير ثم لقبهم الأشراف بجمع جيد من الخيل وساروا جميعاً يريدون تلمصاً فركب الغز من صعدة وعارضوهم فحصل بين العسكرين قتال عظيم. فانهزمت ميمنة عسكر السلطان وميسرته وثبت القلب ثباتاً حسناً فلما انهزم أصحابهم لم يتمكنوا الاستقرار بعد انهزام الجيش فساروا بعدهم. وقتل يومئذ أيبك الحجازي الأشرفي وكان من الشجعان المعدودين وقتل معه ثلاثة فرسان وأربعة من الرجل وأخذ من أخيل سبعة رؤوس وسار الأشراف من فورهم إلى مدينة صعدة. وذلك في النصف الثاني من شعبان من السنة المذكورة. فأقتم الأشراف في صعدة أياماً ثم كاتبوا في الصلح فانعقدت

الذمة إلى سلخ الحجة على إخلاء صعدة من الفيقين. ونزل الشريف شكر إلى الأبواب الشريفة السلطانية لتمام الصلح وسار معه الشريف داود بن عز الدين فلم ينصف فعاد غاضباً إلى أصحابه فعلموا على تمام الذمة. وجهز السلطان جيشاً للأمير شمس الدين عساس بن محمد في مائتي فارس ومقدمين من مذحج في آخر القعدة وتراسلوا في الصلح على تمام الذمة الأولى.

وفي هذه السنة توفي الملك الظافر قطب الدين عيسى بن الملك المؤيد. وكانت وفاته في حصن تعز يوم الرابع والعشرين من المحرم. وحضر دفنه أخوه الملك المظفر وعمه الملك المنصور. وكافة أعيان الدولة وقبر في مدرسة والده التي أنشأها في ناحية المعزية من مدينة تعز ورثاه العفيف عبد الله بن جعفر بقصيدة بديعة الاستهلال فأولها

يحق لكل قلب أن يذوبا ... من الحزن الذي صدع القلوبا

على قطب رسولّيٍ جوادٍ ... أُصيب بهِ الورى لما أُصيبا

وكان ملكاً ذا همة بارعة. وعزمة لإبكار المعالي فارعة. وأمر والده السلطان يومئذٍ بذبح خيله الخواص حين حملوه على الرقاب. وما كان أحقه بقول الأول

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى ... ترجى الحيا منهُ وتخشى الصواعقا

(١٤١/١)

وفيها توفي الفقيه الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن أسعد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن أبي الفتوح بن علي بن أبي الفتوح بن علي بن صبح الأصبحي. وكان مولده لخمس بقين من ذي الحجة سنة أربع وأربعين وستمائة. وتفقه بالفقيه عبد الوهاب بن الفقيه أبي بكر بن ناصر. ثم بابن خاله محمد بن أبي بكر وعليهِ أتقن الفقه وحققه فكان غالب قراءَته عليهِ بالمصنعة يختلف إليه من الذيتين كل يوم اثنين وكل خميس وقد يقف في المصنعة الأيام ذوات العدد. ثم لما أكمل الفقه أخذ عنهُ كتب الحديث أيضاً وكان من المحققين للفقه العارفين به لم يكن له نظير في عصره وتصنيفه الموجودة تشهد بذلك. ومن تصانيفه المعين وغرائب الشرحين وأسرار المهذب وكفى بالمعين شاهداً. وله فتاوٍ كثيرة مشهورة. وكان فقهاء عصره جميعاً يرجعون إلى قوله ويسألونه ويعتمدون جوابه وكان جميل الخلق دائم البشر حسن الألفة محب الأصحاب ويتألفهم ويعجبه اجتماعهم. وله كرامات كثيرة ومكاشفات. واجمع أهل عصره على ورعه وزهده ونزاهة عرضه وانه يقول الحق ولو على نفسه. وتفقه به عدة من أهل عصره من نواح شتى منهم سعيد بن أبي بكر وسعيد بن العودري وعمر الحبيشي ومحمد بن جبير وإسماعيل ابن أحمد الحلي ومحمد بن علي وعمه حسن وهما من العماكر. وعبد الله بن عمر ابن ايمن وأبو بكر بن المقري من أهل تعز. وأبو بكر بن حاتم السلماني وأبو بكر المغربي من الجند ويوسف بن النعمان. هؤلاءِ شهروا وقد أخذ عنه جمع كثير من غيرهم. ودرس في المدرسة المظفرية أياماً قلائل ثم امتنع من التدريس بها.

ومن غريب ما يروى عنه أنه خرج يباشر أرضاً له للزراعة وفيها إنسان يحرث على ثورين له فنظرها مليّاً ثم سأَل الغلام الذي يحرث له هل عندهُ شيءُ من الماءِ ليشرب منه. فأشار الحارث له إلى موضع فقصد الفقيه ذلك الموضع فوجد هنالك حنشاً عظيماً فقتله الفقيه. وإذا بالفقيه يجد نفسه في ارض لا يعرفها بين أقوام لا يعرفهم لهم خلق غريب. وفيهم من يقول للفقيه قتلت أخي. وبعضهم يقول قتلت أبي. وبعضهم يقول قتلت ابني. ففزع الفقيه منهم فزعاً شديداً. فدنا منهُ شخص وقال له قل أَنا بالله وبالشرع فقال أنا بالله وبالشرع فمضى هو وهم حتى أتوا داراً فخرج إليهم منها شيخ على هيئة الرخمة البيضاء فقعد على شيءٍ مرتفع فادعى عليه بعض أولئك فدنا منه صاحبهُ الأول وقال له قل ما قتلت إلا حنشاً فقال ما قتلت إلا حنشاً. قال قاضيهم سمعت بإذني هاتين من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول من تشبه من الهوام فلا قود عليه ولا دية. قال فسقط في أيدي القوم وتأخروا عنهُ وتركوه وإذا بالفقيه في موضعه عند الماءِ الذي يريد أن يشرب منهُ. قال فلما رجع إلى الغلام الذي يحرث قال له إني رأَيتك واقفاً عند الماءِ ثم لم أَرك بعد ذلك. ثم ما عتمت حتى رأيتك الساعة في موضعك فأين كنت. قال ما كان شيء مما ذكرت وما كان إلا خيراً إن شاءَ الله تعالى. وكان الفقيه مسدد الجواب موفقاً للصواب. وانتفع الناس بكتبهِ التي صنعها نفعاً عظيماً وطارت في البلاد وارتحل بها إلى الأماكن البعيدة. وكان الملوك يجلونهُ كثيراً. وسامحهُ السلطان الملك المظفر في أرضه. ثم سامحه الملك الأشرف بأكثر مما سامحهُ أبوه. وكان وجيهاً عند الخاص والعام وإليه انتهت الرئاسة في اليمن أجمع. وكانت وفاتهُ في ليلة الأربعاء الرابع عشر من المحرم من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو الخطاب عمر بن أبي بكر عمر بن الشيخ الحافظ علي بن أبي بكر الغرشاني كان فقيهاً نبيهاً كريماً سخي النفس يطعم الطعام ويكرم من قصده. وكان صاحب إجازات وسماعات ولم يزل على ذلك إلى أن توفي يوم السابع عشر من شعبان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٤٢/١)

وفيها توفي الفقيه البارع أبو العباس أحمد بن سليمان الحكمي. وكان مولده سنة خمس وأربعين وستمائة. وتفقه بصالح بن علي الحضرمي والريمي. وكان مشهوراً بالذكاءِ والفقه التام. وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مدينة زبيد وأعمالها وبه تفقه جمع كثير. وكان مدرس المنصورية بزبيد ثم عزل عنها في أول سنة سبع وتسعين وستمائة. وذلك في أول الدولة المؤيدية فلزم بيته واقبل على نشر العلم تارة في بيتهِ وتارة في الجامع إلى أن توفي سحر ليلة الاثنين الثامن من شهر شعبان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو الخطاب عمر بن علي اللحي الزيادي. وكان فقيهاً فاضلاً تفقه

بالريمي واستمر مدرساً في الهكارية بزبيد وأعاد بالنظامية. وكان مذكوراً بالخير إلى أن توفي ليلة الجمعة الثالث من شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل عثمان بن عبد الله بن أبي بكر بن علي الوهبي ثم الكندي. وكان فقيهاً فاضلاً تفقه بالفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وابن عمه محمد وكان معاصراً لأحمد بن عبد الله الوزيري توفي في مدينة زبيد لأربع خلون من صفر من السنة المذكورة رحمه الله. وخلفه ابن له اسمهُ محمد توفي بعد أبيه في رجب من السنة المذكورة بعد أن بلغ عمره سبعاً وخمسين سنة والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو العتيق أبو بكر بن عيسى بن عمر وكان يعرف بالسراج. وكان فقيهاً كبيراً مشهوراً من أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. وكان صالحاً سليم الصدر تغلب عليهِ البداوة لكونه من أهل البادية من قرية من وادي زبيد تعرف بالهرمة. وكان قائلاً بالحق آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا يحاشم في ذلك صغيراً ولا كبيراً. وكان مدرساً في المنصورية الحنفية بزبيد بعد الصمعي. وكانت وفاته في زبيد يوم السابع من شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو الخطاب عمر بن علي العلوي الحنفي وكان فقيهاً ماهراً ورعاً كريماً جواداً. ولد سنة أربع وستين وستمائة وتفقه بجده لامه ألفيه الإمام أبي بكر بن عمر بن حنكاش وابتنى مدرسة في مدينة زبيد خص بها أهل مذهبه من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله. وله تصنيف حسن جيد يدخل في سبعة مجلدات يسمى منتخب الفنون. وكان شاعراً فصيحاً مفوهاً. وقد أودع المذكور كثيراً من شعره وهو كتاب نفيس حسن ممتنع يدل على إطلاع كثير وعلم غزير وكان له خزانة كتب ليس لأحد مثلها يقال أنه كان فيها خمسمائة ديوان من الشعر. وكان له عدة أولاد وهم محمد وأبو بكر وعلي وعثمان وإبراهيم وإسماعيل ويوسف وداود وغيرهم. وقد انتهت رئاسة العلم إلى ولده إبراهيم وانتهت رئاسة الدنيا إلى ولده يوسف وهما أكثر أولاده ذرية وامتحن الفقيه عمر المذكور في آخر عمره بخدمة الملوك فصادره السلطان الملك المؤَيد مصادرة شاقة توفي عقيبها. وكانت وفته يوم السابع من رجب من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو بكر عبد الله بن محمد بن سليمان وكان يعرف بابن زريق واصله من جبلة. وكان فقيهاً حبراً لهُ مروءَة تفقه بابن العزَاف وابن الصفي وابن عباس. وكان مآلفاً للأصحاب واستمر مدرساً في الوزيرية. وكان القضاة بنو محمد بن عمر يشفقون عليه إلى أن توفي على ذلك غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو القاسم بن علي بن عامر بن حسين بن علي ابن أحمد الهمداني. وكان فقيهاً فاضلاً تفقه بحجَّة. وكان قد قدمها في جملة عسكر علي بن عبد الشغدري. ثم ولي قضاء عدن من قبل بني محمد بن عمر فأقام في القضاء هنالك سنين إلى ان توفي على ذلك ليلة الخميس الثاني عشر من القعدة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه المشهور أبو بكر بن قيصر. وكان فقيهاً ماهراً تفقه بابي الحسن الأصبحي وغيره. توفي في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٤٣/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح عثمان بن الفقيه هاشم الحجري. وكان فقيهاً ماهراً تفقه بالفقيه عمر بن علي الساعي ثم صحب الشيخ عيسى بن حجاج الغيثي والشيخ علي السنيني. ففتح الله عليهِ في الحكمة فكان يقول أقوالاً كثيرة. وفسر أقوال المحققين تفسيراً نافعاً. وكان يتكلم بحضرة الشيخين فيقبلان منهُ ولا ينكران عليهِ. توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل محمد بن عيسى بن عمر بن عثمان الهرمي الملقب بالصفي وهو أخو الفقيه أبي بكر بن عيسى المعروف بالسراج الحنفي المذكور أولاً. وكان الصفي فقيهاً ويغلب عليه الأَدب وله شعر رائق ويتعانى الزراعة توفي في السنة المذكورة. وكان له ولد اسمهُ يوسف كان من أعيان الرعية خيراً جيداً له مروءَة قلَّ أن تلد النساءُ مثله. توفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو الخير أحمد بن إبراهيم بن سالم بن مقبل كان فقيهاً خيراً محبّاً لأبناءِ الجنس توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو محمد الحسن بن محمد بن علي بن شبيل تصغير شبل. قال الجندي نسبةُ همدان وكان يسكن ريمة الأسابط. وكان فقيهاً صالحاً عارفاً بالفقه توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الحسن محمد بن علي بن أبي بكر بن علي بن محمد الحكمي. وكان فقيهاً صالحاً عالماً درَّس بالعاصمية في زبيد إلى أن توفي في المحرم أول شهور السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن صالح الحسيني نسبة إلى جد له أسمهُ حسين. وكان فقيهاً فاضلاً تفقه بتهامة على عمرو بن علي الساعي وعلى عبد الله بن محمد الدياني. وكان فقيهاً نقالاً لفروع المذهب. وكان الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل يراجعهُ ويثني عليه. وله أجوبة فقهية تدل على تجويده. وكانت وفاته في السنة المذكورة تقريباً والله أعلم.

وفي سنة أربع وسبعمائة توجه الأمير جمال الدين نور بن حسن من حرض إلى صعدة مدداً لعباس بن محمد بن عباس وعلي بن بهرام. فأَخرب الأمير عباس بن محمد زرع الأشراف بصعدة ومخاليفها. ودخل علائق ومحريم نيف وثلاثين فارساً في ثغر صعدة وثلاثمائة رجال ونزل الجوف. ثم وصل صنعاءَ ثم توجه نحو اليمن. فلما خلت صعدة من العسكر جمع آل شمس الدين عسكرهم ونزلوا الجوف فأقاموا بسوق آل دعام ثلاثة أيام وقد جمعت المخاليف السلطانية في الراهز وكانت

لهم عمولة في نعمان.

وفي صفر لزم السلطان الأمير أسد الدين محمد بن أحمد بن عز الدين وولدهُ والشريف شكر بن علي القاسمي وأمر بلزم أولاده حيث كانوا. وذلك لما وقع في خاطر السلطان من فعلهم في صعدة وتلمص فأَدبهم بآداب مثلهم.

وفي هذا التاريخ برز الأمر العالي بتجهيز الأمير أسد الدين محمد ابن نور سفيراً إلى الديار المصرية فاتصل العلم أن الأمراء بمصر عبثوا بالسلطان وإن البلاد على غير وضع فأَخر السلطان ذلك العزم وحمل لابن نور أربعة أحمال طبلخانة وأربعة أعلام وعاد إلى أقطاعه.

وفي جمادا الأولي من السنة المذكورة زالت الشدة وارتفع الغلاء ورخصت الأسعار في جميع نواحي اليمن ورجع المقدم الذي تقدم لعمارة البرك وهو موسى بن أبي بكر بن علاءِ الدين وكان الشريف طاهر ابن أبي يُمي قد وصله إلى البرك من مكة حرسها الله تعالى قاصداً للباب الشريف السلطاني فسارا معاً فلما بلغا قريباً من اللؤْلؤَة لقيتهم جهينة فانهزم العسكر وتأخر الشريف طاهر على الناس فقتل وأخذت أثقالهم ودوابهم.

وفي شهر رجب من السنة المذكورة تقدم الركاب العالي من زبيد إلى محروسة تعز فأقام شعبان وحصل عليه توعك عقيب طلوعه فأرجف الناس بذلك وامتلأ اليمن خوفاً فمنَّ الله تعالى بعافيته في النصف الأَخير من شعبان ولم يزل في ثعبات إلى يوم العاشر من شهر رمضان ثم طلع الحصن وكان يوم طلوعه يوماً مشهوداً.

(١٤٤/١)

وفي شهر شوال أقطع السلطان ابن بهرام مدينة أبين وأعمالها. وتجهز ابن نور نحو الديار المصرية في أول شوال وقد أقطعهُ السلطان القحمة فسار في أوائل الشهر المذكور بأنواع التحف السنية من الفضيات على اختلاف أنواعها كالطشوف والأباريق والصلاحيات والمجامر والأكر والقرابات وسواري العود والصندل والقطع الكبار من العنبر ونوافج المسك وما عظم شأنهُ من فخار الصيني واليشم من الصحون والزبادي ما لم يكن شرحه من الحسن. ومن الخدام الحبش والقنا الهندي والمراقد الصينية ومن المراتب المذهبة والشاشات الرفاع والسلقانيات. ومن الثياب المذهبة الصينية ما عظم شأنها. ومن الأواني والأطباق والصناديق مملوءَة بالمسك المفرغ والشاه صيني والكافزر التيار جملةً أخرى. وما يتعلق بالحوائج خاناة كالفلفل والقرنفل والزنجبيل واللك والبقم أبَهَره. ومن الوحوش كالفيل وحمار الوحش والزرافة كلها مكسوة بالحرير والأطلس الملمع بالذهب ومن الخيل المسومة العربية الأصائل اللائقة بحال المرسل إليه. نقل ذلك مركبان عظيمان. ومثل هذه الهدية لا تكاد تتأَخر بين عامين أو ثلاثة طلباً للمودة والمحبة واستمرار على ما يعهد من الصحبة.

وفي هذه السنة توجه الأمير سيف الدين طغريل نحو الباب الشريف متبرئاً من صنعاءَ بسبب

معارضة حصلت بينه وبين الطواشي ياقوت متولي الأملاك السلطانية فأَبرأهُ السلطان منها وأقطعها ولدهُ المظفر وسار نائبهُ لقبضها في ثاني عشر ذي القعدة.

ثم أن الأمير شمس الدين عاد إلى عمان مرة أخرى وجاءَهم الإمام محمد ابن المطهر إلى هنالك فجهز السلطان لحربهم الأمير سيف الدين طغريل فقصدهم إلى عمان فنزلوا الجوف فقصدهم إليه فطلعوا صعدة فسار بعدهم وأغار إلى فللة وأخرب ما قدر عليه من مخلافهم. ووقعت ذمة إلى آخر القعدة. وعاد إلى صنعاء فدخلها خامس خروجه من صعدة.

وفي شهر ذي الحجة كانت الوقفة بالجمعة وحج خلق كثير من مصر وكان الأمير الحاج الكبير ركن الدين بيبرس الحاسكي وحج معه عدة من الأمراء المصريين. ووصل معهم الشريفان رميثة وحُمَّيصة ولدي أبي نمي. وكانا بمصر معتقلين كما ذكرنا أولاً. فلما انقضى الحج أحضر الأمير ركن الدين بيبرس الشريفين أخويهما أبا الغيث وعطيفة وعلمهما أن صاحب مصر قد ولى أخويهما رميثة وحُمَيصة فلم يقابلا بالسمع والطاعة. فحصلت بينهما منافرة. وكان في مكة والمدينة غلاء عظيم حتى بلغ المد الحنطة عشرين درهماً والذرة ستة درهماً. واستمر رمثية وحُمَيصة في البلد وأظهرا حسن السيرة وأبلا شيئاً من المكوس.

وفي هذه السنة وصل عبد الباقي بن عبد الحميد من ثغر عذر إلى الأبواب الشريفة السلطانية يريد أن يكون كاتب الإنشاء فحصلت معارضات أوقعت عدم الاستمرار وكان عمره يومئذٍ ثلاثاً وعشرين سنة. فلما لم يتفق له ذلك توجه نحو الديار المصرية وهو ينشد قول الشاعر

أيا ماء العذيب وأنت عذبُ ... تعرَّضَ دونك الماء الوخيم

وفي هذه السنة توفيت الحجة المصونة بنت الأمير الأجل الكبير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول زوج مولانا السلطان الملك المؤيد وكانت عنده عزيزة كريمة لأنها بنت عمه ابن عم أبيه. وكانت كثيرة المروءة حسنة الشفاعة. فعز عليه فقدها وأمر بالقراءة عليها في سائر جوامع مملكته. وحملت من رأس حصن تعز تحت الشخانات الحرير وإمامها ملوك بني رسول. ودفنت في مدرسته التي أنشأها. وكان دفنها يوما مشهوداً رحمة الله عليها.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن آدم المعوف بالجبرتي نسبة إلى ناحية من بلاد الحبش يقال لها جَبَرت وكان فقيهاً ورعاً زاهداً صاحب مسموعات وإجازات أخذها عن الإمام أبي الخير بن منصور الشماخي وغيره. وهو الذي يعرف به مسجد الجبرتي الذي في مدينة زبيد عند الخان الجديد المجاهدي.. وكان غالب دهره لا يفارق المسجد إلى أن توفي على ذلك ليلة الأحد الثالث من شعبان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو بكر بن أبي القسم الشعبي وأصله من أشعوب دنجان. وكان رجلاً صالحاً كثير العباد له قدر عظيم عند الناس. توفي في السنة المذكورة وخلفهُ ولدهُ أبو الخطاب عمر بن أبي بكر. وكان من خيار أولاد الفقهاء شريف النفس عالي الهمة له دين رصين. وكان صبوراً على إطعام للخاص والعام فلذلك لحقه دين كثير. وتوفي على الحال المرضي سلخ صفر من سنة تسع عشر وسبعمائة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن أحمد العسيل. وكان مولده لأربع عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة وأربعين وستمائة وأهله يعرفون ببني عسيل من فقهاء قائمة بني حبيش وخطبائها. قدم هذا إلى جبلة طالباً للعلم ثم تقدم إلى رباط المقداحة على حياة الشيخ علي بن عبد الله فجعله إماماً له وللجماعة.

ويروى أنه رآه يوماً وفي يده خاتم فضة فأبعدها منه ثم لما عاد إلى جبلة أقبل على قراءة الفقه. فلما كان في بعض الأعياد التي يتحارب فيها أهل جبلة وأهل البادية دخل الفقيه سفين الجامع فلم يجد فيه أحداً إلا هذا الفقيه مكباً على مطالعة البيان فأعجبه ذلك منه وعزمه على القعود معه ثم زوجه بابنته. ولما توفي استخلفه على مسجده فلم يزل به مدة. ثم ارتحل إلى مصنعة سير فتفقه بها. ومن شيوخه الذين تفقه بهم أبو بكر العراف وعباس البريهي وصهره سفين. ولما ولى بنو محمد بن عمر بامرأتهِ وولدين له. وكانا قد تفقها فلما وصلوا حازان توفيت الزوجة رحمها الله في منتصف شعبان من السنة المذكورة ثم لما صاروا في مكة توفي ولده الأصغر وكان اسمه أحمد وكان جيداً تقياً شريف النفس عالي الهمة. ثم حج الفقيه وابنهُ الآخر فلما انقضى الحج عزما على الرجوع إلى اليمن فتوفي الفقيه في جدة سلخ ذي الحجة من السنة المذكورة رحمهم الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أحمد بن عمر الزيلعي الحبرتي وهو الذي يعرف بصاحب المحمول نسبة إلى مسجد على ساحل المحالب. وكان فقيهاً كبير القدر مشهور الذكر معروفاً بالعلم والعمل صاحب كرامات ومكاشفات.

قال الجندي أخبرني الفقيه أبو بكر بن عبد الله بن محمد الحلي وكان قدم علينا الجند قال قدمت عليه زائراً فبينا أنا عنده إذ قدم عليه جماعة يزورونه ومعهم دراهم قد جاءوا بها فوضعوها بين يديه فعجل يقلبها بمسواك في يده درهما درهماً فاخرج منها ثلاثة دراهم فردها على شخص وستة عشر درهماً ردها على شخص ثم أمر الخادم بقبض الباقي فداخلني من ذلك تعجب كثير. فحلوت ببعضهم فسألت عن سبب رد الفقيه الدراهم التي ردها. فقال أن الذي جئت بالثلاثة الدراهم وليست مني بل أعطتنيها عجوز تحت يدها أيتام ولم يمنعها من الوصول إلا خشية أن يعرفها الفقيه فيردها عليها وقد جعلتها بين دراهم مني فانتقاها الفقيه فأخرجها كأنه قد عرفها وإما الستة عشر درهماً فاسأل عنها صاحبها فهو ذاك الرجل. فأتيت الرجل الذي أشار إليه وسألته عن قصة رد الدراهم فقال هي من شيخ الصميين كان مرض له فرس فنذرها للفقيه أن شفي فرسه. فلما شفي وعلم إني واصل إلى الفقيه أمر بها معي لعلمه أن الفقيه لا يأخذها منه لو وصل بها ولا يقبلها منه. فلما اجتمعت

جماعة معهم دراهم فتح ناولهم إياها فجعلوها بين دراهمهم فأخرجه الفقيه بأعيانها وأعادها إليَّ كما رأيت.

قال الجندي وسألت هذا الذي اخبرني عنه بقصة الدراهم عن سيرته فقال أنه كان لا يكتسب بحراثة ولا زراعة ولا دروزة ومتى علم بأحد من أصحابه أنه بدروزة طرده وكرهه. وتوفي في قرية اللحية تصغير لحية الرجل وكان وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح حسين بن أبي بكر بن حسين السودي بفتح السين المهملة نسبة إلى بني سود. وكان فقيها صالحاً فاضلاً مشهوراً بالفقه والصلاح وشهرت له كرامات كثيرة وكان معظماً عند الناس. تفقه على سليمان بن الزبير ثم غلبت عليه العبادة والورع وسلوك طريق فقهاء الناحية لكن بلغ الملوك عنه أنه يتصل بإمام الزيدية في عصره وهو محمد بن مطهر فكرهوه وهموا بأذيته فكان لا يستقر في موضع ينالونه فيه. وكان ينكر على القراء الرقص والسماع فلذلك أجمع الفقراء والفقهاء عليه ولم يزل حذراً من السلطان حتى توفي في السنة المذكورة بعد الفقيه أحد الزيلعي بشهرين أعني المذكور قبله.

(١٤٦/١)

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو سعيد محمد بن الفقيه عبيد بن أحمد بن مسعود. وكان فقيهاً ماهراً ولد في شوال من سنة إحدى وخمسين وستمائة تفقه بأبيه. وكان ذا دين وورع وصلاح توفي في السنة المذكورة والله أعلم.

وفي سنة خمس وسبعمائة أقطع السلطان الأمير سيف الدين طغريل أبين فنزل إليها في النصف الأخير من المحرم وانفصل عنها ابن بهرام. فلما وصل الأبواب الشريفة منفصلاً من أبين أمر السلطان أربعة أحمال طبلخانة وأربعة أعلام وأقطع الأعمال الرحبانية. وكانت الأشراف آل شمس قد غزوا حرض قبل وصول ابن بهرام إليها وافسدوا في نواحيها. وكان فيها مقدم ورتبة من عسكر السلطان فخرجوا لقتال الأشراف وقاتلوهم عند المدينة فانهزموا إلى الدرب ودخل الأشراف المدينة فنهبوا ما أمكنهم ورجعوا من فورهم. وخالف الأشراف بنو حمزة وانضم إليهم ابن وهاس فجهز السلطان حينئذٍ الأمير بدر الدين محمد بن عم بن ميكائيل إستاد داره في جيش أجش إلى جهة صنعاء فوقف هنالك إلى آخر شهر رمضان. ونزل بعد تمام الصلح بين السلطان وبين الأشراف على أن للسلطان ثلث مخلاف تلمص وقبضت رهائنهم على ذلك. ورجع أهل مدينة صعدة إلى صعدة فسكنوها.

وفي آخر شهر شعبان من السنة المذكورة تبرأ الملك المظفر من صنعاء وتوجه إلى حرم أبيه فاقطعها السلطان الأمير سيف الدين طغريل فسار حصناً فلما وصل ذمار أقام بها إلى شهر ذي القعدة. وقبض في مدة وقوفه حصناً من حصون بني عبيدة. وفي الرابع والعشرين من رمضان اقطع

السلطان الأمير عماد الدين إدريس بن علي أبين وما ينضاف إليها. وفي النصف من شوال أمر السلطان بإعادة الجحافل على جوامكهم قد قطعها منهم منذ سنتين على سبيل الأدب.

وفي هذه السنة المذكورة رجع الأمير أسد الدين نور من الديار المصرية بعد أن عومل بما يجب من الإكرام. ووصل معه سفير من هنالك يقال له مبارز الدين الطوري فأقام في تعز أياماً. وحضر المقام السلطاني فقوبل بالإكرام والأنعام. ثم سار إلى زبيد أقام إلى أن تهيأ له السفر إلى مخدومه فسافر.

وفي هذه السنة المذكورة حج من مصر والمغرب وبلاد العراق والعجم ومن اليمن خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى. واجتمع في عرفة ثلاثة ألوية لصاحب اليمن ولصاحب مصر ولصاحب العراق حذابذة وهو الشجاع باللغة التركية. وحصل الحرب بمنى بين المصريين والحجازيين. وكان أمير الركب المصري الأمير سيف الدين أنغه وكان فظاً غليظاً سفاكاً مقدماً على الجرائم. فقتل جماعة من السرو وشظهم ولم تدخله شفقته عليهم ولا رحمة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الكاشغري نسبة إلى بلد في أقصى بلاد الترك. وكان حنفي المذهب. وقدم مكة حاجاً فأقام فيها أربع عشرة سنة صنف أيها كتاباً سماه مجمع الغرائب ومنبع العجائب يدخل في أربعة مجلدات. ثم انتقل إلى مذهب الشافعي هنالك فسئل عن ذلك فقال رأيت القيمة قد قامت والناس يدخلون زمرة بعد زمرة فسرت مع زمرة منهم أيريد الدخول فحدثني شخص وقال الشافعية يدخلون قبل أصحاب أبي حنيفة فلا جل هذا أردت أن أكون مع المتقدمين وتظاهر بمذهب الصوفية. وابتنى ربطاً كثيرة في أماكن متفرقة. وحكم جماعة أيضاً ولما دخل اليمن ورأى أن الغالب في اليمن مذهب الشافعي تظاهر به وقرأ كتبه فقرأ المهذب في إب على الفقيه يحيى بن إبراهيم وإما النحو وغالب مصنفات ابن الجوزي ورتبه القاضي بهاء الدين في المدرسة المظفرية بتعز. وكان انثنى رباطاً في ساحل موزع وغرس هنالك نخلاً كثيراً وكان يختلف إليه في أيام ثمرته ويعود إلى مدينة تعز عند فراغه فلما كان في سنة خمس وسبعمائة نزل إلى موزع في أيام ثمرة النخل فأدركتهُ الوفاة هنالك. فلما توفي قبر عند قبر الشيخ الصالح الخطيب المقدم ذكره رحمة الله عليهما.

وفيها توفي الفقيه الفاضل عيسى بن أبي بكر الحكمي. وكان فقيهاً حبراً ديناً تفقه بالفقيه أبي بكر عبد الله الريمي. وامتحن في آخر عمره بكفاف البصر إلى أن توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٤٧/١)

وفيها توفي الفقيه الصالح محمد بن أبي بكر بن رُشَيد بضم الراء وفتح الشين. وكان فقيهاً صالحاً ورعاً زاهداً درس في المنصورية بزبيد بعد الفقيه أحمد بن سليمان الحكمي لما عزل عنها. ولم يزل

على التدريس إلى أن توفي وقت الأذان بالظهر من يوم الأربعاء ثاني عشر شوال من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو الطيب ظاهر بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عيسى المهدي اصله من قرية الملكحي ولي قضاء بغدان مدة وكان تفقه بجبلة بعبد الله بن علي العرشاني ولم يزل حاكماً حتى توفي في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفي سنة ست وسبعمائة ملك السلطان حصن الفرائع وهو مصاقب الطويلة بحيث يختلف بينهما النشاب والحجر. فحط الريف تاج الدين علي بالفرائع ولزم حصن سريت. فخرج الأمير سيف الدين من صنعاء في شهر ربيع الآخر والأمير عباس بن محمد فكسروه وشحن الأمير سيف الدين الحصنين بأنواع الشحن بعد أن عمرها ورجع ظافراً منصوراً. وكان رجوعه في شهر شعبان.

وفي يوم الثالث عشر من شهر جمادى الأخرى وكان ميلاد السلطان الملك المجاهد في مدينة زبيد. وقيل كان ميلاده في العاشر من شهر رمضان من السنة المذكورة في مجلس في دار المعروفة بدار السلطنة زبيد ويعرف المجلس بمجلس الولادة لكونه ولد فيه والله أعلم.

وفي النصف الأخير من جمادى الأخرى المذكور أخذ ابن أصهب حصن النشابة بوصاب وهو حصن عظيم يناطح النجوم ويلتبس بالغيوم من أحرز الحصون وأمنعها وأضرها وانفعها وهو من آخر معاقل اليمن والذي يحط عليه لا يراه لأنه في رأس جبل عال وليس له إلا طريق واحدة فأهم السلطان وأخذه فجهز الوزير موفق الدين إلى جبلة فجمع منها الرحل وسار السلطان إلى زبيد مبادراً كما قال الشاعر أبو الطيب المتنبي حيث يقول

أشد من الرياح الهوج بطشاً ... وأسرع في الندى منها هبوباً

ثم خرج السلطان فحط على النشابة أياماً فأذعن ابن أصهب بالطاعة ووقف على قدم الاستطاعة ونزل على الذمة الشريفة وتسلم السلطان الحصن المذكور وتسلم حصوناً أخرى وانثنى راجعاً. فلما استقر في مدينة زبيد عملت الأفراح وضربت البشائر وهنأه بذلك شعراء دولته. وهنأه الفقيه عفيف الدين عبد الله بن جعفر فقال:

ترك الجبال أشم قاعاً صفصفاً ... من وعده ووعيده ما اخلفا

متقاضياً ميراثه مستشهداً ... سمر العوالي والصفيح المرهفا

تغفو عيون الصابرين نفوسهم ... عن نيل ما طلبوا وكلاً ما غفا

جمع الجيوش إلى المغار ولو أَتى ... للحرب قبل جيوشه فرداً كفى

لا يستقر الدارعون نفوسهم ... حسب الرماد يعاصف أن ينسفا

دأْب المؤَيد أن يسل على العدى ... سيفاً ودأْب رقابها أن تقطفا

يرضى ملوك الأرض ايسر حقها ... منهُ وتفرح من وفاهُ باللفا

لا تقدر الآثام ترفو خرقهُ ... أبداً ولا الأيامُ تخرق ما رفا

العاقد الرايات لم يك زاجراً ... طيراً بمسرحها ولا متعيفا

بخبائس للحرب ليس خنائس ... تمسي وتصبح في المراكز عكَّفا
قامت عقاب المنجنيق وراءَها ... فأشار مولانا بان تتخلفا
جمعت جناحيها ومدت عنقها ... للسير في أَثر الخميس وتزحفا
نوءُ يجلجل من زبيد رعده الساري فصاب وصاب غيثاً وكَّفا
حتى إذا ما السيف بالغ خطوة ... فيها وحثحثه السباق فأوجفا
وجرت سيول من دم لو أنها ... ماءُ لكان ربيعهم والصيّفا
ورأَوا من النيران حول قلاعهم ... عدد الكواكب في السماء ونيفا
فتوجسوا أن الطبول زلازل ... كادت بهم وبطودهم أن تخسفا
طرحوا نفوسهم على أبوابهِ ... فعفى ومثل أبي المظفر من عفا
هربوا إليه منه فاعتصموا بهِ ... ولكم أجار الهارب المتخوّفا
مستشفعين بآل بيت محمدٍ ... أَهل الشفاعة للمسيءِ إذا هفا
فأَقال عثرتهم وعاد بهم إلى ... ما أَورثته بنو الرسول من الوفا
واتت عقائل في الحجال فجاوبت ... منهُ الكريمَ الطاهر المتعففا
من لم يمدَّ إلى الخنا طرفاً ولم ... يسحب إلى طرق الفواحش مطرفا
يدعون يا سلطان عفواً بالرضا ... فأَجابهم وأَثابهم وتعطفا

(١٤٨/١)

نظر البوارق من بلاد ربيعةٍ ... وفدت وخاف بلمعها أن تخطفا

وهي قصيدة طويلة هذا عنوانها وفي شهر شوال من السنة المذكورة نقض الجحافل الصلح وأغاروا على لحج فقتل بينهم عباس بن أبي سقرة وكان من وجوههم وفرسانهم. وكان في ثامن الشهر أغاروا على الأجنة فقتل أيضاً أحمد بن سقرة وكان أعظم من أخيه محلاً فيهم. وفي يوم العشرين من القعدة تجمعوا جموعاً كثيرة وقصدوا الأجنة أيضاً ولم يستقروا عندها فرجعوا طريق الرحاح فتبعهم العسكر وأدركوهم بعد العصر وقد أصابهم سموم وتفرقوا فقتل العسكر منهم نحواً من أربعين رجلاً فانكف شرهم وفسادهم.

وفي سنة سبع وسبعمائة جاءت النجوع إلى ناحية حوض فجرد السلطان لهم إلى تلك الناحية نحواً من ثلاثمائة فرس من حلقته المنصورة فأغاروا عليهم وشتتوا شملهم.

وفي هذه السنة المذكورة هرب الشريف محمد بن خالد من زبيد وكان السلطان يومئذٍ بها وترك رهينة أمه وأخته.

وفي جمادى الأولى خالف والي سبعان على الأمير تاج الدين وباع الحصن على السلطان فصدهُ الأمير تاج الدين وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة فجرد السلطان لحرب الأمير تاج الدين سيف

الدين طغريل وسار معه بالمنجنيق لرمي عزان فلما صار بالضلع التقى بالأمير تاج الدين وأخيه الأمير علم الدين حمزة أو كان ملتقاهم اسفل عقبة بكر فاتفقوا على الصلح وعلى خدمة السلطان وحلفهما على ذلك وخلع عليهما ورجع إلى محطته ومعه الأمير علم الدين حمزة فلما أصبحوا من النهار الثاني طلعت الأعلام السعيدة المنصورة السلطانية حصن بكر وخفقت ذوائبها هنالك طاعة السلطان. ثم نزل الأمير تاج الدين إلى المحطة فانصفه الأمير سيف الدين وخلع عليه وأعطاهُ جنداً وكساً غلمانه وأصحابه. وانعقد الصلح بينهم وبين السلطان خمس سنين وتوجه الأمير سيف الدين إلى الباب الشريف وصبحته الأمير علم الدين حمزة ابن أحمد صهر الأمير تاج الدين محمد بن أحمد ولم يكن وصل أبواب السلطان قبل ذلك. وكان معه ابن أخيه عبد الله بن تاج الدين وجماعة من العرب.

وفي هذه السنة عزم الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة في الديار المصرية على أن يجهز الأمير بيبرس في جيش كثيف إلى اليمن. وأمر على الأمير عز الدين الأشقر شاد الدواوين أن يتقدم إلى جهة قوص لعمارة المراكب فعمر نفيفاً وخمسين مركباً. وقدر الله موته وموت أولاده وعائلته وجميع أهل داره في أيام قلائل ولم يبق منهم أحد. فرجع الأمير سيف الدين سلار عن ذلك الرأي وأشار بأن يحضر الفقهاء والقضاة ومشائخ الخوانق وأصحاب الزوايا وأرباب الخير والصلاح إلى مقام السلطان الملك الناصر ليعلموه أن هذا الأمر لا يحل الأقدام عليه لان اليمن بلاد الإيمان وهي بلاد العلم والعلماء والفقهاء والصلحاء وأرباب الخير وملكها ثابت الولاية مستمر الحكم قد انعقد الإجماع عليه فلا يجوز البغي عليه. فرجع السلطان عن ذلك الرأي وجعل هذا لتأخير المشير.

ولما علم السلطان الملك المؤيد بذلك منع الكارم تلك السنة حتى الرسول بالعلم بذلك واستقرت الأمور على تسفير رسول من الديار المصرية إلى اليمن ومتعمم فكان الرسول رجلاً يسمى السعدي من مماليك الملك الظاهر. والمتعمم القاضي شمس الدين محمد بن عدلان أحد القضاة. وكان مضمون الرسالة تقرير الحال وإن السلطان قد رجع عما قدم عزم عليه. وفي خلال ذلك الرغبة إلى الصلح والموادعة. ثم توجه الرسولان إلى بلاد اليمن فحضرا مقام السلطان وكان السلطان يومئذ مريضاً لا يستطيع الكلام واتفق أن حدث بالأمير الواصل مرض أفضى به إلى الموت فتوفي في الثالث والعشرين من جمادى الأولى من سنة ثمان وسبعمائة. وكانت وفاته بزبيد في ظاهر المدينة. ورجع القاضي شمس الدين إلى الديار المصرية وصحبته جواب ما جاءَ بسببه.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل محمد بن عيسى بن علي بن محمد ابن أبي بكر بفتح اللام. وكان فقيهاً حافظاً لكتاب الله تعالى ومن احسن الناس لجهة به من سمعه يقرأ استغرب قراءته وطرب له. رتبهُ بنو عمران إماماً في الجامع بعد أبيه ولم يكن لديه فقه شاف. فلما انفصل بنو عمران أقام إماماً بعدهم نحو سنة ثم فصله بنو محمد بن عمر فأقام منفصلاً عدة سنين إلى أن توفي في الجنيد. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أحمد بن عبد الله الجبرتي واصلح من جبرت وهي ناحية من نواحي بلاد السواد. وكان فقيهاً فاضلاً قدم طالباً للعلم فأقام بالمصنعة أياماً فقرأ على الفقيه محمد بن أبي بكر الأصبحي فتفقه به ثم بتلميذه الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الأصبحي صاحب المعين ثم رتبه القاضي إماماً في قبة هنالك جعلوها مسجداً. ثم لما خرجوا عن سير خرج هذا الفقيه إلى الذبيتين فأقام بها إلى أن توفي في السنة المذكورة. وقبره قريب من تربة شيخه الإمام أبي الحسن علي بن أحمد المذكور رحمة الله تعالى عليهما.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن عبد علي المعروف ووالده بالصفي الميموني. وكان فقيهاً فاضلاً جيداً في بدايته بفقهاء تعز كان البابة وابن العراف وغيرهما. وارتحل إلى تهامة فأخذ عن الفقيه إسماعيل ابن محمد الحضرمي وغيره. ثم لما عاد إلى الجبل درس بذي جبلة. ثم انتقل إلى تعز فدرس بالرشيدية. ثم لما ابتنى الملك الأشرف مدرسته بالمغربة جعله مدرساً بها. فلم يزل بها إلى أن توفي الملك الأشرف في تاريخه المذكور أولاً وكان وقف الملك على مدرسته وإنما كان يتفقد الفقيه في سائر أوقاته فلما توفي الملك الأشرف كما ذكرنا أولاً قيل للفقيه هل لا انتقلت إلى بعض هذه المدارس فإن وقف هذه المدرسة لا يحملك. فقال لا أغير صحبة الأشرف حياً ولا ميتاً. وكان أخذه لكتب الحديث عن الفقيه أبي العباس أحمد بن علي السرددي وعن إسحاق الطبري وعن إبراهيم بن عجلان. واليه انتهت رئاسة الفتوى في مدينة تعز ونال من الأشرف مكانة جيدة. وكان موته فجأة ليلة الخميس بقين بن صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن عثمان الأشبهي وكان فقيهاً عارفاً قدم اليمن غريباً من ناحية الحجاز فلما وصل تعز أقام في السفينة أياماً فأخذ عنه جماعة من الفقهاء فبلغ العلم به إلى قاضي القضاة يومئذ وهو الصاحب موفق الدين فرتبه مدرساً في المدرسة المظفرية. وكان يدرس كتاب الحاوي الصغير ولم يكن يعرف كتب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي ولا كتب الشيخ أبي حامد الغزالي فاخذ الناس عنه الحاوي الصغير وغيره. ويقال أنه كان مدرساً ببغداد ومعيداً ولما وقف على كتاب المعين تصنيف الفقيه علي بن أحمد الأصبحي اعجب به واستنسخه وقال ما كنت أظن أن مثل هذا يوجد في زماننا ثم لم تطب له الإقامة في اليمن فاستأذن في السفر إلى عدن وسافر إلى عدن هذه السنة المذكورة سنة سبع وسبعمائة فذكروا أن المركب الذي سافر فيه غرق والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه الفاضل الخضر بن عبد محمد بن مسعود الحبي نسبة إلى قبيلة من خلان يعرفون ببني حبي وكان فقيهاً مرضياً تفقه بأحمد بن سليمان الحكمي وأخذ عن محمد بن عمر بن علي الساعي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح صالح بن أحمد بن محمد بن يوسف بن أبي الخل وكان فقيهاً كبيراً عالماً وعاملاً ورعاً كثير الصيام والقيام وكان يقو لدرسته لا تأتون إلا في وقت كراهة الصلاة لأنه كان لا

يمل الصلاة ليلاً ولا نهاراً تفقه بعمر بن علي الساعي. وكان غالب أيامه صائماً لا يفطر غير الأيام المكروهة للصوم وكان راتبه في كل يوم وليلة ألف ركعة. وامتحن في آخر عمره بالعمى فكان يعرف الرجل الداخل عليه قبل أن يتكلم. وكانت وفاته في السنة المذكورة بعد أن جاوز عمره سبعين سنة رحمه الله تعالى.

وفي السنة المذكورة توفي الفقيه البارع أبو عبد الله محمد عمر بن علي بن محمد الخزرجي الأنصاري الساعدي نسبة إلى ساعدة بن كعب بن الخزرجي. وكان مولده سنة تسع وثلاثين وستمائة. وتفقه بعلي بن ابن إبراهيم النحلي. وكان أول من لزم مجلسة. وكان الفقيه عمر بن إبراهيم زميله في القراءة وهو من أتراب محمد بن حسين من أهل عواجه. ودرس هذا محمد بن عمر في جامع المنكسة. وهو جامع أحدثه السلطان الملك المظفر يوسف بن عمرو جعل فيد مدرساً ودرسة. ولم يزل هذا محمد بن عمر على التدريس به إلى أن توفي إلى رحمة اله تعالى يوم التاسع من المحرم وقيل يوم العاشر منه من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٥٠/١)

وفي سنة ثمان وسبعمائة اتفق عمارة القصر السلطاني المسمى بالمعقلي في ثعبات. وكان فراغه في النصف من صفر من السنة المذكورة. وهو قصر قصرت المحاسن في نواحيه. وأطلعت الإجادة في أفق معاليه.

أجمع أرباب اختراق الآفاق أنه لا مثل له في شام ولا عراق. وأنهم لم يشاهدوا مثله أبداً وهو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً بسقفين بغير أعمدة له أربع مناظر بأربعة وراشن ليس فيه إلا رخام وذهب وإمامه بركة طولها مائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً على حافاتها صفة طيور ووحوش من صفر أصفر ترمي الماء من أفواهها. وفي وسط البركة فواره ترمي الماء إلى السماء فيبلغ مداً بعيداً. وقباله شاذر وإن بعيد المدا يصب ماؤه إلى البركة المذكورة كان لوح من بلور لا يمكن التعبير عنه بغير هذا وفي المجلس شبابيك تفضي إلى بستان عجيب المنظر حسن المختبر والمخبر.

وكان الصناع في عمله مدة سبع سنين قال المصنف أيده الله وسمعت من حكى ممن أدرك أيام عمار أنه كان يطلع في كل يوم نحو من سبعين بغلة من الصناع الغرباء ما بين نجار ودهان ونحاس وصانع ومكندج ومرخم ومزخرف. ومصور خارجاً عمن يركب الحمير ومن لا يركب من اتباعهم. وهذا ما عدا صناع البلاد وهم أضعاف أضعافهم. ولما فرغت عمارته على الصفة المذكورة أمر السلطان رحمه اله تعالى بعمل فرحة عظيمة جامعة حضرها أعيان الناس. بل عامتهم على اختلاف حالاتهم وتنوع طبقاتهم.؟ وكان السلطان رحمة الله عليه ينظر إليهم من الطبقة الثانية وأمر بإضافة الخلع على أعيان الناس وأجرى للمجمع من كرمه نوالاً وبلغهم من جوده آملاً. وهنأه الشعراء

بذلك. وفي هذا عبد الله بن جعفر يقول
هنئت قصراً على كل القصور سما ... يا حبذا برج سعدٍ فيه بدر سما
بنيتهُ مستجدّاً تستجدُّ به ... نصراً من الله قد أجرى بهِ القلما
ويلتقي الأَمن واليُمن المقيم به ... والخلد والعز والأفراح والنعما
ففي الخلافة آياتُ تشاهدها ... وقوف سقف ولا شيءُ به دعما
أَنصر التبر مبذولاً لطالبه ... فنال من دونه ذوباً به رقما
بين الحدائق والأعناب قد نشرت ... منها ثياب تلف الوهد والاكما
كأنما عاد غُمْدان كمبدئه ... واظهر الله من أستاره إرما
كأَن أربعة الجوزا رواشنه ... والجركتان كأَن الفرقدين هما
بين الشبيهين شاذروان قِبلته ... هما الجناحان وهو القصر بينهما
تظل منه صفوفُ الماءِ ساجدة ... مؤَباتٍ لسلطان الورى خدما
إلى سواقي رخام فوق فسقية ... فاعجب لجامد ماءٍ فيه ذائب ما
ولخورنق حين المعقليّ بدا ... كمثل ضدٍّ إذا قابلتهُ انهزما
لم يستطع لوقوفٍ في مناظرة ... أَمامهُ فتولى عنهُ محتشما
كأنه رب جيشٍ قد طلعت لهُ ... ففرَّ عنك بروحٍ منهُ مغتنما
فحلهُ في سعود في علويدٍ ... في رفعة في بقاءٍ ليس منصرما
في حقن كل دم أو كشف كل غما ... أَوري طل ظما أَوَ منع كل حما
أصحييت من يوسف السامي مآثرة ... فمذ وُجِدْتَ بحمد الله ما عدما
وقال عبد الباقي بن عبد المجيد في ذلك ويمدح السلطان الملك المؤَيد رحمه الله تعالى
دع رامة الوادي ودع سمراتها ... واترك بيوت الشعر في ابياتها
والحظ منازل آل جفنة في العلى ... من ارض صهلتها إلى ثعباتها
تجد القصور الشامخات على السها ... شرفاً تريك العز في شرفاتها
تلك الجنان أما ترى أنهارها ... قد أعربت بالطيب عن ثمراتها
تجلى زواهرها ويشرق زهرها ... فكأَنها الأقمار في هالاتها
مثل المجرة في انتظام قصورها ... أين المجرة من نما زهراتها
برزت بها الأغصان شبه عرائس ... نظمت عقود الدر في آيها
في كل عود من سواجع طيرها ... عود يريك اللحن من نغماتها
فخرت بها ثعبات أمصار الورى ... بجميل منظرها وجل صفاتها
وسمت بعينيها وحسن نباتها ... وتسلسل الأنهار في بحراتها
فلذا بها الطاووس فرَّق ريشهُ ... فشياته في العين مثل شياتها

ما سعت بوار وغوطة ... يوماً بأزهى من بها غوطاتها
بنيانها من عسجد ومياهها ... من فضة تجري على حافاتها

(١٥١/١)

وبها مشيد المعقليّ فكم به ... من صنعةٍ فخرت بحسن ثباتها
قصرُ يقصّرُ عن لحاق كماله ... باهي النجوم إذا سمت بسماتها
هذي المنازل لا منازل غيرها ... في حسنها الباهي وفي حسناتها
فلكُ به الملك المؤَيد طالعُ ... كالشمس كاشفة دجى ظلماتها
فلك به الأفلاك جامدة على ... مجرى بما يختار من حركاتها
متعوّد بذل النوال لقاصد ... والنفس جارية على عاداتها
أيامهُ للقاصدين مواسمُ ... وبواسم عن فضلها وهباتها
ملكُ لهُ في العلم أو في غايةٍ ... أَرْبت على الأملاك في غاياتها
بذ الملوك أبو المظفر في العلى ... لما علت هماته هماتها
حازت مناقبهُ شتات فضائلٍ ... فلذاك أضحى جامعاً لشتاتها
يلقى أعاديه كتائب جيشهِ ... والنصر معقود على راياتها
لم تلقَ أن شاهدت ضوء جبينه ... خططاً من الأيام في نكباتها
أيامهُ مخلوقة لهباته ... مقصورة أَبداً على لذاتها

وهذه قصيدة طويلة هذا عنوانها ولما فرغ بناء المعقلي في التاريخ المذكور أمر السلطان ببناء قصرٍ ثان في بستان صالة وتوجه إلى محروسة زبيد يوم الرابع من جمادى الأولى فأقام بها نصف شهر وتوجه نحو مدينة المهجم فأقام بها إلى يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر رجب وسار إلى حجة في جيش أجش

يخف أعزلا قود عليه ... ولادية تساق ولا اعتذار
تريق سيوفهُ مهج الأعادي ... فكل دمٍ أراقتهُ جبار

وذلك حين طال الحصار على الطهرين ولم يتصل المقدمون إلى غرض فوصل السلطان إلى الجاهلي يوم الثالث والعشرين من رجب وتسلم الطهرين يوم الرابع والعشرين من رجب. ونقل المحطة والمنجنيق إلى شمسان وتواتر القتال عليه ورماه بالمنجنيق فعمل فيه المنجنيق عملاً عظيماً.
وكان الملك المظفر والصاحب موفق الدين ينزلان لحضور الزحفة عليه وتطاول عليه القتال إلى النصف من شعبان. ثم سلمهُ صاحبه وبعد تسليمه وصل الأمير تاج الدين إلى المحطة. وقد كان وصل قبله الأمير ابن وهاس وصاحب ثلا وعساكر اليمن الأعلى حتى امتلأت حجة بالعساكر.
وتوسط ابن وهاس في الصلح لصاحب جراف. فعاد إلى الخدم السلطانية ورهن ولده وتوسط أيضاً

في صلح الإمام محمد بن مطهر على تسليم عزان وبراش ثم رجع السلطان من حجة. وكان انفصاله عنها يوم السبت التاسع عشر من شعبان. فدخل المهجم يوم الثالث والعشرين منه. وخرج من المهجم يوم الخامس والعشرين منه متوجهاً إلى زبيد. فأقام بها وصام شهر رمضان وعيَّد العيد بها.

وفي اليوم السادس عش من شوال وصل الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة إلى الأبواب السلطانية بزبيد بعد الامتناع الشديد والمرام البعيد. فأكرمهُ وأتحفهُ وانصفهُ. ولك يكن قبل ذلك وصل إلى السلطان. وكان من أعيان الشرفاءِ ورؤَسائها. وهو صاحب الحصون الغربية كحلان والطويلة. وعدة حصون كثيرة من الحصون الصغار. فعامله السلطان بأنعامه. وأفاض عليه صيّبِ إكرامه. وتوجه الركاب العالي إلى بحر الأهواب على ساحل زبيد. فركب الفيل عند دخوله الغارة. وأردف الأمير تاج الدين خلفه. فارتاع قلب الشريف من ركوب الفيل.

وفي ركوب الفيل يقول عبد الباقي بن عبد المجيد

الله أولاك يا داود مكرمة ... ومعجزاً ما أتاها قط سلطان

ركبت فيلاً فظل الفي في رهج ... مستبشراً وهو بالسلطان فرحان

لك الإله أذل الوحش اجمعه ... هل أنت داود فيها أم سليمان

وأقام السلطان في البحر أياماً. ثم عاد إلى زبيد فأقام فيها أياماً ثم توجه إلى تعز فدخلها يوم السابع والعشرين من ذي القعدة وأحضر الأمير تاج الدين للنزهة والفرجة في قصور ثعبات وقراصة وصهلة وصالة فرأى ملكاً كبيراً وجنة وحريراً. ولما وصل السلطان إلى ثعبات كما ذكرنا هنا الأمير عماد الدين إدريس بن علي بقدومه إليها في أول العشر من ذي الحجة فقال

تهنى بك العشر الكريمة والشهر ... وتزهو بك الأيام والملك والدهر

وباليمن والإقبال حلت ركابكم ... بحيث استقر الملك والنهي والأمر

سمت ثعبات فوق كيوان رتبة ... وطالت على الآفاق وابتهج القصر

وأشرق نور المعقلي كأنما ... تَبَدىَّ لنا من بين أركانه الفجر

(١٥٢/١)

وقد كان ظن الهجر لما رحلتم ... ورام اصطباراً وهو ليس له صبر

فلما أُتت منكم بشائر حجةٍ ... وما فعلت فيها صوارمك البتر

تسلى عن البعد الملم وسره ... لك العز والإقبال والفتح والنصر

وحين بدا فيه جبينك مشرقاً ... ولاح صياءُ منه يحسده البدر

زها حين ما جل ابن جفنة صدره ... ولا غزوان يزهو بك الدست والصدر

لعمري لقد آنستموا غرضاً به ... وما رضيت بعداً تهامة والبحر

ولا يئست منكم أباطح مكة ... وما زال مشتاقاً لك البيت والحجر

وفي كل ارض من سطاك مخافة ... وفي كل قلب من مخافتكم ذعر

وفوق محل الشمس قدراً ورفعة ... ضربتم رواق المجد فاتضح الفخر

وقلدتم كل الأنام صنائعاً ... فما أحد من رق إحسانكم حرُّ

فلا زلت للدنيا وللدين بهجة ... لياليكم زهو وأيامكم غرُّ

تجدد في الأيام كل مسرة ... تدوم وتبقى ما لآخرها حصر

وفي شهر شوال من هذه السنة أخذ محمد بن عامش وولده من مشائخ حجة حصن ما دون وقتلا صاحبه علي بن صفصفة وأخاه إسحاق.

وفي شهر ذي القعدة وصل العلم من مكة المشرفة أن أهل مصر سلطنوا ركن الدين بيبرس الخاسكي وتسمى بالملك المظفر وكان السبب في ذلك أن بيبرس وسلار استوليا على الملك وتصرفا على الأموال والخزائن ولم يكن للسلطان منهما إلا اسم السلطنة فراجعهم في الحج وجهز أولاده في الركب المصري وسار هو نحو دمشق ليسير مع الركب الشامي. فلما خرج من مصر وملك نفسه صار نحو الكرك وصدر مماليكه بعد أولاده فاستعادوهم ولزم نفسه عن مصر وأهلها فسلطنوا بيبرس كما ذكرنا.

وفي هذه السنة المذكورة ظهر من الشريفين رميثة وحميصة في مكة المشرفة من الجور والعنف والطمع في أموال الناس ما لم يعهد منهما قبل ذلك.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر بن زاكي اليعلوي نسبة إلى عرب يعرفون ببني يعلي وكان رجلاً مباركاً صالحاً. وكان من أعرف الناس بفن القرآن وانتفع الناس به وقصدوه من نواحٍ شتى. وأخذوا عنه مصنفات في علم القرآن. وشهر عنه أنه كان يقرئ الجن أيضاً ومسكنه قرية أسخن بهمزة وسين مهملة وخاء معجمة ونون على وزن أحمد. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٥٣/١)

وفي سنة تسع وسبعمائة توجه الشريف عماد الدين لافتتاح الشرفين وصحبته العساكر المنصورة واتفق أن ولد علي بن صعصعة تمت له عمولة في حصن مادون فدخلته العساكر السلطانية وتمكنوا منه ولزموا ابن عامس وولده وتسلم نواب السلطان الحصن. وكذلك حصن الحربوش في بلد الحبر أيضاً تسلمه العسكر أيضاً. ووصل أمر السلطان بتسليم ابن عامس وولده إلى ولد علي بن صعصعة وابن عمه وولد إسحاق بن صعصعة فقتلاهما بأبويهما عند باب الجاهلي وتقدم الشريف بالعساكر من الظهيرة نحو الشرف الأعلى فاستولى على بلد سعد ببلد الحبر وحصن القاهرة ببلد المحاسنة وأخذ رهائن أهل الشريفين وتوجه نحو الشرف الاسفل يوم الحادي عشر من شهر ربيع الأول فحط بلقحاح وتسلم في يومه ذلك حصن القفل وكان في يد ابن مقرعة مولى الشريف إبراهيم

بن قاسم واجتمعت عساكر الشرفين مع العساكر السلطانية فكان الجميع خمسة آلاف فقصد بهم الأمير عماد الدين جبل الساهل وهو من أحرز الجبال وامنعها. وكان عند الشريف يحيى بن أحمد القاسمي يقاتل منه فجعل الشريف عماد الدين بني عمه في عسكر العرب أول الناس. وسار في العسكر السلطاني آخر الناس فلم يلقهم دون حصن أصاب أحد من الناس فحط عليه وأخّذه واستولى على حصن الناصرة وسار نحو جبل المسهلة فدخل الشريف يحيى بن أحمد القاسمي رعب عظيم. وطلب الصلح على تسليم حصن العروس وهو مستقر الشريف حيث أمواله وطعامه وحصن شمسان وحصن السمول ولم يبق في يده إلا المنصورة فانتقل إليها وسلم ولده رهينة في نزوله إلى الباب الشريف السلطاني. فلما صفا الشرف الأسفل ولم يبق فيه إلا حصن المسولة للأشراف أهل جبل الحرام. ومنهم بالباب محمد بن علي وأخوه يطلبان بيعها على السلطان. فحط عليه الأمير عماد الدين في العسكر المنصور ثلاثة أيام فسلمه أصحابه بألفي دينار وطلوع الشريفين من الباب.
وجاءَت البشارة إلى السلطان وقد اشتراه الصاحب من الشريفين بخمسة آلاف وإفراس وكساوي فَسُرَّ السلطان بأَخذه وأبطل ما شرع فيه الصاحب. وسار الشريف عماد الدين إلى الشرف الأعلى.
وفي يوم الاثنين السادس عشر قتل الأمير سيفد الدين طغريل قتله الأكراد في ذمار وكان على باب المدينة في قصر السلطان. وكان قد طلب جريدة من الباب فطلعت إليه جريدة جيدة بسبب تسليم القطع التي في البلاد فتوهموا أنه يريد القبض عليهم فقصدوه لغر الليل فاتاه النذير في تلك الليلة مراراً فضيع الحزم. وكان أمر الله قدراً مقدوراً. فلما عزموا على قتله اجمعوا وخرجوا من المدينة فقصدوا محطة عسكر صنعاء فعقروا خيلهم وساروا نحو القصر فأَخذوا الإسطبل فجاءهم عسكر السلطان من المماليك البحرية وغيرهم فكسروهم وطردوهم عن القصر إلى باب المدينة. ورجعت المماليك إلى الأمير سيف الدين وهو في القصر وسألوه الخروج إليهم فامتنع ولم يحفل بهم فتفرق العسكر عنه ثم قصده الأكراد فحاصروه إلى بعد طلوع الشمس فخرج إليهم على ذمة فقتلوه معه صهره وهو أستاذ داره وكاتبه ووالي ذمار وأربعة من مماليكه. فكان جملة من قتل معه ثمانية نفر وهو تاسعهم ونهبوا المحطة وما فيها من جمل وعدد وهرب من هرب سالماً. ولما وصل العسكر إلى السلطان وقد أخذت خيولهم وعددهم وأثاثهم عوضهم السلطان عما فات.

(١٥٤/١)

وجهز العسكر مع الأمير شجاع الدين عمر بن القاضي العماد وهو يومئذ أمير جاندار وسير الأمير عباس بن محمد نحو صنعاء على طريق تهامة وحجة ومعه مال جيد استخدم به عسكراً فتأَنى ابن العماد في مسيره حتى خرج عباس من صنعاء وفيه الأمير علم الدين حمزة بن أحمد والأمير بن وهاس وصاحب ثلا وهمدان وعيال شريح وغيرهم فكان دخولهم هم وابن العماد ذمار في يوم الأحد وقد انحازت الأكراد إلى الوادي الحار واستولوا على حصن هزان وشحنوه ورتبوا فيه جماعة فقصدتهم

العساكر إلى الوادي فقاتلوهم ثلاثة أيام فقتل في يوم منها ثلاثة من الأكراد وأُخذت خيلهم. ثم تفرقت الأكراد في كل ناحية وخرب العسكر المنصور أموال الفضل بن منصور وعاد العسكر إلى ذمار فتوجه الأشراف نحو بلادهم وأَقام الأميران بذمار. وحصلت المكاتبة والمراسلة بين الأكراد والإمام بن مظهر فأَجابهم وسار إلى بلدي شهاب وطلب الأكراد إلى هنالك فأجابوه وسار عباس بعسكر صنعاء إلى صنعاء وسار الأكراد والإمام وغيرهم إلى قرن عنتر فأَخذوه قهراً وقاتل من كان فيه وكان فيه نحو من مائة رجل. وأخذت العرب بيت برام وبيت ردم. وقاهر حضور وردمان بني خوال وزحف الإمام على صنعاء آخر شهر رمضان. وكان الأمير عباس قائماً بعض العسكر بن بستان السلطان ورجعوا ورجع الإمام إلى حدة وسباع فأقام بها هنالك وكان معه من الأكراد وغيرهم نحو من مائة فارس وتابعت الإمداد نحو صنعاء ثم طلع السلطان بنفسه النفيسة فلما وصل ذمار جعل رحيله من ذمار صبحاً فأمسى على باب صنعاء فلم يطمع الإمام في معاودة القتال عليها.

وفي شهر شوال خالف الشرفاء إلى شمس الدين في صعدة واخرجوا إليها الكردي وسيروه على طريق حوض فغضب السلطان وجهز ولده الملك المظفر إلى قاع بيت الناهم. فحط هنالك يوم السادس من ذي القعدة ولوقته سار إلى بيت حبيض فاستولى وظهرت عساكره على الإمام ابن مطهر بجدة فانهزم هو ومن معه من الأكراد طريق الحارة إلى حافد ثم طلعوا إلى سبا وكان الميعاد بين السلطان وولده الملك المظفر إلى يوم الثلاثاء بان يركب العسكر السلطاني من صنعاء إلى حدة فاستعجل الملك المظفر آخر نهار الاثنين فكانت عجلته سبباً لسلامة ابن مطهر والأكراد ولكل اجل كتاب.

وفي أول ذي القعدة نقض الأمير تمام الدين الصلح الذي بينه وبين السلطان وكاتب آل شمس الدين باللقاء والاتفاق وأقام الإمام محمد بن مطهر بجبل رهقة والأكراد في الروبة والملك المظفر في محطته في قاع بيت الباهم مدة نصف شهر وعامل محمد بن الذئب الشهابي في الإمام والأكراد فطلع العسكر الجبل فانهزم الإمام والأكراد ثم نزلوا طريق مفحق وافترقوا من هنالك فسار الإمام نحو ذروان. ثم سار نحو ظليمة فعيد بها عيد الأضحى وسار الأكراد نحو طوران ثم وصل الأمير علي بن موسى إلى الإمام محمد بن مظهر ووصل معه آل الإمام فقصدوا الشريف لما بلغهم من تأَخر الفقيه على العسكر وافتراقهم من أَجل ذلك. فطلعوا من طريق كحلان فركز لهم الأمير عماد الدين فعادوا خائبين نحو الظاهر وقصدوا القنة وليهم الأمير همام الدين إلى هنالك فحطوا عليها ثلاثة أيام ثم افترقوا ورجع الأمير همام الدين ظفار وسار الإمام محمد بن مطهر والشريف علي بن موسى إلى صعدة.

وفي غرة ذي الحجة أمر السلطان بالقبض على الشريف جمال الدين عبد الله بن علي بن وهاس وولديه داود والمؤَيد بصنعاء. واحتج عليه بأُمور أوجبت ذلك وسير العساكر مع عباس بن محمد للمحطة على حصنه عزان وسير معه المنجنيق وعيد السلطان عيد الأضحى في صنعاء.

وفي هذه السنة توفي الأمير تاج الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن

علي بن حمزة وكانت وفاته يوم العشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان مع السلطان من يوم نزل إليه إلى زبيد في شوال من السنة الماضية إلى يوم وفاته رحمه الله تعالى.

(١٥٥/١)

وفيها توفي الفقيه الإمام الفاضل رضي الدين أبو بكر بن محمد بن عمر اليحيوي وكانت وفاته في مدينة زبيد وكان مولده في شهر رجب من سنة ست وأَربعين وستمائة وكان تفقه بأبيه وبغيره كابن النابه. وربما أخذ عن المقدسي ثم تصوف وصحب الأكابر من الصوفية كابي السرور وغيره وحج مكة فلقي فيها جمعاً من الأكابر وانتسخ كتباً من كلام ابن العربي الصوفي فعكف عليها واعتقد ما فيها ثم لما عاد إلى اليمن أقبل عليه أَعيان الأمراء والملوك والخواتيم وصار لهم معتقد عظيم. ومثل أصحابه عنه أُموراً تدل على صلاحه وجلالة قدره. وحصل بينه وبين الملك المؤَيد ائتلاف وصحبة قبل مصير الملك إليه واعتقد صلاحه اعتقاداً جاوز الحد وكان مظهراً لإقامة المعروف والنهي عن المنكر وإبطال الخمر وما شابهه. ولم يكن السلطان مغيراً ما فعله اعتقاداً أن ما فعله هو الصواب. وله أشعار معجبة ويقال إن بإشارته انتقلت الأوقاف من حكام الشرع إلى أرباب الدواوين. ولم تكن قبل إلا إلى حكام الشرع الشريف. وكان نزوله إلى زبيد في سنة ثمان وسبعمائة فأقام بها إلى إن توفي في لسلة الخميس لعشر بقيم من شهر ربيع الآخر من سنة تسع المذكورة.

وحضر دفنه أخوه القاضي موفق الدين علي بن محمد بن عمر الصاحب نزل مزعجاً عليه من تعز فأدركه منزولاً به وقبر إلى جنب قبر الشيخ الصالح علي بن أفلح في مقابر باب سهام رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه القيه الصالح عثمان بن الفقيه يحيى بن الفقيه وكان فقيهاً حيراً وله قريحة في الشعر ومن قوله بيتان يجمع فيهما أُولو العزم وهما.

أولو الحزم فاحفظهم لعلك ترشد ... فنوح وإبراهيم هود محمد

قال المصنف أيّده الله إنما هذا بيت واحد ولكنه مقفى إلا أن يكون سقط البيت الثاني من الأصل فيمكن ذلك ولأنه لم يستوعب أهل العزم في البيت المذكور. فدل على سقوط بيت آخر والله أعلم.

وهو الذي خمس مديح ابن حمير الذي أوله

يا من لعين قد أَضرَّ بها السهر ... وأضالع جُذْب كوين على الشرر

فقال

قلبي المعنى حار حلفاً للفكر ... وكذاك سمعي خانني ثم البصر

ودموع عيني في المحاجر كالمطر ... يا من لعين قد اضربها السهر

وأضالع جُذْب طوين على الشرر

وكانت وفاته مبروقاً يوم الحادي عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة والله أعلم.

وتوفي الفقيه الفاضل أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن عمران المتوجي بضم الميم وفتح التاء والواو ومع التشديد وجيم قبل ياء النسب. وكان مولده سنة ست وأربعين وستمائة بمخلاف شيبة. ثم سار إلى تعز فدرس فيها في المدرسة العمرية. وكان يغلب عليه العزلة والانفراد والعبادة وكلفه دين عظيم. فارتحل إلى عدن بسبب قضاء دينه. فأدركته منيته هنالك فتوفي بها يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ الرئيس محمد بن بطال بن محمد بن بطال بن أحمد بن محمد بن سليمان بن بطال الركبي نسبة إلى قبيلة كبيرة يقال لهم الركب من ولد أنعم بن الأشعر يسكنون مواضع كثيرة في عدة نواح من اليمن كان جده محمد بن بطال يخدم السلطنة. وتولى ناحية المفاليس مدة فلما هلك تولى بعده ولده بطال بن محمد فأقام مدة في ولايته ثم قتله بعض بني عمه وكان ولده هذا محمد بن بطال رهينة في الدملؤَة عند خادم يقال له ياقوت فأقامه مقام أبيه وولاه الجهة فقوي أَمره به واكتسب أَموالاً وصحب أعيان الدولة فقوي بذلك أَمره واستمر على ذلك دهراً طويلاً فهرب منه الذين قتلوا أَباه وكان يحب الرئاسة ويتقرب إلى الرؤساء من أهل الدين والجنيا إلى أن توفي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن مفلح الكوفي وكان فاضلاً أخذ عن ابن الحرازي القراءات والفقه وكان خيراً من أكثر الناس إحساناً إلى ابن الحرازي وكان أبوه مفلح صاحب دنيا واسعة وكان ولده هذا علي يتحمل الغالب من مؤُنة ابن الحرازي من طعام وكسوة له ولعياله. فكان ابن الحرازي يجتهد في اقترابه فوق ما يجب ويبالغ في إكرامه. ويؤُثره على سائر الطلبة لذلك فكان يحسن إلى سائر الطلبة أيضاً ويواسيهم. ثم حج في آخر عمره. وامتحن بالفقر. وكانت وفاته في ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٥٦/١)

وفيها توفي الفقيه الفاضل إسماعيل بن علي بن محمد بن أحمد بن نجاح المعروف بابن ثمامة. وأمه بنت الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي. وكان فقيهاً عارفاً حسن الأخلاق وكريم النفس توفي إلى رحمة الله تعالى في جمادى الأولى من السنة المذكورة.

وفيها توفي الفقيه المقري أبو عبد الله محمد بن عمر بن وكان ميلاده في شهر محرم أول سنة أربعين وستمائة وقرأ القرآن وصحب الأستاذ أَبا وسبب صحبته اتصل بالملك الواثق وسافر معه إلى ظفار وغلب على أمره ولم يزل وزيراً له إلى أن توفي هنالك وكانت وفاته في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة عشر وسبعمائة تسلم الأمير شمس الدين عباس بن محمد ابن عباس حصن ظفار ونقل محطته نحو ظفار وحط بالطفة عند حصن تعز ونصب المنجنيق عليه فرغب الأشراف في الصلح

وأذعنوا للخدمة الشريفة على يد الشيخ نجم الدين محمد بن عبد الله بن عمر بن الجند بصعدة ورهن الأشراف على تمامه. وسار معدا نحو السلطان إلى صنعاء فأتم السلطان ما فعله وصاح الصائح بالصلح ليلاً على كره من الأمير عباس مقدم الحرب يومئذ. وكان ذلك خديعة من الشيخ ابن الجند لما علم مضرة أهل ظفار أن أقام عليهم الحصار فاستغاثوا به فبادر مسرعاً لرفع المحطة عنهم فعدها السلطان له من جملة الذنوب وأتم السلطان ما تقرر من الصلح.

وتوجه السلطان من صنعاء إلى محروسة تعز يوم الخامس والعشرين من صفر وترك في البلاد الصنعائية الأمير أسد الدين محمد بن حسن بن نور مقطعاً بها.

وفي هذه السنة المذكورة تسلم الأمير عماد الدين إدريس بن علي حصن المفتاح مضافاً إلى ما تسلم من حصون الشرفين وسلم الجميع إلى نائب السلطان. وهو حسن بن الطماح بن ناجي وقد ولاه السلطان جهات الشرق.

وفي السابع عشر من جمادى الآخرة تقدم الركاب العالي من محروسة تعز إلى محروسة زبيد.

وفي هذا التاريخ اصلح الأكراد ودخلوا في الطاعة بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وبذلوا الطاعة من أنفسهم ولجئوا إلى الحرم الشريف متفيئين ظلاله مستمطرين نواله فعادت الشنشنة الرسولية عليهم بالإقبال واستقر الحال على بقاء هزان بأيديهم واستخدم من أراد الخدمة منهم وتسلم خمس رهائن.

وفي هذه السنة أقطع السلطان الأمير جمال الدين نور حسن بن نور الأعمال الصعدية والجوفية والجثة بتهامة وعوض الأمير عماد الدين عن الجثة بالقحمة.

وفي جمادى الآخرة سار الإمام محمد بن مطهر يريد لقاء الأكراد وقد طلبوه فوصل برأْس الناقر وأَقام ينتظرهم فبدأ لهم في الصلح فاصلحوا السلطان على أنفسهم فرجع الإمام إلى ورور وطلع السلطان من زبيد إلى تعز في آخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

وفي هذه السنة حج من مصر عدة من الأمراء في عسكر كثيف وكان قصدهم لزم الشريفين رميثة وحُميَضة. فلما علما بذلك نفرا من مكة ولم يحصل العسكر على قبضهما. فلما انقضى الحج ورجعت العساكر المصرية إلى مصر عادا إلى مكة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو الخطاب عمر بن عثمان بن يحيى ابن إسحاق وكان مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة. وكان فقيهاً مجوداً غلب عليه الاشتغال بالحديث. وكانت وفاتهُ في صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح عبد الرزاق بن محمد الجبرتي الزيلعي ويقال أنه شريف النسب. وكان فقيهاً فاضلاً من أهل المروءة والدين محباً في السعي في قضاءِ حوائج الأصحاب راغباً في ذلك. ودرس بالناجية في مدينة تعز وتفقه بمحمد بن عباس وعلي بن أحمد الجنيد. وكانت وفاته في صفر من السنة المذكورة. ويروى أنه لما حُمل نعشه وساروا به نحو المقبرة جاءَ طائر من الهواء فدخل في أكفانه ولم يُرَ بعد ذلك والله أعلم.

(١٥٧/١)

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه يحيى بن سالم وكان فقيهاً عارفاً بالفقه والأصول ذكيّاً درس بعد أبيه وصحب الفقيه أبا بكر بن محمد بن عمر بن اليحيوي مدة طويلة فنال مالاً جيداً وبسببه جعل أمر المدرسة إليه والى أهله وأبعثهُ الملك المؤَيد سفيراً إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقوم حماز علي أبي نمى صاحب مكة لأمر كان بينهما فلزم أبو نمى وصادره هو وصاحبه بمال فاقترضوا من حجاج اليمن وعادوا. قال الجندي وأظن ذلك كان في سنة ثمان وتسعين وستمائة. وكانت وفاته في سنة عشر وسبعمائة بعد أن اتسعت دنياه اتساعاً كبيراً والله أعلم.

وفيها توفي الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن أبي القاسم بن أحمد بن أسعد نسبة إلى عرب يسكنون جارة يقال لهم بنو خطاب. وكان مولده سنة ست عشرة وستمائة وتفقه بابن ناصر المذكور أولاً. وكان فقيهاً محققاً مدققاً سكن قرية من مخلاف جعفر يقال لها منزل جديد بفتح الجيم وكسر الدال المهملة. وامتحن في آخر عمره بالعمى وتوفي على ذلك في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله ولد صاحب المقداحة. وكان خرج في حياة أبيه قاصداً السياحة والتعبد فبلغ مدينة ظفار الحبوضي وأقام هنالك مدة. فلما توفي والده وخلا الموضع من قائم يقوم فيه أرسلوا له رسولاً قاصداً وسأَلوهُ الوصول إليهم فوصل وابتنى رباطاً على صفة رباط ظفار وقام بالموضع قياماً مرضياً إلى أن توفي في سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو عبد محمد بن أحمد الخلي نسبة إلى قرية بحجر يقال له الخلة بفتح الخاء. وكان فقيهاً عارفاً صالحاً ورعاً عابداً زاهداً تفقه بأحمد بن جزيل بسهفنة والفقيه إسماعيل الحضرمي وعاد إلى بلده فاخذ عنه ابن أخيه إسماعيل ابن أحمد بن علي ثم عرض لهذا الفقيه أن سلك طريقة الزهد والعبادة فابتنى رباطاً وأنفق ماله على الواردين والقاصدين ولم يزل به حتى توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٥٨/١)

وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة حصل من الإمام محمد بن مطهر عزم عظيم وتوجه إلى الشرق في جمع من العساكر. وكان قد أيصاب قبائل الشرق من ولاة السلطان بعض ما يكرهونه فسار بهم الإمام نحو جبل الساهل فلم يظفر منه بشيءٍ. وطلع بلد المحانشة فقاتل على القاهرة واستولى عليها وأخذ حصن هبيب وجبل سعد والشجعة والمفتاح وأجابه أهل الشرف الأعلى كافة فنزل السلطان إلى تهامة وجرد الجرائد إلى تلك الجهة وأمر الشريف عماد الدين إدريس بالتوجه إليها على عادته فسار

إلى جبل أقناب وجمع العساكر وكاتب القبائل فما أجابوا وسار إلى عكاش في اليوم السابع من شعبان فقاتلهم ثمانية أيام وكان عسكرهم يومئذٍ ألفا وخمسمائة وكان كل يوم ينقص من عسكره جماعة واستمد الإمام بقبائل حجة وشطب والأهيوم وقبائل الشام فاقبلوا إليه فقصدوا المحطة يوم الخامس عشر من شعبان في ستة آلاف راجل فانهزم العسكر السلطاني قبل وصول الإمام ولم يبق إلا الشريف عماد الدين في أربعة أفراس فأُسر الشريف عماد الدين وقتل ابن عمه قاسم بن الإبريس وأسّر خاله وسلم الرابع بعد أن عقر حصانه وقتل في الوقعة الأمير جمال الدين غازي بن أبي بكر بن خضر. وكان يومئذ والي الموقر والمخلافة والسرددية وقتل سبعة من الرجل. وأَقام الشريف عماد الدين مأْسوراً نحواً من نصف شهر. ثم افلت فلحق بحصن عزان الذي لابني شرحبيل فجمع الإمام جموعه وزحف عليه فلم يظفر بشيءٍ. وتسلم الأمير حصن المفتاح يوم الخامس عشر من شهر رمضان بعد أن أفرغ ابن الطماح جميع ما فيه من شحنة وصبر وهو ومن معه على أهون القوت. وانتقل الشريف عماد الدين إلى الظفر حصن الإماء بني صفي الدين في نصف شهر رمضان. وقد كان السلطان جهز ولده الملك المظفر والصاحب موفق الدين إلى الشرف قبل الواقعة فلقيهما الخبر وهما بالمهجم فسارا وحطا في قلحاح. ثم ساروا إلى موضع محطة الشريف عماد الدين فهزموا عسكر الإمام وقتل السيخ الرّياحي صاحب جبل تيس. ثم انتقل الشريف من الحصن المذكور إلى محطة الملك المظفر بقلحاح فأقام عنده على أحسن حال إلى الرابع عشر من شوال وأمره بالإقامة في جبل الساهل وترك عنده من العسكر ألف راجل. ونزل المظفر والصاحب موفق الدين إلى تهامة. وتجهز الأمير شمس الدين عباس بن محمد بن عباس إلى حجة لحرب إبراهيم بن مطهر بذروان فقط عباس في سهل شمسان. ولما تطاولت الفتنة بين السلطان والإمام استقرَّ الحال على ذمة من السلطان مدة سنة كاملة يستريح الناس من الفتنة وتضع الحرب أوزارها ورجع الملك المظفر والصاحب والأمير شمس الدين إلى الأبواب السلطانية بزبيد.

وفي هذه السنة توفي السلطان الملك الواثق إبراهيم بن السلطان الملك المظفر شمي الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول في ظفار الحبوضي وكان فريداً في محاسنه وله معرفة في الأدب ومشاركة في فنون العلم وكان يقول الشعر ويحسر عليهِ الجوائز السنية.

ومن يك ذا ود بن يوسف صنوه ... فليس غريباً أن يرى بكريم

ويروى آن ولد أحمد الرفاعي وصل إلى ظفار يريد الحج فتلقاه السلطان بالإجلال والإكرام فأقام عنده ثلاثة أيام في الضيافات النفيسة وكان يرسل له كل يوم في مدة الضيافة بألف دينار ملكية وتشريف فتلك شِنْشِنةَ مظفرية وأخوة هزبرية. فلما وصل العلم بوفاته أمر السلطان بالقراءَة عليه سبعة أيام وحضر القراءَة ملوك بني رسول وأعيان الدولة ووجوه الناس في كل يوم ينصرفون بعد القراءة إلى سماط نفيس حتى انقضت السبعة الأيام رحمه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي منتخب الدين إسماعيل بن عبد الله بن علي الحلبي بلداً المعروف بالنقاش الملقب بالمنتخب وكان رجلاً فاضلاً كاملاً له جاه عريض وثناءُ مستفيض سافر من بلده إلى مكة المشرفة فأقام بها مدة ثم ارتحل إلى اليمن وقد تكرر ذكره فيها. فلما قدم زبيد وواليها يومئذٍ نجم الدين ابن الخِرْتبِرتي كتب إلى الملك يعلمه بوصوله فأمر السلطان أن يبجل ويعظم ويعزَّز ويكرَّم. وكان متورعاً متزهداً له يد في الفقه والأصول وصحب الفقيه عمر بن عاصم مقدم الذكر ثم بعد ذلك حصل مجلس ذكروا فيه الصحابة رضي الله عنهم والمفاضلة بينهم فسمع منه تقديم علي عليه السلام على غيره من الصحابة فاتهموه بالرفض وأشاعوا ذلك عنه فلزم بيته وهجرهم وتعانا الزراعة وكان محترماً فيها لأجل ما كان المظفر يجله ويحترمه ويوصي به الولاة ثم تزوج السلطان الملك المؤَيد ابنته فولدت له المجاهد رحمه الله عليهم أجمعين وكانت وفاة المنتخب المذكور في مدينة زبيد في السنة المذكورة وأمر السلطان بالقراءة عليه في جامع المغربة ثلاثة أيام رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو محمد عبد الله ابن محمد بن جابر بن أسعد ابن أبي الخير العودري ثم السكسكي وكان يعرف بالرباعي لأنه كان له أربع أصابع وكان تفقه بفقهاء الجند كإبراهيم بن عيسى وغيره. وأخذ النحو عن أحمد ابن أبي بكر وغيره وجمع كتب الحديث على عبد الله بن عمران الخولاني وحصل بينهُ وبين أهل قريته وحشة فنفر بسببها إلى البلد العليا فعلم للشريف علي بن عبد الله ولديه داود وإدريس وحصلت له شفقة كلية من الشريف وأقام معه مدة سنين فانتفع أولاده به وقرأُ القرآن واستخلص الشريف له خراج أرضه من السلطان فلم تزل مسموحة إلى أن توفي. وجمع كتباً كثيرة في الأدب وغيره. وكانت وفاته في النصف من شهر صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن علي بن أحمد بن مياس الوافدي. وكان فقيهاً جيداً تفقه بأهل عدن وكان ينوب ابن الجنيد على القضاء بعدن فلما توفي ابن الجنيد جعل مكانه فسار سيرة الغالب عليها الخير وكان يتعانى التجارة مع المسافرين في البحر والزراعة في بلدة لحج وكان مسكنه مسكن أخواله القريطين. فما أنه العليا على قضاء عدن سنين حتى ولي القضاء الأكبر بنو محمد بن عمر فعزلوه من عدن وجعلوه حاكماً في بلده واستمر بعده في القضاء الحجافي واستمر هو على القضاء في بلده إلى أن توفي وكانت وفاته في شهر رجب من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو بن الحسين بن محمد بن أحمد بن مصباح. وكان مولده سنة اثنتين وستين وستمائة. وكان فقيهاً عالماً بارعاً عارفاً بالفقه توفي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة طلع السلطان الملك المؤَيد من زبيد إلى تعز وكان خروجه من زبيد أول يوم من المحرم من السنة المذكورة. وفي اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول قتل الشريف عماد الدين يحيى ابن تاج الدين. وكان سبب قتله أن بعض القبائل من أهل ملحان جزوه على آخرين غيرهم وعذلوا فيه وفي عسكره فلما أَراد الخروج رد حصون أهل العدالة قبل انفصاله من الجبل فدعموا فيه فقتل وقتل معه نيف وأربعون رجلاً من أصحابه.

وفي هذا التاريخ وصلت رسل الإمام إلى الشريف عماد الدين إدريس ابن علي للسعي في الصلح بينه وبين السلطان قبل انقضاءِ الذمة فسيرهم الشريف إلى الباب الشريف فتلقاهم الشيخ محمد بن عبد الله بن عمر بن الجند وكان الصاحب موفق الدين يومئذٍ مريضاً. فاستقر الأمر على صلح عشر سنين أولها جمادى الآخرة من السنة المذكورة. على أن الشرف الأَعلى وحصونه والحبر بحجة وصاحب بيت ردم وشركاءه وأموال آل الوشاح حيث كانت وظفر به وهاس وسائر ما هو معروف للإمام بحجة وظليمة وغيرهما إليه وثلاثة آلاف دينار في كل سنة. وصاح الصائح في تعز بالصلح عشر سنين فلما تمَّ صلح الإمام وانفصل عنه الأكراد جرد السلطان من عسكر الباب مائتي فارس ورجل مدجج للحظة على هزان. وأمر الأمير أسد الدين محمد بن نوران يسير بعسكره من صنعاءَ فتوجه الشيخ إلى الجند حينئذٍ وعقد صلحاً للأكراد على ترك دخول ذمار ورداع وترك الإقطاع وإن تستمر رهائنهم بالعروس. وأمر السلطان الأمير أسد الدين بسكنى ذمار واستيطانها فامتثل الأمر.
وفي الثالث من جمادى الآخرة سار السلطان إلى الجند بسبب الصيد فأقام هنالك إلى الحادي عشر منه وعاد إلى تعز ثم سار إلى زبيد يوم الرابع والعشرين منه فدخل زبيد يوم الرابع من رجب. وفي ليلة الجمعة السابع عشر من شهر رجب احترقت دار المرتبة بتعز لأسباب اختلف الناس فيها فتلف فيها شيءُ كثير من الأثاث والفروش والكتب النفيسة وغير ذلك مما لا ينحصر. وكان في حملة ما احترق بشخانتان كبيرتان كاملتان من الزركش إحداهما صفراء والأخرى حمراء وكان السلطان يومئذٍ في زبيد وفي يوم السبت الثامن والعشرين من رجب خرج السلطان إلى فشال بسبب الصيد فأقام هنالك إلى آخر الشهر المذكور ورجع إلى زبيد.
وفي هذه السنة أمر السلطان بإنشاءِ قصر بزبيد على ظاهر باب الشبارق في البستان الذي أمر بإنشائه المعروف بحائط لبيق. وكان صورة بناء القصر يومئذٍ إيوان طوله خمسة وأربعون ذراعاً وفي صدره مقعدة ستة اذرع وله دهليز متسع وفوق الدهليز قصر بأربعة أواوين يشرف على البستان المذكور من جميع نواحيه.
وفي هذه السنة حج الملك الناصر صاحب مصر في مائة فارس من مماليكه وستة آلاف مملوك على الهجن وسلاحهم القسي فوصل مكة المشرفة في اثنين وعشرين يوماً من يوم خروجه من دمشق محرماً مقرعاً فطاف بمرأى من الناس وكان أعرج قبيح العرجة فقضى مناسكه كلها فلما حل حلق رأسه وأَحسن إلى الناس وتصدق وعاد ومعه الشريف أبو الغيث ابن أبي نمى. وقد هرب رميثة وحميضة لما أحسا بوصوله خشيا أن يقبض عليهما فخرجا من مكة ونهبا التجار الواصلين إلى مكة نهباً شديداً ولم يتركا لأحد شيئاً وفعلا من الأفعال القبيحة ما لا يفعله أحد. وأقاما غائبين عن مكة حتى فرغت أيام الحج وعادا إلى مكة.
وفي شهر شعبان من هذه السنة حصل على الملك المظفر حسن بن السلطان المؤّيد توعك في

جسمه وذلك بعد وصوله من الشرف. وكان من قبل طلوعه غير طيب وكانت الحمى لا تفارقه مع سعال. فلما اشتد عليه الأمر أمره والده بالطلوع فطلع فاشتد به الأمر في رمضان فهمَّ السلطان بالطلوع ثم توقف. فلما كان يوم العيد أتاه خبر أزعجه فأمر الصاحب موفق الدين بالطلوع لفوره فطلع يوم العيد وقت الظهر وهو يوم الاثنين فوصل تعز يوم الثلاثاء عند طلوع الشمس وخرج السلطان من زبيد ظهر يوم الثلاثاء فدخل تعز يوم الخميس وأرسل لابنه إلى ثعبات وأرسل الأطباء لمعالجته فلم يزدد إلا ضعفاً ونحفاً. ولم يزل كذلك إلى أن توفي في يوم الأحد السادس من ذي القعدة بعد أن أوصى وتثبت في وصيته.

(١٦١/١)

وفي جملة وصيته أن لا يُصاح عليه ولا يُشق عليهِ ثوب ولا يُغطى نعشه إلا بثوب قطن وإن لا يُعقر على قبره شيءُ من خيله وإن يُدفن في مقابر المسلمين. فنفذ والده وصيته في جميع ما أوصى به إلا في الدفن فإنه أمر أن يدفن عند أخيه الظافر في المدرسة المؤَيدية في معزية تعز. وكان من اجل الملوك قدراً وأوصى في جملة وصيته لن يُبتنى له مدرسة في قرية المحارب وإن يجرى لها الماء وإن يجري الماءُ منها إلى حوض تحتها. ففعل والده جميع ذلك. وكان يوم دفنه يوماً مشهوداً. وحضر دفنه ملوك بني رسول بأجمعهم وشهدوا القراءَة سبعة أيام وأمر والده بالقراءة عليه في سائر مملكته. وكتب العفيف ابن جعفر إلى السلطان يعزيه بهذه الأبيات:

أمولى الملوك وسلطانها ... ويا من له طاعة تفترض

فلا ملكُ ناقضُ عقدهُ ... ولا ملكُ عاقدُ ما نقض

ولا عوض منك في ذا الورى ... وكل الورى أنت منهم عوض

وفي يوم العاشر من ذي القعدة توفي القاضي جمال الدين محمد بن احمد ابن محمد بن عمر اليحيوي وهو الذي كان ينوب عن القاضي موفق الدين الصاحب في قضاء الأقضية فكان يباشر الأحكام ويفصل القضايا ولا يعارضه أحد وكان الغالب عليه سلوك طريق الزهد بحيث أن أكثر أهله وأصحابه يقولون عنه أنه لم يكتسب شيئاً من الدنيا. وكان عمه أبو بكر هو الذي يربيه ولم يصر إليهم أمر القضاء والوزارة إلا بعد أن تفقَّه وتعبَّد وحج وجاور في مكة والمدينة وعرف الناس يمناً وشاماً وحجازاً ولم يكتسب شيئاً من الدنيا كما اكتسب أهله أجمعون ولا تزوَّج امرأَة قط وكانت إشارته من إشارة عميه أَبي بكر وعلي ولم يخالفاه وفي أصحاب عمه أَبي بكر جماعة يعترفون له بالصلاح وربما يفضلونه على عمه أبى بكر. وقال الجندي كانت وفاته يوم الخميس تسع عشر ذي القعدة من السنة المذكورة والله أعلم.

وفيها توفي القاضي موفق الدين الصاحب علي بن محمد بن عمر اليحيوي المعروف بالصاحب. وكان رجلاً كاملاً رئيساً فاضلاً فقيهاً نبيهاً فصيحاً شهماً ولي الوزارة والقضاء في الدولة المؤَيدية إلى

يوم وفاته. وكانت وفاته يوم الثالث من ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله.
وفيها توفي الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد السبتي. وكان فقيهاً فاضلاً محققاً حسن الأخلاق مرضي الفتوى وردت منه أسئلة إلى الفقيه الإمام أبى الحسن الأصبحي صاحب المعين تدلُّ على تحقيقه وتدقيقه. وكان ممن يذكر بالكرم وعلو الهمة وشرف النفس وحسن القيام بمن قصده من أبناء الجنس وغيرهم. نقل ذلك عنه جميع المسافرين ولا يمكن تواطؤهم على كذب. وكان خطيباً فصيحاً مصقعاً. توفي على الطريق المرضي في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة توجه السلطان من تعز إلى الجند فأقام فيها مدة. وفي شهر ربيع الآخر برز مرسوم السلطان إلى الأمير أسد الدين محمد بن حسن بن نوربان يخرج من ذمار ويحط على حصن هزان وينصب عليه المنجنيق ففعل ما أمر بهِ ونصب المنجنيق عليه ووصل الأمير شمس الدين عباس بن وهاس معزولاً من حرض.

(١٦٢/١)

وفي شهر ربيع الآخر قتلت الأكراد حسن بن إياس والي صنعاء في ستة نفر من الغز منهم بن الغلاب والتاج بن العز وابن منقار وجماعة من الرحالة فجرَّد السلطان عباس بن محمد في خمسين فارساً غير عسكره فخرجوا من تعز يوم الخامس من جمادى الأولى فأقاموا مع ابن نور في محطته ولم يزل المنجنيق يصك هزان حتى أتلفه إتلافاً كليّاً لم يعلم قط إن كسفاً عمل في حصن ما عمل المنجنيق في هزان. فلما ضاق الأمر على الأكراد واشتد عليهم ورأُوا الموت عياناً لجئوا إلى السلطان فكاتب لهم الشيخ محمد بن عبد الله بن عمرو بن الجند واستعطف خاطر السلطان عليهم وراجع في ذمة وبرز أمر السلطان بالذمة عليهم للأمير إبراهيم بن شكر والجلال بن الأسد فحضروا مقام السلطان بالجند ودخلا تحت الطاعة واستعطفا خاطره الشريف فرجع إلى شنشنته الكريمة وعفى عنهم بشرط أن لا يبدو منهم ما يوجب الغبار عليهم وسلموا هزان وعادوا إلى ذمار على عادتهم في الخدمة. وأمر السلطان برفع المحاط عنهم فارتفعت عنهم في مستهل رجب من السنة المذكورة.
وتوجه الأمير أسد الدين محمد بن حسن بن نور إلى صنعاءَ والأمير عباس بن محمد إلى بلاد همذان لخراب زروعهم وبلادهم والمحطة على بيت أنعم لأنهم بدا مهم ما لا يحسن. فأمر السلطان بخراب زروعهم في مقابلة ما فعلوه.
وفي هذا التاريخ تقدم الركاب العالي إلى زبيد فدخلها يوم الثاني عشر من رجب المذكور ووصل إلى السلطان وهو مقيم بزبيد الأمير الكبير الهادي ابن عماد الدين وداود بن موسى مخاطبين في الأمير أسد الدين محمد بن أحمد ابن عز الدين فلم يجابا إلى خروجه من السجن. وبرز أمر السلطان بتوجه الأمير عماد الدين إدريس بن علي إلى صوب صهيب في جمع كثير من الخيل والرجل فأقام في بلاد الأشاودة حتى رهنوا رهائن أكيدة ثم سار إلى مقمح فاخرب العسكر بلدهم وأتلفوا عليهم

طعاماً كثيراً واتلف الشريف للجحافل زرعاً كثيراً وغيره.

وفي أول يوم من ذي الحجة اخرج السلطان الأمير جمال الدين عبد الله بن علي بن وهاس من سجن تعز. وكان السلطان يومئذ في زبيد فنزل الأمير جمال الدين وصحبته والي تعز إلى الباب الشريف مخاطباً في رجوعه إلى الخدم الشريفة. ويسلم حصن ظفر فأُجيب إلى ذلك. وكانت إقامته في السجن أربع سنين لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً فأقام في زبيد أياماً وقد نزل إليهِ جماعة من أصحابه وبني عمه فاعلموه بامتناع ولده على الحصن المذكور. فسأَل من السلطان أن يقبل أولاده وبني عمه رهينة مع أربع حلل من حريمه قد صرن في صنعاء ويترك يطلع على حسب حاله ليتوصل إلى دخول الحصن ويسلمهُ إلى نواب مولانا السلطان فأذن له في ذلك فسار أي ولده. ولما طلع الحصن وتمكن منه أَخرج ولده وأمره بالمسير إلى الباب السلطاني. ويسلم الحصن إلى نواب السلطان.

وفي هذه السنة وصل الشريف أبو الغيث بن أبى نمى من مص في عسكر جرار إلى مكة فيهم من المماليك الأتراك ثلاثمائة وعشرون فارساً وخمسمائة فارس من أشراف المدينة خارجاً عما يلحقهم من المتخطفة والحرامية فلما علم بهم رميثة وحميضة هربا إلى صوب حلي بن يعقوب واستولى الشريف أبو الغيث على مكة وكان المقدم الأمير سيف الدين طقصنا. فلما وصل المحمل السعيد والعلم المنصور المؤيدي برز الأمير سيف الدين طقصنا والشريف أبو الغيث للقائه وطلعا به جبال عرفات على عادته.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل عثمان بن عبد الله بن الفقيه محمد بن يحيى بن إسحاق بن علي بن إسحاق الغاني ثم السكسكي. وكان فقيهاً صالحاً عارفاً محققاً تفقه بتهامة على الفقيه عبد الله بن علي بن إبراهيم بن عجيل وأخذ عنه أخيه يحيى. وكان كثير العزلة في بيته ويدرس فيه وقلَّ أن يخرج عنه إلا يوم الجمعة. وكان زاهداً ورعاً متعبداً لزوماً للسنة.

(١٦٣/١)

قال الجندي اخبرني ابن أخيه الفقيه علي بن أبى بكر. وكان أحد فقهائهم أنه أَسرَّ إليه أنه قال: " رأَيت رؤْيا إن عشت لا أخبرت بها أحدا وإن مت فأنت الخيرة رأَيت لثمان بقين من رجب جماعة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدنا وقبَّل بين عينيَّ اجعلها عندك وديعة وذخراً فاغفر لي يا خير الغافرين " وما أظنني أعيش بعدها. فقلت ولم ذلك قال إن ابن نباتة الخطيب رأَى النبي صلى الله عليه وسلم فقبله فلم يعش بعد ذلك إلا أثنى عشر يوماً. ثم أنه لم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوماً بل توفي يوم السبت الخامس من شعبان من السنة المذكورة وهو ابن ثلاث وستين سنة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفيت الحرة المصونة مريم ابنة الشيخ الشمس بن العفيف زوج السلطان الملك

المظفر. وكانت من عقائل النساءِ طاهرة عاقلة لبيبة لها عدة مآثر جيدة منها المدرسة التي في زبيد وهي التي تسمى السابقية وكثير من الناس يقولون مدرسة مريم وهي من احسن المدارس وضعاً رتبت فيها إماماً ومؤَذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن ومدرساً للفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ومُعيداً وطلبة وأوقفت على الجميع وقفاً جيداً يقوم بكفايتهم وابتنت في تعز مدرسة في المعزية في الناحية التي تسمى الحميرا ووقفت عليها وقفاً جيداً ولها مدرسة في ذي عقيب وهي التي دفنت فيها. ودار مضيف. وكانت وفاتها بجبلة في جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمها الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل عمر بن محمد بن مسعود بن يحيى بن محمد بن المبارك. وكان فقيهاً عارفاً مجتهداً تفقه بالإمام أبى الحسن علي بن أحمد الأصبحي وقبله بشيخه محمد بن أبى بكر الأصبحي وبابن الرنبول وأصل بلاده قائمة بني حبيش. وكان مدرساً في مدرسة شنين في بلد السحول. وكان يختلف بين بلده والسحول إلى أن توفي مقتولاً من بعض قطاع الطريق وكان قتله في أثناء السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

ثم إن شيخ البلاد بحث عن قاتله حتى عرفه فأَخذه برقبته وأَتى به إلى قبر الفقيه يوم ثالث القراءة عليه واستدعى الشيخ بولد الفقيه وكان له ولد صغير فأَعطاه الشيخ فأْساً وقال اضربه به فهو قاتل أبيك فقربه حتى قتله بعد ساعة لصغره.

وفي هذه السنة توفي الأديب الفاضل أبو محمد عبد الله بن علي بن جعفر أديب اليمنيين وشاعر الدولتين وكان شاعراً فصيحاً بارعاً فاضلاً ظريفاً بليغاً وقد أوردنا في كتابنا هذا من شعره ما فيه دليل على فضله. وكان ذا دين رصين لم يحك عنه شيءُ يشين دينه ولا عرضه. وكان وصولاً لرحمه قائماً ناصحاً باذلاً لهم جاهه وقد خالطته ولم أحك عنه ما حكيته إلا عن نظر لا عن خبر. وكان كثير العبادة محافظاً على الصلوات المفروضة والمسنونة نظيف الأدب صائن العرض واستمر كاتب إنشاء في الدولة المؤَيدية. وكان مداحاً للملوك والأمراء في عصره وله مدائح كثيرة في رسول الله صلى الله عليه وسلم وله مدائح ربانية. وكان أهله الذين يقوم بهم نحوا من أربعين بيتاً. وتوفي في النصف من جمادى الأولى من السنة المذكورة وقيل في السابع منه والله أعلم رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح أبو القاسم بن الحسين بن أبى السعود الهَمْداني نسباً الفراوي بلداً. وكان ميلاده في شهر رجب من سنة ثلاث وستين وستمائة. وكان المشار إليه في الفقه والزهد والورع والدين والقيام بأمن الموضع ومال إلى الطريقة الصوفية وصحب الشيخ عمر المقدسي وتحكم على يده فنصبه شيخاً. وكان على حال مرضي من سعة الأخلاق وإيناس الواردين إليه والقيام بحالهم. والاشتغال بمطالعة الكتب. وحج مراراً وكانت وفاته في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة أربع عشرة وسبعمائة سار الشريف أبو الغيث بن أبى نمى والأمير سيف الدين طقصنا إلى صوب حلي بن يعقوب يريدان رميثة وحميضة فلم يجدا لهما خبراً وكانا قد لحقا ببلاد السراة. فلما

وصل الأمير سيف الدين طقصنا إلى حلي لم يدخلها بل قال هذه أوائل بلاد صاحب اليمن ولا ندخلها إلا بمرسوم من السلطان الملك الناصر وعاد على عقبه.

(١٦٤/١)

وفي صفر من السنة المذكورة سلم الأمير عبد الله بن علي بن وهاس حصن ظفر عدالة إلى الأمير سليمان بن محمد صاحب العروس. وسلم إليه حصن اللخام فانتقل إليه ونقل ما كان معه في ظفر من أهل وخبرات وسلم ظفر وخرج منه. وأخرجت رهائنه من صنعاء ووصلت كتب الأمير سليمان بقبضة ليلة الخميس الرابع من شعر ربيع الأول فضربت البشائر وكسى المبشرون وجهز السلطان أصحابه وأولاده الرهائن وسيرهم إليه. ونزل الأمير عبد الله إلى الباب الشريف السلطاني فرفعت له الطبلخانة والأعلام وأقطع مدينة القحمة.

وفي ليلة العشرين من شهر ربيع الآخر توفي الشريف عماد الدين إدريس بن علي بن عبد الله بن الحسن بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي ابن حمزة وكان شريفاً ظريفاً شجاعاً كريماً جواداً متلافاً. وكان عالماً لبيباً عاقلاً أريباً متصفاً بصفات الإمامة. وكان شاعراً فصيحاً بليغاً. وقد تدم من شعره ما شهد بفضله. وهو مصنف كتاب كنز الأحبار في معرفة السير والأخبار. وهو كتاب حسن ممتع. وله عدة تصانيف في فنون كثيرة. ومدحه عدة من الشعراء فكان يميزهم الجوائز السنية. وكان رحمه الله تعالى غاية في الجود والكرم والشجاعة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن عبد الله الزيلعي الفرضي شهر بذلك لإحكامه علم الفرائض والحساب مع أنه كان مشاركاً في العلوم الدينية. مشاركة مرضية لاسيما الفقه والحديث والتفسير والنحو. وكان تفقهه بالفقيهِ أبي العباس احمد بن موسى بن عجيل. وأخذ الحديث على الإمام أبى الخير بن منصور وانتفع بهِ جمع كثير من زبيد وغيرها. وكان من خيار الفقهاءَ واستمر مدرساً في المدرسة الناجية بزبيد من قبل بني محمد ابن عمر وتوفي على ذلك. وكانت وفاتهُ في أثناء السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل الكبير أبو بكر بن احمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة. وكان فقيهاً عارفاً محققاً متفنناً تفقه بابن حنكاش. وتأدب بابن دعاس. وكان فاضلاً في النحو والفقهِ والأدب. توفي في مدينة زبيد في أثناء السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل مفضل بن أبى بكر بن يحيى الخياري الهمداني والخياري منسوب إلى خيار وهم قوم من همدان يسكنون جبل عنة تفقه بفقهاء تعز كمحمد بن عباس الشعبي وغيره. واستمر مدرساً في المدرسة المنصورية بالجند. فقرأ عليه جماعة من أهل الجند كابن الصارم وغيره. قال الجندي وعنه أخذت الوجيز والمستعذب ومنسك مكي وغيرها. ثم استمر قاضياً في الجند مع

التدريس إلى أن توفي في صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو العتيق أبو بكر بن عمر بن سعد المعروف بابن النحوي. وكان ميلاده في شهر ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمائة. وكان فقيهاً عارفاً محققاً تفقه بابن آدم وابن العراف والوزيري المتأخر وبعبد الله بن محمد الحضرمي. وكان مبارك التدريس قلَّ ما قرأ عليه أحد إلا انتفع. وكان يذكر بشرف النفس وعلو الهمة استنابه بنو عمران في القضاء فأقام كذلك إلى أن انقرضوا فعزله بنو محمد بن عمر في أول قيامهم وبقى على تدريس المدرسة العرابية إلى أن توفي بعد أن تفقه به جماعة منهم عمر بن أبى بكر العراف وغيره. وكانت وفاته في منتصف شوال من السنة المذكورة رحمه الله.
وفيها توفي الفقيه البارع أبو بكر بن احمد بن عمر بن مسلم بن موسى الشعبي المعروف بابن المقري. وكان مولده ليلة الخميس في رجب من سنة خمس وسبعين وستمائة وكان فقيهاً بارعاً متفنناً بجماعة من أهل تعز أولا ثم ارتحل إلى الدبيتين فاكمل تفقهه على الإمام أبى الحسن علي بن احمد الأصبحي ثم عاد بلده. وكان فاضلاً في الفقه والنحو والفرائض والعروض والحساب. ودرس في المدرسة الاشرفية في مدينة تعز بعد ابن الصفي. وتوفي على ذلك ليلة الثلاثاء العاشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٦٥/١)

وفيها توفي الفقيه الإمام البارع ابن محمد صالح بن عمر بن أبى بكر بن إسماعيل البريهي. وكان مولدة سنة خمس وثلاثين وستمائة. وكان فقيهاً بارعاً فاضلاً عالماً محققاً مدققاً متقناً تفقه بمحمد بن مسعود المذكور أولا واليه انتهت رئاسة الفنون بعده في ذي السفال وارتحل هو والإمام أبو الحسن علي بن أحمد الأصبحي إلى أبين فأخذ عن ابن الربنول. وكان هذا صالحاً فقيهاً فرضيّاً حسابيّاً نحويّاً لغويّاً عارفاً بالحساب والجبر والمقابلة. وله تصنيف جيج في الفرائض قصد به شرح الكافي الذي للصردفي. وعنه أخذ الإمام أبو الحسن الأصبحي نظام الغريب في الفقه وغيره. وبه تفقه جماعة منهم محمد بن احمد بن سالم وأبو بكر بن علي وابن أخيه واحمد الشوافي وجماعة كثيرون. وممن أخذ عنه ابن أخيه محمد بن عبد الرحمن وإبراهيم الأصبحي وحسن العماكري. وكان يقول لأصحابه كما كان يقول الصعبي إن بلغت ثمانين سنة عملت لكم سكراته فتوفي قبل ذلك اليوم. وكانت وفاته ليلة الجمعة الثالث عشر من شوال من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.
قال الجندي وفي كل ليلة ترى على قبره نوراً صاعداً إلى السماء حتى يظن الجاهل أن ثم ناراً توقد أخبر بذلك من شاهده مراراً.
وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو بكر بن محمد بن علي بن محمد ابن سعيد الرعيني المعروف بابن المقري. وكان مولده سنة اثنتين وأربعين وستمائة وكان ترباً لابن الحرازي وزميلاً له

قل ما قرأ كتاباً إلا وسمعه معه. وكان محققاً في علم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة. ولما صار تدريس المدرسة بعدن إلى ابن الحرازي جعل هذا معيداً فأقام مدة طويلة في الإعادة.

قال الجندي وأخبرني بعض من قرأ عليه الفرائض قال كنت أغلط في ضرب المسألة وأستمر ثم أستدرك فأريد تغيير ما قد صوَّرته على البحث فيقول لا تطمس إلا من موضع كذا فاعمل بما قال فأجده صواباً. قال وكان ذا حمية على الأصحاب وصولاً لرحمه. وكانت دنياه متسعة بخلاف ابن الحرازي فإنه كان الغالب عليه الفقر. وكانت وفاته في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح صالح بن جبارة بن سليمان الطرابلسي المغربي وكان رجلاً مباركاً فقيهاً محدثاً صالحاً خشوعاً. أخذ في بلده عن محمد بن إبراهيم الأنصاري التلمساني وانتفع به جماعة من أهل عدن وغيرها واخذوا عنه. وكان كثير الخشوع.

قال الجندي اخبرني عبد الله بن أبي حجر أنه أقام سبع سنين يصلي خلف هذا الفقيه قال فكان يصلي الصبح بطوال سور المفصَّل وقد يصلي بالزخرف والأحقاف. وكان خاشعاً تتحدر دموعه على خديه. وأدركته الوفاة وهو بعدن في السنة المذكورة وقبر إلى جنب قبر أبى شعبة رحمة الله تعالى عليهما.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو إسحاق إبراهيم بن احمد بن سالم بن عمران الشهابي المنبهي. وكان ميلاده سنة ثلاث وسبعين وستمائة تفقه بأخيه وأبيه وكان أحد أعيان زمانه في الزهد والورع والعلم أخذ بطرفي الأمرين واشتهر بفضل الذكرين.

ويروى أنه نسخ المهذب وهو يدرس القرآن بدرس على كل جزء منه عشر ختمات مع نسخة فدرس أربعين ختمة على أربعة مجلدات وهذا أمر غريب لان الناسخ لا يستطيع عمل شيء آخر مع النساخة وهذا دليل على الكرامة الواضحة توفي في أثناء السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة وصل الأمير علاء الدين كشدغدي ومعه جماعة من المطلوبين من الديار المصرية والشامية. وكان الأمير علاء الدين المذكور أستاذ دار الملك المظفر صاحب حماة. وكان فاضلاً في أبناء جنسه جمع بين شهامة السنان وفصاحة اللسان. وكان على ذهنه جملة من أشعار الجاهلية والمخضرمين وغيرهم من المحدثين والمولدين وكان يعرف شيئاً من أنواع البزدرة. ويقال أنه كان يعرف شيئاً من ضرب الملاهي وتقدم عند السلطان تقدماً كليّاً لم يعهد مثله فقابله السلطان رحمة الله عليه بالإقطاع المتسع ورفع له الطبلخانة وعقد له الألوية وجعله من جملة ندمائه. وفي هذه السنة رجع الشريف حميضة أبي ابن نمى إلى مكة وقتل أخاه أبا الغيث واستولى على مكة فغضب من ذلك السلطان الملك الناصر وجهز جيشاً كثيفاً صحبة الشريف سيف الدين عطيفة. فلما علم حميضة بوصولهم هرب من مكة فاستولى عطيفة على مكة ولحق حمضة بالشرق.

وفي هذه السنة تولى القاضي جمال الدين محمد بن الفقيه رضي الدين أبي بكر بن محمد بن عمر اليحيوي قضاء الأقضية. وكان السلطان يعظمه إكراماً لأبيه. وكان عمره يومئذ عشرين سنة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الإمام العلامة أبو الحسن علي بن الفقيه إبراهيم ابن محمد بن حسين البجلي. وكان مولده سنة ثلاث وقيل سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكان رجلاً مباركاً مشهوراً بجودة الفقه وكرم النفس وحسن الأخلاق. تفقه في بدايته بعمه إسماعيل ثم ارتحل إلى بيت حسين فأكمل تفقهه بالفقيه عمر بن علي التباعي فأخذ عنه المهذب أخذاً مرضيّاً والزمه أن يتغيبه فتغيبه تغيباً ميز فيه بين الفاء والواو وأخذ عنه البيان وغيره وتهذب به تهذباً معجباً ثم سار إلى الفقيه احمد بن موسى بن عجيل فاخذ عنه أيضاً ثم عاد إلى بلده فسكن قرية شحينة ولزم طريق الورع لزوماً تاماً. وأقام يدرس فاتاه الناس من القرب والبعد واشتهر بالعلم والصلاح. وكان من أشرف أهل عصره نفساً وأدراهم بالعلم حسّاً وأكثرهم للكتاب والسنة درساً.

قال الجندي واخبرني عبد الله بن محمد الأحمر أحد المدرسين بزبيد قال صبحت الفقيه علي بن إبراهيم ولزمت مجلسه عشرين سنة ما عملت سائلاً سأله فاعتذر بل يعطيه ما سأل. وكان مستعملاً لجميع الطاعات الواجبة والمستحبة استعمال مداومة. وكان من ابرك الفقهاء تدريساً. قال واخبرني محمد بن عبد الله الحضرمي فقيه زبيد ومفتيها في عصره قال لما جئت إلى الفقيه علي بن إبراهيم أريد أن اقرأ عليه وأنا على حال متبلبل أريد أَن أجمع قلبي على تحصيل العلم فأول درس قرأته عليه قمت وأنا بخلاف ما أنا عليه من الرغبة. فكان في نفسي عدة مسائل قد اشتبهت عليَّ فحين بدأْت وقرأْت عليه أول يوم عرضت أنا على خاطري جميع المسائل فما عرضت مسأَلة في خاطري إلا زال إشكالها وتبين لي خطؤها من صوابها. وما زلت أجد الزيادة إلى وقتي هذا وما أشك أن ذلك من بركته. قال وكان لديه دنيا واسعة إن وقف في بيته أطعم الواردين والزائرين والطلبة المنقطعين. وكان كثيراً ما يحج فيصرف في الطريق وفي مكة وما يجاوز الحد. وأحصوا حجاته فكانت نيفاً وثلاثين حجة. وكان من أكثر الناس تعقلاً للفقه وأحسنهم تغيُّباً للمهذب خرج من بين يديه نحو من مائة مدرس ولم يكن في مدرسي تهامة ولا الجبال المتأخرين أكثر أصحاباً منه. وكانت وفاتهُ يوم الثاني عشر من المحرم من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن احمد بن يحيى بن مضمون وكان فقيهاً عارفاً نحويّاً بارعاً ولي قضاء صنعاء من قِبَل بني محمد بن عمر وكان شديد الأحكام مبالغاً في إقامة الحق وإقامة مذهب السنة وإماتة البدعة. وكان يحلف الإسماعيلية بايمان تشق عليهم. ثم بلغه أن بعضهم لما مات ودفن دفن معه مصحف فأمر من ينبش القبر عنه وأخرج المصحف فشق ذلك عليهم وكادوه وبذلوا في عزله الأموال الجزيلة فعزل بغير وجه يوجب العزل فعاد إلى بلاده وأقام مدة ثم رتبه بعض أولاد أسد الدين مدرساً في مدرسة جده بأب فلم يزل بها حتى توفي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه أبو حفص عمر بن أبى الربيع سليمان الملقب بالجنيد بن محمد بن اسعد بن أبى

النهى. وكان إماما فاضلاً صالحاً له كرامات كثيرة تفقه بسعد الغولي. وتوفي يوم الثامن من المحرم أول شهور السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الأجل الفاضل أبو العباس احمد بن أبى بكر بن اسعد بن زريع بن أسعد تفقه بالفقيه صالح بن عمر البريهي تفقهاً جيداً. وكان عارفاً مجتهداً ذا صيانة وعفة وعبادة ودرَّس بسهفنة على حياة شيخه وتوفي لسبع بقين من ربيع الآخر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٦٧/١)

وفي سنة ست عشرة حصل على السلطان مرض شديد حتى خيف عليه منه التلف واشرف منه على الهلاك وارجف بموته. فيروى إن القاضي جمال الدين محمد بن أبى بكر بن محمد اليحيوي راسل الملك الناصر جلال الدين محمد ابن الملك الأشراف بالأمور الباطنة وأمر أن ينشر دعوة إنابته من عمه وكتب الكتب إلى المدائن. فلما انتشر ذلك العلم خرج السلطان الملك المؤيد مسارعاً من تعز إلى الجند وهو في أثر الوعك فخشي ابن أخيه من ذلك فالتجأ إلى جبل سورق وهو جبل حصين مطل على مدينة الجند فجهز السلطان له العساكر وكان مقدمها الأمير جمال الدين نور بن حسن بن نور فحط عليه وأحاط بالجبل من كل ناحية فطلب الملك الناصر الذمة من السلطان فأذم عليه فنزل إليه على الذمة وحصل بينهما اتفاق وصلح. ويقال أنه عرف السلطان سبب ذلك وإن الذي حمله على ذلك الفعل إنما هو القاضي جمال الدين محمد بن أبى بكر اليحيوي فلما تحقق السلطان الأمر عزل القاضي جمال الدين عن القضاء واعتقله في حصن تعز وفوَّض أمر القضاء إلى القاضي رضي الدين أبي بكر بن أحمد بن عمر الأديب أحد الفقهاء الشافعية. وكان ذلك بمحضر من السلطان وجماعة كثيرة من فقهاء الجبال والتهائم فحصل الإجماع عليه. وكان فقيهاً فاضلاً له سلطة في العلم يعرف جانباً كبيراً من المعقولات والمنقولات مع حنكة وتجربة قد حلب الدهر أشطره.

وفي هذه السنة المذكورة توفق الفقيه الفاضل أبو حفص عمر بن علي الضفار من أهل عدن. وكان يصحبه بن الخطيب المقدم ذكره ولكن غلبت عليه الزهادة والعبادة وخلف شيخه في مسجده المعروف به في عدن فلا يكاد المسجد يخلو من درسة ومتعبدين. وكانت وفاته ليلة الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح علي بن أسعد بن علي الحراري. وكان فقيهاً زاهداً عابداً معتزلاً عن الناس كثير التلاوة ولم يزل على ما ذكرناه من حسن السيرة إلى أن توفي رحمهُ الله تعالى وكانت وفاته في السنة المذكورة.

وفي سنة سبع عشرة وصل القاضي أبو المحاسن عبد الباقي بن عبد المجيد من دمشق على طريق مكة بطلب من السلطان الملك المؤيد فناله من إحسانه ما صغر عنده إحسان من مضى من الأجواد الكرماء. وولي كتابة الإنشاء في المملكة اليمنية. وكان أوحد عصره وفريد دهره فصاحة وفضلاً

وسؤدداً ونبلاً. ومن شعره قوله يمدح السلطان الملك المؤَيد رحمة الله عليه وهو يومئذ في الإيوان بقصر الحائط المعروف بحائط لبيق

يا ناظم الشعر في نعم ونعمان ... وذاكر العهد في لبنا ولبنان
ومعمل الفكر في ليلى وليلتها ... بالسفح من عقدات الضال والبان
قصر فبالواد من وادي زبيد علاً ... عالي النار عظيم القدر والشان
به التغزُّل أحلى ما يرى لهجاً ... فدع حديث لييلات بعسفان
هذا الخورنق بل هذا السدير أتى ... في قصر داود لا في قصر غمدان
قصر بناه هزبر الدين مفتخراً ... فشاد ذلك بان أيما بان
فقف بساحته تنظر بها عجباً ... كم راحة هطلت فيها بإحسان
أنسى بإيوانه كسرى فلا خبر ... من بعد ذلك من كسرى بإيوان
سامي النجوم علاً فهي راجعة ... عن السمة " لإيوان " ابن غسان
تود فيه الثريا لو بدت سُرجًاً ... مثل الثريا به في بعض أركان
تحفه دوح دهر كله عجب ... كم فيه من فنن زاهٍ بأفنان
من أبيض يقق حال بأحمره ... يميس في حلتي در ومرجان
تجمعت فيه ألوان محيرة ... للعقل في سرها الزاهي بإعلان
إذا حللت به أبصرت معجزة ... الشام اصبح في واد بسيلان
فالسنبل الغض والورد الطري معاً ... من أخضر ناصع أو أحمر قان
صنوان حصن به من كل فاكهة ... وكم رأَى مختليه غير صنوان
ظل ظليل وماءُ سلسل غدق ... تخاله من صفاءٍ بطن ثعبان
هذا وكم فيه من ورقاء صادحةٍ ... يغنيك عود لها عن ضرب عيدان
كأنهنَّ قيان والقصور لها ... في ذلك الدست أوراق لأغصان
تهوى الغزالة لو أضحت مقبلةً ... منه مراشف أَنهار لنيسان
وكيف يمكنها والدوح منعقدُ ... فحالة الشمس عنه حال ظمآن
فأرضه كسماءٍ منه مشرقة ... وهاهما في بديع الوصف شبهان

(١٦٨/١)

توافق الناس في أوصافه فلذا ... لم يختلف قط في أوصافه اثنان
كان بنيان داود وبهجته ... صرح القوارير من آرا سليمان
أخفت مآثرهُ البادي نضارتها ... ما شاده تبَّعُ في رأْس غمدان
كم شاد من قصره العالي مراتبه ... في الفخر فاجتمعا في الجو فخران

لله موكبه الزاهي بَرَوْنقه ... لما استقلَّ بفرسان وشجعان
مثل البحور ولكن في اكفهم ... قواضب تتلالا مثل نيران
على المهمة ألقت التي ... قيد الأوابد من آل وسرحان
من كل أشهب صافي الجسم تنظره ... في الحرب نجماً هوى في إثر شيطان
بكل احمر زاهٍ في ملابسهِ ... يختال من لونها في نسج عقيان
وكل ادهم مثل الليل قد طلعت ... كالصبح غرته الغرَّا بإتقان
أَما الكميت اشربهُ ... سميه فبدا في حال نشوان
إذا مشوا في صباح عاد من رهج ... ليلاً كواكبه أطراف خرصان
على الأكف شواهين لمالكهم ... وهما صيد نسر فوق كيوان
كالصبح في أُخريات الليل هبتها ... والنرجس الغض منها وسط أجفان
مشفوعة بفهودٍ جلّ منظرها ... سليطة لا تُرى إلا لسلطان
قد ألبست حدق الغزلان فانبعثت ... مثل الجديدين في إفناء غزلان
ما سار مالك هذا الجمع مقتنصاً ... إلا انثنى ظافراً في ثوب جذلان

وهذه القصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا الذي ذكرناه وفي هذه السنة المذكورة دخل العسكر المنصور فلله وملكوها وضربت البشائر في سائر البلاد. وفيها وصل رسول صاحب هرموز بالهدايا والتحف فقابله السلطان بما يجب وأكرمه وأنصفه.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح المقري عبد الكريم بن إسماعيل وكان يسكن قرية الوجي بفتح الواو وكسر الجيم كسراً مشبعاً وهي على قربة من مدينة جبار كان هذا عبد الكريم عارفاً بالقراءات السبع أخذ عن الحداء وكان من صالحي زمانهم وأخيارهم ما قرأ عليه أحد إلا انتفع ولا حقق عليه أحد شيئاً فنسيه. وكان في أول الأمر نساجاً ينسج الثياب. وكان القارئ يقرأ عليه وهو يشتغل فلا يفوته من غلطه شيء. ثم ترك النساجة في آخر عمره واشتغل بالخياطة ولم يزل كذلك إلى أن توفي. وكان قوته من صنعته وربما جاءَه ضعيف فلم يرده خائباً. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح النجيب إسماعيل بن الفقيه الصالح أبى العباس أحمد بن الفقيه الصالح المشهور موسى بن الفقيه علي بن عمر بن عجيل. وكان فقيهاً محققاً عارفاً فرضيّاً ماهراً. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن الفقيه الإمام أبى الحسن علي بن الفقيه أحمد بن أسعد الأصبحي. وكان مولده يوم السابع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وستمائة. وكان تفقهه بابيه وكان رحمه الله عارفاً وهو الذي خلف والده في التدريس وعكف عليه أصحابه وحج بعد أبيه. ثم لما عاد من الحج أقام مدَّة. وكان للوزراء في بني محمد صيت في القرية فجعل علماؤهم يشوشون عليه ويؤذونه وربما دخل بعض علمائهم بيته وأخذ منه شيئاً فاشتكى بهم فلم ينصف منهم فخرج من

القرية مهاجراً إلى ناحية حجر فأقام في قرية الظاهر هنالك عند الفقيه عبد الرحمن فاقبل أهل تلك الناحية على الفقيه إقبالاً حسناً فأقام هنالك عدة سنين إلى أن توفي القاضي موفق الدين الوزير وابنا أخيه علي بن محمد ومحمد بن احمد. واستمر ابن الأديب في القضاء الأكبر كما ذكرنا فأمره في المدرسة المنصورية بتعز وهي التي تعرف بالغرابية. فأقام فيها مدة ثم فصله فعاد إلى بلاده فتوفي بها في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الصالح العابد أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أُسيد بضم الهمزة وفتح السين وسكون الياء وآخره دال مهملة بن أسحم بفتح الهمزة ويكون السين وفتح الحاء المهملة وآخره ميم. كان فقيهاً عابداً صالحاً حبراً توفي في السنة المذكورة رحمه الله.

(١٦٩/١)

وفيها توفي الفقيه البارع احمد بن أبي بكر المعروف بابن الأحنف. وكان ميلاده سنة إحدى وأربعين وستمائة سمي أبوه بذلك لحنف كان به تفقه بعباس بن منصور وغيره من فقهاء جبلة وله مصنفات مفيدة في التفسير واللغة والحديث. وكان عارفاً حافظاً نقالاً للمذهب درس في المدرسة الشرقية ثم انتقل إلى المؤَيدية بتعز فدرس بها وانتفع به جماعة ثم عاد إلى بلده جبلة فتوفي بها لعشر بقين من جمادى الآخر سنة سبع عشرة من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل إبراهيم بن عمر بن إبراهيم المذحجي الجبيري نسبة إلى جدله اسمه جبير تصغير جبر بالجيم والباء الموحدة. وكان فقيهاً فاضلاً تفقه في ابتدائه ببعض فقهاء حبر ثم بعثمان بن عبد الله وابن عمه عبد الله بن عمر الإسحاقيين. وكان يسكن معشار حصن ثمين في قرية يقال لها نابه. وتوفي في قريته المذكورة في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو بكر محمد بن الفرسي الملقب بالفخر. وكان مولده في المحرم سنة ست وخمسين وستمائة. وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً لطن يعلم الحساب كأبيه وأخذ هذا العلم عنه. وكان رجلاً عاقلاً لبيباً قلما قصده قاصد أمر إلا وأعانه بما يليق من الأمور. وحصل بينه وبين الوزراء في الدولة المؤَيدية ألفة ومحبة فاجتلبوه إلى خدمة السلطان الملك المؤّيد والوقوف على بابه. فلم يزل كذلك إلى سنة ست عشرة وسبعمائة ثم حصل على القاضي جمال الدين محمد بن أبي بكر ما ذكرنا من العزل والاعتقال وتعدى الأمر إلى أصحابه وأصحاب أهله. وكان هذا المذكور في عدن فاستدعاه السلطان إلى تعز وأحضر من تكلم عليه بأنه تكلم في الدولة. ووافق ذلك كراهة من السلطان له فبعث إلى نائب لحج وأمره بمصادرته فصادره مصادرة شاقة وعذبه عذاباً شديداً. ثم حصل من استعطف له قلب السلطان فأمر باطلاعه إلى تعز. فطلع وهو الميم من شدة الضرب فتوفي بالهشمة في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه شرف الدين احمد بن الفقيه علي الجنيد بن الفقيه أحمد بن الفقيه محمد بن منصور بن الجنيد وكان مولده في صفر من سنة تسع وخمسين وستمائة. وكان فقيهاً حافظاً حاذقاً عارفاً تولى إعادة الأسدية في مدينة تعز بعد أن كان أبوه فقيهاً. وكان الفقيه أبو بكر بن محمد بن عمر اليحيوي يحسن النظر في حاله وحال اخوته مراعاة لصحبة أبيهم ثم إن السلطان الملك المؤَيد دعته نفسه إلى القراءة في أيام أبيه الملك المظفر فسأل عن فقيه صالح فارشد إلى الفقيه محمد بن عباس الشعبي. فسأَله أن يقرئهُ فاعتذر وأشار إلى هذا ابن الجنيد. فاستدعاه المؤَيد وعرفه بغرضه فقال له أشتور والدي يعني الفقيه أبا بكر بن محمد بن عمر اليحيوي فقال له ألم تذكر لنا إن والدك قد توفي فاخبره بمن يعني فاستشار الفقيه. فأشار عليه فقرأَ عليه المؤَيد فحصل بينهما من الألفة والمحبة والأنس ما حصل بحيث صار يركب بركوب السلطان. وطلع معه إلى صنعاء على بغلة بزنار كما يركب الوزراءِ وكان الناس في صنعاءَ يقبلون بابه ويصيحون عليه. ولم يزل معه حتى سافر إلى الشحر بسنة أربع وتسعين وستمائة. فلما توفي المظفر وحصل من الأشراف المؤَيد ما حصل من النزاع واسر الملك المؤَيد تفرق أصحابه فلحق هذا بشيخه فأقام عند الفقهاء بني النخلي. فلما صار الملك إلى الملك المؤَيد وصل إليه الفقيه ورجع على حالته الأولى. ولم يزل على شفقة المؤَيد وكان فقيهاً أصولياً نحوياً لغوياً. وله في الشعر يد حسنة وله في التصوف كلام مرضي ولأهل السمكر فيه اعتقاد حسن. وتوفي يوم الأربعاء ثاني عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو عيسى محمد بن خليفة وكان فقيهاً كبيراً متورعاً ما قرأَ عليه أحد إلا انتفع وربما بلغ طريقة الاجتهاد أو قريباً منها وكان يلبس الملابس الفقهية قاصداً بذلك تعظيم العلم وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٧٠/١)

وفيها توفي الفقيه الفاضل هارون بن عثمان بن محمد علي الحسائي ثم الحميري وكان فقيهاً ورعاً زاهداً له مسموعات ومقروءات وكان ذا دين وأمانة وورع وزهد وكان كثير الحج وكان فيه من المعروف ومحبة العلم وكان حريصاً على اكتساب الحل فبورك له في ذلك. وتوفي على الطريق المرضي وهو عائد من الحج في قرية تعرف بقنونا في أول المحرم أول السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي سنة ثماني عشرة وسبعمائة وصل القاضي صفي الدين عبد الله بن عبد الرزاق الواسطي يطلب حب من السلطان وصرف السلطان عليه إلى حال وصوله من الذهب العين نحواً من ألفي مثقال. فلما وصل كما ذكرنا صرف السلطان إليه شد الاسْتيفاءِ وحظي عند السلطان حظوة عظيمة وانبسطت يده في الدواوين وكان زوجاً لابنه الأمير علاء الدين كشدغدي وهو الذي عينه السلطان

فسار بالناس سيرو عفيفة ثم توجه إلى عدن فحمل منها إلى السيد الخزانة المعمورة بثلاثمائة ألف دينار ملكية. فلما وصل بها لقي السلطان في الجند فأكرمه وأنصفه وعظم قدره.

وفي هذه السنة توجهت الرسل إلى مصر وهم الأمير بدر الدين حسن ابن الأسد ومن جرت العادة بمسيره في خدمته فقابلهم السلطان الملك الناصر أحسن مقابلة.

وفي هذه السنة رتب الأمير علاء الدين كشدغدي عساكر السلطان المنصورة على ترتيب العساكر المصرية. وجعل لها جناحاً للميمنة وجناحاً للميسرة. وجعل خلف السلطان عصائب كثيرة. وركب المماليك بالنفخ وجعل منهم طائفة طبردارية وركب السلطان بهذا الزي.

وفي هذه السنة توفي الفقيه الفاضل أبو محمد الحسن بن علي بن الفقيه يحيى بن ألفيه فضل وكان يسكن قرية المنظاري ويدرس في مدرسة بنتها امرأة ووقفت عليها وقفاً جيداً. وكان صاحب دنيا واسعة فلما خشي من الظلمة على نفسه وعلى المدرسة لاذ بالفقيه أبى بكر بن محمد بن عمر اليحيوي. وتزوج ابنة أخيه عمر. وكان مستقيم الحال بذلك حتى هلك الوزير واخوته وانحطت حالهم. فحصل عليه بعض تعسف فلما جعل والد الفقيه أبى بكر قاضي القضاة. وأقام ما أقام في القضاءِ ثم فصل بابن الأديب صودر هذا الفقيه وحبس وعزر وجرى عليه شيءُ كثير. فلم تظل مدته بعد ذلك بل توفي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أسعد الأصبحي أخو الإمام علي بن أحمد الأصبحي صاحب كتاب المعين. وكان مولده في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وتسعين وستمائة تفقه في بدايته بأخيه. ثم ارتحل إلى أبين فقرأ على الفقيه أبى بكر بن الأديب وتفقه في أبين وعدن ولحج وكان يتردد من هذه القرى للقراءة عليه. وانتفع بالقراءَة عليه انتفاعاً كليّاً. أخذ عنه المهذب والتنبيه والوسيط واللمع ثم عاد بلده وأقام في المسجد بالذنبتين فقرأ مدة ثم اشتد به الفقر فعاد إلى تعز فدرس بها في عدة من مدارسها. وفي آخر الأمر درس في مدرسة الحميرا. وكان متنسكاً تقياّ له دين متين ولم تعرف له صبوة. وكان من أهل المروءات. وتوفي يوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي القاضي يعقوب بن أحمد بن الفاضل تفقه بابن الصريدح ثم بعبد الله بن إبراهيم بن علي بن عجيل وأخذ الفرائض عن الفقيه علي بن أحمد الحميري. ثم ولاه القاضي علي بن محمد بن عمر قضاء المحالب وهو شاب فكان يحكى عنه سيرة المعجبين. ولما صار القضاء إلى محمد ابن أبي بكر عزله وصادره مصادرة شديدة فأقام مريضاً في القحمة عقيب المصادرة إلى أن توفي وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه البارع المحقق منصور بن علي بن عمر بن إسماعيل بن زيد بن يحيى العزيزي لقباً الشعبي نسباً. وكان فقيهاً عارفاً مجوداً شجاعاً له بصيرة في الصناعات كالخياطة والنجارة وغيرهما. وكان يقول الشعر أيضا وله قصيدة حسنة في المعتقد يتبرأ فيها من كل معتقد يخالف الكتاب والسنة وعرضها على الفقيه صالح بن عمر البريهي فارتضاها وأخذها عنه بان ترك بعض

أصحابه يقرؤُها بحضرته وحضرة جماعة من أصحابه حينئذ واستخاروها منه. وكان قد أتقن النحو واللغة والفرائض والأصول والحساب. وامتحن في آخر عمره بقضاء الدملؤة من قِبل ابن الأديب وأَقام عليه مدة مقتربة ثم توفي في مستهل المحرم أول السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

(١٧١/١)

وفيها توفي أخوه محمد بن علي بن عمر وكان ممن يخدم الدولة المؤَيدية كاتب إنشاء وكانت له درية ثاقبة ويقول شعراً حسناً. وكان محب أبناء جنسه من الفقهاء والطلبة ويعتني بحوائجهم توفي في مستهل رجب من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عفان عثمان بن محمد المعروف بالشرعبي وكان فقيهاً ظريفاً تفقه بمحمد بن علي القاضي وبابن عباس الشعبي. قال الجندي وعنه أخذت غالب فقهاء تعز. وكان قد ألف في ذلك كتاباً مختصراً قلما أخبرته بما جمعت أعجبه ذلك وأعطاني ما قد جمعه فوجدته قد ذكر منهم جمعاً كثيراً لكنه لم يذكر ميلاداً ولا وفاة. وكان من خيار الفقهاء وأعيانهم وممن يرجى بركة دعائه. وكان جميل الخلق كثير البشاشة درَّس في المدرسة الأسدية التي في تعز مدة طويلة. وكانت وفاته ليلة الأحد السابع من صفر من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفيت الجهة الكريمة جهة دار الدملؤَة ابنة مولانا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول وهي التي تسمى نبيلة. وكانت امرأَة صالحة تقية بارة بأهلها محسنة إلى من لاذ بها وابتنت مدرسة في مدينة تعز ومسجداً في جبل صبر وابتنت مدرسة في مدينة زبيد وهي التي تسمى الأشرفية في جنوبي مسجد الميلين ووقفت على الجميع أوقافاً تقوم بكفاية الكل. وكانت مقيمة في حصن تعز حتى حصل بين المؤَيد أخيها وبين ابن أخيه الناصر بن الأشرف ما حصل فاستوحش السلطان منها فأمرها بسكنى المدينة فنزلت من الحصن وسكنت في ناحية المعزية من مدينة تعز إلى أن توفيت وكانت وفاتها في منتصف المحرم من السنة المذكورة رحمها الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل يوسف بن محمد بن مضمون. وكان قد ولي قضاء عدن من قبل بني محمد بن عمر فأقام على ذلك سنين ثم فصلوه وأقاموا عوضه الفقيه أبا بكر بن الأديب بن مضمون على حساب مال المستودع ومعرفة ما قبض منه وما صرف فقال له القاضي محمد بن علي بن مياس هذا أمر ليس إليك وهذا يروح إلى من ولاه يفتصل معه فخرج من عدن على كرهٍ منه فأقام مدة ثم أمره قاضي الأقضية قاضياً في صنعاء فلم يزل بها إلى أن ولي ابن الأديب القضاء الأكبر فعزله عن صنعاء فرجع إلى بلاده متولياً بعض جهاتها فأقام بها إلى أن توفي في مستهل جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله يحيى بن محمد بن يحيى بن الرخا ابن الحنان بن أبى القسم الحميري. وكان مولده سنة أربع وستين وستمائة. وكان فقيهاً عارفاً تفقه بأبيه غالباً ودرَّس في أماكن

كثيرة منها مصنعة سير ثم درّس في مدرسة الحرة جلل بنجلان ثم انتقل إلى مدرسة أضراس فلم يزل بها إلى أن توفي غريقاً في البحر قاصداً للحج في شهر رمضان من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه الفاضل عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أبى الخل.

وكان فقيهاً عارفاً بالتفسير والحديث وعلم الحقيقة طلع إلى تعز مع جماعة من أهله يشكون من بعض عمال المهجم إلى السلطان الملك المؤَيد فأشكاهم بعض الأشكاء ثم رجعوا قاصدين بلدهم فمرض في الطريق فوصلوا به حبيش وقد توفي في ثناء الطريق فقبر عند ابن عمه احمد بن الحسن وكانت وفاتهُ في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه البارع أبو الخطاب عمر بن أحمد بن عبد الله بن جعمان. وكان فقيهاً بارعاً وغلب عليه علم الفرائض وكان فيه محموداً توفي عائداً من الحج في مدينة حَلْى ابن يعقوب. وكانت وفاته في السنة المذكورة رحمهُ الله تعالى.

(١٧٢/١)